

مكتبة

٧٢٩

إقناع

جَيْن أَوْسْتِن

ترجمة
إيناس التركي



إقناع

جين أوستن

دار الرافدين

مكتبة 729

telegram @t_pdf

كلمة الغلاف

قِصَّةُ حُبِّ خَرِيفِيَّةٍ. هذا ما تُوصَفُ به روايةُ جين أوستن "إقناع" ذلك أنَّها آخرُ أعمالها المكتملة، والشَّخصيَّاتُ الرَّئيسةُ فيها ليست في زهرة الشَّباب. صحيحٌ أنَّ روايتها "كبرياء وتحامل" تحفةٌ فنيَّةٌ محبوبَةٌ عالميًّا، ولكنَّ "إقناع" لا تقلُّ عنها روعةً. إنَّها تصوُّرٌ رائعٌ لقِصَّةِ امرأةٍ أَحَبَّتْ، ثُمَّ أَضَاعَتْ حُبَّهَا، ثُمَّ حَصَلَتْ عَلَى فُرْصَةٍ ثَانِيَةٍ لاسْتِعَادَةِ ذَلِكَ الْحُبِّ. فَهَلْ سِيَحْمَلُ الْمُسْتَقْبَلُ لِلْعَاشِقَيْنِ السَّعَادَةَ الَّتِي حُرِّمَ مِنْهَا سِنَوَاتٍ طَوَالاً؟ تَطْرَحُ هَذِهِ الرَّوَايَةُ الْمَدْهَشَةُ هَذَا السُّؤَالَ وَأَسْئَلَةً أُخْرَى عَدِيدَةً لِنَ تَشْكَلُ إِجَابَاتُهَا مَفَاجَأَةً لِلْقَارِئِ، وَلَكِنَّهَا سَتَمُنَحُهُ تَجْرِبَةُ قِرَاءَةٍ هَادِئَةٍ وَمَمْتَعَةٍ لِأَخْرِ مَا كَتَبَتْهُ جِين أَوْسْتِن قَبْلَ وَفَاتِهَا.

كان السَّير والتر إليوت، صاحبُ قصر كيلينتش في مقاطعة سومرست، رجلاً لا يقرأ أيَّ كتابٍ، عندما يرغب في التَّسرية عن نفسه، سوى ذلك الكتاب الذي يضمُّ قائمةً بالألقاب وتفاصيل أُسر النبلاء. فقد كان يجد فيه وسيلةً للتَّسلية في أوقات الفراغ، وعزاءً في أوقات الشَّدَّة. كان عقله يتنبَّه، وتغمره مشاعر الإعجاب والتَّقدير عندما يتأمَّل القلَّة القليلة الباقية من النبلاء القُدَّامى. وكانت أيُّ مشاعر سلبية ناتجة عن إدارة شؤون المنزل تتحوَّل بطبيعة الحال إلى مشاعر أسفٍ وازدراءٍ وهو يقلِّب الصَّفحات التي تحوي الألقاب التي مُنحت خلال القرن الماضي، والتي تبدو وكأنَّها بلا نهاية. وفي حال فقدت جميع الصَّفحات الأخرى تأثيرها، كان بوسعه دومًا أن يقرأ تاريخه هو، باهتمامٍ لا ينضب أبدًا؛ فقد كانت هذه هي الصَّفحة التي يُبقي مجلَّده المفضَّل مفتوحًا عليها على الدَّوام:

إليوت صاحبُ قصر كيلينتش

والتر إليوت، وُلِدَ يوم 1 مارس عام 1760.

تزوَّج يوم 15 يوليو عام 1784 من إليزابيث، ابنة جيمز ستيفينسون المبحِّل، صاحب عزبة ساوث بارك في مقاطعة جلوشستر. أنجبت له

السَّيِّدَة (التي توفّيت عام 1800) إليزابيث المولودة يوم 1 يونيو عام 1785، وآن المولودة يوم 9 أغسطس عام 1787، وابنًا وُلد ميتًا يوم 5 نوفمبر عام 1789، وماري المولودة يوم 20 نوفمبر عام 1791.

انتهى المقطع عند هذا الحدّ على يد عامل المطبعة، إلّا أنّ السَّيْر والتر أضاف إلى تلك المعلومات الخاصّة به وبأسرته الكلمات التّالية، بعد تاريخ ميلاد ماري: « تزوّجتُ يوم 16 ديسمبر عام 1810 من تشارلز، ابن ووريث تشارلز ماسجروف المبجل، صاحب عزبة أبركروس في مقاطعة سومرست»، كما أضاف بدقّة تاريخ اليوم والشَّهر الذي توفّيت فيه زوجته.

تلا ذلك تاريخُ وتطوُّر الأسرة العريقة المحترمة بالأسلوب المعتاد: كيف استقرُّوا في بادئ الأمر في مقاطعة تشيشير، وكيف ذكر السَّيْر ويليام دوجديل الأسرة في كتابه الذي يعدّد فيه نبلاء القرن السَّابع عشر، حيث تقلّدوا مناصب القضاء، ومثّلوا البلدة في ثلاث دوراتٍ برلمانيّة متتالية، وأظهروا الولاء، وحازوا لقب «بارونيت» في العام الأوّل من عهد تشارلز الثَّاني، مع ذكر جميع السَّيِّدات اللَّاتي يحملن أسماء ماري وإليزابيث ممّن تزوّجا منهنّ. وقد شكّل كلُّ ذلك صفحتين كبيرتين من الكتاب انتهتا

بشعار النبالة الخاصّ بالأسرة مع عبارة: «سكن الأسرة، قصر كيلينتش في مقاطعة سومرست». وقد ذيل السّير والتر هذا المقطع بخطّ يده مرّةً أخرى:

«الوريث المفترض، ويليام والتر إليوت المبجل، ابنُ حفيد السّير والتر الثاني».

كان الغرور هو الأساس الذي تقوم عليه شخصيّة السّير والتر إليوت؛ الغرورُ بنفسه، وبوضعه الاجتماعيّ. فقد كان بالغ الوسامة إبّان شبابه، وفي سنّ الرّابعة والأربعين، كان ما يزال رجلاً في غاية البهاء. قلّة من النّساء فحسب كنّ ينشغلن بمظهرهنّ كما ينشغل هو بمظهره. كما لا يمكن أن تضاهي فرحةً خادم أيّ لوردٍ حاز اللّقب حديثاً فرحته هو بالمكانة التي يحوزها في المجتمع. كان يؤمن بأنّ نعمة الجمال لا يفوقها أهميّة سوى نعمة حمل لقب بارونيت. وقد كان السّير والتر إليوت، الذي جمع هاتين التّعنتين معاً، محلّ احترامه وإعجابه الدّائمين.

استحقّت وسامته ومنزلته الاجتماعيّة نصيباً وافراً من إعجابه ذاك؛ إذ إنّهُ يدين لهما بزواجه التي كانت شخصيّتها تفوق كثيراً ما تستحقّه شخصيّته هو. كانت الليدي إليوت سيّدةً رائعةً، عاقلةً وودودةً، وباستثناء ذلك الوله

الذي انصاعت له في شبابها، والذي جعلها تحمل لقب الليدي إليوت، فإنّها لم تتساهل أبداً في حكمها على الأمور، ولا في سلوكها بعد ذلك. كانت تسير عيوبه، أو تحدّ منها، أو تخفيها، وتعزّز من احترامه في المجتمع، طوال سبعة عشر عاماً. ومع أنّها لم تكن من أكثر الأشخاص سعادة، إلّا أنّها وجدت في واجباتها وأصدقائها وأطفالها ما يكفي لتعلّق بالحياة، وتتمسّك بها، عندما حان أجلها. كانت الفتيات الثلاث، واللاتي يبلغ عمر الكبيرتين منهنّ السادسة عشرة، والرابعة عشرة من العمر، ميراثاً ثقيلاً تخلّفه الأمّ، ومسؤوليّة كبيرة تكلفها إلى سلطة إرشاد أبٍ مغرورٍ تافه. ولكن، كانت لها صديقةٌ واحدةٌ مقربةٌ، امرأةٌ عاقلةٌ وفاضلةٌ، دعاها تعلقها الشديد بها إلى الانتقال للسكن على مقربةٍ منها، في قرية كيلينتش. اعتمدت الليدي إليوت على كرمها ونصائحها التي كانت لها عوناً في الحفاظ على المبادئ الطيّبة، وعلى التّعاليم التي كانت تحرص على توجيهها لبناتها.

وبخلاف توقّعات معارفهما حول هذا الشّأن، لم يرتبط السيّر والثر وصديقتها تلك بالزّواج. مرّت ثلاث عشرة سنةً منذ وفاة الليدي إليوت، وكانا ما يزالان جارين مقربين، وصديقين حميمين. بقي الأوّل أرملاً، والأخرى أرملة.

لم تكن الليدي راسيل في حاجةٍ إلى اختلاق أعذارٍ أمامَ العامّة لتبرّر عدم زواجها مرّةً ثانية، مع أنّها كانت متوسّطة العمر، وورصينة الشّخصيّة، ومستقرّة الأحوال الماديّة، ذلك أنّ عامّة النّاس كانوا عادةً ما يستأوون عندما تتزوّج المرأة ثانية، لا عندما تُعرضُ عن الزّواج. ولكنّ امتناع السيّر والتر عن الزّواج مرّةً أخرى كان في حاجةٍ إلى تبرير. ليكن من المعلوم، إذن، أنّ السيّر والتر، مثل أيّ أبٍ صالحٍ (بعد أن واجه خيبة الأمل مرّةً أو مرّتين في بعض طلبات الزّواج غير المعقولة) كان يشعر بالفخر لبقائه دون زواجٍ لأجل مصلحة بناته العزيزات. كان على استعدادٍ للتّخلي عن أيّ شيءٍ لأجل واحدةٍ منهنّ بالتّحديد، وهي الكبرى، ولكنّ الظروف لم تضطرّه لذلك.

في سنّ السادسة عشرة، ورثت إليزابيث كلّ ما يمكنها أن ترثه من حقوق والدتها ومنزلتها الاجتماعيّة. ولأنّها كانت بالغة الجمال، وذات شخصيّة تشبه شخصيّة تامّا، كان لها على الدّوام تأثيرٌ كبيرٌ عليه، ولطالما اتّفقا في كثيرٍ من الأمور. أمّا ابتناه الأخريان فكانت منزلتهما عنده أدنى بكثيرٍ.

اكتسبت ماري بعض الشّأن عندما أصبحت تحمل لقب السيّدة تشارلز ماسجروف. أمّا آن، بتفكيرها الرّاقى وعدوبة شخصيّة اللّذين كانا كفيّلين

بجعلها تحظى بدرجةٍ عاليةٍ من التّقدير من أيّ شخصٍ ذي بصيرةٍ حقيقيّةٍ، فكانت لا تحظى بأيّ مكانةٍ على الإطلاق لدى والدها وشقيقتها، ولم يكن لرأيها أيّ وزنٍ. لقد كان من السّهل دومًا إهمالها؛ فلم تكن أكثر من مجرد آن.

أمّا بالنّسبة إلى اللّيدي راسيل، فقد كانت آن تمثّل ابنةً رويّةً عزيزةً وغاليةً، وصديقةً أثيرةً. كانت اللّيدي راسيل تحبّهنّ جميعًا، ولكنّها لم تكن تتخيّل شخصيّة أمّهنّ حيّةً ثانيةً سوى في شخصٍ آن.

قبل بضع سنواتٍ خلّت، كانت آن إليوت فتاةً فائقةً الجمال، ولكنّ زهرة شبابها ذوت مبكرًا. ولأنّ والدها، حتّى وهي في أوجها، لم يكن يرى فيها ما يستحقّ كثير إعجابه (كانت ملامحها الرّقيقة، وعيناها الهادئتان الدّاكنتان، تختلف كليًا عن ملامحه)، فإنّه لم يعد هناك ما يستحقّ منه التّقدير الآن وقد صارت شاحبةً ونحيلةً. لم يكن يعلّق عليها أملاً كبيرًا في السّابق، ولكنّ آماله انعدمت تمامًا الآن في أن يقرأ اسمها مدوّنًا على صفحات كتابه المفضّل. تعلّقت كلّ آماله الباقية على إليزابيث في مصاهرة أسرة من مكانتهم الاجتماعيّة نفسها؛ فقد تزوّجت ماري من أسرةٍ ريفيّةٍ عريقةٍ تتمتع بالاحترام والثّراء، ولذا فقد منحتهم هي كلّ شرف المصاهرة،

ولم تحصل على أيّ شرفٍ في المقابل. ولكنّ إليزابيث سترتبط بزواج ملائم، يومًا ما.

قد يحدث أحيانًا أن تكون المرأة في التاسعة والعشرين من عمرها أكثر جمالًا ممّا كانت عليه قبل عشر سنواتٍ. وبصفةٍ عامّةٍ، إنّ لم تكن قد أصيبت بالمرض، أو حملت على عاتقها همومًا، فإنّها لن تخسر الكثير من سحرها في هذه المرحلة من العمر. وهكذا كان الحال مع إليزابيث؛ فقد ظلّت الآنسة إليوت الجميلة نفسها التي كانتها قبل ثلاثة عشر عامًا. ولذلك، فإنّه من الممكن أن يتفهّم المرء كيف كان السيّر والتر ينسى كم تبلغ من العمر، أو أن يعدّه، على الأقلّ، أحمق قليلًا لاعتقاده أنّه وإليزابيث كانا ما يزالان يتمتّعان بطلّتهما البهيّة وسط التدهور البادي على ملامح الآخرين جميعًا. ذلك أنّه كان يرى بوضوح آثار الزّمن على بقيّة أسرته ومعارفه. بدا على آن الإنهاك، كما بدت الخشونة على ماري، بينما شاخت ملامح قاطني الحيّ قاطبةً. وكانت التّجاعيد الصّغيرة المتزايدة على صدغي اللّيدي راسيل مبعثَ حزنٍ بالغٍ له.

لم تكن إليزابيث تشعر بالرّضا عن الدّات بالدرّجة نفسها التي يشعر بها والدّها. ظلّت طوال ثلاثة عشر عامًا تلعب دور سيّدة قصر كيلينتش؛

فتشرف على الأمور، وتديرها بثقةٍ وحزم، ولا توحى أبدًا بأنّها أصغر سنًا ممّا كانت عليه بالفعل. ظلّت طوال ثلاثة عشر عامًا تقوم بتلك المهمّة: تضع قوانين المنزل، وتسير في المقدّمة عندما يتوجّهون نحو عربتهم الصّغيرة التي تجرّها أربعة خيولٍ، وتتبع الليدي راسيل مباشرةً عند خروجها من جميع الصّالونات، وغرف الطّعام في البلاد. شهّدتها ثلوجُ ثلاثة عشر شتاءً متتاليةً وهي تفتّح كلّ حفلٍ راقصٍ ذي شأنٍ يمكن أن يُقام في مثل حيّهم البسيط. وأيّعت زهورُ ثلاثة عشر ربيعًا وهي في طريقها للسّفر إلى لندن مع والدها، حيث يقضيان بضعة أسابيع كلّ عامٍ للاستمتاع بالعالم الأكبر هناك. كانت تذكر كلّ هذا، وتعي تمامًا أنّها في التّاسعة والعشرين من العمر، ممّا أصابها ببعض النّدم والقلق. كانت تشعر بالرّضا لاحتفاظها بجمالها، ولكنّها أحسّت باقتراب سنوات عمرها الحرجة. لكّانتُ شعرتُ بالفرح لو اطمأنتُ أنّ هناك رجلًا يحمل في عروقه دماء بارونيت سيتقدّم للزّواج منها خلال العام أو العامين القادمين. ربّما يمكنها حينئذٍ أن تمسك بأهمّ كتابٍ وسط الكتب جميعها بالمتعة نفسها التي كانت تمسكه بها في شبابها المبكر، ولكنّها لم تعد تحبُّ أن تفعل ذلك الآن. ولأنّها كانت ترى تاريخ ميلادها أمام عينيها على الدّوام، دون أن يعقب ذلك ذكرٌ لزواجها، بل ذكرٌ لزواج شقيقتها الصّغرى فحسب، شعرتُ أنّ الكتاب بات يمثّل شرًّا بالنّسبة إليها.

وفي أكثر من مناسبة، حين كان والدها يتركه مفتوحًا على الطاولة بجوارها، كانت تغلقه مُشيحةً بنظرها عنه، وتدفعه بعيدًا.

كانت قد أُصِبت بخيبة الأمل التي ظلَّ الكتاب، وخاصةً تاريخ أسرتها، يذكِّرها بها. فقد خيَّب آمالها الوريث المفترض، ويليام والتر إليوت المبجل الذي دعم والدها حقوقه بكرم بالغ.

انتوت الزَّواج به مُذْ كانت فتاةً صغيرةً بمجرد ما علمت أنَّه هو من سيصير البارونيت القادم في حال لم تُرزَق هي بشقيق، كما انتوى والدها أيضًا الأمر ذاته. لم تسنح لهما الفرصة بالتعرُّف به حين كان صبيًّا، ولكن بعد وفاة الليدي إليوت بفترة قصيرة، سعى السير والتر للتعرف به. ومع أنَّ محاولاتِه لم تلقَ ترحيبًا، ثابر في سعيه ملتمسًا له العذر في خجل الشَّباب. وفي واحدةٍ من رحلاتهما الربيعية إلى لندن - عندما كانت إليزابيث ما تزال في ريعان شبابها - أرغم السيّد إليوت على اللقاء.

كان شابًّا صغيرًا للغاية آنذاك، وقد شرعَ للتَّو في دراسة القانون. وجدته إليزابيث جذابًا للغاية، وترسَّخت لديها كلُّ نواياها بشأنه. وجَّهت له الدَّعوة إلى قصر كيلينتش، وتحدَّثا عنه، وتوقَّعا زيارته طوال ذلك العام، ولكنَّه لم

يأت أبدأ. وفي الرّبيع التّالي، التقته ثانيةً في لندن، ووجدته على القدر نفسه من الجاذبيّة، ورخّبا به ثانيةً، ووجّها له الدّعوة، وتوقّعا زيارته، ولكنّه لم يأت هذه المرّة أيضًا. في المرّة التّالية التي سمعا فيها أخبارًا عنه، بلغهما أنّه تزوّج. فعوضًا عن أن يبحث عن مستقبله في الخطّ المرسوم له كوريث آل إليوت، اشترى استقلاله عنهم بزواجه من امرأةٍ ثريّةٍ أدنى منه في المنزلة الاجتماعيّة.

أحسن السّير والتر بالاستياء؛ فبصفته ربّ الأسرة، شعر أنّه كان من الواجب استشارته في الأمر، خاصّةً بعد أن أظهر مسؤوليّته عن الشابّ إلى هذا الحدّ أمام الملاء. فكّر أنّهما لا بدّ وأن يكونا قد شوهدا معًا. مرّةً في مزادٍ لبيع الخيول، ومرّتين في ردهةٍ مجلس العموم. عبّر عن استنكاره، ولكنّه لم يلق أيّ اكتراث. فلم يقدّم السيّد إليوت أيّ اعتذار، ولم يبدُ عليه أيّ اكتراثٍ بتجاهل الأسرة له؛ ذلك أنّ السّير والتر لم يعد يراه جديرًا بالاهتمام. وانقطعت الصّلة بينهما تمامًا.

كان تاريخها المحرج هذا مع السيّد إليوت، حتى بعد مرور بضع سنواتٍ، ما يزال مثارَ حنقٍ لإليزابيث. فقد كانت معجبةً بالرجل لشخصه هو، وزاد إعجابها به كونه وريث والدها. وبدافعٍ من اعتزازها بأسرتها، لم تكن ترى

في أيّ شخصٍ سواه زوجًا ملائمًا للابنة الكبرى للسير والتر إليوت. لم يكن هناك أيّ بارونيتٍ آخر تشعر حياله أنّه ندُّ لها من الألف إلى الياء. ولكنّ سلوكه بدا مزريًا لدرجة أنّها لم تعدّ تعدّه يستحقّ التفكير ثانيةً، مع أنّها كانت في اللّحظة الرّاهنة (في صيف 1814) ترتدي شريطًا أسود حدادًا على زوجته. ربّما كان من الممكن تناسي خزي زيجته الأولى تلك، خاصّةً وأنّه لم يكن هناك ما يدعو للاعتقاد بأنّ الزّيجة قد أثمرت أيّ أولاد، لو لم يفعل ما هو أشنع من ذلك؛ فبعض الأصدقاء الكرام تدخلوا في الأمر، وأبلغوهم أنّه تحدّث عنهم جميعًا بطريقةٍ تفتقر إلى الاحترام، وأنّه استخفّ واستهزأ بالأسرة التي ينتمي إليها، وبالمكانة والشرف اللّذين كانا سيؤولان إليه في نهاية المطاف. وهذا أمرٌ لا يمكن غفرانه.

كانت هذه هي مشاعر إليزابيث وأحاسيسها؛ وكانت تلك الهموم، وذلك السُّخط، هما ما يغيّران من رتابة حياتها اليوميّة بأناقتهما، وثراء وفراغ الدّائرة المحيطة بها. أضفت مشاعرها تلك بعض الإثارة على فترات إقامتها الطّويلة وسط دائرةٍ ريفيّةٍ محدودةٍ لا تشهد أيّ أحداث، وملاّت أوقات فراغها عندما لم يكن هناك ما يمكنها أن تفعله في الخارج، أو ما يمكنه أن يشغلها داخل المنزل.

ولكن إلى جانب هذا، باتَ هناك أمرٌ آخر الآن يشغل بالها ويشير اهتمامها. فقد صار والدها ينقصه المال. كانت تعرف أنَّه عندما يمسك بالكتاب الآن فإنَّه يفعل ذلك لكي يطرد من عقله التَّفكير في الفواتير الثَّقيلة التي يدين بها لأصحاب المتاجر الذين يتعامل معهم، وفي تلميحات وكيل أعماله السيِّد شيرد غير المرغوب فيها. كان قصر كيلينتس في حالةٍ جيِّدةٍ، ولكنَّه لم يرق إلى المستوى الذي كان السيِّر والتر يعتقد أنَّه يجب أن يتوقَّر لمالكه. عندما كانت الليدي إليوت على قيد الحياة، سارت الأمور بنظامٍ واعتدالٍ واقتصادٍ، بحيث كان يحيا في حدود دخله. ولكن برحيلها رحل التَّفكير السَّليم؛ ومنذ ذلك الحين بات إنفاقه يتجاوز حدود دخله. لم يكن بمقدوره الإنفاق بمعدَّلٍ أقل، فهو لم يفعل أيَّ شيءٍ سوى ما يتوجَّب على السيِّر والتر إليوت أن يفعله. ومع أنَّه لم يخطئ في شيءٍ، إلَّا أنَّ ديونه تضخَّمت بشكلٍ رهيبٍ، وصار الأمر مصدر إزعاجٍ له، لدرجةٍ لم يعد يُجدي معها محاولة إخفائه لوقتٍ أطول - ولو بصورةٍ جزئيةٍ - عن ابنته. ألَمَحَ إليها بالأمر في الرِّبيع الماضي، في أثناء وجودهما في المدينة. وصل به الأمر أن قال لها: «هل يمكننا الاقتصاد في النِّفقات؟ هل تعتقدين أنَّ هناك أيَّ بندٍ يمكننا أن نقتصد فيه؟» وإحفاقاً للحقِّ، فإنَّ إليزابيث شرعت تفكِّر بحماسٍ أنثويٍّ فيما يمكنها فعله بعد أن شعرت بالاضطراب للأمر. اقترحت في نهاية المطاف الاقتصاد في البندين التَّاليين: التَّوقُّف عن

بعض التبرعات الخيرية غير الضرورية، والامتناع عن تجديد فرش قاعة الاستقبال. ولم تلبث بعد ذلك أن أضافت إلى تلك التدابير فكرة الامتناع عن شراء هدية لأن كما كانت عاداتهما في كل عام. ولكن هذه التدابير، وإن كانت جيدة في حد ذاتها، فإنها لم تكن كافيةً بالقياس إلى حجم المشكلة الحقيقي، والذي وجد السير والتر نفسه مضطراً إلى الاعتراف لها به بعد ذلك بقليل. لم تجد إليزابيث أي أفكار أخرى أكبر تأثيراً لتقترحها. شعرت أنها ضحية أصابها سوء الحظ تماماً كما كان يشعر والدها. لم يتمكن أي منهما من التفكير في طريقة يحدان بها من نفقاتهما دون أن يقللا من كرامتهما، أو يتخليان بها عن رغد عيشهما بطريقة يمكن تحملها.

لم يكن يحق للسير والتر التصرف سوى في جزء يسير من أملاكه، ولكن حتى لو استطاع بيع كل فدان من أرضه، لما شكّل الأمر أي فارق. فقد تنازل وقبل أن يرهن كل ما يستطيع التصرف فيه، ولكنه لم يكن ليتنازل أبداً ويقبل البيع. لا، لن يجلب العار على نفسه أبداً بهذا الشكل. يجب أن تؤول ملكية كيلينتش إلى من يليه كاملةً، دون أن تتجزأ، تماماً كما تسلمها هو.

طلبوا النصيحة من الصديقين المقربين، السيد شيرد القاطن في بلدة قريبة، والليدي راسيل. توقع كلٌّ من الأب وابنته أن يقترح أحدهما شيئاً ما يخلصهما من مأزقهما، ويحدُّ من نفقاتهما، دون أن يخسرا شيئاً من متعهما أو كرامتهما.

مكتبة 729

telegram @t_pdf

كان السيّد شيرد محامياً مهذباً وحريصاً، وبصرف النظر عن موقفه من السيّر والتر ورأيه به، كان يفضل أن يتقدّم شخصٌ غيره بالاقتراحات المزعجة. لذا، اعتذر عن تقديم أيّ اقتراحاتٍ مهما كانت بسيطةً، وطلب السّماح له بأن يوصي باحترام رأي الليدي راسيل الصائب فحسب؛ إذ إنّهُ توقع أن تقترح بحكمتها المعهودة التدابير الحازمة التي عليه هو اتّباعها بحذافيرها.

شعرت الليدي راسيل بالقلق، وتحمّست للأمر، وفكّرت فيه بجدّيّة. كان حكمها على الأمور صائباً، ولكنّه لم يكن سريعاً. وقد واجهتها صعوباتٌ كبيرةٌ في التّوصّل إلى قرارٍ بخصوص هذا الموضوع، بسبب التّعارض بين مبدأين رئيسيين. كانت صاحبةً مبادئ صارمة، ولديها إحساسٌ عالٍ بمعنى الشرف، ولكنّها كانت أيضاً حريصةً على الحفاظ على مشاعر السيّر والتر، ومهمومةً بديون الأسرة، ومؤمنةً بأفكارٍ أرستقراطيةٍ عمّا تستحقّه الأسرة، كما كان ليفعل أيّ شخصٍ آخر يتمتّع بالعقل والأمانة. كانت سيّدةً مُحبّةً للخير، كريمةً وطبيّةً، قادرةً على تكوين علاقاتٍ وثيقةٍ بالآخرين، وذات سلوكٍ منضبطٍ، وآراء في غاية الصّرامة بخصوص ما يليق وما لا يليق، كما

كانت مثلاً يحتذى به في أخلاقها. اتّصف تفكيرها الرّاقى عموماً بالعقلانيّة والتّوازن - ولكنّها أظهرت بعض التّحيّز إلى الأسلاف وعراقة الأصل. كانت تحترم الطّبقات الرّاقية والمكانة الاجتماعيّة العالية، فأعماها ذلك بعض الشّيء عن عيوب أصحاب تلك المناصب. كان زوجها الرّاحل يحمل لقب فارسٍ فحسب، ولذا كانت تحترم البارونيت بالقدر الذي يستحقّه. كما أنّ السّير والتر، بصرف النّظر عن كونه معرفةً قديمةً، وجاراً طيّباً، ومالك منزلٍ متعاوناً، وزوج صديقتها الغالية، ووالد آن وشقيقتها، كان يستحقّ في رأيها أكبر قدرٍ من التّعاطف والتّفهّم في ظلّ ظروفه الحاليّة، لمجرد كونه السّير والتر فحسب.

كان من الصّروريّ أن يقتصدوا في الإنفاق؛ لم يكن هناك أدنى شكّ في ذلك. ولكنّها توخّت بشدّة أن يتمّ ذلك بأقلّ قدرٍ من الضّرر له ولا ليزابيث. رسمت خططاً للتّوفير، وأجرت حساباتٍ دقيقةً، وفعلت ما لم يفكر أيّ شخصٍ غيرها في فعله: استشارت آن التي لم يبد أنّ الآخرين فكّروا البتّة أنّ الأمر يخصّها هي الأخرى. طلبت منها المشورة، وتأثّرت برأيها إلى حدّ ما في كيفة إقناع السّير والتر بخطط التّوفير التي قدّمها له. كانت كلّ تعديلات آن ترجّح كفة الأمانة على كفة المكانة الاجتماعيّة. كانت ترغب

في تدابير أشدّ، وفي إصلاحاتٍ جذريّةٍ للتخلّص من الدُّيون بسرعةٍ أكبر، ولم تعر اهتمامًا لأيّ شيءٍ سوى العدل والإنصاف.

قالت الليدي راسيل وهي تطالع الأوراق: «لو نجحنا في إقناع والدك بكلّ هذا، لأمكننا إنجاز الكثير. لو نفّذ هذه الإجراءات، لتحرّر من الدُّيون في غضون سبع سنوات. أتمنّى أن ننجح في إقناعه هو وإليزابيث بأنّ قصر كيلينتش في حدّ ذاته له احترامه الذي لن يتأثّر بهذه الإجراءات، وأنّ كرامة السيّر والتر إليوت الحقيقيّة لن تنتقص أبدًا في أعين العقلاء من النّاس إذا ما تصرّف كرجلٍ صاحب مبدأ. فما الذي سيفعله - أو على الأقلّ يتوجّب عليه فعله - ولم يسبق أن قام به العديد من أسلافنا من قبل؟ فليس هناك ما هو استثنائيٌّ أو متفرّد في حالته، وغالبًا ما يكون هذا التّفرد هو أسوأ ما في معاناتنا، بل ويشكّل أسوأ ما في سلوكنا أيضًا. لديّ أملٌ كبيرٌ في نجاحنا. يجب أن نتّسم بالجديّة والحزم؛ ففي نهاية المطاف، على من استدان أن يقوم بسداد ديونه. ومع أنّه يجب مراعاة مشاعر رجلٍ محترم، وربّ أسرةٍ مثل والدك، إلّا أنّ التّحلّي بالأمانة أمرٌ يستحقّ المزيد من الاحترام».

كان هذا هو المبدأ الذي أرادت آن والدّها أن يتصرّف على أساسه، وأن يحثّه أصدقاؤه عليه. كانت ترى أنّ سداد الدُّيون واجبٌ لا يمكن اجتنابه،

ويجب إنجازَه بأقصى سرعةٍ تسمح بها كلُّ التدابير الشَّاملة للاقتصاد في التَّفقات. ولم تكن ترى أيَّ نوعٍ من الكرامة فيما هو دون ذلك. أرادت أن يتمَّ الاتفاق على الأمر، وأن يُعَدَّ واجبًا من الواجبات. كانت تكنُّ تقديرًا بالغًا لتأثير الليدي راسيل، ولأنَّ ضميرها كان يملي عليها الالتزام بحرمان الذات لأقصى الحدود، كانت تعتقد أنَّ إقناعهم بالقيام بإصلاحاتٍ جذريَّةٍ لن يزيد صعوبةً بدرجةٍ كبيرةٍ عن إقناعهم بأنصاف الحلول. فقد دعتها معرفتها بطبيعة كلٍّ من والدها وإليزابيث إلى الاعتقاد بأنَّ الاستغناء عن زوج من الخيل لن يكون أقلَّ صعوبةً من التَّخلُّص من زوجين، وكان الأمر يسير على ذات المنوال فيما يتعلق بباقي بنود قائمة الليدي راسل التي اشتملت على إصلاحاتٍ خفيفة. لا يهمُّ كيف كانوا سيتقبَّلون طلبات آن الأشدَّ صرامةً، ذلك أنَّ طلبات الليدي راسيل لم تلق أيَّ نجاحٍ على الإطلاق، فلم يكن بوسعهم قبولها، ولم يكن من الممكن تحمُّلها. ماذا؟! التَّخَلِّي عن كلِّ مباحج الحياة؟ عن السَّفر ولندن والخدم والخيل والطَّعام الفاخر؟ ترشيدهُ وقوؤُ في كلِّ البنود؟ الاستمرار في الحياة دون التَّمَتُّع حتى بما يتمتَّع به أيُّ وريثٍ عاديٍّ صاحب ثروةٍ خاصَّةٍ؟ لا، من الأهون عليه مغادرة قصر كيلينتش في الحال على أن يبقى فيه بمثل هذه الشُّروط المهينة.

مغادرة قصر كيلينتش. التقط السيِّد شيرد ذلك التَّلْميح على الفور، فقد كان من صالحه أن يقوم السيِّر والتر بترشيده نفقاته، وكان مقتنعًا تمام

الاقتناع بأنه لن يتخذ أيّ خطواتٍ فعليةٍ في الأمر حتى يغيّر محلّ سكّنه. قال إنّهُ لمّا كان مصدر الفكرة آتياً من صاحب الشّأن نفسه، فإنّهُ لا يشعر بأيّ حرجٍ في الاعتراف بأنّهُ يميل إلى تفضيل ذلك الخيار. فلم يبد له أنّ في مقدور السّير والتر تغيير نمط معيشته طالما بقي يعيش في بيتٍ له ذلك التّاريخ من الضّيافة والشّرف، وهو تاريخٌ يجب الحفاظ على استمراريّته. أمّا في أيّ مكانٍ آخر، فيمكن أن يختار السّير والتر ما يريده لنفسه، وسيحترمه الآخرون لأنّهُ يضع قواعد حياته وينظّم بيته بالأسلوب الذي يرغب فيه.

إذن، سيغادر السّير والتر قصر كيلينتش. وبعد بضعة أيّامٍ أخرى مليئةٍ بالشُّكوك والتّردّد، استقرّوا على حلٍّ لمسألة المكان الذي سوف ينتقل إليه، واتّفقوا على الخطوط الأوليّة لهذا التّغيير الكبير.

كانت هناك ثلاثة خياراتٍ متاحةٍ: لندن أو باث أو بيتٌ آخر في الرّيف. مالت كلّ رغبات آن إلى ذلك الخيار الأخير. انحصرت طموحاتها في بيتٍ صغيرٍ في حيّهم الذي يقطنون فيه، حيث يمكنها أن تحظى بصحبة الليدي راسيل، وأن تظلّ على مقربةٍ من ماري، كما يمكنها الاستمتاع برؤية حدائق وبساتين قصر كيلينتش بين حينٍ وآخر. ولكنّ حظّ آن المعتاد لازمها،

فَاتَّفَقُوا عَلَى عَكْسِ مَا كَانَتْ تَرْغَبُ فِيهِ. لَمْ تَكُنْ تَحِبُّ بَاثَ، وَكَانَتْ تَوْمَنُ أَنَّ جَوَّهَا غَيْرُ مَوَاتٍ لَصَحَّتْهَا، وَمَعَ ذَلِكَ صَارَتْ بَاثَ مُحَلًّا سَكْنَهَا الْجَدِيدَ.

مَالَ السَّيْرُ وَالتَّرَ إِلَى اخْتِيَارِ لَنْدُنَ بِدَرَجَةٍ أَكْبَرَ فِي بَادِي الْأَمْرِ، وَلَكِنَّ السَّيِّدَ شِيبردَ شَعَرَ بِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ الْوُثُوقُ بِهِ فِي لَنْدُنَ، وَكَانَ مَاهِرًا بِمَا فِيهِ الْكَفَايَةُ بِحَيْثُ جَعَلَهُ يَعدُلُ عَنْ رَأْيِهِ وَيَخْتَارُ بَاثَ. كَانَتْ مَكَانًا أَكْثَرَ أَمَانًا بِالنَّسْبَةِ إِلَى رَجُلٍ فِي مِثْلِ وَضْعِهِ: فَهَنَّاكَ، يُمْكِنُهُ أَنْ يَحَافِظَ عَلَى مُسْتَوَاهِ الْاجْتِمَاعِيِّ بِتَكْلِفَةٍ أَقْلَ نَسْبِيًّا. كَمَا أَكَّدَ عَلَى أَهْمِيَّةِ مِيزَتَيْنِ تَتَفَوَّقُ بِهِمَا بَاثَ عَلَى لَنْدُنَ، فَقَدْ كَانَتْ عَلَى مَسَافَةٍ أَقْرَبَ مِنْ كِيلِينَتَشَ، وَتَبْعَدُ عَنْهَا خَمْسِينَ مِيلًا فَقَطْ، كَمَا كَانَتْ اللَّيْدِي رَاسِيلَ تَقْضِي جُزْءًا مِنْ فَصْلِ الشِّتَاءِ فِي كُلِّ عَامٍ هُنَاكَ. أَمَّا اللَّيْدِي رَاسِيلَ الَّتِي كَانَ رَأْيُهَا مِنْذُ الْبَدَايَةِ عِنْدَمَا بَحْثُوا فِي أَمْرِ ذَلِكَ التَّغْيِيرِ يَمِيلُ إِلَى اخْتِيَارِ بَاثَ، فَقَدْ شَعُرَتْ بِالسَّعَادَةِ الْبَالِغَةِ لِأَنَّ كَلًّا مِنْ السَّيْرِ وَالتَّرِ وَالْيَزَابِيثِ اقْتَنَعَا بِأَنَّهُمَا لَنْ يَخْسِرَا مِنْ مَكَانَتِهِمَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَلَا مِنْ مَتْعَهُمَا إِذَا مَا اسْتَقَرَّا هُنَاكَ.

شَعُرَتْ اللَّيْدِي رَاسِيلَ بِأَنَّ مِنْ وَاجِبِهَا مَعَارِضَةُ رَغْبَاتِ آنَ الْعَزِيزَةِ. فَسَيَكُونُ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ يَطْلُبُوا مِنَ السَّيْرِ وَالتَّرِ السَّكْنَ فِي مَنْزِلٍ صَغِيرٍ فِي حَيِّهِ. وَحَتَّى أَنْ نَفْسَهَا سَتَجِدُ الْأَمْرَ مَهِينًا بِدَرَجَةٍ أَكْبَرَ مِمَّا كَانَتْ تَتَوَقَّعُ، وَسَيَكُونُ

الأمر فظيماً بالنسبة إلى السير والتر ومشاعره. أما بخصوص كراهية آن لمدينة باث، فقد كانت تعدّه نوعاً من التّحامل الخاطئ النّابع من ظروف معيشتها هناك لمدة ثلاث سنواتٍ للدراسة بعد وفاة والدتها، ومن تدنيّ معنويّاتها بعد ذلك، في أثناء الشّتاء الوحيد الذي قضته بصحبتها هناك.

باختصارٍ، كانت الليدي راسيل تحبُّ باث، وتؤمن أنّها مكانٌ مناسبٌ لهم جميعاً. أمّا فيما يتعلّق بصحّة صديقتها الشّابة، فيمكنها أن تتفادى أيّ مشاكل بأن تقضي الأشهر ذات الجوِّ الدافئ بصحبتها في بيتها في كيلينتش. ولا بدّ أنّ ذلك التّغيير في الواقع كان مفيداً لصحّتها ومعنويّاتها. فلم يسبق وأن ابتعدت آن عن البيت كثيراً، ولم تلتق الكثير من النّاس. لم تكن روحها المعنويّة مرتفعةً، وقد يساعد الاختلاط بالنّاس على تحسينها. أرادت الليدي راسيل أن يعرفها النّاس بصورةٍ أفضل.

كان رفضُ السير والتر الانتقال إلى منزلٍ آخر في الحيّ نفسه مضاعفاً، بسبب جزء هامٍّ من الخطة تمّ الاتّفاق عليه منذ البداية. فلم يكن سيكتفي بمغادرة بيته فحسب، بل كان سيرى آخرين يقطنون فيه، ممّا كان يشكّل اختباراً لمدى شجاعته، اختباراً قد لا يقوى عليه بعض من هم أكثر عناداً

من السّير والتر. كان سيتمُّ تأجير قصر كيلينتش، ولكنَّ هذا الأمر ظلَّ سرًّا عميقًا انحصَرَ في دائرتهم فحسب، ولم يخرج عنها. لم يكن السّير والتر ليتحمَّل الإهانة لو علم النَّاس أنَّه يخطُّ لتأجير بيته. ذكر السيّد شيرد كلمة «إعلان» مرَّةً واحدةً، ولكنَّه لم يجرؤ على تكرارها ثانيةً. فقد رفض السّير والتر بازدراءٍ استخدام الكلمة بأيِّ شكلٍ من الأشكال، ومنع أيَّ تلميحاتٍ - مهما كانت بسيطةً - توحى بأنَّ لديه النِّيَّة على ذلك. ولم يكن ليوافق على تأجيرهِ إلَّا بشروطه هو، وكنوعٍ من إسداء المعروف في حال طلبٍ منه ذلك شخصٌ مناسبٌ بطريق الصدفة.

وما أسرع ما تأتي الظروف التي تحقِّق لنا ما نرغب فيه! فقد كان لدى اللّيدي راسيل سببٌ آخر جعلها تشعر بالسَّعادة لرحيل السّير والتر وأسرته عن البلدة. إذ أنَّ إليزابيث ارتبطت حديثًا بعلاقة صداقةٍ كانت اللّيدي راسيل تتمنّى لو أنَّها انقطعت. كانت صديقتها هي ابنة السيّد شيرد التي عادت إلى منزل والدها بعد زواجٍ فاشلٍ ومعها عبءٌ إضافيٌّ متجسِّدٌ في طفلها. كانت شابةً ذكيَّةً تعرف كيف ترضي الآخرين، أو على الأقلَّ كيف ترضي الآخرين في قصر كيلينتش. ونجحت في التَّودُّد إلى الآنسة إليوت،

لدرجة أنّها قضت الليلة هناك أكثر من مرّة بالرغم من كلّ تلميحات الليدي راسيل بالحذر والتّحفّظ، إذ كانت تراها صداقةً غير ملائمة.

وفي الواقع، لم يكن لليدي راسيل أيّ تأثيرٍ يُذكر على إليزابيث. وقد بدا أنّها تحبّها لأنّها ترغب في ذلك، لا لأنّ إليزابيث تستحقّ حبّها. فهي لم تتلقَ منها أبداً ما هو أكثر من مجرد اهتمامٍ ظاهريّ، والتزامٍ بالآداب العامّة، ولم تنجح أبداً في إقناعها بشيءٍ يخالف ما تريده هي. لقد حاولت جاهدةً أكثر من مرّة أن تجعلهما يصطحبان آن معهما في رحلاتهما إلى لندن، وكانت على استعدادٍ لمناقشتهما بتعقّلٍ في كلّ المظالم والافتراءات والتّرتيبات التي يغلب عليها طابع الأنانيّة التي تبقّيها بعيداً. وحاولت أن تمنح إليزابيث الفرصة في مناسباتٍ أخرى أقلّ أهميّةً لتستفيد من حكمها الأكثر صواباً على الأمور، ومن خبراتها، إلّا أنّ محاولاتها كانت تبوء دوماً بالفشل، ذلك أنّ إليزابيث لا تنفّذ إلّا ما ترغب فيه هي، ولم يسبق أن عارضت الليدي راسيل بقوة أكبر من معارضتها إيّاها في اختيارها هذا لصداقة السيّدة كلاي. ابتعدت عن صحبة شقيقتها التي تستحقّ كلّ تقديرٍ، لتهب محبّتها وثقتها لمن لم تكن تستحقّ سوى المعاملة بكياسةٍ عن بعد.

كانت الليدي راسيل مقتنعة بأنّ السيّدة كلاي أدنى في المنزلة الاجتماعية، كما أنّ شخصيّتها تجعل رفقتها أمراً بالغ الخطورة. لذا فإنّ أيّ انتقالٍ يجعلهم يخلّفون السيّدة كلاي وراءهم، ويقرّب إلى الآنسة إليوت دائرة أنسب من الأصدقاء، كان أمراً ذا أهميّة كبيرة.

«إذا أَذِنْتُ لي بالقول يا سير والتر،» قال السيّد شيرد ذات صباح في قصر كيلينتش، وهو ينحّي الصّحيفة جانبًا، «فإنّ الطُّروف الحاليّة في صالحنا تمامًا. فاتّفاقيّة السّلام هذه(1) ستسبّب بعودة جميع ضبّاط البحريّة الأثرياء إلى البلاد. وسيرغبون جميعًا في العثور على سكن. لا يمكن أن يكون هناك وقتٌ أفضل من هذا، يا سير والتر، للعثور على عددٍ من المستأجرين الذين يمكن الوثوق بهم للاختيار من بينهم. فقد كوّن العديد ثرواتٍ ضخمةً خلال الحرب، ولو أتانا أدميرالٌ ثريٌّ يا سير والتر -»

أجاب السيّر والتر قائلاً: «سيكون رجلاً محظوظًا للغاية يا شيرد. هذا كلّ ما يمكنني قوله. سيكون قصر كيلينتش غنيمةً حقيقيّةً بالنّسبة إليه، بل أكبر غنيمةٍ على الإطلاق، مهما كانت الغنائم التي فاز بها قبل ذلك في الحرب، أليس كذلك يا شيرد؟»

ضحك السيّد شيرد كما كان يفرض عليه الواجب لهذه الدّعابة، ثمّ أضاف قائلاً:

«لو سمحت لي بأن أجرؤ على القول يا سير والتر، فإنَّ التَّعامل مع رجال البحريَّة فيما يتعلَّق بالعمل أمرٌ مريحٌ للغاية. فأنا لَدَيَّ بعض الخبرة بأساليبهم في التَّعاملات التَّجاريَّة، ويمكنني القول إنَّهم في غاية السَّخاء، ولا يمكننا أن نطمع في العثور على مستأجرين أفضل منهم. لذا، يا سير والتر، فلتسمح لي بأن أقترح أنَّه في حالةِ تسرُّب أيِّ شائعاتٍ بخصوص ما تنتويه - ويجب أن نضع الأمر في الاعتبار إذُ إنَّنا نعلم مدى صعوبة إخفاء أفعال وخطط نصف البشر عن أعين وفضول النِّصف الآخر، فللمكانة الاجتماعيَّة المرتفعة ضريبتها يا سير والتر، إذُ يمكنني أنا، جون شيرد، أن أخفي أيَّ أمورٍ عائليَّةٍ أرغب في إخفائها، ولن يهتمَّ أيُّ شخصٍ بمراقبتي، ولكنَّ السَّير والتر محاصرٌ بعيون الرُّقباء التي يصعب الإفلات منها؛ لذا يمكنني القول إنَّني لن أتفاجأ كثيراً لو تسرَّبت بعض الشَّائعات بالرَّغم من كلِّ الحرص الذي أبديناه - كنت سأقول إنَّه في هذه الحالة، وحيث إنَّ الطُّلبات ستنهال علينا بلا أدنى شكٍّ، فأنا أعتقد أنَّ أيَّاً من ضبَّاط بحريَّتنا، الأثرياء على وجه الخصوص، يستحقُّ أن نأخذ طلبه بعين الاعتبار. وأرجو أن تسمح لي بأن أضيف إنَّه يمكنني الحضور في أيِّ وقتٍ في غضون ساعتين لأوفِّر عليك عناء الرَّدِّ».

اكتفى السَّير والتر بهزَّ رأسه، ولكنَّه نهض بعد ذلك، وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، ثمَّ قال بسخريَّة:

«أعتقد أنه لا توجد سوى قلة قليلة من رجال البحرية لن يشعروا بالدهشة لو وجدوا أنفسهم يعيشون في سكن كهذا».

قالت السيِّدة كلاي: «لا يوجد شك في أنهم سيتأملون المكان حولهم، ويشكرون الرَّبَّ على حسن طالعهم». فقد كانت السيِّدة كلاي حاضرةً هناك، إذ إنّ والدها جلبها معه في العربة. فلم يكن هناك ما هو أكثر فائدةً لصحّة السيِّدة كلاي من رحلةٍ بالعربة إلى قصر كيلينتش. «لكنني أتفق للغاية مع والدي في اعتقاده أنّ أحد رجال البحرية سيكون مستأجرًا ملائمًا. فقد عرفت العديد من العاملين في ذلك المجال، وناهيك عن سخائهم، فإنهم جميعًا في غاية التنظيم والحرص! إن قرّرت أن تترك لوحاتك الثمينة هذه يا سير والتر، فإنّها ستكون في حِرزٍ أمينٍ. وسوف يُعتنى جيّدًا بكلّ شيءٍ داخل المنزل وخارجه! وسوف يُحافظ على الحقائق والأشجار بحالةٍ ممتازة، كما هي الآن تقريبًا. ولا داعي للقلق يا آنسة إليوت من أن تُهمَل حقائق الزهور خاصّتك».

ردّ السيّر والتر ببرودٍ قائلاً: «بخصوص كلّ ذلك، ولو افترضنا أنّي قمت بتأجير منزلي، فأنا لم أقرّر ذلك بأيّ حالٍ من الأحوال، ما هي الميزات الإضافيّة المتعلّقة باستئجار المنزل؟ فأنا لا أميل إلى تقديم أيّة ميزاتٍ

إِضَافِيَّةٌ لِلْمُسْتَأْجِرِ. سَتَكُونُ الْأَرْضِي الْمَحِيطَةُ بِالْقَصْرِ مَفْتُوحَةً أَمَامَهُمْ بِالطَّبَعِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مَسَاحَةٌ كَهَذِهِ قَدْ تَوَقَّرتْ مِنْ قَبْلِ إِلَّا لِقَلَّةٍ قَلِيلَةٍ مِنْ ضَبَّاطِ الْبَحْرِيَّةِ، أَوْ لِأَيِّ رِجَالٍ آخَرِينَ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ. أَمَّا الْقِيُودُ الَّتِي قَدْ أَفْرَضَهَا عَلَى اسْتِغْلَالِ الْحَدَائِقِ الْخَاصَّةِ، فَهَذَا شَأْنٌ مُخْتَلَفٌ تَمَامًا. فَأَنَا لَا أَحِبُّ أَنْ يَقْتَرِبَ النَّاسُ مِنَ الشُّجَيْرَاتِ عَلَى الدَّوَامِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ، وَيَجِبُ أَنْ أَوْصِيَ الْآنِسَةَ إِلَيُوتِ أَنْ تَحْتَرِسَ بِخُصُوصٍ حَدِيقَةَ زَهْرَاهَا أَيْضًا. بِمَقْدُورِي أَنْ أُؤَكِّدَ لَكَ أَنَّهُ لَا تَوْجِدَ لَدَيَّ أَدْنَى رَغْبَةٍ فِي أَنْ أُسَدِيَ لِمُسْتَأْجِرِ قَصْرِ كِيلِينْتِشِ أَيِّ مَعْرُوفٍ، سِوَاءٍ أَكَانَ بِحَارًا أَمْ جَنْدِيًّا».

بَعْدَ فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ مِنَ الصَّمْتِ، تَجَرَّأَ السَّيِّدُ شِيرْدُ وَقَالَ:

«فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ، تَوْجِدُ أَعْرَافٌ مُحَدَّدَةً تَوْضِّحُ الْأُمُورَ وَتَيْسِّرُهَا بَيْنَ الْمَالِكِ وَالْمُسْتَأْجِرِ. وَمَصَالِحُكَ يَا سِيرَ وَالْتَرِ بَيْنَ أَيْدٍ أَمِينَةٍ. فَلْتَعْتَمِدْ عَلَيَّ؛ وَسَأَتَوَخَّيَ إِلَّا يَحْصُلَ أَيُّ مُسْتَأْجِرٍ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ حَقِّهِ الْعَادِلِ. وَيُمْكِنُنِي الْقَوْلُ إِنَّ السَّيْرَ وَالْتَرِ إِلَيُوتِ لَنْ يَهْتَمَّ بِمَصَالِحِهِ كَمَا سَيَهْتَمُّ بِهَا جُونُ شِيرْدِ نِيَابَةً عَنْهُ».

هَنَا، تَحَدَّثَتْ آنَ قَائِلَةً:

«أعتقد أنَّ ضبَّاط البحريَّة الذين قدَّموا لنا الكثير، يستحقُّون ربَّما أكثر من غيرهم كلَّ وسائل الرَّاحة والميزات التي يمكن أن يمنحها لهم أيُّ منزل. يجب أن نعرف جميعًا أنَّ العاملين في البحريَّة يكذُّون كثيرًا، ويستحقُّون الرَّاحة».

ردَّ السيِّد شيرد سريعًا وقال: «هذه حقيقة، هذه حقيقةٌ بالفعل. ما قالته الآنسة آن صحيحٌ للغاية». وقالت ابنته: «أجل، بالطبع!»، ولكنَّ السيِّر والتر علَّق بعدئذٍ قائلاً:

«للمهنة أهميَّتها بالطبع، ولكنني لا أحبُّ أن أرى أيًّا من أصدقائي يعمل بها».

كان الجواب: «حقًّا؟!» مع نظراتٍ مليئةٍ بالدَّهشة.

«أجل، فهناك نقطتان تشكّلان مصدر إزعاج بالنسبة إليّ، ولديّ سببان قويّان لرفض الأمر. أوّلاً: أنّها تضيي الأهميّة على أشخاص لا يستحقّون ذلك، ومن أسرّ لا مكانة لها، وترفع بعض الرّجال إلى مكانة لم يحلم بها أبائهم وأجدادهم من قبل. وثانيًا: أنّها مهنة تقضي على شباب الرّجال وقوتهم بطريقة فظيعة. فالبخار يشيخ أسرع ممّا يشيخ أيّ رجل آخر، وقد لاحظت ذلك طوال عمري. فالرّجل في البحريّة معرّض - أكثر ممّا في أيّ مكان آخر - لإهانة شعوره حين يرى رجلًا غيره يترقّى إلى أعلى المناصب، في حين لم يكن والدّه ليقبل أن يبادل والد ذلك الآخر مجرد الحديث، ناهيك عن أنّ العيون تنفر منه، هو نفسه، قبل الأوان، أكثر ممّا في أيّ مجال عمل آخر. ففي أحد أيّام الرّبيع الماضي، وأنا في المدينة، حدث أن وُجدتُ في مكانٍ مع رجلين يُعدّان مثالين واضحين لما أقصده بحديثي الآن: كان أحدهما اللّورد سان آيفز الذي نعلم جميعًا أنّ والده كان قسًا ريفيًا لا يجد قوت يومه. كنت سأترك مكاني للّورد سان آيفز، والآخر يُدعى الأدميرال بالدوين. كان أتعسّ شخصٍ يمكنكم تخيُّله، فوجهه بلون خشب الماهوجني، وملامحه خشنة وقاسيةٌ إلى أقصى حدّ، وتملؤها الخطوط والتّجاعيد، بينما خلت رأسه سوى من تسع شعراتٍ رماديّاتٍ فحسب من كلّ جانب، مع بعض البودرة المتناثرة أعلاها. «بحقّ السّماء، من ذلك الشّيخ العجوز؟» سألتُ صديقًا لي يقف بجواري (السّير بازيل مورلي).

صاح السَّير بازيل قائلاً: «يا صديقي! هذا الأدميرال بالدوين. كم يبلغ من العمر في اعتقادك؟» أجبت قائلاً: «ستين أو ربّما اثنين وستين عاماً». ردَّ السَّير بازيل: «بل أربعين. عمره لا يزيد عن الأربعين عاماً». لكم أن تتخيّلوا مدى دهشتي. لن أنسى الأدميرال بالدوين بسهولة. فأنا لم أر قطُّ مثلاً أكثر إثارةً للشفقة منه، للدّلالة على ما يمكن أن تفعله الحياة وسط عرض البحر بالمرء. ولكن إلى حدّ ما، الأمر سيّان بالنّسبة إليهم جميعاً. فجميعهم في حالةٍ يرثى لها، وهم معرّضون لكلّ عوامل الطّقس، وجميع أشكال المناخ، إلى أن يفقدوا حسن مظهرهم تماماً. من المؤسف أنّهم لا يتلقّون ضربةً على رؤوسهم على الفور، قبل أن يبلغوا مثل عمر الأدميرال بالدوين».

صاحت السيّدة كلاي قائلةً: «لا يا سير والتر، هذه قسوةٌ بالغةٌ حقاً. فلتُظهر لأولئك المساكين قليلاً من الشّفقة. فنحن لم نولد جميعاً على القدرِ نفسه من وسامة الملامح. لا شك أنّ البحر لا يزيد من بهاء طلّة المرء، وأنّ البحّارة يشيخون قبل الأوان، فكثيراً ما لاحظتُ أنّهم لا يلبثون أن يفقدوا شبابهم، ولكن ألا ينطبق الحال ذاته على العديد من المهن الأخرى، بل ربّما على معظم المهن الأخرى؟ فالجنود الذين في الخدمة ليسوا أفضل حالاً. وحتى في المهن الأخرى ذات الظروف الأهدأ يكون

العقل عرضةً للجهد والمشقة إن لم يكن الجسد نفسه عرضةً لهما، ونادراً ما تنجو ملامح المرء من تأثير الزمن تحت وطأة ذلك. فالمحامي يكُدُّ، وقد أنهكته الهموم، والطبيب يسهر حتى ساعات متأخرة، ويخرج في جميع أشكال الطَّقس، وحتى الكاهن...»، توقَّفت عن الحديث لحظةً وهي تفكر فيما يمكن أن يكون له أثرٌ على الكاهن، «وحتى الكاهن كما تعلم مضطَّرَّ إلى دخول غرفٍ لوَّثتها الأمراض وتعريض صحَّته ولامح وجهه لأثر تلك الأجواء المسمومة. وفي الواقع، مع أنَّ كلَّ المهن ضروريَّة، ولها أهميَّتها، لطالما كنتُ مقتنعةً أنَّ أولئك الذين ليسوا مضطَّرين إلى اختيار أيِّ مهنةٍ، والذين بمقدورهم أن يعيشوا حياةً طبيعيَّةً في الرِّيف، وأن يختاروا الأوقات التي تناسبهم، ويعملوا ما يحلو لهم، ويحيوا في أملاكهم الخاصَّة دون مشقة العمل بغية الحصول على المزيد، أقول إنَّ أولئك وحدهم من يمكنهم التَّمتع بنعمة الصَّحَّة والوسامة إلى أقصى حدٍّ ممكن. لا أعرف غيرهم أيَّ أشخاصٍ آخرين لا يفقدون شيئاً من حسن مظهرهم عندما يتقدَّم بهم العمر».

بدا السيّد شيرد ثاقب البصيرة بتوخّيه الحصول على رضا السيّر والتر عن ضبَّاط البحريَّة كمستأجرين محتملين، ذلك أنَّ أوَّل طلبٍ لاستئجار المنزل كان من الأدميرال كروفت الذي التقاه بعد ذلك بفترة قصيرة، في أثناء

حضور جلسة محاكمة في تونتون. وقد بلغته الأخبار عن الأدميرال من مبعوث له في لندن، فأسرع بعدئذٍ إلى كيلينتش ومعه المعلومات اللازمة. كان الأدميرال كروفت من سگان مقاطعة سومرست، وبعد أن كَوّن ثروة ضخمة، أراد أن يعود ليستقرّ في بلده، وجاء إلى تونتون ليشاهد بعض الأماكن التي أُعلنَ عنها في ذلك الحيّ، ولكنّه لم يجد ما يلائمه. لم يلبث عندئذٍ أن سمع بطريق الصدفة (قال السيّد شيرد إنّ ما توقّعه قد حدث بالفعل، إذ كان من الصّعب الحفاظ على سرّيّة شؤون السيّر والتر) عن احتمال عرض قصر كيلينتش للإيجار. وعندما عرف علاقة السيّد شيرد بالمالك، قدّم نفسه إليه كي يستفسر عن الأمر. وبعد حديثٍ طويلٍ عبّر عن ميله الشّديد إلى المكان الذي لم يكن يعرفه إلّا من خلال الوصف فحسب. وقد أثبت للسيّد شيرد من خلال حديثه عن نفسه أنّه مستأجرٌ مناسبٌ وجديرٌ بالثّقة.

سأل السيّر والتر ببرودٍ وشكّ: «ومن يكون الأدميرال كروفت هذا؟».

أجابه السيّد شيرد إنّهُ من أسرةٍ محترمةٍ، وذكر اسم مكانٍ ما، فأضافت آن قائلةً بعد لحظةٍ صمتٍ سادت المكان:

«إنَّه أدميرالٌ بالأسطول الأبيض،(2) وقد شهد معركة الطَّرف الأغرِّ، وقضى كلَّ وقته في جزر الهند الشرقيَّة منذ ذلك الحين. لقد أمضى بضع سنواتٍ هناك حسب اعتقادي».

قال السيِّر والتر: «سوف أفترض، إذن، أنَّ وجهه اكتسب سُمرَةً حتى بات بلون أساور وعباءات زيِّ الخدم هنا».

أسرع السيِّد شيرد مؤكِّدًا له أنَّ الأدميرال كروفت رجلٌ قويٌّ ومعافىٌ ووسيم الملامح. أثَّرت عليه عوامل الطَّقس بعض الشَّيء، ولكن ليس بدرجةٍ كبيرة. وكان له سلوك وأفكار رجلٍ محترم، ومن غير المحتمل أن يشير مشكلاتٍ بخصوص شروط الاتِّفاق. فكلُّ ما كان يريده هو مسكنٌ مريحٌ، وأنَّ ينتقل للسَّكن فيه في أسرع وقتٍ ممكن. وكان على درايةٍ بأنَّ عليه أن يدفع ثمن راحته تلك، ويعرف جيِّدًا المبلغ الذي يمكن أن يصل إليه إيجار منزلٍ مفروشٍ بذلك المستوى. وما كان ليُفاجأ لو طلب السيِّر والتر مبلغًا أكبر من المال. كما أنَّه استفسر عن الأراضي المحيطة بالقصر، إذ كان سيسعده لو سُمح له بالصَّيد هناك، ولكنَّه لم يلحَّ في الأمر. قال إنَّه أحياناً ما يأخذ معه بندقيةً حين يخرج ليتجوَّل، ولكنَّه لا يقتل شيئاً أبداً. كان سيِّدًا محترمًا بحق.

تحدّث السيّد شيرد عن الأمر ببلاغةٍ، موضّحاً جميع ظروف أسرة الأدميرال التي تجعل منه مستأجراً مثاليّاً. فقد كان متزوّجاً، ولكنّه لم يُرزق بأولاد، وهذا هو المطلوب. قال السيّد شيرد إنّ المنزل لا يُعتنى به كما ينبغي دون وجود سيّدةٍ، ولم يكن يدري أيّهما أسوأ أثراً على الأثاث: غياب سيّدةٍ للمنزل، أم وجود العديد من الأطفال. أمّا وجود سيّدةٍ دون أطفالٍ، فقد كانت تلك هي الوسيلة المثاليّة للحفاظ على الأثاث. وكان قد رأى السيّدة كروفت أيضاً، إذ كانت في تونتون بصحبة الأدميرال، وكانت حاضرةً معهما معظم الوقت وهما يتبادلان الحديث حول الموضوع.

واصلَ قائلاً: «ويبدو عليها أنّها سيّدةٌ تتحلّى بفصاحة الحديث، إلى جانب تحليّتها بالأناقة والفتنة. فقد طرحَتْ أسئلةً بخصوص المنزل، وشروط التّعاقّد، والضرائب، أكثر ممّا فعل الأدميرال نفسه، وبدأت أكثر إلماً بالعمل. وإضافةً إلى كلّ ذلك يا سير والتر، لقد اكتشفتُ أنّها من أسرةٍ كريمةٍ في هذه البلاد، تماماً كزوجها. فهي شقيقة سيّد نبيلٍ كان يحيا هنا بيننا من قبل. أخبرتني ذلك بنفسها، إنّها شقيقة سيّد نبيلٍ عاش في مونكفورد قبل بضع سنوات. يا إلهي! ما اسمه؟ لا أستطيع أن أتذكّر الاسم الآن، مع أنّي سمعته قبل وقتٍ قريب. بينيلوبي، يا عزيزتي، هل يمكنك مساعدتي كي أتذكّر اسم السيّد الذي كان يعيش في مونكفورد

- شقيق السيِّدة كروفت؟».

ولكنَّ السيِّدة كلاي كانت منهمكةً في الحديث بحماسٍ مع الآنسة إليوت، فلم تسمع طلبه ذاك.

«ليست لديّ أدنى فكرةٍ من الذي تقصده يا شيرد. فلا أذكر أنّ أيَّ سيِّد نبيلٍ قد سكن في مونكفورد منذ عهد المحافظ العجوز ترينت».

«يا إلهي! كم يبدو الأمر غريبًا! أعتقد أنّي سأنسى اسمي أنا الآخر عمّا قريب. فأنا أعرف الاسم جيّدًا، وأعرف شكل السيِّد، ورأيتُه مئات المرات. أذكر أنّه جاء ليستشيرني ذات مرّةٍ بخصوص تعدّد من أحد جيرانه، فقد اقتحم عاملٌ لدى أحد المزارعين بستانه، بعد أن هدم السُّور، وسرق بعض الثُّفاح، وقبض عليه متلبّسًا بالجريمة. بعدها خالف نصيحتي، ووافق على الصُّلح الودّيّ. كان أمرًا في غاية الغرابة!».

بعد أن انتظرت هُنيهةً أخرى، قالت آن:

«أعتقد أنّك تقصد السيِّد وينتوورث».

غمر السيّد شيرد شعورٌ بالامتنان.

«وينتورث هو اسمه بالفعل! كان هو السيّد وينتورث. فقد كان يعمل مساعداً للقسّ في مونكفورد، كما تعلم يا سير والتر، قبل فترةٍ من الوقت، لعامين أو ثلاثة. أتى إلى هذا المكان عندما كان في حوالي الخامسة من العمر حسبما أعتقد. أنا متأكّد أنّك تذكره».

«وينتورث؟ أوه! أجل، السيّد وينتورث مساعدٌ قسّ مونكفورد. لقد ضلّلتني باستخدامك لقب السيّد النبيل. ظننتك تتحدّث عن رجلٍ صاحب أملاك. لم يكن السيّد وينتورث شخصاً ذا شأنٍ، حسبما أذكر، ولم تكن لديه أيّ صلاتٍ هامّة. فهو لا يمتُّ بصلةٍ إلى أسرة سترافورد. (3) لا يسع المرء إلا أن يتساءل كيف انتشرت أسماء العديد من الأسر النبيلة إلى هذا الحدّ».

عندما لاحظ السيّد شيرد أنّ هذه الصّلات العائليّة لآل كروفث لم تفد في تحسين صورتهم لدى السيّر والتر، لم يكرّر ذكرها مرّةً أخرى. وعاد ليتحدّث بحماسٍ عن كلّ ظروفهم الأخرى التي كانت بلا شكّ في صالحهم: سنّهم، وعددهم، وثروتهم، وتقديرهم البالغ لقصر كيلينتش،

واهتمامهم الشّدِيد بالحصول على شرف استّجاره. جعل الأمر يبدو وكأنّهم لا يقدّرون أيّ شيء أكثر من شرف كونهم مستأجرين لدى السيّر والتر إليوت. كان ذلك دليلاً على رقيّ ذوقهم بالتّأكيد، وكأنّهم كانوا يعرفون ما يعتقد السيّر والتر أنّه من واجبات المستأجر.

نجحت الخطّة في نهاية المطاف، ومع أنّ السيّر والتر سيظلّ ينظر دومًا نظرة كرهٍ إلى أيّ شخصٍ يتنوي السّكن في ذلك المنزل، وسيظلّ يؤمن أنّهم محظوظون للغاية لأنّه سمح لهم باستّجاره بأصعب الشّروط، إلّا أنّه سمح للسّيّد شيرد بالمضيّ قدماً في عقد الاتّفاق، وفوّضه كي ينتظر الأدميرال كروفت الذي كان ما يزال في تونتون، ويتّفق معه على تحديد يومٍ يأتون فيه لرؤية المنزل.

لم يكن السيّر والتر يتحلّى بالحكمة البالغة، ولكنّه كان يتحلّى بالخبرة الكافية التي جعلته يدرك أنّه من الصّعب أن تسنح له فرصة العثور على مستأجرٍ مثاليٍّ آخر، مثلما كان يبدو الأدميرال كروفت.

كان يدرك هذا جيّداً، كما شعر غروره بالرّضا عن مكانة الأدميرال الاجتماعيّة التي كانت عاليةً بدرجةٍ كافيةٍ، دون أن ترتفع بصورةٍ زائدةٍ عن

الحدّ. فعندما يقول: «لقد أجّرت منزلي للأدميرال كروفت»، سيكون وقع العبارة على الآذان أفضل بكثير ممّا لو كان يحمل مجرد لقب «السّيّد». فلقب «السّيّد» (باستثناء ربّما عددٍ يمكن إحصاؤه على أصابع اليدين في الدّولة كلّها) دومًا ما كان يحتاج إلى توضيح. أمّا لقب الأدميرال فيتحدّث عن نفسه، وفي الوقت نفسه لا يمكنه أن يقلّل من وضع البارونيت. ففي جميع تعاملاتهما وحديثهما، يجب أن يكون للسّير والتر إليوت مكان الصّدارة على الدّوام.

ولم يكن من الممكن إنجاز أيّ شيءٍ دون استشارة إليزابيث. ولكنّ تحمّسها للرّحيل بلغ درجةً شعرت معها بالسّعادة عندما عرفت بوجود مستأجرٍ سيعجّل من إتمام الأمر، فلم تنطق بكلمةٍ تعطلّ القرار.

تمّ تفويض السّيّد شيرد ليتصرّف في الأمر، وما إن اتّفقوا على ذلك حتى خرجت آن من الغرفة بعد أن أنصت باهتمامٍ إلى كلّ الحديث الدّائر، سعيًا وراء نسمةٍ هواءٍ تبرّد وجنتيها المتورّدتين. وبينما هي تسير وسط بستانها المفضّل، تنهّدت بخفّةٍ قائلةً: «ربّما يأتي هو ليسير هنا بعد بضعة أشهر».

(1) الإشارة هنا إلى معاهدة باريس الموقّعة في عام 1814.

(2) كانت البحريّة البريطانيّة مقسّمةً إلى ثلاثة أساطيل مرتّبةٍ تنازليًا على النّحو التّالي: الأحمر فالأبيض فالأزرق.

(3) كان وينتورث هو لقب عائلة إيرل سترافورد.

لم يكن هو السيّد وينتورث المساعد السّابق لكاهن مونكفورد، مهما بدا الأمر خادعاً، بل كان شقيقه القبطان فريدريك وينتورث الذي رُقّي إلى رتبة قائدٍ على إثر نشوب المعارك في سان دومينجو. وعندما لم يتسلّم عمله على الفور، جاء إلى سومرسيت في صيف عام 1806. ولمّا كان والداه متوفيين، فقد استقرّ لستّة أشهرٍ في مونكفورد. كان آنذاك شابّاً وسيماً شديد النّباهة والحيويّة والدّكاء، بينما كانت آن فتاةً غايّةً في الجمال والرّفقة والتّواضع والدّوق والإحساس. وكان من الممكن أن تكفي حتى نصف شدّة الانجذاب بين كلا الطّرفين، فهو لم يكن لديه ما يشغله، وهي لم يكن لديها من تتعلّق به. ولم يكن من الممكن أن يفشل لقاءٌ جمع بين اثنين بهما كلّ هذه الميزات. تعرّف أحدهما الآخر تدريجيّاً، وعندما تمّ التّعارف وقعا في الحبّ بسرعةٍ وعمقٍ. من الصّعب تحديد من فيهما رأى الآخر أكثر كمالاً، ومن كان الأكثر سعادة، هي حينما تلقت اعترافه بمشاعره وطلبه الزّواج، أم هو بعد أن قبلت طلبه.

تلا ذلك فترةٌ قصيرةٌ من السّعادة، ولكنّها لم تطل. إذ ما لبثت المشاكل أن ثارت أمامهما. فبعد أن تلقّى السيّر والتر طلبه الزّواج منها، لم يرفض

صراحةً، ولم يقل إنّ الأمر لا يجب أن يتمّ، ولكنّه أظهر موقفه السّلبيّ من خلال دهشته البالغة، وبروده الشّديد، وصمته التّام. كما أعلن أنّه لن يعطي ابنته دُوطَةً للزّواج. كان يرى أنّه نسبٌ مشينٌ للغاية، كما أنّ اللّيدي راسيل ارتأت بكبرياء أكثر اعتدالاً - ومن الممكن تفهّمه - أنّها علاقةٌ غير ملائمةٍ على الإطلاق.

ستضَيّع آن إليوت نفسها بكلّ نسبها وجمالها وعقلها هكذا، وهي ما تزال في التّاسعة عشرة من عمرها، وتورّط في علاقة خطبةٍ مع شابٍّ لا يملك أيّ شيءٍ يزكّيه سوى شخصيّته، وليست لديه فرصةٌ لتحقيق الثّراء إلّا من خلال المصادفات التي قد توفّرها له مهنةٌ مليئةٌ بالتّقلّبات، كما ليست لديه حتى العلاقات التي تضمن له أن يواصل الارتقاء في تلك المهنة. ستضَيّع نفسها بالفعل لو فعلت ذلك؛ وشعرت اللّيدي راسيل بالأسى وهي تفكّر في الأمر. آن إليوت، التي كانت ما تزال صغيرةً في السنّ، والتي لا يعرفها سوى قلةٍ من النّاس، سيختطفها غريبٌ بلا سندٍ ولا ثروة، وسيغرقها معه في الفقر الذي سينهكها، ويصيبها بالهموم، ويقضي على شبابها! يجب ألاّ يُسمَح بذلك. إن استطاعت أن تمنع ذلك بموجب الصّدّاقة أو الاحتجاج بدافعٍ من مشاعر الأمومة التي تحملها، وحقّ الأمّ الذي تدّعيه، فسوف تمنعه.

لم يكن القبطان وينتورث يملك أيّ ثروة. صادفه الحظُّ في عمله، ولكنّه كان ينفق ببذخ المال الذي جناه بسهولة؛ فلم يكوّن أيّ ثروة. بيد أنّه كان واثقًا من أنّه سيحقّق الثراء عمّا قريب. كان النّشاط والحماس يملّانه، وكان على يقينٍ من أنّه سيحصل على سفينةٍ عمّا قريبٍ، وسيتبوّأ مكاناً يملكه من تحقيق كلّ ما يتمنّاه. فلطالما كان الحظُّ حليفه، وكان على ثقةٍ بأنّه سيظلُّ ملازمًا له. لا بدّ أنّ هذه الثّقة التي تستمدُّ تأثيرها من دفء نبرته، وسحرها من ذكاء حديثه، كانت كافيةً بالنّسبة إلى آن، ولكنّ اللّيدي راسيل رأت الأمر من منظورٍ مختلفٍ تمامًا. فطباعه المتفائلة، وجراته، خلفًا انطباعاً مختلفاً لديها. فلم تكن ترى فيهما سوى عوامل تزيد تفاقم الوضع سوءاً، وقد زادا بالفعل من خطورة شخصيّته. كان ذكيّاً وعنيداً، ولم تكن اللّيدي راسيل تحبّد ذلك الذّكاء، كما كانت ترى أيّ شيءٍ يشارف حدود التّهوّر أمراً في غاية الفظاعة. استنكرت تلك العلاقة من جميع جوانبها.

كان الاستنكار الذي أثارته هذه المشاعر المتبادلة بينهما أكثر ممّا يمكن لأن مقاومتها. وبالرّغم من حداثة سنّها ورقّتها، كانت تستطيع ربّما أن تتحمّل سخط والدها الذي لم تسهم شقيقتها في تخفيفه ولو بكلمةٍ طيبةٍ أو نظرة. أمّا اللّيدي راسيل التي طالما أحبّتها واعتمدت عليها، فلم تتمكّن من تجاهل نصائحها التي أسدتها إليها بحنانٍ وثباتٍ رأيٍ. تركتها تقنعها أنّ

تلك الخطبة أمرٌ غير صائبٍ وطائشٍ وغير لائقٍ، كما أنَّه من غير المحتمل أن يُكلَّل بالتَّجَاح الذي هو ليس أهلاً له.

ولكن لم يكن دافعها متمثلاً بمجرد الحذر والأنانيَّة عندما وضعت حدًّا للأمر. فهي لم تكن لتستطيع أن تتخلَّى عنه لولا اعتقادها أنَّها كانت تعمل لأجل مصلحة هو، أكثر ممَّا لأجل مصلحة هي. كان إيمانها بأنَّها تتصرَّف بحكمة، وتنكر ذاتها لأجل مصلحة، عزاءها الوحيد وهي تعاني التَّعاسة بعد الفراق، فراقٍ نهائيٍّ. وكانت في حاجةٍ إلى أيِّ عزاءٍ يواسيها، ذلك أنَّها اضطرَّت أيضاً إلى مواجهة كلِّ الألم الإضافي الذي تسبَّب فيه حديثه، إذ إنَّه لم يقتنع على الإطلاق، وظلَّ مصمِّماً على موقفه، وشعر أنَّه تعرَّض للإساءة بتخليها عنه بهذا الشَّكل.

ولم يلبث أن غادر البلاد على إثر ذلك.

بدأت علاقتهما وانتهت في غضون أشهرٍ قليلةٍ، ولكنَّ الألم الذي لازم أن لم ينقض في غضون بضعة أشهر. لقد ظلَّ تعلَّقها به، وشعورها بالندم، يعكِّران صفوَّ كلِّ مباحٍ شبابها لفترةٍ طويلةٍ، وقد نتج عن ذلك فقدانها المبكر لجمالها وحيويَّتها.

انقضى أكثر من سبع سنواتٍ بعد نهاية حكايتهما القصيرة الحزينة هذه، وخَفَّفَ الزَّمنُ كثيرًا من تعلقها الشَّدِيدِ به، بل ربَّما محاهُ تمامًا. ولكنَّها بالغت في اعتمادها على تأثير الزَّمن وحده، ولم يخفَّف من معاناتها أيُّ تغييرٍ للمناظر (باستثناء زيارةٍ واحدةٍ لبث بعد انتهاء العلاقة) ولا أيُّ تجديدٍ أو علاقاتٍ اجتماعيَّةٍ جديدة. لم يقترب أبدًا من دائرتهم في كلينيش أيُّ شخصٍ يمكنه أن يصمد في وجه المقارنة بفريدريك وينتورث، كما كانت تذكره هي. لم تعثر على شخصٍ آخر ترتبط به في دائرتهم الاجتماعيَّة المحدودة، شخصٍ يلائم حكمة تفكيرها، وذوقها الرَّاقِي، مع أنَّ ذلك كان الحلَّ الطَّبيعيَّ الوحيد والسَّعيد والعلاج المناسب لها في عمرها ذاك. طلب منها شابُّ الزَّواج، وهي في الثَّانية والعشرين من العمر، ولكنَّه ما لبث أن وجد قبولًا أكثر من شقيقتها الصَّغرى. شعرت الليدي راسيل بالأسى لرفضها له، ذلك أنَّ تشارلز ماسجروف كان الابن الأكبر لرجلٍ تأتي أملاكه وأهميَّة مكانته في المرتبة الثَّانية في بلدتهم، بعد السيِّر والتر، كما كان يتمتَّع بشخصيَّة طيِّبة وبحسن المظهر. وبينما كانت الليدي راسيل تأمل ما هو أفضل حينما كانت آن في الثَّاسعة عشرة من العمر، كانت ستشعر بسعادة بالغة لو شاهدتها، وهي في الثَّانية والعشرين، وقد انتقلت إلى منزلٍ بهذا القدر من الاحترام بعيدًا عن التَّحيز والظُّلم في منزل والدها، لتستقرَّ قريبًا منها هي. ولكنَّ آن لم تستجب للنَّصح في هذه الحالة. ومع أنَّ الليدي

راسيل كانت - كما هي عاداتها - تشعر بالرّضا عن سلوكها المتعقّل، ولم تتمنّ أبدًا تغيير الماضي، إلّا أنّها أخذت تشعر بقلقٍ - شارف حدّ فقدان الأمل - في أن تقبل أنّ رجلٍ يمتلك المهارة والثروة ويجعلها تنتقل إلى بيت الزّوجيّة الذي كانت الليدي راسيل تعتقد أنّه يلائمها تمامًا بدفء مشاعرها وعاداتها المنزليّة.

لم تكن أيّ منهما تعرف رأي الأخرى، إنّ كان ما يزال ثابتًا أم تغيّر، بخصوص تلك النّقطة الرّئيسة المتعلّقة بسلوك آن، إذ إنّ الموضوع لم يُشر إليه أبدًا. ولكن، في سنّ السّابعة والعشرين، باتت آن تفكّر بطريقةٍ مختلفةٍ تمامًا عمّا كانت تفعل وهي في التّاسعة عشرة. لم تلقِ باللّوم على الليدي راسيل، ولم تلم نفسها لأنّها أخذت بنصيحتها آنذاك، ولكنّها شعرت أنّه لو طلب منها أيّ شخصٍ في سنّ الشّباب المشورة حول ظروفٍ مشابهةٍ، لَمَا تلقّى منها أبدًا نصيحةً ينتج عنها تعاسةٌ فوريّةٌ مؤكّدةٌ لأجل سعادةٍ مستقبليّةٍ غير مضمونة. باتت مقتنعةً أنّه مع كلّ الاستنكار الشّديد من قبل أسرتها، وكلّ القلق المصاحب لطبيعة مهنته، وكلّ المخاوف المحتملة والمصاعب وحيات الأمل، مع كلّ ذلك، كانت ستكون أكثر سعادةً لو أبقت على خطبتهما بدلًا من التّضحية بها. كانت مقتنعةً بهذا حتى لو واجها أكثر من نصيهما المعتاد من القلق والمصاعب، بصرف النّظر عمّا حدث بعد ذلك

بالفعل، إذ إنه حقق الثراء بسرعة أكبر من كل التوقعات المنطقية. كان محققاً في كل توقعاته المتفائلة وثقته البالغة. بدا أن ذكائه وحماسه ينبئان عن نجاحه، ويعززان منه. فقد استلم العمل بعد إنهاء خطبتهما بفترة وجيزة، وتحقق كل ما حدثها به بالفعل. إذ برز في مجال عمله، ونال ترقية مبكرة، ولا بد أن يكون قد كوّن الآن ثروة طائلة من غنائم الحرب. لم يكن بحوزتها سوى القوائم الرسمية التي تضم أسماء ضباط البحرية والمعلومات الأخرى التي تخص سلاح البحرية، إضافة إلى الصحف، لتستمد منه المعلومات، ولكن لم يراودها أي شك في أنه بات ثرياً الآن، ولما كانت واثقة في وفائه لها، لم يكن هناك ما يجعلها تظن أنه تزوج.

كان من الممكن أن تصير آن إليوت في غاية البلاغة، أو على الأقل كانت أمنياتها بليغة في انحيازها إلى الارتباط المبكر الذي تغمره مشاعر الدّفء، وإلى الثقة المتفائلة بالمستقبل، ضدّ الحرص المبالغ فيه، والذي يبدو وكأنه إهانة للعمل الجادّ، وانعدام للثقة بالأقدار! لقد أُجبرت على التّعقل عندما كانت في شبابها، وتعلّمت الرُّومانسيّة بعد أن تقدّم بها العمر؛ كانت هذه هي الخاتمة الطّبيعية لبداية غير طبيعيّة. مع كلّ هذه الظروف والذكريات والمشاعر، لم تستطع أن تسمع أن شقيقة القبطان وبتنورث قد تنتقل للإقامة في كيلينتش دون أن تستعيد مشاعر أُلهاها السّابق. واحتاج

الأمر إلى الكثير من التَّمَشِّي والتَّهْدَات لكي تتخلَّص من ضيق صدرها
بالفكرة. لطالما أخبرت نفسها أنَّها حماقةٌ منها قبل أن تتمكَّن من تقوية
أعصابها إلى درجةٍ كافيةٍ تمكَّنها من الاستماع إلى النَّقاش الدَّائر باستمرارٍ
حول آل كروفت، والاتِّفاق المزمع عقده معهم دون أن تصاب بالضَّيق.
وقد ساعدها على ذلك تلك اللَّامبالاة التَّامة، وما يبدو من عدم انتباه
شركائها الثلاثة الوحيدَين في سرِّ الماضي، الذين بدوا وكأنَّهم ينكرون أيَّ
ذكرى له. كان بوسعها أن تفهِّم رقيَّ دوافع الليدي راسيل بخصوص هذا
الأمر، وأن تحترم هدوءها النَّابع من مشاعرها الطَّيبة، أكثر ممَّا كان بوسعها
تفهِّم دوافع كلِّ من والدها وإليزابيث. ولكنَّ الجوّ العامَّ من النِّسيان الذي
ساد بينهم كان في غاية الأهمِّيَّة، أيًّا ما كانت دوافعه. وإن حدث واستأجر
الأدميرال كروفت قصر كيلينتش بالفعل، فسيكون بمقدورها أن تستمدَّ
الشُّعور بالرَّاحة عندما تتذكَّر مرَّةً أخرى ما كانت دومًا تشعر بالامتنان من
أجله، وهو أنَّ الماضي غير معروفٍ سوى لهؤلاء الثلاثة فقط من بين
معارفها، وقد كانت على يقينٍ بأنَّ أحدًا منهم لن يهمس أبدًا ولو بحرفٍ
واحدٍ حول الموضوع، كما كانت على يقينٍ بأنَّ من بين معارفه هو لم يدرِ
أحدٌ شيئًا عن خطبتهما القصيرة، عدا شقيقه الذي كان يقيم معه. وقد غادر
شقيقه هذا البلادَ قبل زمنٍ طويلٍ، فضلًا عن كونه رجلًا راجحَ العقل، ولم

يكن متزوِّجًا في ذلك الحين، ولذا فإنَّها لا تعتقد أنَّه باح بأيِّ شيءٍ عن الأمر لأيِّ شخصٍ آخر.

كانت شقيقته، السيِّدة كروفت، بعيدةً عن إنجلترا في ذلك الوقت؛ وقد رافقت زوجها في عمله بإحدى الدُّول الأجنبيَّة. كما أنَّ شقيقتها ماري كانت تدرس بعيدًا عندما وقع كلُّ ذلك. ولم ينطق أحدٌ بحرفٍ عن الأمر بعد ذلك، سواءً بدافعٍ من الكبرياء أو مراعاةً للمشاعر.

طمأنت نفسها بكلِّ هذا، وهي تأمل أنَّ العلاقة بينها وبين آل كروفت، والتي كانت أمرًا لا مفرَّ منه، مع وجود الليدي راسيل في كيلينتش، وماري على مسافة ثلاثة أميالٍ فحسب، لن يشوبها أيُّ شعورٍ بالحرَج.

في صباح اليوم المحدّد لزيارة الأدميرال كروفت وزوجته لقصر كيلينتش، رأت آن أنّه من الطّبيعيّ أن تخرج لتمشّي، كما كانت عاداتها كلّ يوم تقريباً، إلى منزل اللّيدي راسيل، لكي تتبعد عن طريق الجميع حتى ينتهي الأمر. وبعد ذلك رأت أنّه من الطّبيعيّ أن تشعر بالنّدم لأنّها ضيّعت فرصة لقائهم.

كان اللّقاء بين الطّرفين مُرضياً للغاية، واتفقوا على كلّ شيءٍ سريعاً. كانت كلّ من السيّدتين تميل إلى إتمام الاتّفاق، ولذلك لم تر إحداهما في الأخرى سوى حسن الخلق. أمّا بخصوص السيّدتين، فقد كان الأدميرال يتحلّى بروح دعايةٍ قويّة، إضافةً إلى الصّراحة والثّقة والسّخاء، ممّا أثر بصورةٍ إيجابيّةٍ في السّير والتر الذي التزم بأفضل سلوكٍ ممكنٍ بعد أن تملّقه السيّد شيرد وأكد له أنّ سمعته الحسنة كنموذجٍ يحتذى به في السّلك الرّاقى قد بلغت الأدميرال.

حاز كلّ من المنزل، والأراضي المحيطة به، والأثاث، على القبول، كما حاز آل كروفت أنفسهم القبول؛ كانت شروط الاتّفاق، والتّوقيت، وكلّ

شيء، وكلُّ الأشخاص، ملائمين للغاية. شرع موظفو السيّد شيبرد في متابعة العمل دون أن تكون هناك أيُّ خلافاتٍ أوَّلِيَّةٍ تستدعي أيَّ تعديلاتٍ في صيغة العقد.

أعلن السيّر والتر - دون تردُّدٍ - أنَّ الأدميرال هو أكثر من قابلهم وسامَةً من بين العاملين في البحريَّة، وواصل حديثه قائلاً إنَّه لو سنحت لخادمه الشَّخصيَّ فرصة تصفيف شعر الأدميرال، فلن يشعر بالخجل من الظُّهور برفقته في أيِّ مكان. كما أبدى الأدميرال تعاطفه ومودَّته، فقال لزوجته وهما يستقلَّان العربة عبر الأراضي المحيطة بالقصر في طريقهما للعودة: «كنت موقناً أنَّنا سنتوصَّل إلى اتِّفاقٍ سريعٍ يا عزيزتي، بالرَّغم ممَّا سمعناه عنه في تونتون. لن يحقِّق البارونيت أيَّ شيءٍ يستحقُّ الذِّكر، ولكنَّه لا يبدو شخصاً سيِّئاً». كادت تلك المجاملات المتبادلة بينهما تتساوى تقريباً.

كان آل كروفت سينتقلون للإقامة في القصر بحلول عيد رؤساء الملائكة، في نهاية شهر سبتمبر، ولمَّا كان السيّر والتر ينتوي الانتقال إلى السَّكن في باث خلال الشَّهر السَّابق لذلك، فإنَّهم لم يضيِّعوا أيَّ وقتٍ لالتهاء من التَّرتيبات المطلوبة.

ولأنَّ الليدي راسيل كانت على يقينٍ من أنَّهم لن يسمحوا لأنَّ
بالمساعدة، ولن يكون لها أيُّ دورٍ في اختيار المنزل الذي سيقومون
بإستجاره، فإنَّها لم ترغب في فراقها في وقتٍ مبكّرٍ، بل أرادت أن تبقى
لأطول فترةٍ ممكنةٍ حتى تصطحبها هي إلى باث، بعد الكريسماس. ولكنَّها
كانت مرتبطةً بمشاغل تستدعي سفرها بعيداً عن كيلينتش لعدَّة أسابيع،
فلم تتمكّن من دعوتها للبقاء معها كما كانت تتمنّى أن تفعل. ومع أنَّ آن
كانت تخشى حرارة الجوّ في شهر سبتمبر، تحت وهج الشَّمس في باث،
وبالرَّغم من الحزن الذي انتابها لأنَّها ستبتعد عن أثر الجوّ الخريفيِّ في
الرَّيف بكلِّ جماله، لم تكن ترغب في البقاء بسبب كلِّ الطُّروف. سيكون
التَّصرف الصَّحيح، والأكثر حكمةً، والأقلُّ ألماً، هو أن ترحل مع الآخرين.

ولكنَّ شيئاً ما حدث وجعلها تغيّر من خططها. فقد كانت ماري، التي
كثيراً ما تعتلُّ صحتَّها بعض الشَّيء، مريضةً. وكانت دوماً تنشغل بالشَّكوى
وتطلب حضور آن عندما تصاب بأيِّ شيء. توقَّعت أنَّها لن تكون بحالةٍ
صحيَّةٍ جيِّدةٍ طوال فصل الخريف، فترجَّتها، أو بالأحرى أمرتها، إذ إنَّه كان
أبعد ما يكون عن الرَّجاء، أن تأتي إلى بيتها الرِّيفيِّ في أبركروس، لتمكث
معهما طوال الفترة التي تريدها، بدلاً من الدَّهاب إلى باث.

قالت ماري: «لا يمكنني الاستغناء عن آن بأيّ شكلٍ من الأشكال». فأجابت إليزابيث قائلةً: «إذن أنا على يقينٍ من أنّ من الأفضل أن تبقى آن. فلن يحتاجها أحدٌ في باث».

كان من الأفضل أن يطلب أحدهم وجودك، ولو بأسلوبٍ غير لائقٍ، من أن يلفظك الجميع وكأنّما لا فائدة لك على الإطلاق. شعرت آن بالسعادة لأنّ أحدهم يطلب مساعدتها ويكلّفها ببعض الواجبات، وقطعاً لم يكن لديها مانعٌ من البقاء في بلدتها العزيزة في الرّيف، فوافقت على البقاء.

ساعدت دعوة ماري تلك في حلّ كلّ مشكلات الليدي راسيل، فاتّفقوا بعدها على أنّ آن لن تذهب إلى باث إلى أن تصطحبها الليدي راسيل، وأنّها ستقضي وقتها، حتى ذلك الحين، ما بين البيت الرّيفيّ في أبركروس وبيت كيلينتش.

كانت الأمور تسير على ما يرام حتى فوجئت الليدي راسيل بجزءٍ من خطّتهم في قصر كيلينتش رأت أنّه مُجافٍ للصّواب. فقد كانت السيّدة كلاي ستذهب مع السيّر والتر وإليزابيث إلى باث لتلعب دور المساعدة التي لا غنى عنها لتلك الأخيرة في كلّ المهامّ الملقاة على عاتقها. شعرت

الليدي راسيل بالأسف لأنهم لجأوا إلى ذلك، كما شعرت بالقلق والحزن والخوف من الأثر الذي ستخلّفه تلك الإهانة في نفس آن.

فأن يُنظر إلى السيّدة كلاي على أنّها ذات فائدة كبيرة، بينما يُنظر إلى آن على أنّها بلا أدنى فائدة، كان إهانةً بالغة.

كانت آن نفسها قد اعتادت مثل تلك الإهانات، ولم تعد تتأثر بها، ولكنّها شعرت بمدى طيش ذلك التصرّف، تمامًا مثلما شعرت به الليدي راسيل. ولأنّها كانت تتمتع بقوة الملاحظة، وتعرف جيّدًا طبيعة شخصيّة والدها، التي كانت تتمنى أحيانًا لو أنّها لم تكن على دراية بها إلى هذا الحدّ، فقد كانت تدرك النتائج الخطيرة التي قد تترتب عليها مثل هذه العلاقة وتتأثر بها الأسرة. لم تكن تعتقد أنّ والدها منشغل بالتفكير في الأمر في الوقت الحالي. فقد كان وجه السيّدة كلاي مغطّى بالنمش، ولديها أسنان بارزة، كما كانت تعاني من مشاكل في الرّسغ، وكان والدها يعلّق على ذلك بقسوة في غيابها. ولكنّها كانت شابّةً، وحسنة المظهر في العموم، وتتمتع بالهدوء والدّكاء، وتحرص على إرضاء الغير. وقد كانت تلك الصّفات أكثر خطورةً من أيّ صفاتٍ أخرى تخصّ المظهر فحسب.

شعرت آن بمدى خطورتها، لدرجة أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من توضيح الموقف لشقيقتها. لم تأمل كثيرًا في أن يكون التّجّاح حليفها، ولكن إن وقع الأمر بالفعل فستكون إيزالبيث في موقفٍ يستدعي الشّفقة أكثر منها، ولن تمنحها سببًا لتؤنّبها لاحقًا لأنّها فشلت في تحذيرها.

تحدّثت معها في الأمر، وبدا أنّها لم تفعل شيئًا سوى إثارة حنقها فحسب. لم تستطع إيزالبيث أن تتخيّل كيف خطرت ببالها مثل تلك الفكرة السّخيفة، وقالت بغضبٍ إنّ كلّ طرفٍ يدرك مكانته جيّدًا.

ردّت بحرارة قائلة: «السّيّدة كلاي لا تنسى مكانتها أبدًا، ولأنّني أعرف أفكارها أفضل ممّا تعرفينها أنت، يمكنني أن أوّكد لك أنّها في غاية التّهذيب فيما يتعلّق بموضوع الزّواج. فهي تستنكر تمامًا عدم التّكافؤ في المكانة والمركز الاجتماعيّ أكثر من معظم النّاس. أمّا بالنّسبة إلى والدي، فلا أعتقد أنّنا يجب أن نشكّ فيه الآن، بعد أن بقي دون زواجٍ لأجلنا طوال هذا الوقت. لو كانت السّيّدة كلاي امرأةً جميلةً بالفعل، لاتفقتُ معك حينئذٍ على أنّي مخطئةٌ في إبقائها بصحبتي بهذا القدر، مع أنّي واثقةٌ تمامًا أنّه لا يوجد شيءٌ في هذا العالم قادرٌ على أن يجعل والدي يتزوّج زواجًا غير متكافئٍ، حتى وإن كان يشعر بالتّعاسة. ولكنّ السّيّدة كلاي

المسكينة، بالرغم من كلِّ ميزاتِها، لا يمكن عدُّها جميلةً بأيِّ حالٍ من الأحوال! وأعتقد حقًّا أنَّ وجود السيِّدة كلاي هنا آمنٌ تمامًا. قد يتخيَّل المرء أنَّك لم تسمعي والدي أبدًا وهو يتحدَّث عن سوء طالعها، مع أنَّي أعلم أنَّك قد سمعته على الأقلِّ خمسين مرَّة. بأسنانها تلك! وذلك النَّمش! لا أشعر بالتُّفور من النَّمش بالقدر الذي يشعر به هو، فقلَّة أولئك الذين أعرفهم ممَّن لم يشوِّه ملامحهم بعضُ النَّمش، أمَّا هو فإنَّه لا يطيقه على الإطلاق. لا بدَّ وأنَّك سمعته يتحدَّث عن النَّمش الذي يغطِّي وجه السيِّدة كلاي».

ردَّت آن قائلةً: «لا يوجد تقريبًا أيُّ عيبٍ في مظهر الشَّخص لا يمكن أن يعتاده المرءُ تدريجيًّا إنَّ كان صاحبه يتحلَّى بسلوكيَّاتٍ محبِّبة».

ردَّت إليزابيث بخشونة: «أخالفك الرأْي. قد يُبرز السُّلوك اللَّطيف من جمال الملامح، ولكن لا يمكنه أبدًا تغيير الملامح القبيحة. وعلى كلِّ حالٍ، لديَّ ما أخسره أكثر من أيِّ شخصٍ آخر، ولذا لا أعتقد أنَّه من الضَّروريَّ أن تقدِّمي لي أنت النصيحة».

ولكنَّ آن قدّمت لها النصيحة، وشعرت بالرّاحة لأنّها انتهت من الأمر، ولم تفقد الأمل تمامًا في كونها قد أسدت لها معروفاً، فمع أنّ إليزابيث استاءت من شكوكها تلك، إلّا أنّها قد تزيد من انتباهها إلى الأمر.

كانت آخر مهمّة موكلةٍ للعربة بخيولها الأربعة هي توصيل السيّر والتر والآنسة إليوت والسيدة كلاي إلى باث. بدأوا رحلتهم بمعنويّات مرتفعة، وانحنى السيّر والتر بتعالٍ لكلّ المستأجرين بالأراضي المحيطة بالقصر، والقاطنين بها، الذين ظهروا في طريقه. وفي الوقت نفسه سارت آن بهدوءٍ بئسٍ متّجهةً نحو البيت الذي ستقضي فيه أسبوعها الأوّل.

لم تكن صديقتها في حالةٍ معنويّةٍ أفضل بكثيرٍ من حالتها. فقد تأثّرت الليدي راسيل للغاية بهذا الانقسام في الأسرة. كانت كرامتهم تهمّها تمامًا، مثلما تهمّها كرامتها، وصار اتّصالها اليوميّ معهم عزيزاً عليها بحكم العادة. شعرت بالألم وهي ترى بيتهم خاوياً، وكان الأفطع من ذلك أن تنتظر رؤية قاطني المكان الجدد. وحتى تهرب من الوحدة، ومن كآبة البلدة، وقد تغيّرت إلى هذا الحدّ، وتبتعد عن طريق الأدميرال كروفت وزوجته عند وصولهم، قرّرت أن ترحل عن بيتها حين تضطرّ إلى فراق آن. ولذا، فقد رحلتا معاً، ونزلت آن عند البيت الرّيفيّ في أبركروس في بداية الطّريق من

رحلة الليدي راسيل. كانت أبركروس قريةً متوسطة الحجم، وقد كانت - حتى بضعة أعوام مضت - مبنيةً بالكامل على الطراز الإنجليزي القديم، وفيها منزلان فحسب، يمتاز مظهرهما عن مظهر بيوت الفلاحين والعمال: منزل الإقطاعي صاحب الأراضي، بأسواره العالية، وبواباته العظيمة، وأشجاره القديمة، والذي كان فخمًا وعتيقًا، وبيت الكاهن الصغير والضيق، الذي تحيط به حديقة خاصة أنيقة، بها كرمة عنب، وشجرة كمثرى تنمو حول النوافذ. ولكن عند زواج الإقطاعي الشاب، ابن مالك الأرض، شهدت القرية تطوير إحدى المزارع، وتحويلها إلى بيت ريفي لقيم فيه. وكان ذلك البيت الريفى في أبركروس، بشرفته ونوافذه التي على الطراز الفرنسي، وبجمال مظهره، يلفت أنظار المسافرين تمامًا مثل البيت الكبير بحجمه الضخم، ومظهره التقليدي، والذي يبعد عنه بمسافة ربع ميل.

مكثت آن هناك مرّات عديدة من قبل. وكانت تعرف العادات المتبعة في أبركروس، تمامًا كما تعرفها في كيلينتش. كانت الأسرتان تلتقيان باستمرار، وتتزاوران في جميع ساعات النهار، ولذلك كان الأمر بمثابة مفاجأة حين وجدت ماري وحدها. ولأنّها كانت وحيدة، كان من الطبيعي أن تشعر بالمرض وتدنّي روحها المعنوية. ومع أنّها كانت أقوى بنية من شقيقتها الكبرى، إلّا أنّ ماري لم تكن تتمتع بعقل آن أو بطباعها. فعندما تكون

بصحة جيّدة، وتشعر بالسّعادة وهي محاطة بالآخرين الذين يعتنون بها،
يعتدل مزاجها وترتفع روحها المعنويّة. ولكنّ أيّ اعتلال في الصّحة كان
كفيلاً بجعلها تشعر بتعاسة بالغة. فهي لم تكن تعرف كيف تقضي الوقت
بمفردها، ولمّا كانت قد ورثت قدرًا لا بأس به من أنانيّة آل إليوت، فقد
كانت تميل إلى إضافة الشّعور بأنّها مهملة، وبأنّ الآخرين يسيئون معاملتها،
إلى مشاكلها الأخرى. أمّا بخصوص هيئتها، فقد كانت أقلّ جمالًا من
شقيقتها، وحتى حين كانت في أوج جمالها، لم تبلغ أبدًا إلاّ درجة حسن
المظهر فحسب. تمدّدت على الأريكة الباهتة في غرفة الاستقبال الصّغيرة
والأنيقة التي أخذ أاثانها الأنيق يهترئ تدريجيًّا بعد مرور أربع سنواتٍ، وفي
وجود طفلين. عندما جاءت آن، استقبلتها قائلةً:

«ها قد أتيت أخيرًا! بدأتُ أعتقد أنّي لن أراك أبدًا. أنا مريضةٌ لدرجة أنّي
بشقّ الأنفس قادرةٌ على الكلام. ولم أر مخلوقًا طوال النّهار».

ردّت آن قائلةً: «يؤسفني أن أجذك مريضةً هكذا. فقد أرسلت لي خطابًا
يحمل أخبارًا طيّبةً عنك يومَ الخميس!». »

«أجل، فقد تحمّلتُ الأمر بشجاعةٍ، كما هي عادتي دومًا. ولكنني كنت مريضةً للغاية ساعتئذٍ. لا أعتقد أنني عانيتُ من المرض طوال حياتي، كما عانيتُ في هذا الصّباح. قطعًا لستُ في حالةٍ تسمح بأن أكون وحدي هكذا. فلنفترض أنني أصبت بنوبةٍ شديدةٍ مفاجئةٍ ولم أتمكن من قرع الجرس! أرى أن الليدي راسيل لم تترجّل من العربة. لا أعتقد أنها زارت هذا البيت ثلاث مرّاتٍ خلال هذا الصّيف».

ردّت آن بما يليق، وسألتها عن زوجها. «أوه! ذهب تشارلز للصّيد. لم أره منذ السّاعة السّابعة. ذهب بالرّغم من أنني أخبرته أنني مريضةٌ للغاية. قال إنّه لن يتأخّر، ولكنّه لم يعد، وها قد شارف الوقت السّاعة الواحدة. أوكد لك أنني لم أر مخلوقًا طوال النّهار».

«أليس ولدك برفقتك؟».

«أجل، ما دمتُ قادرةً على تحمّل ضجيجهما. ولكن من الصّعب التّحكّم فيهما، لدرجة أنّ وجودهما يضرُّ أكثر ممّا يفيد. تشارلز الصّغير لا يعير كلامي أيّ اهتمامٍ على الإطلاق، ووالتر يكاد يصير مثله تمامًا».

رَدَّتْ آن بنبرةٍ يغلب عليها الابتهاج: «ستشعرين بتحسُنِ الآن، فأنت تعلمين أنني دومًا ما أساعدك على الشِّفاء عندما آتي لزيارتك. كيف حال جيرانك في البيت الكبير؟».

«ليس لديّ ما أخبرك به عنهم، فلم أرَ أحدًا منهم اليوم، فيما عدا السيّد ماسجروف الذي مرّ وبادلني الحديث من النّافذة فحسب، دون أن يترجّل عن جواده. ومع أنني أخبرته بأنني مريضةٌ، لم يزرني أحدٌ منهم. لا أعتقد أنّ الزّيارة كانت مناسبةً للآنستين ماسجروف، فهما لا تحبّان أن تحمّلا نفسيهما أيّ عناء».

«لعلّك ترينهما قبل انقضاء النّهار؛ فالوقت ما يزال مبكرًا».

«يمكنني أن أقول بكلّ ثقةٍ إنني لا أرغب في رؤيتهما أبدًا. فهما تثرثران، وتضحكان، لدرجةٍ تزيد عن الحد وتزعجني. أوه، أنا مريضةٌ للغاية يا آن! كانت قسوةً منك ألا تأتي يوم الخميس».

«يا عزيزتي ماري، تذكّري رسالتك التي أرسلتها إليّ وقلتِ فيها إنك بخير! لقد كتبته بأسلوبٍ يغلب عليه طابع المرح، وقلتِ إنك في أحسن حالٍ،

وإنَّكَ لا تتعجَّلين قدومي. وفي تلك الحالة كان عليك أن تدركي أنَّني سوف أرغب في البقاء مع الليدي راسيل حتى آخر لحظة. وإلى جانب رغبتني في البقاء معها كنتُ منشغلةً للغاية، ولديَّ الكثير لأنتهي منه، بحيث لم أكن لأتمكَّن من مغادرة كيلينتش قبل ذلك».

«يا إلهي! تُرى ما الذي كان عليكِ الانتهاء من إنجازه؟».

«الكثير من الأشياء. يمكنني أن أوَّكِّد لك أنَّها أكثر ممَّا أستطيع تذكُّره في هذه اللَّحظة. ولكن بمقدوري أن أعدِّد لك بعضًا منها. لقد أعددت نسخةً إضافيةً من القائمة التي تضمُّ عناوين كتب والدي ولوحاته. كما زرت الحديقة عدَّة مرَّاتٍ مع ماكنزي، وأنا أحاول أن أفهم، وأشرح له أيُّ من نباتات إليزابيث مخصَّصٌ لليدي راسيل. كما كانت لديَّ مشاغلي الخاصَّة: ترتيب كتبي وأسطواناتي الموسيقيَّة، وإعادة ترتيب صناديق أمتعتي؛ ذلك أنَّني لم أعرف في الوقت المناسب كيف كانوا ينتوون ترتيب العربات. كما كانت لديَّ مهمَّةٌ أخرى أكثر إرهابًا يا ماري، وهي زيارة كلِّ منزلٍ تقريبًا في الأبرشيَّة لوداعهم. قيل لي إنَّهم يتمنَّون ذلك. وكلُّ هذه الأشياء تستغرق الكثير من الوقت».

«أوه، حسنًا». ثم واصلت قائلةً بعد لحظةٍ من الصَّمْت: «ولكنَّك لم تسأليني ولو سؤالاً واحداً عن حفل العشاء عند آل بول بالأمس».

«هل ذهبت إذن؟ لم أسأل لأنني افترضت أنك اضطرتت إلى التَّخَلُّف عن الحفل».

«أوه! أجل، لقد ذهبت. فقد كنتُ بصحَّةٍ جيِّدةٍ بالأمس، ولم أشعر بأيِّ مشكلاتٍ صحِّيَّةٍ حتى صباح اليوم. كان الأمر سيبدو غريباً لو لم أذهب».

«أنا سعيدةٌ للغاية لأنَّك كنت بحالةٍ صحِّيَّةٍ جيدة. أرجو أن تكوني قد استمتعت بالحفل».

«لم يكن حفلًا مميَّزًا. فدومًا ما يعرف المرء مسبقًا ما سوف يُقدَّم على العشاء، ومن سيحضر الحفل. ومن المتعب جدًّا عدم امتلاك عربةٍ خاصَّةٍ بنا. اصطحبني السيِّد والسَّيِّدة ماسجروف معهما، وكانت العربة مزدحمةً للغاية! فكلاهما في غاية السُّمنة، ويشغلان حيِّزًا كبيرًا! ودومًا ما يجلس السيِّد ماسجروف في مقدِّمة العربة، ولذا فقد انحشرت في المقعد الخلفيِّ، مع هينرييتا ولويزا. وأعتقد أنَّ مرضي اليوم ناتجٌ عن ذلك في الغالب».

بقليلٍ من الصَّبْر والمرح المصطنع من آن، تحسَّنت حالة ماري إلى حدٍّ كبير. استطاعت بعد فترةٍ أن تنهض لتجلس على الأريكة، وتمنَّت أن تتمكَّن من القيام عندما يحين وقت العشاء. ثمَّ نسيت الأمر، وقامت إلى الجهة المقابلة من الغرفة لترتّب باقةً صغيرةً من الزُّهور. بعد ذلك تناولت وجبةً من اللُّحوم الباردة، وشعرت بالتَّحسُّن لدرجة أنَّها اقترحت أن تذهباً للتَّزُّه.

بعد أن استعدَّتا للخروج، قالت: «إلى أين سوف نذهب؟ أعتقد أنَّك لا ترغبين في زيارة البيت الكبير حتى يأتون هم لزيارتك أوَّلاً؟».

ردَّت آن قائلةً: «ليس لديَّ أيُّ مانعٍ في هذا. لا يمكنني أن أفكِّر أبداً في التَّمسُّك بمثل هذه الرِّسميَّات مع أناسٍ أعرفهم جيِّداً، مثل السيِّدة ماسجروف وبناتها».

«أوه! ولكن من الواجب عليهم أن يأتوا لزيارتك في أقرب وقتٍ ممكن. عليهم أن يعرفوا واجبهم تجاهك، بصفتك شقيقتي أنا. ولكن لا بأس إن ذهبنا بزيارة قصيرةٍ فحسب. وبعد الانتهاء من الزِّيارة يمكننا أن نستمتع بنزهتنا».

لطالما اعتقدت أنّ التَّعامل بهذا الأسلوب ضربٌ من الحماقة، ولكنّها كَفَّتْ عن محاولة تغيير الأمر، إذ إنّها باتت مقتنعةً أنّه بالرَّغم من اختلاف سلوكيّات كلا الأسرتين، لم تكن أيُّ منهما قادرةً على تغيير طريقة التَّعامل هذه. لذا، توجَّهتا إلى البيت الكبير، وقضيتا نصف ساعةٍ في غرفة الاستقبال العتيقة، المربَّعة الشكل، حيث فُرشت سجادةٌ صغيرةٌ على الأرض اللامعة. عمَّت الفوضى الغرفة بسبب بنات الأسرة، فكان يتكدَّس فيها بيانو ضخّم، وقيثارةٌ، وحوامل للزُّهور، وطاولاتٌ صغيرةٌ تناثرت في كلّ جانب. آه لو تمكَّن الأشخاص الذين ارتسمت وجوههم في اللّوحات المعلّقة على الألواح الخشبيّة، التي كست الجدران، من مشاهدة ما يدور هنا! آه لو كان الرّجال المتسربلون بالمخمل البنيّ، والسّيّدات المتوشّحات بالسّاتان الأزرق، على درايةٍ بكلّ هذا الإهمال والفوضى! بدت اللّوحات نفسها وكأنّها تحدّق في دهشة.

كان آل ماسجروف مثل منازلهم تمامًا، في حالةٍ من التَّجَدُّد، وربّما التَّحسُّن. فقد كان الأب والأمُّ على الطّراز الإنجليزيّ القديم، بينما كان أبنائهم الشّباب على الطّراز الحديث. كان السيّد ماسجروف وزوجته يتّصفان بالطّيبة والودّ وكرم الضّيافة. ولكنّهما لم ينالا قسطاً وافراً من التَّعليم، وكانا يفتقران إلى الأناقة. بينما كان أبنائهما يتمتّعون بتفكيرٍ

وبسلوكياتٍ أكثر حداثة. كانت الأسرة كبيرةً، ولكنّ الأبناء البالغين، بخلاف تشارلز، كانتا هينرييتا ولويزا فحسب. كانتا شابّتين في الثّاسعة عشرة والعشرين من العمر، اكتسبتا من الدّراسة في إكزيتير كلّ المهارات المألوفة، وصارتا الآن مثل آلاف الشّابّات الأخريات تعيشان حياةً يغلب عليها طابع الأناقة والسّعادة والمرح. اتّسمت ملبسهما بالأناقة، وملا محهما بالجمال، وطباعهما بالطّيبة. كان سلوكهما طبيعيّاً غير متكلّفٍ ولطيفاً. كانت لهما مكانتهما في المنزل، كما كانتا محبوبتين بين النّاس خارجه. لطالما عدّتهما آن من أكثر معارفها إحساساً بالسّعادة. ولكن مع ذلك، ولأنّنا جميعاً نشعر بنوعٍ من التّعالي والتّفوق على الآخرين، يمنعا من تمّني استبدال مكانهم بمكاننا، لم تكن لتتخلّى عن تفكيرها الرّاقى مقابل كلّ متعهما تلك. لم تشعر بالغيرة منهما، سوى بسبب ذلك التّفاهم والتّوافق التّامّ بينهما، وذلك المرح وتلك المودّة المتبادلة التي افتقدتها هي مع شقيقاتها.

استقبلنا بحفاوةٍ كبيرة. لم يبد أنّ أيّ شخصٍ من قاطني البيت الكبير تعمّد الإساءة، وكانت آن تعرف أنّهم بصفةٍ عامّةٍ قلّما يكونون السّبب في المشكلات. انقضت نصف ساعةٍ في تبادل الثّروة اللّطيفة، ولم تفاجأ في النّهاية عندما دعت ماري الآنستين ماسجروف للانضمام إليهما في نزهتهما.

لم تكن آن في حاجةٍ إلى هذه الزَّيَّارة لأبركروس كي تدرك أنَّ الانتقال من بين مجموعةٍ من الأشخاص إلى مجموعةٍ أخرى، ولو على مبعدة ثلاثة أميالٍ فحسب، عادةً ما يستتبع تغييرًا كليًّا في مواضيع الحديث والآراء والأفكار. لم يسبق وأن جاءت للإقامة هنا دون أن تخطر في بالها تلك الفكرة، ودون أن تتمنَّى أن يدرك باقي آل إليوت، مثلما أدركت هي، أنَّ النَّاسَ هنا لا يعرفون شيئًا، ولا يهتمُّون بتلك الأمور التي تُعدُّ شائعةً وذاتَ أهميَّةٍ عامَّةٍ في قصر كيلينتش. ولكنَّها، ومع كلِّ خبرتها هذه، أدركت أنَّ عليها أن تتعلَّم درسًا جديدًا، وهو أن يدرك المرء أنَّ أهميَّته تكاد تنعدم خارج دائرته الخاصَّة. فقد جاءت وقلبها مثقلٌ بذلك الموضوع الذي انشغل به كلا البيتين في كيلينتش طوال أسابيع عديدة، وتوقَّعت أن تلقى درجةً من الفضول والتَّعاطف أكبر من تلك التي وجدتها في العبارة التي كرَّرها كلُّ من السيِّد والسيِّدة ماسجروف على حدةٍ مع اختلافٍ طفيفٍ: «حسنًا يا آنسة آن، ها قد رحل السيِّر والتر وشقيقتك. في أيِّ منطقةٍ من باث تعتقدين أنَّهما سيستقرَّان؟»، ولم ينتظرا حتى الحصول على جوابٍ منها. وأضافت بناتهما قائلاتٍ: «أتمنَّى أن نذهب نحن إلى باث في فصل الشتاء. ولكن تذكَّر يا أبي، إن ذهبنا بالفعل، فعلينا اختيار مكانٍ جيِّدٍ، لا

واحدًا من تلك الأماكن القديمة!». وأضافت ماري بقلق: «يا إلهي! سأكون أفضل حالًا عندما ترحلون وتذهبون جميعًا إلى باث للاستمتاع بوقتكم!».

كلُّ ما كان بوسعها أن تفعله هو أن تحاول تفادي خداع النَّفس بهذه الصُّورة مرَّةً أخرى في المستقبل، وأن تقدِّر بشدَّةٍ مدى أهمِّيَّة وجود صديقةٍ تتعاطف معها، مثل الليدي راسيل.

انشغل رجال آل ماسجروف بحماية أراضيهم، وبالصيد، وبخيولهم، وبكلاب صيدهم، وبقراءة الصُّحف. أمَّا السيِّدات فقد انشغلن تمامًا بالواجبات المنزليَّة المعتادة، وبالجيران، والأزياء، والرَّقص، والموسيقى. أدركت أنَّه من الطَّبيعي أن تفرض كلُّ دائرة اجتماعيَّة صغيرة اهتماماتها الخاصَّة، وتمنَّت ألاَّ ينقضي الكثير من الوقت قبل أن تصبح فردًا مقبولًا بين أفراد تلك الدَّائرة التي انتقلت إليها. ولمَّا كانت ستقضي شهرين على الأقلِّ في أبركروس، صار من الواجب عليها أن تصبغ خيالها، وذكرياتِها، وكلَّ أفكارها، بطابع أبركروس بقدر ما تستطيع.

لم تحمل همًّا بخصوص هذين الشَّهرين، إذ لم تكن ماري باردةً وتفتقر إلى مشاعر الأخوَّة، كما كان شأن إليزابيث، كما لم يكن من الصَّعب

التأثير فيها أيضاً. ولم يكن هناك شيء آخر في البيت الرّيفيّ يقلّل من راحتها. فقد كانت علاقتها طيبةً بزوج شقيقتها. وشكّل الولدان اللذان كانا يحبّانها بنفس مقدار حبّهما لوالدتهما تقريباً، ويحترمانها بدرجة أكبر بكثير، مصدرَ اهتمامٍ وتسليّةٍ وانشغالٍ لها.

اتّصف تشارلز ماسجروف بالكياسة واللّطف. كان يفوق زوجته بلا شكّ برجاجة العقل وحُسن الطّباع، ولكن لم يكن هناك شيء في قدراته وحديثه أو كياسته تجعلها تندم على رفضها له في الماضي، بعد تقاربهما في الوقت الحالي. ولكنّ آن اتّفقت مع اللّيدي راسيل في الوقت نفسه على أنّه كان من الممكن أن يحسّن من نفسه بدرجة كبيرة لو أنّه ارتبط بزواج أكثر تكافؤاً، وعلى أنّ امرأة أكثر ذكاءً كان سيكون بمقدورها أن تجعل شخصيّته أكثر مهابةً، وأن تجعل عاداته واهتماماته أكثر فائدةً وتعلّلاً وأناقة. ولكنّه بطبيعة الحال لم يكن يهتمّ بشيءٍ عدا الرّياضة، وكان يضيّع وقته دون الاستفادة منه في قراءة الكتب أو أيّ شيء آخر. كانت طباعه مرحةً، ولم يبد عليه التّأثّر بتدنّي الرّوح المعنويّة لزوجته بين حينٍ وآخر. بل كان يتحمّل تصرّفاتهما اللاّعقلانيّة أحياناً إلى درجة أثارت إعجاب آن. وفي المجمل، وبالرّغم من بعض الخلافات البسيطة المعتادة (والتي كثيراً ما كانت تصير هي طرفاً فيها بدرجة أكبر ممّا كانت ترغب؛ بحكم أنّ كلا

الطرفين كانا يلجآن إليها)، كان من الممكن اعتبارهما زوجين سعيدين. لطالما اتفقا في رغبتهما في المزيد من المال، وفي ميلهما الشديد إلى تلقي الهدايا الثمينة من والده. ولكن كانت له الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع، وفي معظم الموضوعات الأخرى أيضاً، فكلّما رأت ماري أنّه من المؤسف للغاية أنّهما لم يتلقيا تلك الهدايا، كان دائماً يجادلها قائلاً إنّ لدى والده أشياء أخرى كثيرة ينفق عليها ماله، وإنّ له الحقّ في التصرّف في ذلك المال كيفما شاء.

أمّا بخصوص تربية ولديهما، فقد كانت آراؤه أفضل كثيراً من آراء زوجته، ولم تكن ممارساته الفعلية سيئة بنفس قدر ممارساتها هي. «بوسعي التعامل معهما جيّداً، لولا تدخل ماري». كثيراً ما سمعته آن يردّد ذلك، وكانت مقتنعةً بقوله هذا إلى درجة كبيرة. وعندما كانت تسمع عتاب ماري وهي تقول إنّ «تشارلز يدلّل الولدين إلى درجة لا يمكنني معها أن أجعلهما يلتزمان بأيّ نوع من أنواع النظام»، لم تشعر أبداً بالرغبة في موافقتها والردّ قائلةً: «معك كلّ الحق».

بيد أنّ واحداً من أكبر عيوب إقامتها هناك، كان أنّ الجميع يعاملونها بثقة زائدة، ويسرّون إليها بمشاكل كلا البيتين. وإذا كان من المعروف أنّ

لها تأثيراً في شقيقتها، كان الجميع يطلبون منها باستمرارٍ أو على الأقلٍ يلمّحون لها بأن تستغلّ تأثيرها ذاك بدرجةٍ تفوق ما هو ممكنٌ في الواقع. كان تشارلز يقول لها: «ليتك تتمكّنين من إقناع ماري بالألا تظنّ نفسها مريضةً، هكذا على الدوام». بينما كانت ماري تقول، وهي في حالةٍ مزاجيّةٍ سيّئة: «أعتقد أنّ تشارلز، حتى لو شاهدني أموت، لن يقتنع بأنني أعاني من شيءٍ ما. أنا متأكّدة أنّك لو حاولت يا آن، لاستطعت إقناعه بأنني مريضةٌ بالفعل، أكثر بكثيرٍ مما أبدو عليه في الواقع».

أعلنت ماري قائلةً: «كم أكره إرسال الولدين إلى البيت الكبير، مع أنّ جدّتهما ترغب دائماً في رؤيتهما؛ فهي تلبي رغباتهما، وتدللّهما إلى درجةٍ كبيرة، وتقدّم لهما الكثير من الطّعام غير الصّحّي والحلوى، لدرجة أنّهما يعودان وهما يعانيان من المرض واعتلال المزاج لبقية اليوم». وانتهزت السيّدة ماسجروف أوّل فرصةٍ لتنفرد بآن كي تقول لها: «أوه، يا آنسة آن! لا يسعني إلّا أن أتمنّى لو كانت السيّدة تشارلز تتمتع بذات أسلوبك في التّعامل مع الولدين. فهما يبدوان مختلفين تماماً عندما يكونان بصحبتك! ولكنّهما، بصفةٍ عامّة، مدللّان للغاية بكلّ تأكيد! من المؤسف أنّه لا يمكنك إسداء النّصح إلى شقيقتك بخصوص تربيتهما. يمكنني القول - دون تحيّزٍ - إنّ الفتيين العزيزين المسكينين على أكبر قدرٍ من الوسامة

وبصحةٍ جيِّدةٍ، ولكنَّ السيِّدة تشارلز لا تدري أيَّ شيءٍ عن أسلوب التَّعامل معهما! فليرحمني الرَّبُّ، كم يكونان في غاية الإزعاج أحياناً! أوَّكد لك يا آنسة آن أنَّ ذلك يجعلني لا أرغب في زيارتهما لمنزلنا بالقدر الذي كنت سأودُّه في ظروفٍ أخرى. وأعتقد أنَّ السيِّدة تشارلز تشعر بالضيق لأنَّني لا أدعوها لزيارتنا بدرجةٍ أكبر. ولكنَّك تعلمين كم هو مزعجٌ أن يضطرَّ المرء إلى البقاء بصحبة أطفالٍ يحتاج إلى تفقُّدهم طوال الوقت، «لا تفعل هذا، ولا تفعل ذاك»، أو إلى تقديم الكعك لهم بكميَّاتٍ غير صحيَّةٍ ليتمكَّن من السَّيطرة على سلوكهم».

كما قالت لها ماري: «تعتقد السيِّدة ماسجروف أنَّ جميع خَدَمِها محلُّ ثقةٍ، لدرجة أنَّها ستعدُّ الأمر نوعاً من الخيانة لو شكَّك فيهم أحد. ولكنَّني واثقةٌ بلا مبالغةٍ بأنَّ كبيرةَ خَدَمِها، وكذلك الخادمة المسؤولة عن غسيل الملابس، تتسكَّعان في القرية طوال النَّهار بدلاً من القيام بالأعمال المنوطة بهما. فكلَّما ذهبتُ إلى مكانٍ التقيتهما، وأوَّكد لك أنَّه لا يمكنني حتى الدَّهاب إلى غرفة الأولاد دون أن أجدهما هناك. ولو لم تكن جيمايما أكثر مخلوقٍ رصينٍ وأهلٍ للثَّقة في هذا العالم، لكانتا قد أفسدتاها. فقد أخبرتني أنَّهما دائماً ما تحاولان إغراءها بالدَّهاب للتَّنزه بصحبتهما».

أَمَّا مِنْ جَانِبِ السَّيِّدَةِ مَاسْجُوفٍ، فَقَدْ قَالَتْ: «عَادَةً مَا أَمْتَنَعُ عَنِ التَّدْخُلِ فِي أَيِّ شَأْنٍ تَخَصُّ زَوْجَةَ ابْنِي، فَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَلِيقُ. وَلَكِنِّي سَأُخْبِرُكَ أَنْتَ يَا آنَسَةُ آنَ، فَرَبَّمَا كَانَ بِمَقْدُورِكَ إِصْلَاحُ الْوَضْعِ. إِنِّي لَا أَحْسِنُ الظَّنَّ كَثِيرًا فِي مَرْبِيَةِ أَوْلَادِ السَّيِّدَةِ تشارلز، وَتَبْلَغْنِي عَنْهَا حِكَايَاتُ غَرِيبَةٍ. فَهِيَ دَائِمًا مَا تَتَسَكَّعُ فِي الطَّرِيقَاتِ، وَيُمْكِنُنِي الْقَوْلُ، مِنْ خِلَالِ خَبْرَتِي الشَّخْصِيَّةِ، إِنَّهَا سَيِّدَةٌ أُنِيقَةُ الْمَلْبَسِ بِدَرَجَةٍ تَكْفِي لِإِفْسَادِ أَيِّ خَدَمٍ آخَرِينَ تَتَعَامَلُ مَعَهُمْ. أَعْرِفُ أَنَّ السَّيِّدَةَ تشارلز تَتَّقُ بِهَا لِلْغَايَةِ، وَلَكِنِّي أَكْتَفَيْتُ بِالتَّلْمِيحِ لَكَ أَنْتَ بِهَذَا كَيْ تَرَاقِبِي الْأُمُورَ. فَلَا دَاعِي لِأَنْ يَخْشَى الْمَرْءُ مِنْ تَحْذِيرِ الْغَيْرِ لَوْ لَاحِظَ أَنَّ هُنَاكَ أَمْرًا مَا يَشِيرُ الْقَلْقُ».

وَفِي مَنَاسِبَةٍ أُخْرَى، اشْتَكَتْ مَارِي قَائِلَةً إِنَّ السَّيِّدَةَ مَاسْجُوفَ لَا تُظْهَرُ لَهَا الْإِحْتِرَامُ الَّذِي تَسْتَحِقُّهُ، بِصَفَتِهَا ابْنَةَ بَارُونِيَّتٍ، عِنْدَمَا يَذْهَبُونَ لِتَنَاوُلِ الْغَدَاءِ فِي الْبَيْتِ الْكَبِيرِ مَعَ بَعْضِ الْأَسْرَ الْأُخْرَى. وَلَمْ تَكُنْ تَرَى أَيَّ مَبَرِّرٍ لاعتبارها وكأنَّها فِي بَيْتِهَا، إِلَى دَرَجَةٍ تُفْقِدُهَا الْمَكَانَةَ الَّتِي تَسْتَحِقُّهَا. وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، عِنْدَمَا كَانَتْ آنَ تَتَنَزَّهَ بِصَحْبَةِ الْآنِسْتَيْنِ مَاسْجُوفَ وَحَدَهُمَا، قَالَتْ إِحْدَاهُمَا فِي مَعْرُضِ الْحَدِيثِ عَنِ الطَّبَقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَأَصْحَابِ الْمَكَانَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالْغَيْرَةِ مِنْ أَصْحَابِ الْمَكَانَةِ: «لَيْسَ لَدَيَّ أَيُّ حَرْجٍ يَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أَتَحَدَّثَ مَعَكَ أَنْتَ حَوْلَ مَدَى سَخَافَةِ بَعْضِ الْأَشْخَاصِ فِي التَّمَسُّكِ

برسميّات التّعامل التي تفرضها مكانتهم الاجتماعيّة. فالجميع يعلمون مدى عدم اهتمامك وتساهلك في الأمر، ولكنني وددتُ لو أنّ أحدهم يلمّح لماري بأنّ الوضع سيكون أسهل كثيرًا لو لم تتشبّث هي بذلك الأمر، وخاصّةً لو توقّفت عن محاولاتها الدّائمة للتّقدّم واحتلال مكان والدتي. فلا أحد يشكّك في حقّها في أن تكون لها مكانة أعلى من مكانة والدتي، ولكن سيكون من اللاّئق منها ألاّ تصمّم دومًا على ذلك. ولا يعني هذا أنّ والدتي تكثرث لذلك على الإطلاق، ولكنني أعلم أنّ العديد من الأشخاص الآخرين يلاحظون الأمر».

كيف كان بوسع آن أن تحلّ كلّ هذه المشاكل؟ لم يكن بمقدورها أن تفعل ما هو أكثر من الاستماع بصبر، ومحاولة التّهوين من كلّ شكوى، وتقديم الأعذار لكلّ طرفٍ نيابةً عن الطّرف الآخر. كما لمّحت لهم بضرورة التّسامح بين الجيران القريين، وجعلت تلميحاتها التي في صالح شقيقتها عامّةً بقدر الإمكان.

ولكن من جميع التّواحي الأخرى، سارت زيارتها بشكلٍ جيّدٍ للغاية. ارتفعت روحها المعنويّة بعد تغيير المكان والأشخاص، وبعد أن ابتعدت عن كيلينتش بمسافة ثلاثة أميال. قلّت شكوى ماري من المرض، بعد أن

وجدت من يرافقها على الدوام، وكانت تعاملاتهما اليومية مع الأسرة الأخرى تُعدُّ ميزةً إذ لم تكن هناك أيُّ مشاعر ودٍّ بالغٍ أو حميميةٍ بينهما، كما لم يكن هناك شيءٌ آخر يشغلهما في المنزل. قضوا أكبر قدرٍ ممكنٍ من الوقت معاً، حيث كانوا يلتقون كلَّ صباح، ونادراً ما كانوا يفتشقون في المساء. كانت تؤمن أنَّ الوضع لم يكن ليسير بشكلٍ جيِّدٍ هكذا لولا اللقاء مع السيِّد والسيِّدة ماسجروف وهما جالسان بهيئتهما الوقورة في مكانهما المعتاد، أو بدون ثثرةٍ وضحكٍ وغناءٍ بناتهما.

كان عزفها أفضل بكثيرٍ من أيٍّ من الآنستين ماسجروف، ولكن لمَّا كانت لا تجيد الغناء أو العزف على القيثارة، ولمَّا لم يكن هناك والدان محبَّان يستمعان إليها باستمتاعٍ، لم يعر أحدٌ عزفها الاهتمامَ سوى بدافع اللياقة، أو لكي يرتاح الآخرون لبعض الوقت، وكانت هي على درايةٍ بذلك. كانت تعي أنَّها تعزف لمتعتها الشخصية فحسب، ولكنَّ هذا الشُّعور لم يكن جديداً. فباستثناء فترةٍ قصيرةٍ مضت من عمرها، لم تعرف منذ سنِّ الرَّابعة عشرة، ومنذ أن فقدت والدتها العزيزة، الشُّعور بالسَّعادة عندما يستمع أحدهم إلى عزفها، أو عندما تلقى التشجيع من شخصٍ يتمنَّع بتقديرٍ عادلٍ وذوقٍ حقيقيٍّ. اعتادت أن تشعر بأنَّها وحيدةٌ دوماً في هذا العالم وهي تعزف، وقد زاد تحيُّز السيِّد والسيِّدة ماسجروف إلى أداء

بنتيهما، وتجاهلهما التَّامُّ لأيِّ شخصٍ آخر من شعورها بالسَّعادة من أجلهما، أكثر ممَّا جعلها تشعر بالإهانة.

أحياناً كان ينضمُّ إليهم آخرون عندما يتجمَّعون في البيت الكبير. لم يكن الحيُّ الذي يقطنون فيه كبيراً، ولكنَّ الجميع كانوا يزورون آل ماسجروف؛ إذ إنَّهم كانوا يقيمون حفلات العشاء، ويستقبلون الزُّوار، الذين تَمَّت دعوتهم والذين حضروا بمحض الصدفة على حدِّ سواء، أكثر ممَّا كانت تفعل أيُّ أسرةٍ أخرى. فقد كانت لهم شعبيةٌ كبيرة.

أغرمت البنات بالرقص، بحيث كانت بعض الأمسيات تنتهي أحياناً بحفلي راقصٍ دون تخطيطٍ مسبق. كانت أسرة أبناء خالتهنَّ تقطن على مسافةٍ قريبةٍ من أبركروس، وكانوا أقلَّ ثراءً من آل ماسجروف؛ فصاروا يعتمدون عليهم لقضاء أوقات متعتهم. كانوا يأتون للزيارة في أيِّ وقتٍ، ويشاركون في لعب أيِّ شيءٍ، أو يرقصون في أيِّ مكان. ولأنَّ آن كانت تفضِّل الاكتفاء بالعزف، عوضاً عن المشاركة الفعَّالة بأيِّ طريقةٍ أخرى، كانت تعزف لهم الموسيقى للرقص الشعبيِّ لساعاتٍ طوال. وكان كرمها هذا هو ما يلفت نظر السيِّد والسيِّدة ماسجروف إلى مواهبها الموسيقيَّة أكثر من أيِّ

شيءٍ آخر، وكثيرًا ما جاملاها قائلين: «رائعٌ يا آنسة آن، رائعٌ للغاية! يا إلهي! تبدو أصابعك الرشيقة تلك وكأنّها تحلّق من فرط سرعتها!».

وهكذا انقضت الأسابيع الثلاثة الأولى، وحلَّ عيد رؤساء الملائكة، وعاد قلب آن لينشغل بكي لينتش مرّةً أخرى. فقد سكن آخرون بيتهم الحبيب، وآلت ملكيّة كلِّ الغرف العزيزة، والأثاث، والبساتين، وحتى المناظر التي تطلُّ عليها النّوافذ إلى عيون وأيدي أشخاصٍ آخرين! لم تستطع التّفكير في أيّ شيءٍ آخر في يوم التّاسع والعشرين من سبتمبر، ولاقت بعض التّعاطف في المساء من ماري التي لاحظت تاريخ اليوم فقالت: «يا إلهي! أليس اليوم هو موعد حضور آل كروفِت إلى كي لينتش؟ أشعر بالراحة لأنّني لم أذكر الأمر من قبل. كم يشعّرنني هذا بالحزن!».

جاء آل كروفِت بانضباطٍ تامٍّ يليق بالعاملين في البحريّة، وصار من الواجب زيارتهم. شعرت ماري بالرّثاء الشّدِيد لذاتها، فلا أحد يدري كم ستعاني. وأجلّت الزّيارة إلى أقصى ما استطاعت. لم تسترح حتى أقنعت تشارلز أن يقوم بتوصيلها في وقتٍ مبكّرٍ من أحد الأيّام، وعادت بعدئذٍ وهي في حالةٍ من الإثارة البالغة أورتها إيّاها خيالها. شعرت آن براحةٍ عارمةٍ لأنّها لم تتمكّن من الدّهَاب للزّيارة. ولكنّها كانت تتمنّى لو استطاعت

مقابلة آل كروفت، فأحسَّت بالسَّعادة لأنَّها ستكون موجودةً عندما يردُّون الزَّيارة. لم يكن ربُّ المنزل موجودًا عندما حضرا، ولكنَّ الشَّقِيقَتَيْنِ كانتا معاً. جلست السيِّدة كروفت إلى جوار آن، بينما جلس الأدميرال بالقرب من ماري. تصرَّف هو بلطفٍ، وداعب الولدين بوذٍّ، بينما لاحظت زوجته الشَّبه بينهما، وإن لم تجده في الملامح، فقد وجدته في نبرة الصَّوت أو في الطَّباع والتَّعبير.

لم تكن السيِّدة كروفت طويلةً ولا سمينَةً، ولكنَّها بدت مع ذلك قويَّة البنية، مفرودة القامة، ومفعمةً بالحيويَّة، ممَّا أضفى عليها طابعاً من سموِّ المكانة. كانت عيناها داكنتين لامعتين، وأسنانها بحالة جيِّدة، ولها وجهٌ مقبولٌ، على الرِّغم من بشرتها التي غلب عليها الاحمرار وأثَّرت فيها عوامل الجوِّ، إذ إنَّها قضت وقتاً طويلاً في عرض البحر، بقدر ما قضى زوجها تقريباً. وقد جعلها ذلك تبدو أكبر من سنوات عمرها الثَّمانية والثلاثين. كانت طباعها صريحةً، وسلسةً، وواثقةً، وكأنَّها لا تراودها الشُّكوك مطلقاً في نفسها، ولا فيما يتوجَّب عليها فعله، دون أن تشارف حدود الفظاظة، أو تفتقر إلى حسِّ الدُّعابة. أحسَّت آن أنَّها مدينَةٌ لها لمراعاة مشاعرها بخصوص كلِّ ما يتعلَّق بكليمنتش، وقد أسعدها ذلك. خاصَّةً وأنَّها اطمأنت من البداية، ومنذ أوَّل لحظةٍ من لحظات التَّعارف، إلى أنَّ السيِّدة كروفت

ليس لديها أدنى فكرة أو شك يجعلها تتحيز ضدها بأي طريقة. لذا، شعرت بالراحة، وامتلات بالشجاعة، حتى أصابتها الصدمة عندما قالت السيِّدة كروفت فجأةً:

«أعتقد أنَّ أخي كان له شرف معرفتك أنت، لا شقيقتك، عندما كان يقيم في هذه البلدة».

تمنَّت أن تكون قد تخطَّت العمر الذي تحمُرُّ فيه وجنتها خجلًا، ولكنها قطعاً لم تتخطَّ العمر الذي يغمرها فيه الاضطراب.

أضافت السيِّدة كروفت قائلةً: «ربَّما لم يبلغكِ أنَّه تزوَّج».

صار بمقدورها أن تجيب كما يجب، وشعرت بالراحة لأنَّها لم تقل شيئاً قد لا ينطبق على أيٍّ من الشَّقِيقين عندما أوضحت الكلمات التَّالِيَّةُ التي نطقت بها السيِّدة كروفت أنَّها كانت تقصد السيِّد وينتورث. ووجدت أنَّه من المنطقيِّ أن تفكِّر السيِّدة كروفت في إدوارد وتقصده هو، وليس فريدريك، بحديثها. أحسَّت بالخجل من سهوها هذا، واستمعت إلى أخبار جارههم السَّابق باهتمامٍ حقيقيٍّ.

انقضت بقيّة الوقت في هدوء، إلى أن نهضا للرّحيل، وسمعت الأدميرال وهو يقول لماري:

«نحن في انتظار زيارة شقيق السيّدة كروفت قريبًا. أعتقد أنّك تعرفينه بالاسم فحسب».

قاطع حديثه هجوم الصّبّيين الصّغيرين وهما يتعلّقان به، كأنّه صديقٌ قديمٌ، ويطلبان منه عدم الرّحيل. فانشغل بالحديث معهما مقترحاً أن يصطحبهما معه في جيوب معطفه، فلم يتسنّ له الوقت ليكمل أو يتذكّر الحديث الذي بدأه. ولذلك ترك آن وهي تحاول إقناع نفسها بأفضل ما تستطيع أنّه لا بدّ كان يعني بحديثه الشّقيق الأوّل نفسه. ولكنّها لم تستطع التّأكّد بدرجة كافية، بحيث تتوقّف تساؤلاتها عمّا إذا كان الموضوع قد أثير في البيت الآخر، حيث ذهب آل كروفت للزيارة أوّلاً.

كان سكّان البيت الكبير سيّاتون لقضاء مساء اليوم في المنزل الرّيفيّ. ولأنّ ذلك الفصل من العام لم يعد ملائمًا للسّير على الأقدام كلّ تلك المسافة، جلسوا يصيخون السّمع مترقّبين قدوم العربة عندما وصلت الآنسة ماسجروف الصّغيرة. كانت أوّل فكرة سيّئة خطرت في بال ماري أنّها أتت

لتعتذر، وأنَّهما ستضطرَّان لقضاء الأمسية بمفردهما. كادت ماري تشعر بالإهانة لولا أنَّ لويْزا أوضحت الأمر قائلةً إنَّها أتت سيرًا على الأقدام كي توسَّع مكانًا للقيثارة التي جلبوها معهم في العربة.

أضافت قائلةً: «وسأخبرك عن السَّبب وأوضِّح لك الأمر كلَّه. لقد حضرت لأنبِّهك أنَّ روح والدي ووالدتي المعنويَّة متدنيَّة للغاية هذا المساء، وخاصَّةً والدتي. فهي مشغولة البال للغاية بالمسكين ريتشارد! فاتَّفَقنا أنَّه من الأفضل أن نجلب معنا القيثارة، إذ إنَّها تسليُّها أكثر من البيانو. سأوضِّح لك لما تشعر بالحزن.

عندما جاء آل كروفت للزيارة هذا الصَّبَّاح (لقد أتيا إلى هنا بعد ذلك، أليس كذلك؟) ذكرا في معرض الحديث أنَّ شقيقها القبطان ويتنورث عاد للتَّوَّ إلى إنجلترا، أو أتت به الرِّيح، أو شيءٌ من هذا القبيل، وسوف يأتي لزيارتها ما إن يصل مباشرةً. ولسوء الحظِّ خطر في بال والدتي بعد رحيلهما أنَّ ويتنورث، أو اسمًا آخر شبيهًا به، كان هو اسم قبطان السَّفينة التي عمل عليها المسكين ريتشارد في وقتٍ ما، لا أدري متى أو أين، ولكنَّ ذلك كان قبل وفاة الفتى المسكين بفترةٍ طويلة! وعندما فتَّشت في رسائله، وفي أغراضه، وجدت أنَّ الأمر كذلك بالفعل، وباتت واثقةً تمام الثقة أنَّه

الرَّجُل نفسه، وانشغل بالها تمامًا به، وبالمسكين ريتشارد! ولذا علينا أن نتحلَّى جميعًا بالمرح، قدر المستطاع، كي لا يانشغل بالها بالتفكير في مثل تلك الأشياء التي تجلب الكآبة».

وكان أصل هذه الحكاية البائسة من تاريخ الأسرة هو أن آل ماسجروف نابهم سوء الطالع، فرزقوا بابنٍ مزعجٍ لا رجاء منه، ولكنَّ الحظَّ ما لبث أن تبسَّم لهم، ففقدوه قبل أن يبلغ العشرين من عمره. أرسلوه للعمل في البحر لأنَّه كان أحرق وأهوج على البرِّ، ولم يهتمَّ بأمره أيُّ من أفراد أسرته في أيِّ وقتٍ من الأوقات أكثر ممَّا كان يستحق. لم يعرفوا عنه أيَّ شيءٍ تقريباً، ولم يهتمُّوا لذلك، حتى بلغهم في أبركروس قبل عامين خبرُ وفاته في الخارج.

لم يكن في الواقع، مع أنَّ شقيقاته صرن الآن يطلقن عليه لقب «المسكين ريتشارد»، أكثر من مجرد ديك ماسجروف الأحرق عديم المشاعر وعديم الفائدة، والذي لم يفعل أيَّ شيءٍ ليستحقَّ أكثر من اسمه المختصر هذا، سواءً في حياته أو بعد وفاته.

قضى بضعة أعوامٍ في البحر، وتنقّل في عمله عدّة مرّاتٍ، كما هي طبيعة الحال مع ضبّاط البحريّة المتدرّبين، وخاصّةً أولئك الذين يرغب كلّ قبطانٍ في التخلّص منهم، وقضى ستّة أشهرٍ على متن سفينة القبطان فريدريك وينتوورث، والتي كان اسمها لاكونيا. وبينما هو على متن السفينة لاكونيا، وبإيعازٍ من قبطان سفينته، أرسل لوالديه الخطابين الوحيدين اللّذين تسلّمهما منه طوال فترة غيابه. أو بالأحرى، الخطابين الوحيدين اللّذين كتبهما دون أن تكون له مصلحةٌ من ذلك، فقد كانت جميع رسائله الأخرى مجردَ خطاباتٍ لطلب المال.

في كلا الرّسالتين، ذكر قبطان سفينته بالخير، ولكنّه لم يكن من عادتهما الانتباه إلى مثل تلك الأمور، ولم يهتمّا أو يلحظا أسماء الرّجال أو السفن، فلم تترك الرّسالة لديهما أيّ انطباعٍ حينذاك. وبعد أن تذكّرت السيّدة ماسجروف فجأةً في هذا اليوم اسم وينتوورث، وربطته بابنها، بدا الأمر وكأنّه واحدةٌ من اللّحظات الغريبة التي يحدث أحياناً أن ينشط فيها العقل فجأةً.

ذهبت لتبحث بين الرّسائل، ووجدت الأمر كما توقّعتة بالفعل. أثّرت فيها مطالعة هذه الرّسائل مرّةً أخرى بعد كلّ هذا الوقت، وبعد رحيل ابنها

المسكين إلى الأبد، وقد نسوا كلَّ أخطائه، فشعرت بالحزن لفراقه أكثر ممَّا شعرت به عندما بلغها نبأ وفاته أوَّل مرَّة. وقد تأثر السيِّد ماسجروف هو الآخر ولكن بدرجةٍ أقل. وعند وصولهما إلى البيت الرِّيفيِّ، بدا من الواضح أنَّهما في حاجةٍ أوَّلًا إلى أن يستمع أحدهم إلى حديثهما حول هذا الموضوع مرَّةً أخرى، وفي حاجةٍ بعد ذلك إلى كلِّ العون الذي يمكن أن تقدِّمه لهما الصُّحبة الطَّيِّبة المرححة.

كان الأمر بمثابة الاختبار لقوَّة أعصاب آن وهي تسمعهم يتحدثون كثيرًا عن القبطان وينتورث، ويكرِّرون اسمه، ويفكِّرون في الأعوام الماضية، وإنَّه ربَّما يكون هو نفسه القبطان وينتورث الذي يتذكِّرون أنَّهم التقوه مرَّةً أو مرَّتين بعد عودتهم من كليفتون - كان شابًّا وسيِّمًا للغاية - ولكنَّهم لم يكونوا متأكِّدين إن كان ذلك من سبع أو ثماني سنوات. ولكنَّها وجدت أنَّ عليها أن تألف الأمر. فعليها أن تعلِّم نفسها اعتياد مثل هذه النِّقاشات، طالما أنَّ زيارته للبلدة باتت متوقَّعة. ولم تكن زيارته متوقَّعةً قريبًا فحسب، بل إنَّ آل ماسجروف كانوا يشعرون بالامتنان لمعاملته الطَّيِّبة للمسكين ديك، كما باتوا يكتُّون له الاحترام بعد أن قضى المسكين ديك ستَّة أشهرٍ وهو يعمل تحت إمَّرتة، وشكر فيه بشدَّةٍ في رسالته إليهم، بالرَّغم من أخطائه الإملائيَّة:

«إنَّه شابٌّ وسيِّمٌ وأنيقٌ، ولكنَّه يبالغ في تسميمه على حدورنا(4) للدُّروس مع المعلِّم». لذا فقد عزموا على لقائه، والتَّعرف إليه بمجرد وصوله.

وقد ساهم قرارهم هذا في إحساسهم بالراحة لباقي المساء.

(4) في تسميمه على حضورنا.

بعد عدّة أيّام علموا أنّ القبطان وينتورث وصل إلى كيلينتش، فقام السيّد ماسجروف بزيارته، وعاد ليسهب في الشّاء عليه. دعاه آل كروفت لتناول الغداء في أبركروس بعد أسبوع. شعر السيّد ماسجروف بخيبة الأمل عندما لم ينجح في الاتّفاق معه على موعدٍ أبكر من ذلك، فقد كان متحمّساً لإظهار امتنانه للقبطان وينتورث من خلال استضافته في منزله وتقديم أجود وأقوى أنواع النّبذ، التي يملكها في قبوه، له. لكن يجب أن يمرّ أسبوعٌ أوّلاً. أسبوعٌ واحدٌ فقط وفقاً لحسابات آن، قبل أن يلتقوا. ولكنّها ما لبثت أن تمّنّت لو قيّض لها أن تشعر بالاطمئنان، ولو لمُدّة أسبوع.

فقد ردّ القبطان وينتورث زيارة السيّد ماسجروف قبل الموعد المتوقّع بكثير، وكادت هي تذهب إلى هناك في الوقت نفسه! كانت هي وماري في طريقهما إلى المنزل الكبير، وقد علمت بعد ذلك أنّهما كانتا ستلتقيانه لا محالة، ولكنّهما تعطلّتا عندما جاؤوا بالابن الأكبر إلى المنزل وقد أصيب إثر سقوطه بشدّة. تسبّبت إصابة الطّفل في تأجيل الزيارة، ولكنّها لم تستطع أن تتجاهل خبر إفلاتها من لقائه، حتى وسط إحساسهم لاحقاً بالقلق على الصّبي.

أصيب الطُّفل بخلعٍ في عظام التَّرْقُوة، وبإصابةٍ أخرى في الظَّهر، ما سَبَّب لهم اضطرابًا بالغًا. كان عصر ذلك اليوم مشحونًا بالقلق، وتوجَّب على آن إنجاز العديد من المهامِّ في وقتٍ واحدٍ: الإرسال في طلب الطَّبيب، وإرسال من يبحث عن الأب لإبلاغه بالخبر، ومساندة الأمِّ وتهدئتها، وتنظيم أمور الخدم، وإبعاد الطُّفل الأصغر، والاعتناء بالمُصاب وتهدئته. وعندما تذكَّرت الأمر، أرسلت خبرًا إلى المنزل الآخر، فأدَّى ذلك إلى حضور المزيد من الأشخاص القَلِقين يحملون معهم التَّساؤلات بدلًا من تقديم العون.

بحضور زوج شقيقتها، سنحت لها أوَّل فرصةٍ لتستريح قليلًا، فقد كان بمقدوره أن يعتني هو بزوجته، وازداد شعورها بالراحة حين أتى الطَّبيب. فحتى لحظة حضوره، وفحصه الطُّفل، كانت مخاوفهم أشدَّ ما تكون لجهلهم بحقيقة الوضع. كانوا يخشون أن تكون إصابته شديدةً، ولكنَّهم لم يعرفوا محلَّ الإصابة بالتَّحديد. غير أنَّ عظام التَّرْقُوة ما لبثت أن أعيدت إلى وضعها الطَّبيعي. أخذ السيّد روينسون يتحسَّسه كثيرًا، ويدلِّك جسده، وقد علت ملامحه الجدِّيَّة، قبل أن يتبادل حديثًا خافتًا مع الأب والخالة، ولكنَّهم اطمأنُّوا جميعًا، وافترقوا لتناول الغداء وقد ارتاح بالهم. وفي تلك اللَّحظة، قبل أن يرحلوا، استطردت العمَّتان الشَّابَّتان في الحديث، بعيدًا

عن حالة ابن شقيقهما، ليحكوا عن زيارة القبطان وينتورث. تخلفنا عن والديهما خمس دقائق لكي تعبّرا عن مدى انبهارهما به، وكيف أنّه أكثر وسامةً ولطفًا من أيّ من معارفهما الآخرين من الذُكور الذين كانتا تميلان إليهم من قبل، وكيف أنّهما شعرتا بالسَّعادة حين دعاه والدهما لتناول الغداء. شعرتا بخيبة الأمل حين اعتذر، ثمّ بالسَّعادة مرّةً أخرى حين استجاب لدعوات والديهما الملحّة واعدًا إيّاه بالحضور لتناول الغداء معهم في اليوم التّالي، في اليوم التّالي دون إبطاء! وقد وعدهم بذلك بأسلوبٍ لطيفٍ، كأنّه كان يستشعر الدّافع وراء اهتمامهم هذا، كما أرادوا تمامًا. باختصارٍ، كان مظهره، وكلُّ حديثه يتّصف بالرّقّيّ البالغ، بحيث يمكنهما الجزم أمام الجميع بأنّهما معجبتان به! ثمّ انصرفتا مسرعتين، وقد غمرتَهما مشاعر المرح والحُبِّ، وانشغل تفكيرهما بالقبطان وينتورث أكثر من انشغالهما بالصّغير تشارلز.

تكرّرت الحكاية نفسها، والإعجاب نفسه، مرّةً أخرى عندما حضرت الفتاتان مع والدهما في عتمة المساء للاطمئنان. ولأنّ السيّد ماسجروف لم يعد يشعر بالقلق على وريثه كما كان في بادئ الأمر، فقد أكّد على حديثهما، وأضاف مثنيًا عليه، ومتمنيًا ألا يكون هناك سببٌ الآن لتأجيل زيارة القبطان وينتورث. ولكنّه أبدى أسفه لاعتقاده أنّ سگان البيت الرّيفيّ

لن يرغبوا في ترك الصَّبِيِّ الصَّغِير في الغالب ويذهبوا للقائه. «أوه، لا! لا يمكننا أن نترك الصَّبِيِّ الصَّغِير!»، كان كلا الوالدين ما يزالان يعانيان من الاضطراب البالغ، بحيث لم يتحمَّلا الفكرة. بينما شعرت آن براحةٍ بالغةٍ للإفلات من ذلك اللِّقاء، إذ أضافت هي الأخرى احتجاجها الحارَّ إلى احتجاجهما.

ولكنَّ تشارلز ماسجروف ما لبث بعد ذلك أن أبدى ميلًا إلى الموافقة، فحالة الصَّبِيِّ تبدو مستقرَّةً للغاية، وكان يتمنَّى لقاء القبطان وينتورث. قد يذهب للانضمام إليهم في المساء. لن يتناول العشاء بعيدًا عن المنزل، بل ربَّما يذهب للجلوس معهم نصفَ ساعةٍ فحسب. ولكنَّ زوجته عارضته بشدَّة. «أوه، لا يا تشارلز! لا يمكنني أن أتحمَّل رحيلك الآن. فكَّر في الأمر. ماذا لو حدث شيءٌ ما؟».

مرَّت اللَّيلة دون مشاكل، وكانت حالة الطِّفْل مستقرَّةً في اليوم التَّالي. كان عليهم الانتظار حتى يمرَّ وقتٌ كافٍ قبل التَّأكُّد من أنَّ الحبل الشَّوكي لم يصب بأيَّة أضرار، ولكنَّ السَّيِّد روبينسون لم يجد أيَّ سببٍ يدعو لزيادة القلق، وبالنَّتيجة شعر تشارلز ماسجروف أنَّه لا يوجد أيُّ داعٍ لبقائه حبيسًا في المنزل. كان عليهم إبقاء الطِّفْل في الفراش، وتسليته بهدوءٍ قدر

الإمكان. لكن ماذا كان بوسع الأب أن يفعل؟ فهذا عملٌ يخصُّ الإناث، وسيكون من الغريب للغاية بالنسبة إليه أن يبقى حبيسًا هكذا، دون أن يكونوا في حاجةٍ إليه. كان والده يرغب في حضوره بشدةٍ ليلتقي القبطان وينتوورث. ولأنَّه لم يعد هناك أيُّ سببٍ يمنعه من ذلك، قرَّر الذهاب، وأعلن بشجاعةٍ بعد أن عاد من الصَّيد أنَّه سيبدِّل ملابسه على الفور ويذهب لتناول الغداء في المنزل الآخر.

قال: «إنَّ حالة الطِّفل مستقرَّةٌ للغاية؛ ولذا فقد أخبرت والدي الآن أنني سوف أذهب، وقد وافقني الرَّأي. وطالما أنَّ شقيقتك برفقتك يا عزيزتي، فإنَّني لا أجد أيَّ حرجٍ في الأمر. لن ترغبِي في تركه وحده، ولكن كما ترين، لا يوجد ما يمكن أن أقوم به. سترسل آن في طلبي لو حدث أيُّ شيء».

يعرف الأزواج عادةً متى لا يكون هناك فائدةٌ من الاحتجاج. وعرفت ماري من أسلوب تشارلز في الحديث أنَّه مصمَّمٌ تمامًا على الدَّهاب، وأنَّه لا جدوى من الجدل معه. ولذلك لم تقل أيَّ شيءٍ حتى خرج من الغرفة. ولكن، ما إن انفردت بأن حتى قالت:

«حسنًا! لم يبق سوانا أنا وأنت كي نتصرّف وحدنا مع هذا الطّفل المسكين المريض، ولن يأتي أيُّ مخلوقٍ آخر طوال المساء! كنت أعرف ما سيحدث. فدائمًا يكون حظّي هكذا! دائمًا يتهرّب الرّجال من الأمر في حالة حدوث أيّ مكروه، ولا يختلف تشارلز عنهم في شيء. فمشاعره منعومةٌ تمامًا! عليّ أن أقول إنّها قسوةٌ بالغةٌ منه أن يتهرّب هكذا من ابنه الصّغير المسكين وهو يدّعي أنّ حالته مستقرّة! كيف له أن يعرف أنّ حالته مستقرّة، أو أنّه لن يطرأ جديدٌ خلال نصف ساعة؟ لم أعتقد أبدًا أنّ تشارلز يمكنه أن يكون بهذه القسوة. فها هو ذاهبٌ لقضاء وقتٍ ممتع، ولأنّني أنا الأمُّ المسكينة، لا يمكنني أن أتحرك من مكاني. ولكنّني واثقةٌ أنّي أكثر شخصٍ لا يجب أن يكون بجوار الطّفل الآن. فكوني والدته هو أكثر سببٍ يدعو لمراعاة مشاعري. فلا يمكنني تحمّل الأمر. لقد رأيت بنفسك كيف كنت منهارةً بالأمس».

«ولكن لم يكن هذا سوى تأثير المفاجأة؛ تأثير الصّدمة. لن تُصابي بالانهيار ثانيةً. يمكنني القول بكلّ ثقةٍ إنّنا لن نواجه ما يسبّب لنا القلق. فأنا أفهم تعليمات السيّد روينسون جيّدًا، وليست لديّ أيُّ مخاوف. وفي الواقع يا ماري، فأنا لا أشعر بالدهشة من موقف زوجك. فالتّمرّض ليس

مهنة الرَّجل، ولا يختصُّ به هو. دائماً ما يكون الطُّفل المريض مسؤوليَّة الأمِّ، وبصفةٍ عامَّةٍ فإنَّ مشاعرها الطَّبِيعيَّة تدفعها إلى ذلك».

«أتمنَّى أن أكون مُحبَّةً للأطفال مثل أيِّ أمِّ، ولكنني لا أعتقد أنَّ لي أيَّ أهميَّةٍ في غرفة المريض تزيد عن أهميَّة تشارلز. فلا يمكنني الاستمرار في نهر الطُّفل المسكين والجدال معه وهو مريض. وقد رأيتِ بنفسك هذا الصِّباح كيف تزداد حركته كلِّما أمرته بالبقاء ساكناً. لا يمكن أن تتحمَّل أعصابي كلَّ ذلك».

«ولكن هل ستشعرين براحة البال لو قضيتِ المساء بأكمله وأنت بعيدة عن الصَّبِيِّ المسكين؟».

«أجل، فكما رأيتِ، يمكن لوالده أن يفعل ذلك، فلم لا أفعله أنا أيضاً؟ وجيمايما تتَّصف بالحرص البالغ! بمقدورها أن تبلغنا أخباره كلَّ ساعة. كان على تشارلز أن يخبر والده أنَّنا سنحضر جميعاً لزيارتهم. فأنا لا أشعر بالقلق على تشارلز الصَّغير الآن أكثر ممَّا يشعر هو. كنت في غاية الاضطراب بالأمس، ولكنَّ الوضع اختلف تماماً الآن».

«حسنًا، إن كنت تعتقدين أنّ الوقت لم يتأخّر لإبلاغهم بنيتك على الزّيارة، فأعتقد أنّه يمكنك الذهاب أنت وزوجك. اتركا تشارلز الصّغير في رعايتي. لا أعتقد أنّ السيّد والسّيّدة ماسجروف سيعترضان لو بقيت أنا معه».

صاحت ماري قائلةً، وعيناها تبرّقان: «حقًا؟ يا إلهي! هذه فكرة رائعة، فكرة رائعة للغاية. من المؤكّد أنّ ذهابي أو بقائي سيّان، فلا جدوى من وجودي هنا، أليس كذلك؟ فلا يسبّب لي الأمر سوى الضّيق فحسب. أمّا أنتِ، ولأنّك لا تحملين مشاعر الأمومة، فإنّك أنسب شخصٍ لذلك. فبمقدورك إقناع تشارلز الصّغير بفعل أيّ شيء؛ فهو دائمًا يطيع أوامرك. وسيكون ذلك أفضل كثيرًا من تركه مع جيميما وحدها. أوه! قطعاً سأذهب. أنا متأكّدة أنّ عليّ القيام بزيارتهم طالما بوسعي ذلك مثل تشارلز تمامًا. فهم يرغبون بشدّة في أن أتعرف على القبطان وينتورث. وأنا أعرف أنّك لن تمنعني في البقاء هنا وحدك.

هذه فكرة رائعة منك حقًا يا آن! سأذهب لأبلغ تشارلز، وسأستعدّ على الفور. يمكنك أن ترسلي في طلبنا على الفور إن حدث أيّ شيء. ولكنني

على ثقةٍ بأنَّه لن يحدث ما يسبِّب لك الاضطراب. يمكنك أن تثقي بأنَّني ما كنت لأذهب لو لم أكن مطمئنَّةً تمامًا على طفلي العزيز».

وبعد ذلك بلحظةٍ، ذهبت لتطرق باب غرفة ملابس زوجها. صعدت آن الدَّرج، وتبعتها، فسمعت حديثهما كاملاً. بدأت ماري الحديث بنبرة فرحٍ شديدٍ، وقالت:

«سوف أذهب معك يا تشارلز، فلا جدوى من وجودي في المنزل أكثر منك. فلو حبست نفسي مع الطَّفل إلى الأبد لما تمكَّنت من إقناعه بالقيام بشيءٍ لا يرغب فيه. ستبقى آن معه. فقد تطوَّعت آن بالبقاء في المنزل لرعايته. اقترحت آن ذلك بنفسها، لذا فسوف أذهب معك. وسيكون ذلك أفضل كثيرًا، فأنا لم أذهب لتناول الغداء في المنزل الآخر منذ الثَّلاثاء الماضي».

ردَّ زوجها قائلاً: «هذا كرمٌ بالغٌ من آن. وسيسعدني للغاية أن تأتي برفقتي. ولكن يبدو أنَّه من القسوة تركها وحدها في المنزل لرعاية طفلنا المريض».

كانت آن موجودةً للدِّفاع عن موقفها، وما لبثت أن أقنعتَه بصدق حديثها. ولَمَّا كان اقتناعه هذا من مصلحته، فإنَّه لم يعد يشعر بالحرص من تركها تتناول الغداء بمفردها. ولكنَّه كان يرغب في انضمامها إليهم في المساء، بعد أن يخلد الطِّفل إلى النُّوم تلك اللَّيلة، وحثَّها على أن تقبل حضوره لاحقًا لاصطحابها، ولكنَّه فشل في إقناعها. وهكذا فقد ودَّعتُهما بعد قليلٍ وهما يمضيان في طريقهما بسعادةٍ بالغة. تَمَنَّت أن يقضيا وقتًا ممتعًا، مهما بدت متعتُهما تلك غريبةً في هذه الطُّروف. أمَّا هي، فقد شعرت بالرَّاحة إلى أقصى الحدود. كانت تدرك أنَّ بقاءها بجوار الطِّفل أكثر أهميَّة. وفيم يهْمُها الأمر إن كان فريدريك وينتورث على مبعدة نصف ميلٍ فحسب، ويقضي وقتًا ممتعًا مع الآخرين؟!

كان بوَدِّها لو تعرف مشاعره حيال اللِّقاء. ربَّما كان غير مباليٍّ، لو كان من الممكن الشُّعور باللامبالاة في مثل هذه الطُّروف. لا بدَّ أنَّه يشعر إمَّا باللامبالاة، وإمَّا بعدم الرِّغبة في لقائها. فلو كان يرغب في رؤيتها مرَّةً أخرى، لما انتظر طوال هذا الوقت. بل كان سيفعل ما تعتقد هي أنَّها ستقوم به لو كانت مكانه، بعد أن منحتَه الطُّروف الاستقلال المادِّي الذي كان ينقصه من قبل.

عادت شقيقتها وزوجها وهما يشعان بالسعادة لهذا التعارف الجديد،
ولتلك الزيارة في مجملها. فقد عزفوا الموسيقى، وغنّوا، وتبادلوا الحديث
والضحك، وقضوا وقتًا ممتعًا. اتّصف سلوك القبطان ويتنورث باللطف
البالغ، دون خجلٍ أو تحفُّظٍ، وبدا أنّ الجميع في غاية الانسجام. كان
سيأتي في صباح اليوم التّالي كي يذهب للصّيد مع تشارلز. سيتناول
الإفطار أولاً، لا في المنزل الرّيفيّ، مع أنّ هذا هو الاقتراح الذي طُرح أولاً،
بل في البيت الكبير، حيث ألحوا عليه أن يأتي هناك. كما بدا وكأنّه يخشى
تعطيل السيّدة تشارلز ماسجروف عن رعاية الطّفل، فأنتهى بهم الأمر في
نهاية المطاف، دون أن يدروا كيف، بأن اتّفقوا على ذهاب تشارلز إلى
منزل والده ليتناول معه الإفطار هناك.

فهمت أنّ الموقف؛ لقد كان يحاول تفادي رؤيتها. اكتشفت أنّه سأل عن
أحوالها سؤالاً عابراً كما يليق بأحد المعارف القدماء العابرين. بدا وكأنّهما
قد اتّفقا، مدفوعين ربّما بنفس الرّغبة في تفادي اللّقاء.

اعتاد سكّان المنزل الرّيفيّ الاستيقاظ في وقتٍ متأخّرٍ من الصّباح، مقارنةً
بسكّان المنزل الآخر، وكان الفارق كبيراً في اليوم التّالي، لدرجة أنّ آن
وماري كانتا على وشك البدء في تناول الإفطار عندما حضر تشارلز ليلبغهم

أنَّهم سيمضون في طريقهم، وأنَّه أتى ليأخذ كلاب الصَّيد. أخبرهم أنَّ شقيقتيه قادمتان في إثره، بصحبة القبطان وينتورث، وأنَّهما تنتويان زيارة ماري والصَّبِّي، وقد اقترح القبطان وينتورث أن يقوم بزيارةٍ سريعةٍ لبضع دقائق هو الآخر، إن كان ذلك يلائمها. ومع أنَّ تشارلز أكَّد له أنَّ حالة الطِّفل لا تمثِّل أيَّ مشكلة، إلَّا أنَّ القبطان وينتورث لم يقتنع دون أن يسبقه هو لإخبارهم أوَّلًا.

شعرت ماري بالإطراء لاهتمامه، وأبدت سعادتها البالغة باستقباله، في حين انتابت آن مشاعر متضاربة، ولكنَّها عزَّت نفسها بأنَّ الأمر لن يلبث أن ينتهي سريعًا. وقد انتهى سريعًا بالفعل. بعد أن أخطرهم تشارلز بدقيقتين، وصل الآخرون. كانوا في غرفة الاستقبال. التقت عيناها بعيني القبطان وينتورث سريعًا، وتبادلا الانحناء. سمعت صوته وهو يبادل ماري الحديث، وينطق بكلِّ العبارات الملائمة في مثل ذلك الموقف، ثمَّ قال شيئًا ما للآنستين ماسجروف، بطريقةٍ ظهرَ من خلالها شعوره بالثَّقة. بدت الغرفة مزدحمةً - مزدحمةً بالأشخاص وبالأصوات - ولكنَّ كلَّ شيء انتهى بعد بضع دقائق. ظهر تشارلز عند النَّافذة وهو مستعدُّ للذهاب، فانحنى الضَّيف وانصرف، ثمَّ انصرفت الآنستان ماسجروف أيضًا، وقد قرَّرتا فجأةً المشي

حتى أطراف القرية بصحبة الصيادين. باتت الغرفة خالية، وصار بمقدور آن الانتهاء من تناول إفطارها.

«انتهى الأمر! لقد انتهى!»، كرّرت العبارة لنفسها، المرّة تلو الأخرى، بتوتّر وامتنان. «لقد انتهى أسوأ ما في الأمر!»

تحدّثت ماري، ولكنّها لم تستطع متابعة حديثها. فقد رآته. لقد التقيا. اجتمعا مرّة أخرى في غرفة واحدة!

ولكنّها أخذت تحاول التفكير بتعقّل والتحكّم في مشاعرها. ثماني سنوات. انقضت ثماني سنواتٍ تقريباً منذ أن تخلّت عن كلّ شيء. يا لها من حماقة أن يعاودها الشّعور بالاضطراب نفسه الذي خفّفت منه كلّ هذه الفترة الزمّنية حتى كاد يتلاشى تماماً! فما الذي يمكنه أن يحدث خلال ثماني سنوات؟ أحداثٌ من كلّ نوع، وتغيّراتٌ وفراقٌ وانتقالاتٌ، فهي تشمل كلّ ذلك كما تشمل نسيان الماضي، كم كان هذا طبيعياً ومؤكّد الحدوث! اشتملت تلك السّنوات على ثلث عمرها تقريباً.

يا للأسف! بالرَّغم من كلِّ محاولاتها التَّعقُّل، اكتشفت أنَّ ثمانِي سنواتٍ تكاد تكون شيئاً لا يستحقُّ الذِّكر على الإطلاق في حالة التَّعامل مع المشاعر المكبوتة.

تُرى كيف يمكنها قراءة مشاعره الآن؟ هل كان هذا يدلُّ على رغبته في تفادي لقائها؟ ثمَّ شعرت بالحنق من نفسها في اللَّحظة التَّالية، بسبب حماقتها التي دفعتها إلى طرح ذلك السُّؤال.

كان هناك سؤالٌ آخر، ربَّما لم تكن كلُّ حكمتها لتستطيع منعها من التَّفكير فيه، وما لبثت أن عرفت جوابه. فبعد أن عادت الآنستان ماسجروف، وانتهيتا من زيارتهما للمنزل الرِّيفيِّ، قالت ماري بتلقائيَّة:

«القبطان وينتورث لا يتحلَّى بالكياسة حيالك يا آن، بالرَّغم من اهتمامه بي أنا. فقد سألته هينرييتا عن رأيه فيكِ، عندما انصرفوا، وردَّ قائلاً إنَّك قد تغيَّرت كثيراً؛ لدرجة أنَّه بصعوبةٍ تمكَّن من تعرُّفك».

كانت ماري تفتقد المشاعر التي تجعلها تحترم شعور شقيقتها، ولكنَّها لم تكن تدرك على الإطلاق ساعتئذٍ أنَّها كانت تتسبَّب لها في أيِّ نوعٍ من الألم.

«تَغَيَّرْتُ لدرجة أَنَّهُ بصعوبةٍ تَمَكَّنَ من تَعَرُّفِي!». استسلمت آن أخيراً في صمتٍ وخجلٍ عميق. كانت تلك حقيقةً بلا شكٍّ، ولم يكن بمقدورها أن تثار منه بقول الشيء نفسه، فهو لم يتغيَّر، أو على الأقلَّ لم يتغيَّر إلى الأسوأ. اعترفت لنفسها بالأمر، ولم تستطع تغيير أفكارها تلك. فلتدعه يفكِّر فيها كيفما يشاء. لا، فالسَّنوات التي قضت على زهرة شبابها هي، منحه هو مظهرًا رجوليًّا أكثر إشراقًا وقوَّةً، ولم يخسر شيئًا من وسامته على الإطلاق. فقد رأت فريدريك وينتورث بالصُّورة نفسها التي كان عليها من قبل.

«تَغَيَّرْتُ لدرجة أَنَّهُ بصعوبةٍ تَمَكَّنَ من تَعَرُّفِها!». لم تستطع تجاهل مثل هذه الكلمات. ولكنَّها ما لبثت أن شعرت بالسَّعادة لأنَّها سمعتها. فقد جعلتها تتعقَّل، وهذَّأت من روعها. لقد ساعدتها على استعادة رباطة جأشها، ولا بدَّ بالمحصَّلة من أن تجعلها تشعر أنَّها أسعد.

نطق فريدريك وينتورث تلك الكلمات، أو كلماتٍ تشبهها، دون أن يدري أنَّها ستبلغ سَمْعَها. فقد اعتقد أنَّها تَغَيَّرت بصورةٍ مؤسفةٍ، وفي اللَّحظة التي أُلقي عليه السُّؤال أجاب قائلاً ما يشعر به بالفعل. فهو لم يسامح آن إليوت أبدًا، فقد أساءت معاملته، وتخلَّت عنه، وخيَّبت آماله.

أَمَّا الْأَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ أَنَّهَا أَظْهَرَتْ ضَعْفَ شَخْصِيَّتِهَا، وَلَمْ يَتِمَّكَنْ هُوَ بِطَبَاعِهِ الْحَاسِمَةَ الْوَاثِقَةَ أَنْ يَتَحَمَّلَ ذَلِكَ. تَخَلَّتْ عَنْهُ لَتَرْضَى الْآخَرِينَ الَّذِينَ أَقْنَعَوْهَا بِذَلِكَ، بَغْضُ النَّظَرِ عَنْ رَأْيِهَا الشَّخْصِيِّ، وَكَانَ ذَلِكَ ضَعْفًا وَجَبْنَا مِنْهَا.

لَقَدْ تَعَلَّقَ بِهَا بِشَدَّةٍ، وَلَمْ يَقَابِلْ امْرَأَةً أُخْرَى مِنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ تَرَقَّى فِي نَظَرِهِ إِلَى مُسْتَوَاهَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرْغَبُ فِي رُؤْيِهَا مَرَّةً ثَانِيَةً، سِوَى بَدَافِعِ الْفُضُولِ فَحَسَبَ. فَتَأْثِيرُهَا فِيهِ قَدْ زَالَ إِلَى الْأَبَدِ.

كَانَ هَدَفُهُ الْآنَ هُوَ الزَّوْاجُ. فَقَدْ صَارَ ثَرِيًّا، وَلِأَنَّهُ لَمْ يَعِدْ يَعْمَلُ فِي الْبَحْرِ فِي الْوَقْتِ الْحَالِيِّ، فَقَدْ كَانَ يَنْتَوِي الزَّوْاجُ مَا إِنْ يَجِدُ الْعُرُوسَ الْمَلَائِمَةَ. كَانَ يَبْحَثُ حَوْلَهُ، وَعَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلْوُقُوعِ فِي الْحُبِّ بِكُلِّ السَّرْعَةِ الَّتِي يَسْمَحُ بِهَا التَّفَكِيرُ السَّلِيمُ وَالذَّوْقُ الرَّاقِي. كَانَ قَلْبُهُ خَالِيًّا، وَمَتَاحًا لِأَيِّ مِنَ الْآنَسَتَيْنِ مَاسْجُورُفٍ لَوْ تَمَكَّنْتَ مِنَ الْإِمْسَاكِ بِهِ. كَانَ قَلْبُهُ، بِاخْتِصَارٍ، مَتَاحًا لِأَيِّ شَابَةِ مَلَائِمَةٍ يَلْتَقِيهَا فِي طَرِيقِهِ مَا عَدَا آنَ الْيُوتِ. كَانَ هَذَا هُوَ الْاسْتِثْنَاءُ السَّرِّيُّ الْوَحِيدُ الَّذِي وَضَعَهُ عِنْدَمَا رَدَّ عَلَى سُؤَالِ شَقِيقَتِهِ قَائِلًا:

«أَجَلْ، هَآنَذَا يَا صُوفِيَا مُسْتَعِدٌّ تَمَامًا لِاقْتِرَافِ حِمَاةِ الزَّوْاجِ. يُمْكِنُنِي أَنْ أَكُونَ مِنْ نَصِيبِ أَيِّ امْرَأَةٍ بَيْنَ سَنِّ الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ وَسَنِّ الثَّلَاثِينَ. مَسْحَةٌ

من الجمال، مع القليل من الابتسامات والإطراء على البحريّة، وسأفقد السيطرة تمامًا. ألا يكفي هذا لإسعاد بخّارٍ لم يختلط بالنساء بالقدر الذي يجعله صعب الإرضاء؟».

كانت تعرف أنّه يقول ذلك وهو يرغب في أن تجادله. فقد لمعت عيناه بفخرٍ يدلُّ على أنّه صعب الإرضاء بالفعل. ولم ينجح في إبعاد آن إليوت عن تفكيره حين راح يصف بجديّة أكبر المرأة التي يرغب في الارتباط بها. «عقليّة قويّة، مع سلوكٍ يتميَّز باللُّطف». كان هذا هو الوصف الوحيد الذي قدّمه.

قال: «هذه هي صفات المرأة التي أرغب فيها. يمكنني قبول ما هو أقلُّ بدرجةٍ طفيفةٍ فحسب، ولكن لا يجب أن تقلّ كثيرًا عن هذا. فإن كنت سأتزوّج بالفعل، فإنّ عليّ أن أحسن الاختيار. فلقد فكّرتُ في الأمر أكثر ممّا يفعل معظم الرّجال».

منذ ذلك الحين، تكرر وجود القبطان وينتورث وآن إليوت في الدائرة الاجتماعية نفسها. لم يمض الكثير من الوقت حتى جلسا لتناول الغداء على مائدة واحدة عند السيد ماسجروف، إذ لم تعد حالة الصبي الصغير تثير القلق بحيث تُستغل كعذر لتغيبها. وكانت هذه مجرد البداية للعديد من وجبات الغداء واللقاءات الأخرى.

وحده الزمن كان كفيلاً بإثبات ما إذا كان من الممكن اتقاد المشاعر القديمة مرةً أخرى أم لا. فلا بدَّ وأنَّ كليهما استعاد الماضي، ولم يكن هناك مفرٌّ من الذكريات. ولم يكن هناك بدٌّ من أن يذكر العام الذي تمت فيه خطبتهما في معرض حديثه. كان طلق الحديث بدافع من طبيعته الشخصية وطبيعة عمله أيضاً. «كان هذا في عام 1806». «حدث ذلك قبل ذهابي للعمل في البحر في عام 1806». تكررت تلك العبارات خلال مساء اليوم الأول الذي قضياه معاً. ومع أنَّ نبرة صوته لم تهتز، ومع أنَّه لم يكن هناك ما يدفعها لاعتقد أنَّه سرح بنظراته تجاهها في أثناء حديثه، إلَّا أنَّ آن، ولأنَّها تعرف طريقة تفكيره، شعرت أنَّه من المستحيل ألا يكون قد استعاد تلك الذكريات مثلها تماماً. لا بدَّ وأنَّ أفكار كليهما قد ربطت

على الفور بين التاريخ والذكرى، ولكنها لم تعتقد أن الألم الذي استشعره
كان متساوياً بالدرجة نفسها.

لم يتبادلا الحديث، ولم يكن هناك بينهما أيُّ تعاملٍ سوى ما تستدعيه
أبسط ضرورات اللياقة. كانا من قبلُ يعينان الكثير لبعضهما. والآن لم يعد
أحدهما يعني أيَّ شيءٍ للآخر! كان هناك وقتٌ من قبل لم يكونا ليستطيعا
فيه التوقف عن تبادل الحديث معاً، بالرغم من كلِّ الآخرين الذين كانت
تزدحم بهم غرفة الاستقبال في أبركروس. وباستثناء ربّما السيّد والسيّدة
كروفت اللّذين بدا عليهما الارتباط الوثيق والسّعادة (لم تجد آن أيَّ
استثناءٍ آخر حتى بين بقيّة الأزواج)، لم يكن هناك قلبان آخران منفتحان
أحدهما على الآخر، ولا أيُّ أذواقٍ متقاربةٍ أو مشاعرٍ قد اتّحدت، ولا حتى
ملامح وجوهٍ محبّبةٍ بعضها لبعضٍ، كما كانا هما من قبل. وها قد صارا
الآن كالغرباء. لا، بل أسوأ من غرباء، إذ بات من المستحيل أن يعرف
أحدهما الآخر. كانت غربةً أبديةً.

عندما كان يتحدّث، كانت تسمع الصّوت نفسه، وتميّز نمط التّفكير
نفسه. لم يكن لدى أحدٍ من الحاضرين أيُّ درايةٍ بشؤون البحريّة، فراحوا
يوجّهون إليه العديد من الأسئلة، وخاصّةً الآنستين ماسجروف اللّتين بدا

عليهما الاهتمام به وحده، دونًا عن أيِّ شخصٍ آخر. سألوهُ عن نمط الحياة على متن السفينة، وعن قوانين الحياة اليوميَّة، وعن الطَّعام وساعات العمل، وما إلى ذلك. أبدوا دهشتهم من مدى توفُّر وسائل الرِّاحة، والترتِّبات المتيسِّرة، ممَّا دعاه إلى التَّهكُّم بلطف. تذكَّرتُ آن حينما كانت هي أيضًا تجهل تلك الأشياء، فاتَّهمها هي الأخرى بأنَّها افترضت أنَّ البحَّارة يعيشون على متن السفينة دون طعام، أو طاهٍ لتجهيز الطَّعام إن وُجد، أو دون خادمٍ يقوم على خدمتهم، أو دون سكاكين وشوكاتٍ لتناول الطَّعام.

كانت تستمع إلى الحديث، وهي مستغرقةٌ في التَّفكير، عندما انتهت إلى السيِّدة ماسجروف وهي تهمس لها قائلةً، وقد غمرتها مشاعر اللوعة:

«آه، يا آنسة آن! لو أنَّ الرِّبَّ مدَّ في عمر ابني المسكين، لكان صار مثل القبطان وينتورث الآن، على ما أعتقد».

قاومت آن رغبتها في الابتسام، واستمعت بلطفٍ إلى السيِّدة ماسجروف وهي تسرُّ لها بمكنون قلبها، ولذلك لم تتمكَّن لبضع دقائق من متابعة الحديث الدَّائر. وحين عادت من جديدٍ للانتباه إلى ما يدور، وجدت الآنستين ماسجروف قد جلبتا القائمة الرِّسميَّة التي تضمُّ أسماء ضبَّاط

البحريّة والمعلومات الأخرى التي تخصّ سلاح البحريّة (قائمتها الخاصة، والتي كانت أوّل قائمةٍ يمتلكونها في أبركروس)، وجلسنا معاً تتفحصانها بحثاً عن السفن التي تولّى القبطان وينتورث قيادتها.

«كانت أوّل سفينةٍ لك هي آسب على ما أعتقد؛ سنبحث عن آسب».

«لن تجديها هناك؛ فقد صارت قديمةً ومتهالكةً تماماً. كنت أنا آخر من تولّى قيادتها. ولم تكن حتى في حالةٍ تصلح للعمل في الخدمة آنذاك. ذكر التقرير الخاصُّ بها أنّها تصلح للعمل في حراسة السّواحل البريطانيّة فحسب، ولذلك أرسلوني للعمل في جزر الهند الغربيّة».

نظرت إليه الفتاتان بذهول.

«الأميراليّة البريطانيّة تتسلّى، بين الحين والآخر، بإرسال بضعة مئاةٍ من الرّجال للعمل في البحر على متن سفينةٍ لا تصلح للعمل في الخدمة. ذلك أنّ لديهم فائضاً من الذين يحتاجون إلى توزيع العمل بينهم، ومن بين أولئك الآلاف الذين قد يتعرّضون، أو لا يتعرّضون للغرق، من المستحيل بالنّسبة إليهم التّمييز بين من سوف يُفتقد وبين من لن يفقده أحد».

صاح الأدميرال قائلاً: «هراء! محض هراء! يا للكلام الفارغ الذي يتفوّه به هؤلاء الشباب! لم تكن هناك سفينة شراعية أفضل من آسب في تلك الأيام. فبالنسبة إلى سفينة عتيقة مثلها، لم يكن بمقدورك العثور على أخرى تضاهيها. وقد كنتَ محظوظاً بالحصول عليها! إنّه يعرف أنّه لا بدّ وأنّه كان هناك حوالي عشرين رجلاً أفضل منه يطلبون الحصول عليها في الوقت نفسه. وهو محظوظٌ للحصول على أيّ سفينة على الإطلاق بهذه السرعة دون أن تكون لديه واسطة».

أجاب القبطان وينتورث قائلاً بجديّة: «أؤكّد لك يا أدميرال أنّي أدرك كم كنت محظوظاً. فقد كنتُ في غاية الرّضا عن المهمّة التي أُنيّطت بي. كان من المهمّ بالنّسبة إليّ وقتئذٍ أن أذهب للعمل في البحر، من المهمّ للغاية. أردت أن أنشغل بعمل شيءٍ ما».

«بالتأكيد أردت ذلك. فما الذي يمكن لشابّ مثلك أن يفعله على اليابسة لستّة أشهرٍ متواصلة؟ إن لم يكن لدى الرّجل زوجة، فإنّه سرعان ما يشعر بالرّغبة في العودة مرّةً أخرى إلى البحر».

صاحت لويزا قائلة: «ولكن يا قبطان وينتورث، لا بدّ وأنك شعرت بالغيظ حين ذهبت لرؤية آسب واكتشفت أنّهم منحوك سفينة قديمة هكذا».

قال وهو يتسم: «كنت أعرف حالتها جيّدًا قبل ذلك؛ فلم أكتشف شيئًا جديدًا أكثر ممّا كنت ستكتشفينه أنت عن تصميم وحالة أيّ معطفٍ قديمٍ شاهدتِ نصف معارفك يتبادلون ارتدائه قبل زمنٍ بعيدٍ، حتى أتى يومٌ مطيرٌ فاضطرتِ أنت نفسك إلى ارتدائه. آه، كم كانت السفينة آسب عزيزة عليّ! فقد عملتُ كلّ ما كنت أريده، وكنت موقنًا أنّها ستفعل. كنت أعرف أنّنا إمّا سنغرق في أعماق البحر معًا، وإمّا ستكون سبب نجاحي. ولم يصادفني أبدًا يومان متتاليان من سوء الطّقس، طوال خدمتي في البحر معها. وبعد الانتصار على العديد من سفن القراصنة، لازمني حسن الطّالع في أثناء عودتي إلى البلاد في الخريف التّالي، حيث استوليت على السفينة الحربيّة الفرنسيّة التي كنت أرغب فيها. عدت بها إلى بليموث، وهناك صادفني حسن الحظّ مرّةً أخرى. لم نمض أكثر من ستّ ساعاتٍ في الخليج حتى داهمتنا عاصفةٌ استمرّت أربعة أيّامٍ بلياليها. كانت عاصفةٌ كهذه ستقضي على آسب المسكينة في نصف تلك المدّة، خاصّةً وأنّ اشتباكنا مع السفن الفرنسيّة لم يحسّن من حالتها كثيرًا. بعد أربع وعشرين

ساعةً كنت سأصبح القبطان وينتورث الباسل في فقرة صغيرة في زاوية صفحةٍ من إحدى الصُّحف، ولمّا كنت سأغرق مع مجرّد سفينةٍ شراعيّةٍ، فإنّ أحداً ما كان ليهتمّ بأمرِي».

ارتعدت آن دون أن يلحظ أحدٌ، ولكنّ الآنستين ماسجروف كان بمقدورهما الإفصاح علانيّةً وبإخلاصٍ عن شعورهما بالشفقة والخوف.

قالت السيّدة ماسجروف بهمسٍ، وكأنّها تفكّر بصوتٍ مرتفعٍ: «حسنًا إذن، على ما أفترض، فقد انتقل بعد ذلك إلى السفينة لاكونيا، حيث التقى بابنا المسكين؛ تشارلز يا عزيزي (أشارت له كي يقترب منها)، فلتسأل القبطان وينتورث أين التقى شقيقك المسكين لأوّل مرّة؛ فأنا دائماً ما أنسى».

«كان ذلك عند جبل طارق يا أمّي، فأنا أتذكّر. كان ديك قد تخلف في جبل طارق، بسبب مرضه، ومعه توصيّةٌ من قبطانه السابق موجّهةٌ إلى القبطان وينتورث».

«أوه! ولكن عليك يا تشارلز أن تخبر القبطان وينتورث ألا يخشى الإتيان على ذِكْرِ ديك المسكين أمامي، فمن دواعي سروري الاستماع إلى صديقٍ عزيزٍ هكذا وهو يتحدث عنه».

ولكنَّ تشارلز كان أكثر إدراكًا لمدى احتمال حدوث ذلك، فاكتفى بهزَّ رأسه، ومضى مبتعدًا.

كانت الفتاتان تبحثان الآن عن السفينة لاكونيا، ولم يستطع القبطان وينتورث مقاومة متعة الإمساك بالمجلد بين يديه ليوفّر عليهما مشقة البحث، وقرأ مرّةً أخرى بصوتٍ مرتفعِ الفقرة القصيرة الخاصة بها، والتي تذكر اسمها، وتقييمها، وحالتها في الوقت الحاضر، وقد خرجت من الخدمة. قال إنها هي الأخرى كانت من أفضل السفن التي عمل عليها.

«آه، كانت أيامًا رائعةً أيامٌ تقلّدي قيادة لاكونيا! كم جنيت المال بسرعةٍ على متنها. قضيت أنا وصديقٌ لي وقتًا ممتعًا ونحن نبحر معًا عند جزر الأزور. يا لهارفيل المسكين، يا أختاه! فأنت تعلمين كم كان يرغب في جني المال - أكثر منّي أنا شخصيًا. كانت لديه زوجةٌ، وكان إنسانًا رائعًا!

كان يرغب في كل شيء لأجلها هي. تمنيت لو كان بصحبتى مرةً أخرى في الصيف التالي عندما حالفني الحظُّ مرةً أخرى في البحر المتوسط». .

قالت السيِّدة ماسجروف: «وأنا واثقةٌ يا سيِّدي بأنَّه كان يوم حظِّ لنا عندما تقلدت قيادة تلك السفينة. فلن ننسى أبداً ما قمت به».

كان صوتها منخفضاً بسبب جيشان مشاعرها، فلم يسمع القبطان وينتورث سوى جزء من حديثها، ولأنَّه في الغالب لم يكن يفكر في ديك ماسجروف على الإطلاق، بدا متشوّفاً وكأنَّه ينتظر باقي حديثها.

همست إحدى الفتاتين قائلةً: «أخي. أمي تفكر في المسكين ريتشارد».

واصلت السيِّدة ماسجروف قائلةً: «الفتى العزيز المسكين! كان قد أصبح رصيناً للغاية، وبارعاً في كتابة الرسائل، عندما كان تحت رعايتك! آه، كان الحظُّ سيحالفه لو أنَّه لم يتركك. أوكد لك يا قبطان وينتورث، نحن في غاية الأسف لأنَّه تركك».

ظهر على ملامح القبطان وينتورث عند سماعه حديثها هذا تعبيرٌ لم يدم طويلاً؛ نظرةً في عينيه اللامعتين، مع التواءٍ في شفثيه، اقتنعت آن بسببهما أنه لا يشارك السيِّدة ماسجروف الرأى بخصوص ابنها، بل كان في الغالب يرغب في التَّخلُّص منه. ولكنَّها كانت مجردَّ لحظةٍ عابرةٍ تساهل فيها في إظهار سخرِيَّته، فلم يلحظها الآخرون الذين لا يعرفونه بقدر ما تعرفه هي. ففي اللَّحظة التَّالية بدا هادئاً تماماً، وفي غاية الجدِّيَّة. أتى بعدها نحو الأريكة التي كانت تجلس عليها، هي والسيِّدة ماسجروف، وجلس بجوار تلك الأخيرة. بادلها الحديث حول ابنها بصوتٍ منخفضٍ، وفعل ذلك بمنتهى التَّعاطف والكياسة، مُظهرًا أكبر قدرٍ من المراعاة لمشاعر الأمِّ التي كانت طبيعيَّةً ولا يمكن استصغارها على الإطلاق.

كانا يجلسان على الأريكة نفسها، بعد أن أفسحت له السيِّدة ماسجروف مكاناً، فلم يكن هناك أيُّ فاصلٍ بينهما سوى السيِّدة ماسجروف. وكان ذلك الفاصل لا يستهان به، ذلك أنَّ السيِّدة ماسجروف كانت بالغة الضَّخامة. كان حجمها يوحي بأنَّها تجيد التَّعبير عن المرح والبهجة أكثر ممَّا تجيد التَّعبير عن الرِّقَّة والعواطف. لم يظهر اضطراب آن بجسدها التَّحيل ووجهها الذي بدا عليه الاستغراق في التَّفكير، كونها احتجبت خلفها تماماً، ولكنَّ القبطان وينتورث كان يستحقُّ الإعجاب، لقوَّة التَّحكُّم

في النَّفس التي تمتعَ بها وهو يستمع إلى تنهّداتها العميقة حزناً على مصير ابنها الذي لم يهتمّ به أحدٌ في أثناء حياته.

بالتأكيد أنّه لا وجود بالضرورة لتناسبٍ بين ضخامة الجسد والشُعور بالحزن، ومن حقّ شخصٍ ضخم الجثّة الشُعورُ بالحزن العميق تماماً مثل شخصٍ بالغ الرّشاقة. ولكن بصرف النظر عن عدالة ذلك التّصوُّر، هناك بعض الأفكار التي تلتصق بعقل المرء ويحاول التّغلب عليها دون فائدةٍ ولا يتقبّلها الذّوق العامُ وتكون عرضةً للسُّخرية.

بعد أن تجوّل الأدميرال في الغرفة مرّتين أو ثلاث مرّاتٍ، ويدها معقودتان خلف ظهره، نبّهته زوجته، فاقترب من القبطان وبنثورث دون أن يراعي أنّه ربّما يقطع حديثه، وقد انشغل بأفكاره الخاصّة، فبادره قائلاً:

«لو كنت قد حضرت بعدها بأسبوعٍ واحدٍ إلى لشبونة، في الرّبيع الماضي يا فريدريك، لكانوا طلبوا منك أن تقوم بتوصيل اللّيدي ماري جريرسون وبناتها على متن سفينتك».

«حقّاً؟ أنا سعيدٌ إذن أنّي لم أحضر بعدها بأسبوعٍ».

وبَّخه الأدميرال لافتقاره إلى الشَّهامة. فدافع عن نفسه، مع أنَّه أقرَّ بأنَّه لن يقبل طواعيَّةً وجود سيِّداتٍ على سفينته أبداً، باستثناء بضع ساعاتٍ لحضور حفلٍ أو لزيارة.

واصل قائلاً: «ولكن إن كنت أعرف نفسي جيِّداً، فهذا ليس نابعاً من انعدام حسِّ الشَّهامة، بل بسبب شعوري باستحالة توفير الطُّروف الملائمة للسيِّدات على متن السَّفينة مهما بذل المرء من جهدٍ وتضحيات. فلا يمكن أن يُعدَّ المرء ناقص الشَّهامة يا أدميرال لأنَّه يرغب في توفير أكبر قدرٍ من الرِّاحة للسيِّدات، وهذا هو ما أفعله. لذا، فأنا أكره أن أسمع عن وجود سيِّداتٍ على متن السَّفينة، أو مشاهدتهنَّ على متن السَّفينة، ولن تنقل أيُّ سفينةٍ أتولى أنا قيادتها مجموعةً من السيِّدات أبداً، إن كان بوسعي الاختيار».

دعا هذا شقيقته إلى مهاجمته.

«أوه يا فريدريك! لا يمكنني أن أصدِّق حديثك هذا. هذه كياسةٌ فارغةٌ! فبوسع السيِّدات أن يجدن الرِّاحة على متن سفينة، تماماً كما يجدنها في أرقى منازل إنجلترا. فأنا أعتقد أنَّني قضيت وقتاً طويلاً على متن السُّفن

المختلفة، أكثر من أيّ سيّدةٍ أخرى تقريباً، ولم أعرف راحةً أكثر من تلك التي وجدتها على متن السفن الحربيّة الضخمة. يمكنني القول إنّهُ لا توجد لديّ أيّ وسيلةٍ من وسائل الرّاحة، ولا أيّ رفاهيّةٍ حتّى في قصر كيلينتش»، (انحنت لأنّ بلطفٍ وهي تقولها) «أكثر من تلك التي كنت أتمتّع بها على متن معظم السفن التي عشت عليها، والتي بلغ مجموعها خمسَ سفنٍ».

أجابها شقيقها قائلاً: «لا علاقة لهذا بالأمر. فقد كنت تعيشين مع زوجك، وكنت المرأة الوحيدة على متن السفينة».

«ولكن أنت بنفسك جلبت السيّدة هارفيل، وشقيقتها، وابنة عمّها، والأطفال الثلاثة من بورتسموث إلى بليموث. أين كانت شهامتك الفائقة هذه آنذاك؟».

«كان ذلك بدافعٍ من الصّدّاقة يا صوفيا. فسوف أقدمّ العون لزوجة أيّ رفيقٍ من رفاقي الضّبّاط، وسوف أجلب أيّ شيءٍ يخصّ هارفيل من أقصى أطراف العالم، إن أراد ذلك. ولكن لا تتخيّلني أنّي لم أعتقد أنّ ذلك عملٌ ينطوي على الشرّ في حدّ ذاته».

«كن على ثقةٍ أنهم جميعًا شعروا بالراحة».

«ربّما انتقص هذا من شعوري بالودّ حيالهم. فهذا العدد من النساء والأطفال لا أظنّه سيشعر بالراحة على متن سفينة».

«يا عزيزي فريدريك، حديثك هذا لا أساس له من الصّحّة. بحقّ السّماء، ماذا سيكون مصير الزّوجات المسكينات اللّاتي يعمل أزواجهنّ في البحر، واللّاتي كثيرًا ما يرغبن في الانتقال من ميناءٍ إلى آخر ليتبعن أزواجهنّ، إن شاركك الجميع الشّعور نفسه؟».

«كما ترين، مشاعري لم تمنعني من اصطحاب السيّدة هارفيل وأسرّتها كلّها إلى بليموث».

«ولكنّني لا أحبُّ أن أسمعك وأنت تتحدّث هكذا، وكأنّك سيّد مهذب، وكأنّ السيّدات كلّهنّ في منتهى الرّقّة أكثر من كونهنّ مخلوقاتٍ عاقلة. لا يتوقّع أيّ منّا أن يبحر عبر أمواج هادئةٍ كلّ يوم».

قال الأدميرال: «آه يا عزيزتي! عندما تصير لديه زوجةٌ ستتغيّر أفكاره هذه. عندما يتزوّج، ولو أسعدنا الحظّ وعشنا حرّاً أخرى، فسنراه يفعل كما

فعلنا أنا وأنت، وكما فعل كثيرون غيرنا. وستجدينه يشعر بالامتنان البالغ لأيِّ شخصٍ يجلب له زوجته».

«أجل، بالفعل».

صاح القبطان وينتورث قائلاً: «لقد انتهيت من الحديث الآن. فعندما يشرع الأزواج في الهجوم عليَّ في الحديث، قائلين «أوه، ستتغيَّر أفكارك بعد أن تتزوَّج». لا يسعني سوى أن أقول «لا، لن تتغيَّر»، وعندما يكرِّرون قولهم «بل ستتغيَّر». فعندئذٍ ينتهي الحديث».

نهض من جلسته وابتعد عنهم.

قالت السيِّدة ماسجروف للسيِّدة كروفت: «لا بدَّ أنكَ سافرت كثيراً يا سيِّدتي!».

«لقد سافرت كثيراً بالفعل، يا سيِّدتي، خلال سنوات زواجي الخمس عشرة، مع أنَّ العديد من السيِّدات سافرن أكثر مِنِّي. لقد عبرت الأطلنطيَّ أربع مرَّات، وذهبت مرَّةً واحدةً إلى جزر الهند الشرقيَّة، ثمَّ عدت ثانيةً، إلى

جانب سفري إلى أماكن مختلفة داخل البلاد: كورك، ولشبونة، وجبل طارق. ولكنني لم أتعدّ مضيق جبل طارق أبدًا، ولم أذهب أبدًا إلى جزر الهند الغربيّة؛ فكما تعلمين نحن لا نطلق على برمودا، ولا على الباهاما اسم جزر الهند الغربيّة».

لم تتمكّن السيّدة ماسجروف من الاحتجاج ولو بكلمة واحدة؛ فهي لم تطلق عليهم أيّ اسم من قبل طوال حياتها.

واصلت السيّدة كروفت قائلة: «أؤكّد لك، يا سيّدي، أنّه لا يوجد شيءٌ يفوق السّفن الحربيّة الضّخمة في توافر وسائل الرّاحة. أقصد بحديثي بالطبع السّفن الأكثر ضخامة. فحينما يتعلّق الأمر بالسّفن الأصغر حجمًا، يشعر المرء حتمًا بأنّه مقيّد بعض الشيء، ولكن يمكن لأيّ امرأة عاقلة أن تشعر بالرّاحة على متن إحداها. يمكنني القول بكلّ ثقةٍ إنني قضيت أسعد أيّام حياتي على متن السّفن. فكما تعلمين، حينما نكون معًا لا يكون لديّ ما أقلق بشأنه. أحمد الرّب، فلطالما تمتّعْتُ بصحّة جيّدة، ولم أشعر بالتعب من أيّ طقس. يحدث دائمًا أن أتعب قليلًا خلال أوّل أربع وعشرين ساعةً في عرض البحر، ولكن لم يحدث أبدًا أن أصبت بالمرض بعد ذلك. المرّة الوحيدة التي عانيت فيها جسديًا ونفسيًا، والمرّة الوحيدة التي شعرت

فيها بأنني مريضةٌ بالفعل، وانتابني الشُّعور بالخطر، كانت تلك المرّة التي قضيت فيها الشّتاء وحدي في ديل، بينما كان الأدميرال (كان آنذاك القبطان كروفت) في بحر الشّمال. عشت في خوفٍ دائمٍ آنذاك، وعانيت من مختلف الأمراض النَّابعة من خيالي لأنّني لم أدر كيف أتصرّف، أو متى ستبلغني منه أيُّ أخبارٍ مرّةً ثانية. ولكن طوال الوقت الذي كنّا فيه معًا، لم أصب بالمرض أبدًا، ولم أشعر بأيّ انزعاج».

ردّت السيّدة ماسجروف بحماسٍ: «أجل، بكلّ تأكيد. نعم، حقًا، أوه نعم، أوافقك الرّأي تمامًا يا سيّدة كروفت. فلا يوجد ما هو أسوأ من الفراق. أوافقك الرّأي تمامًا. أنا أعرف هذا الشُّعور؛ فالسيّد ماسجروف دومًا ما يذهب لحضور جلسات المحاكمة الدّوريّة التي تنعقد في المقاطعة، ودومًا ما أشعر بالرّاحة عندما تنتهي ويعود سالمًا».

ختموا الأمسية بالرقص. عندما اقترح الأمر، تطوّعت آن لتقديم خدماتها كالمعتاد، ومع أنّ عينيها كانتا تفيضان بالدموع أحيانًا وهي جالسةٌ تعزف، أحسّت بسعادةٍ بالغةٍ لانشغالها بشيءٍ ما، وكلّ ما تمنّته في المقابل هو ألا يلتفت إليها أحد.

كان حفلًا مرحًا مبهجًا، ولم يبد أحد أكثر سعادةً من القبطان وينتورث. شعرت أنّ جميع أسباب البهجة قد توافرت له، ما بين اهتمام الجميع به واحترامه، وخاصةً اهتمام كلّ الشابات الحاضرات. بدا أنّ الأنسات هايتز، من أسرة أبناء الخالة السالف ذكرها، قد نلن شرف الوقوع في حبه هنّ الأخريات. أمّا بالنسبة إلى هينريتا ولويزا، فبدا عليهما الانشغال التامّ به، لدرجة أنّ المرء كان سيفترض أنّهما غريمتان متنافستان لولا التّعامل الودّيّ الظاهر بينهما. ما العجب إذن لو أصيب ببعض الغرور جرّاء كلّ ذلك الإعجاب البالغ؟

كانت تلك بعض الأفكار التي شغلت بالّ آن، بينما أصابعها تعزف بصورة آليّة. استمرّت في العزف نصف ساعةٍ دون أخطاءٍ ودون انتباه. لاحظت لمرةٍ واحدةٍ فقط أنّه كان ينظر ناحيتها، ربّما كان يتأمّل ملامحها التي تغيّرت، ويحاول أن يرى فيها آثار ذلك الوجه الذي سحره من قبل. وسمعتّه يتحدّث عنها مرّةً واحدةً فقط. لم تنتبه إلى الأمر حتى سمعت الجواب على سؤاله. ولكنّها تأكّدت حينئذٍ أنّه سأل رفيقته عمّا إذا كانت الآنسة إليوت تشارك في الرّقص. وكان الجواب: «أوه! لا، أبدًا. لقد توقّفت تمامًا عن الرّقص. فهي تفضّل العزف ولا تملّ منه أبدًا». كما وجّه إليها الحديث مرّةً واحدةً فقط. كانت قد ابتعدت عن البيانو بعد أن انتهى

الرَّقْص، وجلس هو يحاول عزف لحنٍ كان يريد تعريف الآنتين
ماسجروف به. عادت إلى ذلك الرُّكن من الغرفة دون قصد، وعندما
شاهدها قام على الفور، وقال بأدبٍ مصطنعٍ:

«أستميحك عذراً يا سيّدي، فهذا مقعدك». ومع أنّها تراجعت على الفور
وهي تنفي الأمر، إلّا أنّه رفض الجلوس ثانيةً.

لم ترغب آن في المزيد من تلك النظرات والأحاديث؛ فقد كان بروده
المهذب، وأسلوبه الرّسمي، أسوأ من أيّ شيءٍ آخر.

أتى القبطان وينتورث إلى كيلينتش، وبدأ الأمر وكأنه في منزله تمامًا، حيث كان بوسعه أن يقيم لأيّ فترة تحلو له. كما تمتّع بمشاعر الأخوة الطيبة من الأدميرال نفسه، إلى جانب مشاعر زوجته. انتوى في بادئ الأمر بعد وصوله أن يتوجّه سريعًا إلى شروباشير، ليزور شقيقه القاطن هناك. ولكنّ الامتيازات التي تمتّع بها في أبركروس جعلته يؤجّل قراره هذا. فقد استقبلوه هناك بالكثير من الودّ والمجاملات والمعاملة الآسرة: اتّصف الكبار بكرم الضيافة البالغ، كما اتّصف الشّباب بالّلطف؛ فلم يكن بوسعه سوى أن يختار البقاء هناك، وأن يؤجّل استمتاعه بلطف وجاذبيّة زوجة إدوارد إلى وقتٍ آخر.

وسرعان ما بات يذهب إلى أبركروس كلّ يومٍ تقريبًا. صار آل ماسجروف يتحمّسون لدعوته، كما يتحمّس هو لزيارتهم، خاصّةً في فترة الصّباح، عندما لا يكون برفقته أحدٌ في المنزل؛ ذلك أنّ الأدميرال والسّيّدة كروفت كانا في العادة يخرجان معًا لمتابعة ممتلكاتهما الجديدة، والمراعي، والغنم، ويتلکّان بطريقةٍ لا يتحمّلها شخصٌ ثالثٌ، أو كانا يركبان عربةً صغيرةً لشخصين اشتروها حديثًا.

حتى هذه اللحظة كان هناك إجماعٌ في الرَّأي بين آل ماسجروف والتَّابعين لهم فيما يتعلَّق بالقبطان وينتورث. اتَّفَق الجميع على الإعجاب الشَّدِيد به. ولكنَّه لم يكد يعزِّز من مكانته المقَرَّبة هذه، حتى بدأ تشارلز هايتز ينزعج من الأمر بدرجةٍ بالغةٍ، ويعدُّ القبطان وينتورث عقبةً في طريقه.

كان تشارلز هايتز أكبر أبناء الخالة، وكان شابًّا ودودًا ولطيفًا للغاية. وقد سبق وأن كان هناك ارتباطٌ واضحٌ بينه وبين هينرييتا قبل حضور القبطان وينتورث. كان يعمل كمساعد قسٍّ في أبرشيَّة لا يتطلَّب منه العملُ الإقامة فيها، ولذلك كان يعيش في منزل والده على مبعدة ميلين من أبركروس. أدَّت فترة غيابه القصيرة عن المنزل إلى افتقاد محبوبته اهتمامه في هذا الوقت الحرج، وعندما عاد شعر بالألم لتغيُّر سلوكها نحوه إلى حدٍّ كبيرٍ، ولوجود القبطان وينتورث.

كانت السيِّدة ماسجروف والسيِّدة هايتز شقيقتين. نعمت كلُّ واحدةٍ منهما بالثَّروة، ولكنَّ زواجهما خلق تفاوتًا في مكانتهما الاجتماعيَّة. كان السيِّد هايتز يمتلك ثروته الخاصَّة، ولكنَّها كانت لا تقارن بثروة السيِّد ماسجروف. وفي حين كان آل ماسجروف يُعدُّون من عليَّة القوم في تلك المنطقة من البلاد، لم يكن شباب آل هايتز - بسبب أسلوب حياة والديهم

البيسط، والمنعزل، والبدائي، وأيضاً بسبب القسط البسيط من التعليم الذي حصلوا هم عليه - لِيُعَدُّوا من ضمن أيّ طبقةٍ اجتماعيّةٍ على الإطلاق لولا علاقتهم بأبركروس، باستثناء هذا الابن الأكبر بالطبع، والذي اختار أن يكمل تعليمه، ويكون سيّداً له احترامه، ويتفوّق بذلك على باقي أشقائه بثقافته وسلوكه.

لطالما انسجمت الأسرتان على أكمل وجه؛ فلم يكن هناك طرفٌ يتّصف بالكبر أو طرفٌ آخر بالحسد. كلُّ ما هنالك هو أنّ الآنستين ماسجروف كانتا تشعران بتفوّقهما بطريقةٍ تشعرهما بالسّعادة عند محاولتهما الارتقاء بأبناء خالتهما. وقد لاحظ والد ووالدة هينريتا اهتمام تشارلز بها، دون أن يبديا أيّ اعتراض. «لن يكون ذلك الارتباط هو أفضل ما يمكن بالنسبة إليها، ولكن طالما أنّ هينريتا تميل إليه...»، وقد بدا أنّها تميل إليه بالفعل.

وكانت هينريتا نفسها تعتقد ذلك قبل وصول القبطان وينتورث، ولكن من تلك اللّحظة بدا أنّها نسيت أمر ابن خالتها تشارلز إلى حدٍّ كبير. لم تستطع أن تحدّد من خلال ملاحظاتها حتى الآن من من الشّقيقتين كانت المفضّلة لدى القبطان وينتورث. ربّما كانت هينريتا تتمتع بقدرٍ

أكبر من الجمال، ولكنّ لويزا تتمتع بطابع أكثر مرحًا. ولم تعد آن تعرف إن كان يفضل الآن الطبع الأكثر هدوءًا أم الأكثر مرحًا.

وبدا أنّ السيّد والسيّدة ماسجروف قد تركا كلّ شيءٍ للظُّروف؛ إمّا بسبب قلة ملاحظتهما، أو بدافعٍ من ثقتهما التّامة في تعقّل ابنتيهما وكلّ الشُّبّان الذين يقتربون منهما. لم يشر الأمر أيّ اهتمامٍ أو تعليقٍ في البيت الكبير، ولكنّ الموضوع اختلف في الكوخ، حيث مال الزّوجان الشّابّان بدرجةٍ أكبر إلى التّأمّل والتّساؤل. لم يكد القبطان وينتورث يمضي الوقت بصحبة الآنستين ماسجروف أكثر من أربع أو خمس مرّاتٍ، وكان تشارلز هايتز قد عاد للتّوّ، حتى اضطرّت آن إلى الاستماع إلى رأي شقيقتها وزوج شقيقتها حول أيّ من الشّقيقتين يفضل أكثر من الأخرى. اختار تشارلز لويزا، بينما اختارت ماري هينرييتا. ولكنّهما اتّفقا على أنّه سيكون أمرًا رائعًا لو تزوّج أيّا منهما. لم يسبق وأن رأى تشارلز في حياته رجلًا ألطف منه. ومن خلال ما سمعه من حديث القبطان وينتورث نفسه، كان واثقًا للغاية من أنّه جنى على الأقلّ عشرين ألف جنيهًا من الحرب. كانت هذه ثروةٌ محقّقة، إلى جانب ما قد يجنيه من أيّ حربٍ أخرى في المستقبل. وكان متأكّدًا من أنّ القبطان وينتورث بوسعه أن يبلي بلاءً حسنًا مثل أيّ ضابطٍ آخر في

البحريّة. أوه! سيكون ذلك الارتباط رائعًا بالنّسبة إلى أيّ واحدةٍ من شقيقتيه.

أجابت ماري قائلةً: «حقًا، سيكون كذلك بالفعل. يا إلهي! آه لو يصيبُ أيّ مناصب رفيعةٍ، ولو يتمكّن من حمل لقب بارونيت! يبدو لقب «اللّيدي وينتوورث» رائعًا للغاية. سيكون هذا أمرًا عظيمًا بالفعل لهينرييتا. ستكون لها مكانةٌ أعلى من مكاني حينئذٍ، بصفتها زوجة بارونيت، ولن تكره هينرييتا حدوث ذلك. السيّر فريدريك واللّيدي وينتوورث! ولكنّه سيكون مجرد لقبٍ حديثٍ، وأنا لا أقدر كثيرًا الألقاب التي يحصل عليها أصحابها حديثًا».

كانت فكرة أنّ هينرييتا هي التي وقع عليها الاختيار توافق هوى ماري، بسبب تشارلز هايتز الذي أرادت أن تضع حدًا لتطلّعاته. كانت نظرتها إلى آل هايتز نظرةً دنيئةً للغاية، وكانت تعتقد أنّه سيكون من سوء الحظّ أن تتجدّد الصّلة القائمة بين الأسرتين. سيكون ذلك مؤسفًا للغاية بالنّسبة إليها وإلى أولادها.

قالت: «أتعلم؟ لا أعتقد أنّه ملائمٌ لهينرييتا على الإطلاق. وإن وضعنا في الاعتبار صلات المصاهرة التي ارتبط بها آل ماسجروف، فلن يكون لديها

الحقُّ في أن تلقي بنفسها بهذه الطَّريقة. لا أعتقد أنَّ أيَّ امرأةٍ شابةٍ لديها الحقُّ في الإقدام على خياراتٍ قد تكون مزعجةً وغير ملائمةٍ للجزء الرئيس من أسرتها، أو الحقُّ في أن تجبر البعض على الارتباط بصلاتٍ غير ملائمةٍ لم يألّفوا مثلها. وبحقِّ السَّماء، من يكون تشارلز هايتز؟ فهو ليس إلا مساعد قسٍّ ريفيٍّ. وهذا ارتباطٌ غير ملائمٍ على الإطلاق للآنسة ماسجروف القاطنة بأبركروس».

ولكنَّ زوجها لم يتَّفَق معها في رأيها هذا. فإلى جانب التَّقدير الذي كان يَكُنُّه لابن خالته، كان تشارلز هايتز هو الابن الأكبر، فكان يرى الأمور من منظوره الخاصِّ كابنٍ أكبر هو الآخر.

ولذلك كان جوابه: «ما تقولينه الآن محض هراء، يا ماري. لن يكون ذلك الارتباط فرصةً رائعةً لهينرييتا، لكن تشارلز لديه فرصةٌ جيِّدةٌ في أن ينال منصبًا ما من الأسقف عن طريق آل سبايسر في غضون عامٍ أو عامين. ولتذكِّري أنَّه الابن الأكبر، وعند وفاة زوج خالتي سيرث ثروةً لا بأس بها. إنَّ ممتلكاتهم في وينشروب لا تقلُّ عن مئتين وخمسين فدَّانًا، إلى جانب المزرعة الكائنة بالقرب من تونتون، والتي تضمُّ بعض أجود الأراضي في البلاد. أتَّفَق معك في أنَّ ارتباط هينرييتا بأيِّ شخصٍ منهم، بخلاف تشارلز،

سيكون فاجعاً للغاية، ولا يمكن أن يحدث ذلك أبداً. ولكن هو الوحيد الذي يُحتمل ارتباطها به، وهو شابٌ طيّبٌ ولطيف. وعندما تؤول إليه ملكيّة وينشروب، سيغيّر من طبيعة ذلك المكان، وسيعيش بطريقةٍ مختلفة. وبأملأكه تلك لن يكون أبداً رجلاً يمكن التّقليل من شأنه. فهي ملكيّة خاصّة غير مستأجرة. لا، لا. يمكن لهينرييتا أن تختار من هو أسوأ من تشارلز هايتير. وإن ارتبطت به، وارتبطت لويزا بالقبطان وينتورث، فسأكون سعيداً للغاية».

ما إن خرج من الغرفة حتى صاحت ماري مخاطبةً آن: «يمكن لشارلز أن يقول ما يحلو له، ولكنّها ستكون صدمةً إن تزوّجت هينرييتا من تشارلز هايتير. سيكون أمراً سيّئاً للغاية بالنّسبة إليها، وأشدّ سوءاً بالنّسبة إليّ. لذا، فعلى المرء أن يأمل بشدّة أن ينجح القبطان وينتورث في طرده من تفكيرها، ولا يوجد لديّ أدنى شكّ في أنّه نجح في ذلك بالفعل. فهي لم تعر أيّ اهتمامٍ تقريباً لشارلز هايتير بالأمس. وددتُ لو كنتِ هناك لتلاحظي سلوكها. أمّا بخصوص إعجاب القبطان وينتورث بلويزا بنفس درجة إعجابه بهينرييتا، فهذا محض هراء. فهو قطعاً معجبٌ بهينرييتا بدرجةٍ أكبر بكثيرٍ. ولكنّ تشارلز يبدو واثقاً للغاية! ليتك كنتِ معنا بالأمس؛ فحينئذٍ كنت ستتمكّنين من الحكم بيننا. وأنا واثقةٌ أنّك كنت ستتفقين معي في الرّأي، ما لم تكوني مصمّمةً على الحكم ضديّ».

كان الغداء لدى السيّد ماسجروف هو المناسبة التي كانت آن ستمكّن خلالها من رؤية كلّ تلك الأشياء، ولكنها بقيت في المنزل بحجّة أنّها تعاني الصداع، وأنّ تشارلز الصّغير قد تعب بعض الشّيء مرّةً أخرى. لم تكن تفكّر سوى في تفادي لقاء القبطان وينتورث، ولكنّ الهرب من لعب دور الحكم أضيف هو الآخر إلى حسنات قضائها أمسيةً هادئةً وحدها.

أمّا فيما يتعلّق برأي القبطان وينتورث نفسه، فقد كانت تعتقد أنّه من المهم أن يحسم رأيه في أقرب وقتٍ ممكن، بحيث لا يخاطر بسعادة أيّ من الشّقيقتين، أو بإثارة الشّكوك في شرفه هو، وأنّ ذلك يفوق أهميّة تفضيله لهينرييتا على لويزا، أو للويزا على هينرييتا. ويمكن لأيّ منهما في الغالب أن تكون له زوجةً محبّةً طيّبةً المعشر. أمّا بخصوص تشارلز هايتز، فقد كان طبعها من الرّقّة بحيث تتألّم من أيّ خفّةٍ في السّلوك الصّادر عن امرأةٍ شابّةٍ حسنة النّوايا، ولها قلبٌ من الرّهافة بحيث يتعاطف مع أيّ ألمٍ قد يتسبّب فيه هذا السّلوك. ولكن في حال كانت هينرييتا غير واثقةٍ من طبيعة مشاعرها، فعليها أن تقرّر في أسرع وقتٍ ممكن.

لقي تشارلز هايتز من سلوك ابنة خالته ما يكفي لإثارة قلقه، ولجعله يشعر بالحرّج. منعته مشاعرها التي تكنّها له منذ فترةٍ طويلةٍ من أن تبتعد عنه بصورةٍ تامّةٍ تجعله يفقد الأمل كليّةً بعد لقائين، بحيث لا يعود أمامه سوى

الابتعاد عن أبركروس. ولكنَّ تغيُّر سلوكها بات مثيرًا للقلق البالغ عندما بدأ يفكر أنَّ رجلًا مثل القبطان وينتورث قد يكون هو السَّبب وراء ذلك. فقد غاب يوميَّ أحدٍ فحسب، وعندما افترقا كانت مهتمةً للغاية، بدرجةٍ تكاد تقارب اهتمامه هو باحتمال تركه العمل كمساعد قسٍّ في المكان الذي يعمل به حاليًّا، وحصوله على عملٍ مماثلٍ في أبركروس عوضًا عن ذلك. بدا ساعتئذٍ أنَّ أكثر الأمور أهميَّةً بالنسبة إليها هو أنَّ خوري الأبرشيَّة، الدكتور شيرلي، الذي ظلَّ يمارس مهامَّ عمله بحماسٍ طوال أربعين عامًا حتى صار عاجزًا عن أداء الكثير من تلك المهام، بات مهتمًّا بتعيين مساعدٍ له. كانت تريد منه أن يجعل راتب المساعد أفضل ما في وسعه، وأن يعد تشارلز هايتز بالمنصب. كان قدومه حتى أبركروس فحسب بدلًا من اضطراره إلى قطع مسافة ستَّة أميالٍ في الاتجاه المعاكس، وحصوله على فرصة عملٍ أفضل لدى الدكتور شيرلي العزيز، وإعفاء الدكتور شيرلي العزيز الطيِّب من المهام التي لم يعد قادرًا على القيام بها دون أن يشعر بالتعب البالغ؛ كان كلُّ ذلك أمرًا فائق الأهميَّة حتى بالنسبة إلى لويزا، ولكنَّه كان يمثل كلَّ شيءٍ تقريبًا بالنسبة إلى هينرييتا. ويا للأسف! فبعد عودته، وجد أنَّ حماسها للأمر قد فتر. لم تتمكَّن لويزا من الإنصات إلى ما يرويه عن محادثةٍ دارت للتَّو بينه وبين الدكتور شيرلي، فقد كانت تقف قبالة النَّافذة تنتظر قدوم القبطان

وينتورث. وحتى هينرييتا لم تمنحه سوى نصف انتباهها فحسب في أحسن الأحوال، وقد بدا أنها نسيت كل قلقها واهتمامها السابق بالأمر.

«حسنًا، أنا سعيدة للغاية. ولكن لطالما اعتقدت أنك ستفوز بالمنصب، ولطالما اعتقدت أنك واثق من ذلك. لم أعتقد أن... باختصار، وكما تعلم، فالدكتور شيرلي يجب أن يعين مساعدًا له، وقد حصلت أنت على وعدٍ منه بذلك. هل هو قادمٌ يا لويزا؟».

وفي صباح أحد الأيام، بعد فترة وجيزة من الغداء الذي لم تحضره آن لدى آل ماسجروف، دخل القبطان وينتورث غرفة الاستقبال في الكوخ، حيث كانت هي وحدها مع تشارلز الصغير المريض الممدد على الأريكة.

دفعته المفاجأة، حين وجد نفسه وحده تقريبًا مع آن إليوت، إلى التخلي عن هدوئه المعتاد. جفل، ولم يتمكن من النطق بشيء سوى: «ظننت أن الآنستين ماسجروف موجودتان هنا؛ فقد أخبرتني السيّدة ماسجروف أنني سأجدهما هنا». وبعدئذٍ، اتّجه نحو النَّافذة لكي يتمالك أعصابه من جديد، ويفكر كيف عليه أن يتصرّف.

«إنَّهما بالأعلى برفقة شقيقتي، وأعتقد أنَّهما ستأتيان خلال لحظات». أجابته آن باضطرابٍ طبيعيٍّ، ولو لم يناديها الصَّغير طالبًا منها أن تأتي لتساعده في شيءٍ ما، لكانت خرجت من الغرفة في اللَّحظة التَّالية وأعفت القبطان وينتورث من الحرج، وأعفت نفسها كذلك.

بقي بجوار النَّافذة، وبعد أن قال بهدوءٍ وأدبٍ: «أتمنَّى أن يكون الصَّبِيُّ أحسن حالًا الآن»، لزم الصَّمْت تمامًا.

اضطَّرت إلى الجثوَّ بجوار الأريكة والبقاء هناك إرضاءً للصَّبِيِّ المريض. بقوا هكذا لبضع دقائق إلى أن سمعت صوت شخصٍ يأتي عبر المدخل الصَّغير، فانتابها شعورٌ غامرٌ بالرَّاحة. أدارت رأسها وهي تأمل أن ترى ربَّ المنزل، ولكن اتَّضح أنَّه شخصٌ لن يزيد الأمور إلَّا تعقيدًا؛ كان تشارلز هايتز، الذي لم يسعده في الغالب مرأى القبطان وينتورث أكثر ممَّا شعر القبطان وينتورث بالسَّعادة لرؤية آن.

قالت: «كيف حالك؟ ألن تجلس؟ سيحضر الباقون بعد قليل».

ولكنَّ القبطان وينتورث أتى من مكانه بجوار النَّافذة وهو مستعدٌّ على ما يبدو لتبادل الحديث. ولكنَّ تشارلز هايتز وضع حدًّا لمحاولته تلك بأن

اتَّخَذَ مقعدًا بجوار الطَّاولَة وأمسك بالجريدة، فعاد القبطان وينتورث أدراجَه نحو النَّافذة.

بعد دقيقةٍ، أتى شخصٌ آخر: الطُّفل الأصغر الذي كان عنيْدًا وجريئًا، ويبلغ من العمر عامين. بعد أن فتح له أحدهم الباب من الخارج، صمَّم على الانضمام إليهم، واتَّجِه نحو الأريكة مباشرةً ليكتشف ما الذي يدور، وليطالب بنصيبه من أيِّ شيءٍ طيِّبٍ قد يكونوا يقومون بتوزيعه.

لم يجد أيَّ شيءٍ ليتناوله، ولذلك لم يعد أمامه سوى اللَّعب، ولكنَّ حالته لم تسمح له بمشاكسة شقيقه المريض. تشبَّث بها وهي جائئةٌ منشغلةٌ بتشارلز، بحيث لم تتمكَّن من التَّخلُّص منه. تحدَّثت معه؛ أمرته وترجَّته وصمَّمت دون جدوى. وعندما نجحت في دفعه بعيدًا، لم يلبث الصَّبِيُّ أن تشبَّث بظهرها على الفور مرَّةً أخرى، وبمتعةٍ أكبر من المرَّة الأولى.

قالت: «والتر، انزل حاليًّا. أنت متعبٌ للغاية، وأنا غاضبةٌ جدًّا منك».

صاح تشارلز هايتز قائلاً: «لم لا تطيع الأمر الموجه إليك؟ ألا تسمع خالتك وهي تحادثك؟ تعال إليَّ، يا والتر. تعال إلى ابن الخالة تشارلز».

ولكنّ والتر لم يحرك ساكنًا.

ولكن بعد لحظة، وجدت نفسها وقد تحرّرت منه بعد أن أبعده أحدهم عنها. كان قد أجبرها على خفض رأسها بدرجة كبيرة حتى فكَّ أحدهم يديه الصَّغِيرَتَيْن اللّتين أحاطتا بعنقها، وحمله بعيدًا بحسَمٍ، قبل أن تدرك أنّ القبطان وينتورث هو من قام بذلك.

فقدت القدرة على النُّطق تمامًا بعد أن أدركت ذلك، بحيث لم تتمكّن حتى من تقديم الشُّكر له. لم يسعها سوى أن تميل فوق تشارلز الصَّغير بمشاعر مضطربة. كرمه الذي دعاه لأن يتقدّم كي يعاونها، وطريقته في ذلك، والصَّمت الذي التزم به وهو يقوم بالأمر، وكلُّ التَّفاصيل الصَّغيرة المحيطة بالموقف، إضافةً إلى القناعة التي ما لبثت أن توصّلت إليها، بسبب الأصوات التي كان يصدرها وهو يلعب الطُّفل، بأنّه تعمّد أن يتفادى سماعها وهي توجّه له الشُّكر، وتعمّد أن يُظهر لها أنّ تبادل الحديث معها هو آخر ما كان يرغب فيه؛ تسبّب لها كلُّ ذلك في اضطرابها بمشاعر متفاوتةٍ وألمٍ بالغٍ لم تستطع التَّغلب عليه حتى تمكّنت بعد حضور ماري والآنستين ماسجروف من أن توليهم رعاية المريض الصَّغير قبل أن تغادر هي الغرفة. لم تستطع البقاء. ربما كانت فرصةً سانحةً لمراقبة

مشاعر الحبِّ والغيرة التي تجمع بين الأربعة، إذ اجتمعوا كُلُّهم الآن، ولكنَّها لم تتمكَّن من البقاء. بدا من الواضح أنَّ تشارلز هايتز لا يميل إلى القبطان وينتورث. اعتقدت أنَّها سمعته يقول بنبرة يغلب عليها الضيق، بعد أن تدخل القبطان وينتورث: «كان عليك أن تطيعني أنا، يا والتر. فقد أمرتك ألا تشاكس خالتك». وأدركت أنَّه شعر بالندم لأنَّه لم يقم بنفسه بما قام به القبطان وينتورث. ولكنَّها لن تستطيع التَّفكير في مشاعر تشارلز هايتز، أو أيِّ شخصٍ آخر، حتى تسنح لها الفرصة للسيطرة على مشاعرها. فقد كانت تشعر بالخجل من نفسها لتوتُّرها واضطرابها البالغ من أمرٍ بمثل هذه التَّفاهة. ولكن هذا هو ما شعرت به بالفعل، وتطلَّب الأمر منها الانفراد بنفسها لفترةٍ طويلةٍ والتَّأمُّل حتى تتمالك مشاعرها من جديد.

مكتبة 729

telegram @t_pdf

كان أمراً محتوماً أن تسنح لها فرصٌ أخرى لتمكّن من ملاحظة ما يجري. وسرعان ما أمضت آن ما يكفي من الوقت مع الأربعة جميعهم إلى أن تمكّنت من تكوين رأيها الخاص. ولكنها كانت تتحلّى بالحكمة الكافية التي منعتها من الإفصاح عن رأيها هذا في المنزل، حيث كانت تعلم أنّه لن يُرضي لا الزوج ولا زوجته. فمع أنّها اعتبرت لويزا هي المفضّلة، إلّا أنّها لم تكن تعتقد أنّ القبطان وينتورث واقعٌ في حبٍّ أيٍّ منهما، بحسب ما يمكنها الحكم من خلال ذاكرتها وخبرتها السابقة. فقد كان يبدو عليهما هما أنّهما تحبّانه بدرجةٍ أكبر، مع أنّه لم يكن حتى حبّاً بالفعل، بل مجرد إعجابٍ محموم. ولكن من المحتمل، بل ومن المحتوم، أن ينتهي بوقوع أحدهم في الحبّ بالفعل. بدا تشارلز هايتز وكأنّه يشعر بالإهانة، بينما بدت هينرييتا في بعض الأحيان وكأنّ مشاعرها مشتتةً بينهما. تمنّت آن لو كان بوسعها أن توضّح الأمر لهم جميعاً، وأن تشير إلى بعض المخاطر التي يعرّضون أنفسهم لها. لم تعتقد أنّ أيّاً منهم يتّصف بالمكر. وشعرت بالرّضا التامّ لاقتناعها بأنّ القبطان وينتورث لم تكن لديه أدنى فكرةٍ عن الألم الذي يتسبّب فيه. ولم يكن هناك في سلوكه ما ينمُّ عن التّعالي أو الانتصار. وفي الغالب، لم يكن قد سمع من قبل، أو خطر في باله أنّ تشارلز هايتز له

أَيُّ حَقُوقٍ. كَانَ خَطْؤُهُ الْوَحِيدَ يَكْمُنُ فِي قَبُولِهِ (لَا بَدَّ وَأَنَّ كَلِمَةَ قَبُولٍ هِيَ الَّتِي تَعْبُرُ عَنِ الْأَمْرِ) اهْتِمَامَ امْرَأَتَيْنِ شَابَّتَيْنِ بِهِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ.

وَلَكِنْ بَعْدَ صِرَاعٍ قَصِيرٍ، بَدَأَ أَنَّ تشارلز هَايْتِرَ اعْتَزَلَ الْمَعْرَكَةَ. مَضَتْ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ دُونَ أَنْ يَأْتِيَ لَزِيَارَةِ أُبْرَكَرُوسْ؛ وَكَانَ هَذَا تَغْيِيرًا وَاضِحًا. حَتَّى إِنَّهُ رَفَضَ دَعْوَةَ صَرِيحَةً لِتَنَاوُلِ الْغَدَاءِ. وَبَعْدَ أَنْ وَجَدَهُ السَّيِّدَ مَاسْجُورُوفَ سَاعَتْنِذٍ وَهُوَ جَالِسٌ، وَقَدْ تَكَدَّسَتْ أَمَامَهُ بَعْضُ الْكُتُبِ الضَّخْمَةِ، تَأَكَّدَ السَّيِّدُ وَالسَّيِّدَةُ مَاسْجُورُوفَ أَنَّه لَيْسَ عَلَى مَا يِرَامُ، وَتَحَدَّثَا بِوَجْهَيْنِ تَكْسُوهُمَا الْجَدِّيَّةَ عَنِ إِرْهَاقِهِ لِنَفْسِهِ بِكَثْرَةِ الْاسْتِذْكَارِ. كَانَتْ مَارِي تَأْمُلُ وَتَشْعُرُ بِالْاِقْتِنَاعِ التَّامِّ أَنَّه قَدْ تَلَقَّى رَفْضًا قَاطِعًا مِنْ هِينْرِيتَا، فِي حِينِ كَانَ زَوْجُهَا يَحْيَا عَلَى أَمَلٍ دَائِمٍ بِأَنْ يَلْتَقِيَهُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي. بَيْنَمَا أَحْسَسَتْ أَنَّ تشارلز هَايْتِرَ يَتَمَتَّعُ بِالْحِكْمَةِ.

وَفِي ذَاتِ صَبَاحٍ، خَرَجَ تشارلز مَاسْجُورُوفَ بِصَحْبَةِ الْقَبْطَانِ وَيَنْتَوُورْثَ لِلصَّيْدِ، بَيْنَمَا بَقِيََتِ الشَّقِيقَتَانِ فِي الْكُوْخِ، حَيْثُ جَلَسَتَا تَتَابَعَانِ عَمَلَهُمَا فِي هَدْوٍ، إِلَى أَنْ اقْتَرَبَتِ الشَّقِيقَتَانِ الْقَادِمَتَانِ مِنَ الْمَنْزِلِ الْكَبِيرِ مِنْ نَافَذَتَهُمَا.

كان يوماً صحواً من أيام شهر نوفمبر، وعبرت الآنستان ماسجروف عبر الحديقة الصغيرة، ومرّتا بهما لتعلنا أنّهما ذاهبتان للتّمشي لمسافة طويلة، ولذا استنتجتا أنّ ماري لن تهتمّ بمرافقتهما. وعندها أجابت ماري على الفور، وهي تشعر ببعض الاستياء حيال افتراضهما أنّها لا تستطيع المشي لمسافات طويلة وقالت: «أوه، أجل، سيسعدني كثيراً الانضمام إليكما، فأنا مولعةٌ بالمشي لمسافات طويلة». شعرت آن، من خلال النظرة التي ارتسمت على ملامح الفتاتين، أنّهما لم تكونا ترغبان في هذا، وتعجّبت مرّة أخرى من عادات أفراد الأسرة التي تدعوهم لإبلاغ بعضهم بعضاً بكلّ شيء، وللقيام بكلّ شيء معاً، مهما كان هذا غير مرغوب فيه، وغير ملائم. حاولت إنشاء ماري عن الدّهاب، ولكن دون جدوى. وعندها ارتأت أنّه من الأفضل أن تقبل دعوة الآنستين ماسجروف لها، والتي كانت ودّيّةً بدرجة أكبر، إلى مرافقتهما هي الأخرى. فربّما كان وجودها نافعا، إذ يمكنها العودة مع شقيقتها مرّة أخرى، والحدّ من أيّ تغييرٍ قد تضطرّان إلى إدخاله على خططهما الخاصّة.

«لا أستطيع تخيّل السّبب الذي يدعوهما إلى الاعتقاد بأنّي قد لا أرغب في الخروج للتّمشي لمسافة طويلة!»، قالتها ماري وهي تصعد درجات السّلم. «دائماً يفترض الجميع أنّي لا أستطيع المشي لمسافات طويلة!

ومع ذلك، ما كانتا لتشعرا بالسعادة لو أننا رفضنا الانضمام إليهما. حين يأتي الناس إلينا بهذه الطريقة متعمدين سؤالنا، فكيف يسع المرء أن يرفض؟».

كنَّ على وشك الخروج عندما عاد الرجلان. كانا قد اصطحبا كلبًا صغيرًا أفسد عليهما رحلة الصيد؛ ممَّا اضطرَّهما إلى العودة باكراً. ولذلك فقد عادا في الوقت المناسب، وكانا ما يزالان يتمتَّعان بالقوَّة الكافية، وبحالةٍ مزاجيَّةٍ جعلت هذه النُزهة ملائمةً لهما تمامًا، فانضمَّا إليهنَّ بسرور. لو أنَّ آن توقَّعت حدوث هذا، لمكثت في المنزل، ولكن، بدافعٍ من الاهتمام والفضول، شعرت أنَّ أوان التراجع قد فات، فمضى السَّتَّة قدمًا في الاتجاه الذي اختارته الأنستان ماسجروف اللتان بدا من الواضح أنَّهما اعتبرتَا نفسيهما مسؤولتين عن توجيه مسار النُزهة. حاولت آن ألا تكون في طريق أيِّ شخص. وحينما كانت الطُّرقات الضيِّقة والمتشعِّبة بين الحقول تضطرُّهم إلى الافتراق، كانت تبقى بجوار شقيقتها وزوج شقيقتها. نبتت متعتها خلال تلك النُزهة من التريُّض، ومن جمال ذلك النَّهار، حيث أضفت نهايات العام لمستها على أوراق الشَّجر التي تلوَّنت بدرجات الأصفر، وعلى أسيجة الشُّجيرات الدَّابلة. كرَّرت لنفسها بعض الأبيات الشعريَّة العديدة المتداولة، والتي تصف الخريف، ذلك الفصل ذا التَّأثير الغريب

وغير المحدود على عقل المرء، وذوقه، وشعوره؛ ذلك الفصل الذي دعا كلَّ شاعرٍ يستحقُّ القراءة إلى محاولة وصفه، أو إلى كتابة بعض الأبيات العامرة بالمشاعر. شغلت عقلها بقدر المستطاع بمثل هذه الأفكار والاقتراسات، ولكنها لم تستطع أن تقاوم محاولة الاستماع إلى الحديث الدائر حين كانت تقترب من القبطان وينتورث وأيٍّ من الأنستين ماسجروف. ولكنَّ أذنها لم تلتقط أيَّ شيءٍ مميز. كانت مجردَ ثرثرةٍ مرحّةٍ مثل تلك التي قد يتبادلها أيُّ شبابٍ على علاقةٍ مقرّبة. بدا أكثر تفاعلاً مع لويزا، عنه مع هينرييتا. وكانت لويزا قطعاً تجذب انتباهه أكثر من شقيقتها. أخذ هذا التّباين يتّضح بصورةٍ متزايدةٍ حتى لفت انتباهها خطابٌ محدّدٌ ألفته لويزا. فبعد واحدةٍ من العبارات العديدة التي كان يلقيها الجميع، وهم يشنون على جمال ذلك النّهار، أضاف القبطان وينتورث قائلاً:

«يا له من طقسٍ رائعٍ بالنّسبة إلى الأدميرال وإلى شقيقتي! فقد كانا ننتويان الدّهَاب في نزهةٍ طويلةٍ بالعربة هذا الصّباح. وربما نلقاهما قادمين عبر إحدى هذه التّلال. قالاً إنّهما قد يأتيان إلى هذه المنطقة. أتساءل ترى أين ستقلب بهما العربة اليوم. أوه! فالأمر يتكرّر كثيراً، وبوسعي أن أوكّد لكم أنّ شقيقتي ليس لديها أيُّ مانعٍ على الإطلاق. فلا يشكّل سقوطها من العربة، أو عدم سقوطها، أيَّ فارقٍ لديها».

صاحت لويزا قائلةً: «آه! أعرف أنك تبالغ في حديثك هذا. ولكن لو كان الأمر هكذا بالفعل، لفعلتُ مثلها تمامًا لو كنت مكانها. فلو كنت أحبُّ رجلاً ما مثلما تحبُّ هي الأدميرال، لبقيتُ بجواره دوماً، ولن يفرّقنا أيُّ شيء، ولفضّلتُ الانقلاب بالعربة معه، على أن يقودها أيُّ شخصٍ آخر بأمان».

نطقت بحديثها هذا بحماس.

صاح هو بنفس نبرتها قائلاً: «حقاً؟ لك مني كلُّ الاحترام!». ثمّ ساد الصمت بينهما لبعض الوقت.

لم تستطع آن العودة في الحال إلى التّفكير في الأقوال المقتبسة. تخلّت عن التّفكير في المشاهد الخريفية الفاتنة لبعض الوقت - ما لم تخطر في بالها قصيدةٌ عذبةٌ مفعمةٌ بالتّشبيهات الملائمة المتعلّقة بالعام الذي أوّشك على الانتهاء، وبالسّعادة الهاربة، وبصور الشّباب والأمل والرّبيع الذين اختفوا جميعاً. انتبهت من تفكيرها وقالت، بينما هم يسيرون الواحد وراء الآخر عبر طريقٍ جديد: «أليس هذا هو أحد الطّرق المؤدّية إلى

وينشروب؟»، ولكن لم يبدُ أنَّ أحدًا قد سمعها، أو على الأقلَّ لم يجبها أحد.

والحالُّ أنَّ وينشروب أو المناطق المحيطة بها كانت هي وجهتهم بالفعل، حيث إنَّه من الممكن في بعض الأحيان أن يلتقي الشَّباب وهم يتنزَّهون بالقرب من منازلهم. وبعد حوالي نصف ميلٍ آخر من الصُّعود التَّدرجيِّ عبر حقولٍ شاسعةٍ مسيَّجةٍ، حيث كانت المحاريث تقوم بالعمل، وحيث دلَّت الأخاديد المحفورة حديثًا على محاولات المزارع مقاومةً مظاهر الخريف الشَّعريَّة الرَّقيقة، وعلى رغبته في ميلاد الرِّبيع من جديدٍ، ما لبثوا أن بلغوا قمَّة أعلى تلٍّ فاصلٍ بين أبركروس ووينشروب، وشاهدوا تلك الأخيرة بوضوحٍ عند سفح التِّلِّ الكائن على الجهة المقابلة.

امتدَّت أمامهم وينشروب دون أيِّ لمحة جمالٍ أو جلال. كان المنزل بسيطًا غير مرتفعٍ، ومحاطًا بالحظائر ومباني المزرعة.

قالت ماري: «فليرحمني الرَّبُّ! ها هي وينشروب! لم تكن لديَّ أدنى فكرة! حسنًا، أعتقد أنَّه آن الأوان لكي نعود الآن. فأنا متعبةٌ للغاية».

أدركت هينرييتا الوضع، وأحسَّت بالخجل من نفسها. وعندما لم تر ابن خالتها تشارلز يسير في أيِّ طريقٍ أو يستند إلى جانب أيِّ بَوَّابةٍ، بدت على استعدادٍ لأن تفعل ما طلبته ماري. ولكنَّ تشارلز ماسجروف قال «لا»، وصاحت لويزا بحماسٍ أكبر قائلةً: «لا، لا»، ثمَّ انتحت بشقيقتها جانبًا، وبدأ أُنَّهما تخوضان جدالًا محتدمًا.

وفي الوقت نفسه، أعلن تشارلز بوضوحٍ عن رغبته في زيارة خالته، طالما أنَّه قريبٌ منها إلى هذا الحدِّ. وحاول بوضوحٍ، ولكن بحذرٍ، أن يقنع زوجته بالذهاب هي الأخرى. ولكنَّ هذا كان من المواضيع التي صمَّمت فيها السيِّدة على رأيها بقوة. وعندما اقترح إمكانية أن تمضي ربع ساعةٍ تستريح فيها في وينشروب، ذلك أنَّها تشعر بالتعب، ردَّت بتصميمٍ وقالت:

«أوه! بالطبع لا!»، فصعد ذلك التلَّ مرَّةً أخرى سيضُرُّها أكثر ممَّا سيفيدها أيُّ وقتٍ تمضيه وهي جالسة. باختصارٍ، أكَّدت بنظرتها وسلوكها أنَّها لن تذهب.

بعد سلسلةٍ قصيرةٍ من هذه المجادلات والاستشارات، اتَّفَق تشارلز وشقيقتها على أن يذهب هو وهينرييتا، لوضع دقائق، لزيارة خالتهما وأبنائهما،

بينما يظلُّ باقي أفراد المجموعة في انتظارهما أعلى التِّل. بدا أنَّ لويزا هي من خَطَّط للأمر، وبينما سارت معهما لمسافةٍ قصيرةٍ في طريقهما وهما يهبطان التِّل، وهي ما تزال تتبادل الحديث مع هينرييتا، انتهزت ماري الفرصة وهي تجول بنظرها حولها في احتقار، وقالت للقبطان وينتورث:

«يا له من أمرٍ مزعجٍ للغاية أن يكون للمرء صلاتٌ كهذه! ولكنني أوكد لك أنني لم أدخل هذا المنزل أكثر من مرّتين في حياتي».

لم تتلقَ منه جوابًا سوى ابتسامةٍ مصطنعةٍ تلاها بنظرةٍ احتقارٍ قبل أن يشيح بوجهه عنها. كانت آن تعرف معنى تلك النّظرة تمامًا.

كانت قَمّة التِّل التي ظلُّوا واقفين عندها مكانًا مبهجًا. عادت لويزا، ووجدت ماري لنفسها مكانًا مريحًا للجلوس عند درجة سلّم، بالقرب من أحد الأسوار، وشعرت بالرّضا والباقون يقفون حولها. ولكن عندما اصطحبت لويزا القبطان وينتورث، وذهبا ليحاولا البحث عن الجوز وسط صفٍّ شجيراتٍ بالقرب من المكان، بحيث ابتعدا عن مرمى بصرها وسمعها، لم تعد ماري تشعر بالرّضا، ولم يعد يعجبها المكان الذي تجلس فيه. كانت على ثقةٍ من أنَّ لويزا ذهبت إلى مكانٍ أفضل بكثيرٍ، ولم يفلح

شيء في منعها من الذهاب للبحث عن مكان أفضل هي الأخرى. ولجت من البوابة ذاتها؛ ولكنها لم تتمكّن من رؤيتهما. عثرت لها آن على مكان لطيف للجلوس عند منحدر جاف ومشمس، أسفل صفّ الشجيرات التي كانت متيقّنة من أنّهما كانا ما يزالان عندها في بقعةٍ أو أخرى. جلست ماري للحظة، ولكنها لم تقتنع. كانت متأكّدة من أنّ لويزا وجدت مكاناً أفضل للجلوس في بقعةٍ أخرى، وصمّمت على ملاحقتها حتى تعثر عليها.

أحسّت آن بالتعب، وشعرت بالراحة حين وجدت مكاناً للجلوس. ما لبثت بعدها أن سمعت صوت القبطان وينتورث ولويزا بين الأشجار خلفها، وكأنّهما عائدان في طريقهما عبر الطريق الوعر الذي يمرّ وسطها. كانا يتبادلان الحديث بينما هما يقتربان منها، وتمكّنت من تمييز صوت لويزا أولاً. بدا أنّها في منتصف خطابٍ حماسيّ. ما ترامى إلى سمع آن في البداية كان قولها:

«ولذا جعلتها تذهب. لم أتحمّل شعورها بالقلق من الزيارة بسبب محض هراء كهذا. كيف هذا؟ هل سأبدّل أنا رأيي بخصوص شيءٍ عزمت على القيام به، وأنا على يقينٍ من أنّه عين الصّواب، بسبب المظاهر، وبسبب تدخّلات شخصٍ كهذا؟ أو أيّ شخصٍ آخر بصفةٍ عامّة. لا، لا يمكن لأيّ

شخصٍ أن يقنعني بسهولةٍ لأغَيِّر رأيي. فحين أقرّر شيئاً ما، أصمّم عليه. وبدأت هينرييتا وكأنّها قد صمّمت تماماً على زيارة وينشروب اليوم، ولكنّها كادت تغيّر رأيها بسبب إذعانها الأحمق!».

«هل كانت ستعود أدراجها إذن لولا تدخلك أنت؟».

«أجل، كانت ستعود بالفعل. أكاد أشعر بالخجل من الاعتراف بهذا».

«يالها من محظوظةٍ لكونها تتمتع بوجود شخصٍ له تفكيرك بالقرب منها! بعد التلميحات التي لمّحتِ أنت بها الآن، والتي أكّدت ملاحظاتي الشخصية في آخر مرّةٍ شاهدته فيها، لم يعد هناك داعٍ لأن أتصنّع عدم الفهم لما يدور. أرى الآن أنّ الأمر يتعدّى كونه مجرد زيارة صباحيةٍ لخالتك. والويل له ولها هي أيضاً عندما يتعلق الأمر بشيءٍ له مثل هذه الأهميّة، وتضطرّهما الظروف إلى التمتّع بالقوّة وثبات الرّأي، إن لم يكن لديها هي العزيمة الكافية لمقاومة التّدخّلات التّافهة كهذه. لشقيقتك شخصيةٌ لطيفةٌ، ولكنّ شخصيّتك أنت تتّصف بالحزم والقوّة، بحسب ما يتراءى لي. إنّ كانت تصرّفاتها وسعاداتها تهّمك، فعليك أن تحاولي أن تجعلها تتحلّى بروحك أنت، بقدر المستطاع. ولكن لا شكّ في أنّ هذا

هو ما تقومين به بالفعل طوال الوقت. إنّ من أكبر مساوئ الشخصية المستسلمة والمتردّدة هو أنّه لا يمكن للمرء أن يثق في تأثير أيّ شخص عليها: إذ لا يمكننا أن نكون على ثقة من دوام التأثير الإيجابي على مثل تلك الشخصية، بل يمكن لأيّ شخص إقناعهم بالعدول عن رأيهم. فعلى أولئك الذين يرغبون في التمتع بالسعادة أن يتحلّوا بثبات الرّأي. ها هي جوزة»، قالها وهو يلتقطها من أحد الأغصان المرتفعة. «على سبيل المثال، ها هي جوزة جميلة لامعة تتمتع بالقوّة، وقد نجحت في الصُّمود في وجه كلّ عواصف الخريف. لا يوجد بها أيّ ثقبٍ أو أيّ بقعة غصّة في أيّ مكان. هذه الجوزة - « واصل حديثه بنبرة مشاكسة بها جدّة مصطنعة وقال: «بينما سقط العديد من أقرانها لتدهسهم الأقدام، ما تزال تتمتع بكلّ السعادة التي بوسع حبة من البندق أن تتمتع بها». عاد بعدها إلى نبرته الجادّة وهو يقول: «ما أتمناه قبل أيّ شيءٍ لأولئك الذين يهمني أمرهم، هو أن يتمتعوا بقوّة الشخصية. لو كانت لويزا ماسجروف ستمتع بالجمال والسعادة في خريف عمرها، فعليها أن تحافظ على كلّ القوّة التي تتمتع بها الآن».

انتهى من حديثه، ولم يتلقَ أيّ جواب. كانت آن ستشعر بالدهشة لو تمكّنت لويزا من الرّدّ على مثل هذا الخطاب على الفور، على كلماتٍ مشيرة

للاهتمام كهذه، وقد نطقها بكلّ جدّيّة ودفع! كان بوسعها أن تتخيّل مشاعر لويزا وقتئذٍ. أمّا بالنّسبة إليها هي، فقد خشيت أن تتحرّك لئلا يربانها. في جلستها تلك كانت هناك شجيرة منخفضة ممتدّة من الآس البرّي تخفيها عن الأنظار، واستمرّا هما في طريقهما. ولكن قبل أن يتعدا عن مرمى أذنها، تحدّثت لويزا مرّة أخرى.

قالت: «في شخصيّة ماري عدّة جوانب لطيفة، ولكنّها أحياناً تشير أعصابي للغاية بكلّ ذلك الهراء والغطرسة: خيلاء آل إليوت. فهي تتمتع بالكثير من كِبَر آل إليوت. كم نتمنّى لو كان تشارلز تزوّج من آن بدلاً منها. أعتقد أنّك تعلم أنّه كان يرغب في الزّواج من آن؟».

بعد لحظةٍ من الصّمت، قال القبطان وينتورث:

«هل تعنين أنّها رفضت الزّواج منه؟».

«أوه! أجل، بالطبع!».

«متى حدث ذلك؟».

«لا أعلم على وجه التحديد، فقد كنتُ أنا وهينرييتا في المدرسة آنذاك، ولكن أعتقد أنه كان قبل عامٍ تقريباً من زواجه من ماري. وددتُ لو أنها قبلت الزواج منه. كنّا جميعاً سنحبّها بدرجةٍ أكبر بكثير. لطالما اعتقد والدي ووالدتي أنّ صديقتها المقرّبة، الليدي راسيل، هي السّبب وراء رفضها له. فهما يعتقدان أنّ تشارلز ليس متعلّماً ومثقّقاً بما فيه الكفاية لإرضاء الليدي راسيل؛ ولذا فقد أقنعت آن برفضه».

ابتعد صوتهما، ولم تعد آن تستطيع تمييزه. أبقتها المشاعر المضطربة بداخلها جالسةً في مكانها. كان عليها أن تتمالك نفسها قبل أن تتمكّن من الحركة. لم يتحقّق المثل القائل إنّ من يتنصّت على الحديث لا يسمع عن نفسه أيّ خير، إذ لم يحدث أن سمعت عن نفسها أيّ شيءٍ مسيء. ولكنّها سمعت الكثير ممّا تسبّب لها في الشّعور بالألم. فقد عرفت كيف يرى القبطان وينتورث شخصيّتها. وكانت هناك درجةٌ من الاهتمام والفضول حيالها في حديثه بطريقةٍ سبّبت لها الإضطراب.

ما إن تمكّنت من ذلك حتى ذهبت للبحث عن ماري، وبعد أن عثرت عليها عادتا معاً إلى البقعة التي كانتا تجلسان فيها في بادئ الأمر، بالقرب من السّلم عند السّور. وما لبثت أن شعرت بالراحة حين عاد أفراد

المجموعة للتَّجْمُع وشرعوا في السَّير معاً مرّةً أخرى. أرادت روحها أن تتمتع بالوحدة والهدوء اللذين لا يتوفّران سوى بين الجموع.

عاد تشارلز وهينريتا، وقد جلبا معهما تشارلز هايتز، كما كان متوقّعا. لم تستطع آن فهم كلّ تفاصيل الموضوع، وحتى القبطان وينتورث لم يصارحه أحدٌ بكلّ ما حدث، ولكن لم يكن هناك شكٌ في أنّ السيّد كان قد انسحب حتى لانت السيّدة، وفي أنّ كليهما كان يشعر بالسّعادة الآن لعودة علاقتهما مرّةً أخرى. بدت هينريتا وكأنّها تشعر بالخجل بعض الشيء، ولكنّها كانت سعيدةً للغاية في الوقت نفسه. كما كان تشارلز هايتز بمنتهى السّعادة هو الآخر، وقد انشغل أحدهما بالآخر منذ اللّحظة الأولى تقريباً التي شرعوا فيها في السَّير عائدين نحو أبركروس.

كانت كلّ الدلائل الآن تشير إلى أنّ لويزا ستكون من نصيب القبطان وينتورث، وبدا الأمر جليّاً للغاية. وحين كان الطّريق يجبرهم على السَّير متفرّقين، وحتى عندما لم يكن هناك داعٍ لذلك، كانا يظلالان جنباً إلى جنب، مثل الزّوجين الآخرين، وبالقدر نفسه تقريباً. وهكذا فقد تفرّقوا على هذا النّحو، وسط مرجٍ شاسعٍ يكفي لسير الجميع، وشكّلوا ثلاث مجموعات. وكانت آن ضمن المجموعة المؤلّفة من ثلاثة أفراد، والتي

اتَّصَفَتْ بِأَقْلٍ قَدْرٍ مِنَ الْحَيَوِيَّةِ وَاللُّطْفِ. انضَمَّتْ إِلَى تشارلز وماري، وكانت تشعر بالتَّعب لدرجةٍ دفعَتْها إِلَى أَنْ تَرْحَّبَ بِالاستنادِ إِلَى ذراعِ تشارلز الأخرى. وبينما كان تشارلز يعاملها بلطفٍ بالغٍ، بدا وكأنَّه قد فقد صبره مع زوجته. فقد عصت ماري أوامره، وعليها الآن أَنْ تتَحَمَّلَ نتيجة ذلك، فقد ظلَّ يترك ذراعها بين لحظةٍ وأخرى ليقطع بعض رؤوس نبات القَرَّاصِ المطَّلَّةِ من بين الشُّجيرات بسوطه القصير. وعندما اشتكت ماري أَنَّهُ يخالِف ما جرت عليه العادة بإبقائها هي ناحية سياج الشُّجيرات، بينما آن لا تعاني أيَّ إزعاجٍ على النَّاحية الأخرى، ترك ذراعيهما هما الاثنتين، وذهب للبحث عن ابن عرسٍ كان قد لمحَّه لهنيهةً، وبصعوبةٍ تمكَّنَّا من اللحاق به.

كان هذا المرج الطَّويل يحاذي طريقًا يتقاطع مع نهاية الممرِّ الذي كانوا يسيرون فيه. وعندما وصل كلُّ أفراد المجموعة إِلَى بَوَّابة الخروج، اقتربت منهم عربةٌ قادمةٌ في الاتِّجاء نفسه، كانوا قد سمعوا صوتها منذ فترةٍ، واتَّضح أنَّها عربة الأدميرال كروفت. لقد انتهى هو وزوجته من نزهتهما، وكانا في طريقهما للعودة إِلَى المنزل. بعد أن عرفا مدى طول المسافة التي سارها الشَّباب، عرضا بلطفٍ أَنْ يُقَلَّا معهما أيَّ شابةٍ قد تكون تعاني من التَّعب بدرجةٍ زائدة، إذ كانا سيوفِّران عليها السَّير لمسافة ميلٍ كاملٍ، وسيمرَّان بأبركروس في طريقهما. كانت الدَّعوة عامَّةً موجَّهةً إِلَى الجميع،

ورفضها الجميع. لم تكن الآنستان ماسجروف تشعران بالتعب على الإطلاق، وكانت ماري إمّا تشعر بالإهانة لأنّهما لم يوجها الدّعوة إليها هي أوّلًا قبل الباقيين، وإمّا كان ما أطلقت عليه لويزا «كِبَر آل إليوت» يمنعها من أن تستقلّ عربةً يجرّها حصانٌ واحدٌ إلى جوار فردين آخرين.

كان أفراد المجموعة قد عبروا الطّريق، وشرعوا يصعدون درجات سلّم لعبور جدارٍ مقابلٍ، وأخذ الأدميرال يحثّ الحصان على التّحرّك مرّةً أخرى عندما عبر القبطان وينتورث سياج الشّجيرات في لحظةٍ ليخبر شقيقته شيئًا ما، شيئًا يمكن للمرء أن يحزر ماهيّته من النّتائج التي ترتّبت عليه بعد ذلك.

صاحت السيّدة كروفت قائلةً: «آنسة إليوت، أنا متيقّنة من أنّك تشعرين بالتعب. فلتمنحينا شرف اصطحابك إلى المنزل. أوّكد لك أنّ هناك متّسعًا لثلاثة أشخاص. ولو كنّا جميعًا بمثل رشاقتك، لكان هناك متّسعٌ لأربعة حسب اعتقادي. عليك أن تأتي معنا، قطعًا عليك أن تأتي».

كانت آن ما تزال واقفةً في الطّريق، ومع أنّها شرعت ترفض العرض، لم تتمكّن من المضيّ في ذلك. انضمّ الأدميرال مؤيّدًا زوجته بلطفٍ، ولم يقبلا منها الرّفص. تضامًا في أضيق حيّزٍ ممكنٍ لكي يوسّعا لها مكانًا. ودون أن

ينطق بكلمة، استدار القبطان وينتوورث نحوها، وأجبرها بهدوءٍ على قبول العون حتى تستقلَّ العربة.

أجل، لقد قام بذلك بالفعل. لقد استقلتَّ العربة، وشعرت أنَّه هو من وضعها هناك، وأنَّ إرادته وبيده قامت بفعل ذلك. وأحسَّت أنَّها مدينةٌ له، لأنَّه لاحظ مدى شعورها بالتعب، وأراد أن يجعلها تنال قسطاً من الرَّاحة. شعرت بالتأثُّر البالغ من سلوكه تجاهها الذي أظهرته كلُّ هذه التَّفاصيل. بدا هذا الموقف البسيط وكأنَّه يتمم كلَّ ما دار من قبل. صارت تفهمه الآن. لم يكن بوسعه أن يسامحها، ولكنَّه في الوقت نفسه لم يستطع أن يتجرَّد كليَّةً من المشاعر. فمع أنَّه كان يلومها من أجل ما حدث في الماضي، ويفكِّر فيما حدث باستياءٍ بالغ، ومع أنَّه لم يعد لديه أيُّ اهتمامٍ بها، بعد أن تعلَّق بسواها، إلَّا أنَّه لم يكن بوسعه أن يراها تعاني دون أن يشعر بالرَّغبة في تقديم العون لها. كانت هذه هي بقايا مشاعره السَّابقة التي كان يكتُّها لها، وتئمُّ عن صداقةٍ نقيَّة، وإن كانت غير معلنة، كما كانت دليلاً على طبيعة قلبه الذي يتَّصف بالدِّفء واللُّطف. لم يسعها التَّفكير في ذلك دون أن يغمرها مزيجٌ من مشاعر السَّعادة والألم، بحيث لم تعرف أيُّهما أشدُّ قوَّة.

أجابت على لطف وتعليقات رفيقيها دون تركيزٍ في بادئ الأمر. كانوا قد قطعوا نصف المسافة عبر الطريق الوعر قبل أن تنتبه تمامًا إلى حديثهما. وجدتهما ساعتئذٍ يتحدثان عن «فريدريك».

قال الأدميرال: «من الواضح أنه ينتوي الارتباط بواحدةٍ من تينك الفتاتين يا صوفي. ولكن لا يمكن تخمين أيُّهما. وأعتقد أنه طاردهما بما فيه الكفاية حتى يحسم رأيه. أجل، هذا بسبب حالة السَّلام السَّائد. لو كنَّا في حالة حربٍ الآن لكان قد حسم الاختيار منذ فترة. فنحن معشر البحَّارة يا آنسة إليوت لا نستطيع أن نضيِّع الكثير من الوقت في التودُّد إلى الفتيات في وقت الحرب. كم مضى من الوقت يا عزيزتي بين أوَّل مرَّةٍ التقينا فيها وبين انتقالنا إلى سكننا في شمال يارموث؟».

ردَّت السيِّدة كروفت قائلةً بلطفٍ: «من الأفضل ألاَّ نتحدَّث عن هذا الأمر يا عزيزي. فلو علمت الآنسة إليوت السُّرعة التي توصَّلنا بها إلى الاتِّفاق، لما اقتنعتُ أبدًا أنَّ من الممكن أنَّا نشعر بالسَّعادة معًا. ولكنني كنت قد سمعت عنك قبل ذلك بفترةٍ طويلة».

«حسنًا، كنت أنا أيضًا قد سمعت عنكِ كفتاةٍ في غاية الجمال. وما الذي كان سيدعوننا للانتظار أكثر من ذلك؟ لا أحبُّ أن تطول الفترة التي تستغرقها هذه الأمور. أتمنّى لو أنّ فريدريك عجّل الأمر قليلًا، حتى يجلب معه واحدةً من هاتين الشابتين إلى كيلينتش. وساعتئذٍ ستوفّر لنا الصُّحبة دومًا. كلاتهما شابتان لطيفتان للغاية، مع أنّي بصعوبةٍ أستطيع التّمييز بينهما».

«إنّهما حقًّا فتاتان لطيفتان غير متكلفتين»، قالتها السيّدة كروفث بنبرة ثناءٍ أكثر هدوءًا، ممّا جعل آن تعتقد أنّ قوّة ملاحظتها الأكثر عمقًا دعتهما إلى الاعتقاد أنّ أيًّا منهما لا تليق بشقيقتها. «وهي أسرةٌ جديرةٌ بالاحترام. لا يمكن أن يجد المرء أسرةً أفضل للارتباط بها. يا عزيزي الأدميرال، احذر ذلك العامود! سنصطدم بذلك العامود لا محالة».

ولكنّها أعادت توجيه اللّجام بطريقةٍ أفضل وبهدوءٍ؛ بحيث تجاوزوا الخطر. مدّت يدها بتروّ مرّةً أخرى بعدئذٍ، فتفادوا السُّقوط في أحد المصارف أو الاصطدام بعربةٍ محمّلةٍ بالسّماد. وجدت آن أسلوب قيادتهما للعربة مسلّيًا، وتخيّلت أنّهما يقودان جميع أمورهما بالطريقة نفسها، حتى وصلت بأمانٍ إلى الكوخ.

اقترب وقت عودة الليدي راسيل، وتحدّد يوم رجوعها. أمّا آن التي كان من المفترض أن تنضمّ إليها حالما تستقرّ، فقد كانت تتطلّع إلى الذهاب إلى كيلينتش بأسرع وقتٍ ممكن، وشرعت تفكّر كيف سيؤثر الأمر على راحتها الشخصية.

فهي بهذا ستكون في نفس القرية مع القبطان وينتورث، على مبعدة نصف ميل فقط منه، وسيضطرّان إلى ارتياد الكنيسة نفسها، كما سيكون هناك تواصلٌ بين الأسرتين. كانت هذه نقطةً في غير صالحها. ولكن من جهةٍ أخرى، كان يقضي الكثير من وقته في أبركروس، بحيث يصير من الممكن أن يتصوّر المرء أنّها خلّفته وراءها عوضاً عن كونها ذهبت إليه. وبصفةٍ عامّةٍ، فيما يتعلّق بهذه المسألة الهامّة، فقد كانت تعتقد أنّها هي الرّابحة، إذ إنّها ستغيّر الصّحبة التي تقضي وقتها في المنزل برفقتها، بعد أن تترك ماري المسكينة وتنضمّ إلى الليدي راسيل.

ودّت لو كان بوسعها تفادي لقاء القبطان وينتورث في القصر، حيث إنّ تلك الغرف شهدت لقاءاتٍ سابقةٍ لهما ستؤلمها ذكراها. ولكنّها كانت

تشعر بالقلق بصورة أكبر من احتمال لقاء الليدي راسيل والقبطان وينتوورث في أي مكان. فلم يكن أي منهما يميل إلى الآخر، ولم تكن هناك أي فائدة من تجدد علاقتهما ثانية. وإن شاهدتهما الليدي راسيل معاً، فقد تعتقد أنه يتمتع بثقة زائدة بالنفس، بينما تفتقر آن إلى تلك الثقة.

شكّلت كل هذه النقاط الدافع الرئيس وراء ترقبها الرّحيل بعيداً عن أبركروس؛ إذ شعرت أنّها مكثت لفترة طويلة بما فيه الكفاية. ستمنحها ذكرى مساعدتها للصغير تشارلز إحساساً بالسعادة حين تفكر في الشهرين اللذين قضتهما في زيارتها هناك، ولكنه أخذ يتعافى بسرعة، ولم تعد هناك حاجة إلى بقائها.

وعند نهاية زيارتها، حدث شيء لم تكن تتوقعه على الإطلاق. فبعد اختفاء القبطان وينتوورث عن أبركروس لمدة يومين كاملين، عاد للظهور بينهم مرة أخرى، ليحكي لهم المبرر وراء غيابه هذا.

فقد وصلته رسالة من صديقه القبطان هارفيل بعد أن تمكّن أخيراً من العثور عليه، وعلم منها أنّ القبطان هارفيل استقرّ مع أسرته في لايم، حيث سيقضون فصل الشتاء. وبهذا فالمسافة الفاصلة بينهما كانت مجرد عشرين

مِيلاً دون أن يعلم أيُّ منهما ذلك. صار القبطان هارفيل بحالةٍ صَحِيَّةٍ سيِّئَةٍ بعد الإصابة البالغة التي تلقَّاهما قبل عامين. لذا دفع القلق القبطان وينتورث إلى اتِّخاذ قراره بزيارته والذَّهاب إلى لايم على الفور. قضى أربع وعشرين ساعةً كاملةً هناك. بعدئذٍ، عَفُوا عنه لغيابه، ورَحَّبُوا به بحرارةٍ بعد أن أثار اهتمامهم البالغ بصديقه، وبوصفه الرَّاع للمنطقة المحيطة بلايم، حتى شعروا بالرَّغبة في زيارة لايم بأنفسهم، ونتيجةً لذلك خَطَّطُوا للذَّهاب إلى هناك.

شعر الشَّباب جميعاً بالحماس البالغ لزيارة لايم. ذكر القبطان وينتورث أنَّه سيعود إلى هناك؛ فهي لا تبعد عن أبركروس سوى سبعة عشر ميلاً. ومع أنَّهم كانوا في نوفمبر، لم يكن الطَّقْس سيِّئاً. كانت لويزا أشدَّ الجميع تحمُّساً بعد أن قرَّرت الذَّهاب. وإلى جانب متعة تنفيذ ما تحبُّ القيام به، صارت الآن تتسلَّح بفكرة أنَّ إصرارها على تنفيذ ما تنتويه يُعَدُّ حسنةً من الحسنات، ولذلك صمدت أمام كلِّ رغبات والدها ووالدتها في تأجيل الأمر حتى الصَّيف، إلى أن قرَّر الجميع الذَّهاب إلى لايم: تشارلز وماري وآن وهينرييتا ولويزا والقبطان وينتورث.

كانت خطّتهم الطّائشة في بادئ الأمر تقتضي الدّهاب صباحًا والعودة في مساء اليوم ذاته، ولكنّ السيّد ماسجروف اعترض على هذا بسبب حرصه على خيله. وعندما فكّروا في الأمر بصورة عقلانيّة، فمجرّد يومٍ واحدٍ في منتصف نوفمبر لن يمنحهم الوقت الكافي لمشاهدة المكان الجديد بعد خصم سبع ساعاتٍ لرحلة الدّهاب والعودة، كما تقتضي طبيعة الطّريق، قرّروا في نهاية المطاف قضاء اللّيلة هناك، وألّا يعودوا قبل وقت الغداء في اليوم التّالي. بدا هذا التّعديل في الخطّة ملائمًا. ومع أنّ الجميع التقوا عند المنزل الكبير في وقتٍ مبكّرٍ للإفطار، ثمّ خرجوا في موعدهم تمامًا، إلّا أنّ السّاعة تجاوزت منتصف الظّهيرة قبل أن تصل عربة السيّد ماسجروف التي تقلّ أربع السيّدات، وعربة تشارلز التي يجرّها حصانان، والتي أقلّ بها القبطان وينتورث إلى التّل الطّويل المؤدّي إلى لايم. وحين بلغوا الشّارع المنحدر الذي يقطع البلدة نفسها، اتّضح أنّه لن يكون أمامهم سوى بعض الوقت لإلقاء نظرةٍ سريعةٍ حولهم قبل أن يغيب ضوء شمس ذلك النّهار ودفّوها.

بعد أن حجزوا مكانًا للإقامة، وطلبوا الغداء في أحد الأنزال، كان ما يتعيّن عليهم القيام به بعد ذلك بلا شكّ، هو التّوجّه نحو البحر. كانوا قد أتوا في وقتٍ متأخّرٍ من العام للاستمتاع بأيّ من وسائل التّرفيه والتّسلية التي توفّرها

لايم، حيث أُغلقت أماكن التّجمّعات العامّة، ورحل جميع المستأجرين تقريباً، ولم تبق أيُّ أسرٍ تقريباً سوى من سكّان المكان. ولأنّه لا يوجد شيءٌ مميّزٌ في المباني نفسها، فإنّ زوّار المكان سيتمعنّون في الموقع المميّز للبلدة، وفي شارعها الرّئيس الذي يبدو وكأنّه ينحدر نحو الماء، وفي الممشى المؤدّي إلى حاجز الأمواج، والذي يدور حول الخليج الصّغير اللّطيف الذي يمتلئ في موسم الصّيف بأكشاك تغيير ملابس الاستحمام ويزدحم بالنّاس، كما سيتأمّلون حاجز الأمواج نفسه بعجائبه القديمة، والتّحديثات الجديدة التي طرأت عليه، إلى جانب صفّ التّلال الرّائعة الممتدّة شرق البلدة. ولا بدّ أن يكون زائر لايم الذي لا تلفت انتباهه مفاتها البادية، بحيث يرغب في التّعرف عليها بصورة أكبر، شخصاً بالغ الغرابة. فهناك مناظر طبيعيّة رائعة في بلدة تشارموث المجاورة لها، بالمرتفعات الموجودة بها ومساحات الأراضي الرّيفيّة الشّاسعة الممتدّة، والخليج الصّغير المنعزل الذي ترتفع وراءه الجروف الصّخريّة الدّاكنة، وحيث تجعل شظايا الصّخور المنخفضة المنتشرة وسط الرّمال المكان رائعاً لمراقبة حركة المدّ والجزر، ولجلوس المرء للتأمّل دون تعب. كما أنّ هناك أشجاراً متنوّعة في بلدة لايم المبهجة، وفوق كلّ هذا فهناك بلدة بيني، حيث توجد صخورٌ تمتلئ شقوقها بالخضرة، وحيث يعلن عمر أشجار الغابات المتناثرة والبساتين الغنيّة عن مرور أجيالٍ كاملةٍ منذ أن انهار

الجرف الصّخريّ بصورةٍ جزئيّةٍ لأوّل مرّةٍ، ممهّداً الأرض لذلك المنظر الخلاب الذي يضاوي المناظر المشابهة له في جزيرة وايت الأكثر شهرة. فلا بدّ أن يزور المرء كلّ هذه المناطق، ويكرّر زيارتها لكي يقدر قيمة لايم.

ما لبث أفراد الجماعة القادمين من أبركروس أن وصلوا إلى شاطئ البحر، بعد أن هبطوا في طريقهم مروراً بأماكن التّجمّعات العامّة التي بدت مهجورةً ويلفّها جوٌّ من الكآبة، فتريّثوا هناك كما يتريّث كلّ من يأتي البحر ويقف لتأمّله، ثمّ توجّهوا نحو حاجز الأمواج الذي كانوا يرغبون في رؤيته هو الآخر، بناءً على وصف القبطان وينتورث. كان آل هارفيل قد استقروا في منزلٍ صغيرٍ عند طرف لسانٍ قديمٍ ممتدّ في البحر لا يعلم أحدٌ تاريخ إنشائه، فذهب القبطان وينتورث لزيارة صديقه، بينما تابع الباقون سيرهم، على أن يعود هو للانضمام إليهم عند حاجز الأمواج.

لم يملّوا من التّعجّب من المكان والإعجاب به، لدرجة أنّ لويزا نفسها لم تشعر أنّ القبطان وينتورث فارقهـم لفترةٍ طويلةٍ، حتى شاهدوه عائداً مرّةً أخرى وبصحبه ثلاثة رفاقٍ عرفوا من خلال وصفه السّابق لهم أنّهم القبطان هارفيل، والسّيّدة زوجته، والقبطان بينيك الذي كان يقيم معهم.

شغل القبطان بينيك منصب الملازم الأوّل، قبل فترة مضت، على متن السفينة لاكونيا. وبعد عودة القبطان وينتورث من لايم في المرّة السّابقة، تحدّث عنه بحرارة مادّحاً إيّاه بوصفه شابّاً ممتازاً وضابطاً يكره له كلّ احترام، ممّا ترك انطباعاً حسناً عنه لدى المستمعين. وتلا ذلك بالحديث قليلاً عن حياته الشخصيّة ممّا أثار الاهتمام لدى كلّ السيّدات. فقد سبق وأن خطب شقيقة القبطان هارفيل الذي كان في حدادٍ على فراقها الآن. ظلّاً طوال عامٍ أو عامين ينتظران أن ينال ثروة أو ترقيةً في عمله. ثمّ نال الثّروة بالفعل، إذ إنّ الغنيمة التي حصل عليها من عمله كملازمٍ في البحريّة كانت طائلةً، وحصل أيضاً على التّرقية في نهاية المطاف. ولكنّ العمر لم يمتدّ بفاني هارفيل حتى تشهد حدوث ذلك. فقد توفّيت في الصّيف السّابق، بينما كان هو ما يزال في عرض البحر. كان القبطان وينتورث مقتنعاً تمام الاقتناع أنّه من المستحيل أن يتعلّق رجلٌ بامرأةٍ كما تعلّق المسكين بينيك بفاني هارفيل، أو أن يشعر بالحزن بقوةٍ أكبر بعد ذلك التغيّر الفاجع. رأى أنّ طبيعته الشخصيّة من ذلك النّوع الذي يتأثّر بشدّة؛ فلقد جمع بين قوّة المشاعر والطّبيعة الشخصيّة الهادئة والجادّة والمنعزلة، إلى جانب الشّغف بالقراءة، والاهتمامات التي يمكن متابعتها في أثناء الجلوس دون حركة. أنهى حكايته بأن ذكر أنّ علاقة الصّدقة بينه وبين آل هارفيل توطّدت بذلك الحدث الذي بدا وكأنّه قد ينهي أيّ توثيقٍ لأواصر

الصِّلَة بينهم، وصار القبطان بينك الآن يقيم معهم بصورة دائمة. استأجر القبطان هارفيل منزله الحاليّ لمدّة نصف عام، بعد أن قاده ذوقه الشَّخصيُّ، إلى جانب حالته الصَّحيَّة والمادِّيَّة، إلى السَّكن في مكانٍ غير مكلفٍ بجوار البحر. وبدا جمال المكان وهدوء لايم في فصل الشَّتاء ملائمين تمامًا للحالة المزاجيَّة للقبطان بينك. بلغت درجة التَّعاطف مع القبطان بينك حدًّا كبيرًا.

وبينما هم ماضون قدمًا لملاقاة الجماعة، فكَّرت آن قائلةً لنفسها: «ومع ذلك، فإنَّ قلبه في الغالب ليس مثقلًا بالحزن، مثل قلبي أنا. فلا أعتقد أنَّ آماله بالمستقبل قد تدمَّرت إلى الأبد. فهو أكثر شبابًا مِنِّي، سواءً كان ذلك من ناحية المشاعر، أو من ناحية العمر الفعليِّ. أي أنَّه رجلٌ شابٌّ سوف يتعافى ثانية، ويسعد مع امرأةٍ أخرى».

التقى الجميع، وتعرَّف بعضهم على بعضٍ. كان القبطان هارفيل رجلًا طويل القامة، داكن البشرة، تبدو على ملامحه أمارات التَّعقُّل والطَّيبة، كما كان يعاني من العرج بعض الشيء. وبسبب ملامح وجهه الحادَّة وحالته الصَّحيَّة المعتلَّة، بدا أكبر في السَّن من القبطان وينتورث إلى حدٍّ كبير. أمَّا القبطان بينك، فبدا عليه أنَّه أصغر الثَّلاثة سنًّا، وكان كذلك بالفعل.

ومقارنةً بالرجلين الآخرين، كان ضئيل الحجم. بدت على ملامحه الطيبة، وغلّفته مسحةٌ من الحزن، كما هو متوقَّع، فانسحب مبتعدًا عن النقاش الدائر.

ومع أنَّ القبطان هارفيل لم يكن يضاهي القبطان وينتورث في رقيِّ سلوكه، إلَّا أنَّه كان سيِّدًا محترمًا، وغير متكلفٍ، وودودًا، وكريمًا. وكانت السيِّدة هارفيل أقلَّ رقيًّا في السُّلوك من زوجها، ولكن بدا أنَّها تتمتَّع هي الأخرى بنفس المشاعر الطيِّبة. ولم يكن هناك ما هو ألطف من رغبتهما في اعتبار جميع أفراد المجموعة وكأنَّهم أصدقاؤهما، لمجرَّد أنَّهم أصدقاء القبطان وينتورث، كما لم يكن هناك كرمٌ أكبر من كرم ضيافتهما وهما يلحَّان على الجميع لتناول الغداء معهما. في نهاية المطاف، قبلًا على مضضٍ عذرهم بأنَّهم قد طلبوا الغداء بالفعل في النُّزل، ولكن بدا عليهما وكأنَّ القبطان وينتورث كاد يجرح مشاعرهما إذ جلب معه جماعةً كهذه إلى لاييم، دون أن يعدَّه أمرًا مسلمًا به أنَّ عليهم تناول الغداء معهما.

بدا عليهما التعلُّق الشديد بالقبطان وينتورث، وكان كرم ضيافتهما غير المعتاد لطيفًا، وساحرًا للغاية، بدرجةٍ غير مألوفة، ويختلف بشدَّة عن أسلوب الدَّعوات المعتاد والولائم الرّسميَّة التي غرضها التَّباهي. دفع هذا

آن إلى الشعور بأنَّ معنوياتها لن تتحسن من توثُّق الصِّلَة برفاقه من الضُّباط. فكَرَّت قائلةً لنفسها: « كان هؤلاء جميعًا سيصبحون من أصدقائي أنا»؛ واضطَّرت إلى محاربة شعورٍ بالغٍ بتدنِّي روحها المعنويَّة.

بعد أن رحلوا من عند حاجز الأمواج، ذهبوا جميعًا إلى منزل أصدقائهم الجدد، حيث وجدوا الغرف بالغة الصَّغر، بطريقةٍ لا يمكن معها إلَّا لأصحاب القلوب الكبيرة أن يتصوَّروا أنَّها ستتنسَّع لكلِّ هذا العدد من الأفراد. اندهشت آن نفسها من الأمر للحظةٍ، ولكنَّ شعورها هذا ما لبث أن تبدَّد مع المشاعر اللطيفة التي غمرتها لمراى كلِّ المحاولات الذكيَّة والترتيبات اللطيفة التي قام بها القبطان هارفيل لاستغلال المكان بأفضل شكلٍ ممكنٍ، ولتعويض نقص أثاث المنزل المستأجر، ولتأمين التوافذ والأبواب ضدَّ عواصف الشتاء المرتقبة. بدا التَّباين واضحًا بين نوعيَّة المفروشات الأساسيَّة متوسِّطة الجودة في الغرف التي وقَّرها مالك المكان، وبين بعض الأغراض المصنوعة بجودةٍ فائقةٍ من نوعيَّة نادرةٍ من الخشب، وبعض الأغراض الأخرى الثمينة والمشيَّرة للاهتمام، والتي جلبها القبطان هارفيل من البلاد البعيدة التي زارها. كان كلُّ هذا مثيرًا للاهتمام بالنسبة إلى آن، فقد بدا دليلًا على عمله وثمره جهده، وعلى تأثير عمله في عاداته

الشَّخْصِيَّة. كما كان يمثِّل صورةً للسَّكينة والسَّعادة المنزليَّة؛ ممَّا جعلها تشعر بالرَّضا إلى حدِّ ما.

لم يكن القبطان هارفيل شغوفاً بالقراءة، ولكنَّه أبدع في تجهيز المكان، وقام بتصميم بعض الأرفف الجميلة التي تتَّسع لمجموعةٍ كبيرةٍ من المجلَّدات الخاصَّة بالقبطان بينيك. منعتَه إصابته بالعرج من الحركة بشكلٍ كبيرٍ، ولكنَّ براعة عقله وذكاءه أبقياه منشغلاً بالعمل على الدَّوام داخل المنزل. كان يرسم، ويطلي الأشياء بطبقات الورنيش، ويعمل بالتَّجارة، ويلصق ما يحتاج إلى ذلك، ويصنع الألعاب للأطفال، كما قام بتصميم إبرٍ جديدةٍ خاصَّةٍ بصنع الشِّباك، ودبابيس محسَّنة. وفي حال انتهائه من عمل كلِّ شيءٍ، كان يجلس في ركن الغرفة للعمل على صنع شبكة صيدٍ ضخمة.

شعرت آن أنَّها خلَّفت وراءها إحساساً غامراً بالسَّعادة عندما رحلوا عن المنزل. كانت تسير إلى جانب لويزا التي اندفعت تعلِّق بإعجابٍ وسعادةٍ بالغةٍ على طبيعة العاملين بالبحريَّة؛ الوُدُّ البالغ الذي يتَّصفون به، وإخوتهم وصراحتهم واستقامتهم.

قالت إِنَّهَا باتت مقتنعةً أَنَّ العاملين بالبحريَّة يتَّصفون بالموَدَّة أكثر من أيِّ زمرةٍ أخرى من الرِّجال في إنجلترا، وإنَّهم هم وحدهم من يعرفون كيف يحيون، وهم وحدهم من يستحقُّون الاحترام والمحبة.

عادوا ليبدِّلوا ملابسهم ويتناولوا وجبة الغداء. سارت خطَّتهم بشكلٍ جيِّد فلم ينقصهم شيءٌ بالرَّغم من انتهاء موسم الاصطياف، ومن أنَّ لايم لم تكن تقع على طريقٍ رئيسٍ يكثر مرور النَّاس فيه، ومن أنَّ أصحاب النُّزل لم يكونوا يتوقَّعون حضور زوَّارٍ ممَّا دفعهم إلى تقديم الاعتذارات المتكرِّرة.

وجدت آن نفسها وقد اعتادت أكثر من قبل على الوجود بصحبة القبطان وينتورث دون أن تتأثَّر لذلك بصورةٍ لم تكن تتخيَّلها، بحيث صار الجلوس إلى نفس المائدة برفقته، وتبادل عبارات التَّحيَّة التَّقليديَّة اللَّازمة (لم يتجاوز حديثهما ذلك الحدَّ أبدًا)، أمرًا بسيطًا للغاية.

كان الظَّلام حالكا في اللَّيل، بدرجةٍ تمنع السيِّدات من أن يلتقين ثانيةً حتى صباح اليوم التَّالي، ولكنَّ القبطان هارفيل وعد بزيارتهم ذلك المساء، وأتى بالفعل جالبًا معه صديقه، بخلاف ما كان متوقَّعًا، بعد أن اتَّفَق الجميع على أنَّ القبطان بينيك يبدو وكأنَّه لا يشعر بالرَّاحة وسط كلِّ هذا العدد من

الغرباء. ولكنه أتى لزيارتهم مرّة أخرى بالرّغم من أنّ معنويّاته لم تبد متّفقةً مع حالة البهجة العامّة التي سادت بين أفراد الجماعة.

أدار القبطان وينتورث والقبطان هارفيل دقّة الحديث في أحد أركان الغرفة، واستعادا ذكرى الأيّام الخوالي، وقاما بحكي العديد من الحكايات لتسلية وإشغال الآخرين، في حين انتحت آن جانبًا مع القبطان بينيك. دفعها شعورٌ غريزيٌّ لديها إلى الرّغبة في التّعرف به. كان يتّصف بالخجل والشُّرود، ولكنّ ملامحها الهادئة، ورقّة طباعها ما لبثا أن أثّرا فيه، فجنت آن ثمار محاولتها تلك. بدا من الواضح أنّه شابٌ يتمتّع بذوقٍ رفيع في القراءة، مع أنّ اهتمامه انحصر بصفةٍ أساسيّةٍ في الشّعور فحسب. وإلى جانب متعة منحه الفرصة ذلك المساء لخوض النّقاش في موضوعاتٍ لا يهتمُّ بها في الغالب رفاقه المعتادون، كانت تأمل أن تقدّم له العون من خلال اقتراحاتها المتعلّقة بواجبه في مقاومة الشّعور بالألم، وفائدة هذا الأمر، إذ كان من الطّبيعيّ أن يُثار ذلك الموضوع خلال حديثهما. فبالرّغم من الخجل البادي عليه، لم يبد متحفّظًا في الحديث. بل بدا أنّ مشاعره ارتاحت لتحرّرها من قيودها المعتادة. وبعد أن تحدّثا عن الشّعور وثرائه في العصر الحاليّ، تطرّقا إلى مقارنةٍ مختصرةٍ في الرّأي بين أهمّ الشّعراء وهما يحاولان أن يقرّرا أيّهما كانت أفضل، قصيدة مارميون أم قصيدة سيّدة

البحيرة، كما تطرّقاً إلى ترتيب مكانة قصيدة الكافر، وقصيدة عروس أبيدوس. وإلى جانب ذلك، تناقشا في كيفية نطق عنوان قصيدة الكافر. فأظهر أنّه على درايةٍ بأدقّ التفاصيل المتعلقة بأرقّ قصائد أحد الشّاعرين، وكلّ التفاصيل المتعلقة بقصائد الشّاعر الآخر، والتي تصف مشاعر العذاب واليأس المتّقدّة. تلا، بمشاعر حارّة، تلك الأبيات المختلفة التي تصوّر القلوب الكسيرة والعقول التي دمّرتها مشاعر البؤس، وبدأ عليه أنّه يفهم تلك المشاعر تمام الفهم. قالت إنّها تتمنّى لو لم تكن قراءته تقتصر على الشّعر، وإنّها تعتقد أنّه من سوء حظّ الشّعر أنّ أولئك الذين يستمتعون به بدرجةٍ بالغّة نادرًا ما يضعون حدودًا آمنةً لمتعّتهم تلك، وأنّ أصحاب المشاعر الرّهيبة التي تؤهّلهم للاستمتاع به إلى أقصى حدّ هم بالتّحديد أولئك الذين يتعيّن عليهم أن يقلّلوا من تذوّقهم الشّعر إلى أضيق الحدود.

لم يبد عليه الألم، بل السُّرور لإشارتها تلك إلى وضعه، ممّا جعلها تشعر بالجرأة لتواصل الحديث. أحسّت أنّها تفوقه سنًا وخبرةً، ممّا دفعها إلى أن توصيه بزيادة حصّة ما يقرأ من النّثر يوميًا، وبعدما طلب منها تحديد بعض الكتب، رشّحت له بعض أعمال أفضل من كتبوا في الأخلاق، وبعض كتب الرّسائل الرّائعة، إلى جانب بعض مذكّرات الشّخصيّات أصحاب المكانة الذين مرّوا بالمعاناة، والتي جرى على بالها حينئذٍ أنّها قد تسهم في رفعة

العقل، وتقويته لأعلى درجة، بما تتضمنه من أبلغ الأمثلة على قوّة التّحمّل الأخلاقيّ والرُّوحيّ.

أنصت القبطان بينك إليها باهتمامٍ، وبدا عليه الامتنان لاهتمامها هذا. ومع أنّه هزّ رأسه، وتنهد معبراً عن قلة ثقته في جدوى أيّ نوع من الكتب، حيال حزنٍ مثل حزنه، إلّا أنّه دوّن عناوين تلك الكتب التي رشّحتها له، ووعدّها بأنّه سيطلبها ويقرأها.

عند نهاية الأمسية، بدا مسلياً لأنّ أنّها أتت إلى لايم لتوصي بالصبر والتّحمّل شابّاً لم يسبق لها أن رآته من قبل. كما انتابها القلق من أن تكون قد بدت مثل الكثير من دعاة الأخلاق والوعاظ، حين تحدّثت بفصاحةٍ عن موضوع ما، بينما سلوكها الشّخصي يناقض حديثها.

في صباح اليوم التالي اتَّفقت آن وهينريتا على الذهاب للتمشّي حتى البحر قبل الإفطار، بعد أن وجدتا أنَّهما سبقتا الجميع في الاستيقاظ. ذهبتا إلى الشاطئ لمراقبة حركة المدّ والجزر بكلّ الرّوعة التي تبدّت بها على الشاطئ المستوي، والتي تأثّرت بالريّح القادمة من جهة الجنوب الشرقي. أشادتا بجمال ذلك النّهار، واستمتعتا بالبحر وبنسيمه العليل، ثمّ ساد الصّمت بينهما، حتى شرعت هينريتا فجأةً في الحديث قائلةً:

«أوه! أجل، أنا مقتنعةٌ تمام الاقتناع - باستثناء بعض الحالات القليلة للغاية - أنّ نسيم البحر مفيدٌ دائماً. لا يوجد أدنى شكّ في أنّه أفاد الدكتور شيرلي أيما إفادةٍ بعد مرضه منذ عامٍ قبل الرّبيع الماضي. فقد اعترف بنفسه بأنّ حضوره إلى لايم لمُدّة شهرٍ قد أفاده أكثر من استفادته من كلّ الأدوية التي تناولها، وبأنّ وجوده بالقرب من البحر دوماً ما يجعله يشعر أنّه عاد شابّاً مرّةً أخرى. لا يمكنني سوى أن أشعر بالأسف لأنّه لا يقطن بالقرب من البحر على الدّوام. اعتقد أنّه من الأفضل له أن يرحل عن أبركروس نهائياً ويستقرّ في لايم؛ ألا تعتقدين ذلك يا آن؟ ألا تتفقين معي على أنّ هذا هو أفضل ما يمكنه القيام به لنفسه، وللسيّدة شيرلي؟ فلديها أبناء عمومةٌ هنا

كما تعلمين، والعديد من المعارف، ممّا سيجعل الأمر مبهجاً بالنسبة إليها.
 وأنا على يقينٍ من أنّها ستكون سعيدةً لوجودها في مكانٍ تتوافر فيه
 المساعدة الطّبيّة إن أصيب بنوبةٍ أخرى. في الواقع، أعتقد أنّه أمرٌ محزنٌ
 للغاية أن يقضي شخصان رائعان مثل الدكتور شيرلي والسّيّدة زوجته، اللّذين
 أمضيا كامل حياتهما وهما يفعّلان الخير، أيّامهما الأخيرة في مكانٍ مثل
 أبركروس، حيث يبدو أنّهما منقطعان عن العالم بأكمله باستثناء أسرّتنا نحن.
 وددتُ لو أنّ أصدقاءه اقترحوا عليه الأمر. أعتقد حقّاً أنّه من الواجب
 عليهم القيام بذلك. أمّا بخصوص الحصول على الإذن بالإعفاء من مهامّ
 عمله، فلا أظنّ أنّه سيجد صعوبةً في ذلك في عمره هذا وبشخصيّته هذه.
 لا أشعر بالشكّ إلّا في وجود ما يمكن أن يقنعه بالرحيل عن أبرشيّته. فهو
 متزمتٌ، وحريصٌ للغاية فيما يتعلّق بمعتقداته. بل يمكنني القول إنّ حريصٌ
 بدرجةٍ تفوق الحدّ. ألا تعتقدين يا آن أنّ حرصه الزّائد يفوق الحدّ؟ ألا
 تعتقدين أنّه من الخطأ أن يُملّي الضّمير على رجل الدّين التّضحية بصحّته
 في سبيل القيام بواجبه، في حين أنّ هناك شخصاً آخر يمكنه القيام بتلك
 الواجبات على أكمل وجه؟ وسيكون هو في لايماً أيضاً - على مبعده سبعة
 عشر ميلاً فقط - حيث سيكون قريباً بما يكفي لتصله الأخبار إن قام النّاس
 بالشكوى من أيّ شيء».

ارتسمت الابتسامة على شفتي آن أكثر من مرّة خلال هذه الخطبة، وشرعت في الحديث وهي على استعدادٍ لإسداء العون بنقاشها لمشاعر امرأةٍ شابةٍ، كما فعلت من قبل مع رجلٍ شابٍّ، وإن كان العون الذي ستقدّمه هنا أقلَّ قيمة. فما الذي بوسعها أن تفعله سوى أن تبدي موافقتها بصفةٍ عامّةٍ على الحديث؟ قالت إنّ كلّ حديثها حول هذا الأمر منطقيٌّ للغاية، وإنّها تشعر أنّ من حقّ الدكتور شيرلي أن يحصل على ما يحتاجه من الراحة، وإنّها ترى أنّه أمرٌ ضروريٌّ أن يكون هناك مساعدٌ شابٌّ له، مساعدٌ يتّصف بالنشاط والاحترام ويقيم في الأبرشيّة. وبلغت بها الكياسة أن لمّحت إلى حسناتٍ أن يكون ذلك المساعد المقيم في الأبرشيّة متزوّجًا.

«أتمنّى هذا»، قالتها هينرييتا وهي تشعر بالرّضا البالغ من كلام رفيقتها. «أتمنّى لو كانت الليدي راسيل تقطن في أبركروس، ولو كانت على علاقةٍ مقربةٍ بالدكتور شيرلي. لطالما سمعت أنّ الليدي راسيل لها نفوذٌ بالغٌ على الجميع! ولطالما عدّتها قادرةً على إقناع الشخص بأيّ شيء! أنا أخشاها، كما سبق وأن أخبرتك من قبل. أخشاها للغاية، بسبب ذكائها الحادّ، ولكنني أكنّ لها كلّ احترام، وأتمنّى لو كانت لنا جارةً مثلها في أبركروس».

وجدت آن أسلوب هينرييتا في التعبير عن امتنانها مسلياً، كما شعرت أيضاً أنه من المضحك أن سير الأحداث، ومصالح هينرييتا - فيما يتعلق بزواجها الوشيك - قد جعلت صديقتها محلّ ترحيبٍ من أيّ من أفراد آل ماسجروف. ولكن لم يكن هناك أمامها سوى الانتظار ريثما يمنحها الزمن جواباً، وأن تتمنى لو كانت هناك سيّدة أخرى بهذه الصفات تحيا في أبركروس. انقطع حديثهما فجأةً عندما شاهدتا لويزا والقبطان ويتنوّرت قادمين تجاههما. جاءا هما أيضاً للتّنزه ريثما يحين موعد وجبة الإفطار، ولكنّ لويزا ما لبثت أن تذكّرت أنّها ترغب في شراء شيءٍ ما من أحد المحلّات، فدعتهم جميعاً للعودة معها إلى البلدة، ووافقها الجميع.

وعندما بلغوا درجات السُلّم الذي سيصعدونه في طريقهم للابتعاد عن الشّاطئ، ظهر رجلٌ في اللّحظة نفسها وهو يستعدُّ للنّزول، فتراجع إلى الخلف بأدبٍ وتوقّف ليفسح لهم الطّريق. صعدوا وخلفوه وراءهم، وفي أثناء مرورهم، لفت انتباهه وجه آن، فتطلّع إليها بإعجابٍ بالغٍ لم يسعها هي سوى أن تلحظه. بدا مظهرها جيّداً للغاية: استعادت ملامحها المتناسقة الجميلة نضارة الشّباب بفعل التّسيم العليل الذي لفح بشرتها، وبفعل لمعة عينيها النّاتجة أيضاً عن الجوّ. كان من الواضح أنّ الرّجل (الذي بدا من سلوكه أنّه سيّد مهذبٌ للغاية) قد أعجب بها بدرجةٍ بالغة. استدار القبطان

وينتوورث نحوها على الفور، بطريقةٍ أظهر من خلالها أنّه لاحظ الأمر. نظر إليها للحظةٍ - نظرةً التمعت بها عيناه، وبدا أنّه يقول من خلالها: «ذلك الرَّجل معجبٌ بك، وحتى أنا في هذه اللَّحظة بوسعي أن أرى ما يشبه آن إليوت القديمة مرّةً أخرى».

بعد أن رافقوا لويزا وهي تقضي مشوارها، وتلکّأوا بعدها لبعض الوقت، عادوا إلى النُّزل مرّةً أخرى. وفي أثناء عبور آن سريعًا من غرفتها متوجّهةً إلى قاعة الطّعام، كادت تصطدم بالرَّجل نفسه مرّةً ثانيةً وهو في طريقه للخروج من غرفةٍ مجاورة. كانت قد حذرت من قبل أنّه غريبٌ عن البلدة مثلهم، وأنَّ الخادم حسن المظهر الذي كان يتجوّل بالقرب من النُّزل في أثناء عودتهم هو خادمه. وممّا عزّز فكرتها هذه، هو أنّ كلاً من السيّد وخادمه كانا يرتديان ملابس الحداد. وثبت لها الآن أنّه يسكن النُّزل نفسه الذي سكنوا به. وبالرَّغم من قصر لقائهما الثَّاني هذا، إلّا أنّه أثبت مرّةً أخرى من خلال التّعبير المرتسم على ملامحه إعجابه بجمال ملامحها، كما أثبت من خلال اعتذاره الذي قدّمه لها بأدبٍ أنّه يتمتّع بسلوكٍ رفيعٍ للغاية. بدا في حوالي الثَّلاثين من العمر، ومع أنّه لم يكن وسميًا، كان يتمتّع بشخصيّةٍ جذّابة. شعرت آن بالرَّغبة في اكتشاف هويته.

أوشكوا على الانتهاء من تناول الإفطار عندما جذب صوت عربةٍ قادمةٍ نصف أفراد الجماعة نحو النَّافذة (كانت تقريبًا أوَّل عربةٍ يسمعون صوتها منذ مجيئهم إلى لايم). «تبدو عربةٌ خاصَّةٌ بسيدٍ نبيلٍ - عربةٌ مفتوحةٌ يجرُّها حصانان - أتت من ساحة الإسطبل حتى الباب الأمامي. لا بدَّ وأنَّ أحدهم في طريقه للرحيل. يقودها خادمٌ يرتدي ملابس الحداد».

ما إن سمع تشارلز ماسجروف عبارة «عربة مفتوحة يجرُّها حصانان» حتى قفز واقفًا كي يقارنها بعربته. أثار الخادم الذي يرتدي ملابس الحداد فضول آن، وتجمَّع السَّتَّة جميعهم ليلقوا نظرة. شاهدوا صاحب العربة وهو في طريقه للخروج من الباب، مصحوبًا بالتَّحيَّة من العاملين بالمكان الذين أخذوا ينحنون أمامه، ثمَّ جلس في مقعده، ورحل مبتعدًا.

صاح القبطان وينتورث على الفور، وهو ينظر إلى آن نظرةً سريعةً وقال: «آه! إنَّه الرَّجل نفسه الذي مررنا به في طريقنا».

اتَّفقت معه الآنستان ماسجروف. وبعد أن راقبه الجميع وهو يصعد التَّلَّ إلى أعلى نقطةٍ يمكنهم رؤيتها، عادوا مرَّةً ثانيةً إلى مائدة الإفطار. ما لبث النَّادل أن دخل الغرفة بعد ذلك.

قال القبطان وينتوورث على الفور: «رجاءً، هل يمكنك أن تخبرنا ما اسم هذا السيّد الذي رحل للتوّ؟».

«أجل يا سيّدي. اسمه السيّد إليوت. إنه رجلٌ صاحب ثروةٍ طائلة. أتى الليلة الماضية قادمًا من سيدموث. أعتقد أنّك سمعت صوت العربة يا سيّدي، بينما كنتم تتناولون طعام العشاء. وهو سيمرُّ الآن بكروكيرن في طريقه إلى باث ولندن».

«إليوت!»، تبادل العديد منهم النظرات، وكرّروا الاسم قبل أن ينتهي الحديث، بالرّغم من سرعة النّادل في الكلام.

صاحت ماري قائلةً: «فليرحمني الرّبُّ! لا بدّ وأنّه ابن عمّنا، لا بدّ وأنّه السيّد إليوت الذي نعرفه. لا بدّ وأنّه هو بالفعل! تشارلز، آن، لا بدّ وأنّه هو، أليس كذلك؟ فهو يرتدي ملابس الحداد كما ترون، تمامًا مثلما لا بدّ وأن يكون السيّد إليوت الذي نعرفه يرتديها هو أيضًا. يا له من أمرٍ رائع! في النّزل نفسه معنا! آن، ألا يجب أن يكون هو نفسه السيّد إليوت، الوريث القادم لوالدي؟ رجاءً، سيّدي»، (استدارت لتواجه النّادل) «ألم تسمع، ألم يذكر خادمه أنّه ينتمي إلى آل كيلينتش؟».

«لا يا سيّدي، فلم يذكر اسم أسرة محدّدة. ولكنّه قال إنّ سيّده رجلٌ بالغ الثّراء، وأنّه سيصير بارونيت يومًا ما».

صاحت ماري قائلةً بسعادةٍ بالغة: «حسنًا! أرايتم؟ كما قلت تمامًا! إنّه وريث السّير والتر إليوت. كنت متيقّنةً من أنّه سيذكر الأمر إن كان حقيقيًا بالفعل. فلتشقوا في هذا، فهو شيءٌ يحرص خدمه على إعلانه أينما ذهب. ولكن عليك أن تفكّري يا آن كم هو أمرٌ غريب! أتمنّى لو كنت قد دقّقت النّظر إليه بدرجةٍ أكبر. وأتمنّى لو كنّا عرفنا هويّته في الوقت المناسب كي نتعرّف عليه.

يا له من أمرٍ مؤسفٍ أنّا لم نتعرّف بعضنا على بعضٍ! هل تعتقدين أنّه يحمل ملامح آل إليوت؟ لم أنظر إليه تقريبًا، بل كنت أنظر إلى الخيل. ولكنني أعتقد أنّه يحمل بعضًا من ملامح آل إليوت. أتعجّب من أنّي لم ألحظ شعار النبالة الخاصّ به! أوه! كان معطفه الصّخم متدلّيًا فوق اللّوح الخشبيّ المرسوم عليه الشّعار في العربة، فأخفاه. أنا على يقينٍ من أنّي كنت سألحظه لولا ذلك. كما كنت سألحظ الزّيّ الذي يرتديه الخادم أيضًا. لو لم يكن الخادم يرتدي ملابس الحداد، لكان من الممكن التّعرّف عليه من خلال زيّه».

قال القبطان وينتورث: «لو فكّرنا في كلّ هذه المصادفات الغريبة التي اجتمعت معًا، فلا بدّ وأن نعتبر أنّ القدر لم يرغب في أن تتعرّفا على ابن عمكما».

عندما استطاعت أن تجذب انتباه ماري، حاولت آن أن تقنعها بهدوء أنّ والدهما والسيد إليوت لم يكونا على وفاقٍ منذ سنواتٍ طويلةٍ، ومن ثمّ فلا داعي لمحاولة التّعرف عليه.

ولكن في الوقت نفسه، شعرت بالرّضا بينها وبين نفسها لأنّها رأت ابن عمّها، ولأنّها تأكّدت من أنّ مالك كيلينتش المستقبليّ هو بلا شكّ سيّد نبيلٌ يبدو عليه أنّه يتحلّى بالحكمة. لن تذكر تحت أيّ ظرفٍ من الظروف أنّها التقت مرّةً ثانية. من حسن الحظّ أنّ ماري لم تهتمّ كثيرًا لمرورهم بالقرب منه في أثناء نزهتهم في ذلك الصّباح، ولكنّها كانت ستستاء كثيرًا إن عرفت أنّ آن اصطدمت به في الرّدهة وتلقّت منه اعتذارًا مهذبًا، في حين لم تقترب هي منه على الإطلاق. لا، يجب أن يبقى لقاءها هذا بابن عمّها سرّيًا تمامًا.

قالت ماري: «بالطَّبع ستذكرين أننا التقينا بالسَّيِّد إليوت في المَرَّة القادمة التي ترسلين فيها رسالةً إلى باث. أعتقد أنَّ والدي يجب أن يعرف بالطَّبع كلَّ شيءٍ عن هذا الأمر. عليك أن تذكري له كلَّ شيءٍ عنه».

تفادت آن الرَّدَّ بجوابٍ مباشر. ولكنَّها لم تكن تعتقد أنَّ هذا الأمر لا يهمُّ الحديث عنه فحسب، بل أنَّه يجب أيضًا كتمانها تمامًا. كانت على درايةٍ بالإساءة التي وُجِّهَتْ إلى والدها قبل عدَّة سنواتٍ، كما كانت لديها شكوكٌ فيما يتعلَّق بموقف إليزابيث من الموضوع. ولم يكن هناك أدنى شكٍّ في أنَّ سيرة السَّيِّد إليوت دومًا ما تثير ضيقهما هما الاثنان. لم تكن ماري ترسل أيَّ رسائلٍ إلى باث بنفسها أبدًا. ولذا فقد وقع كلُّ العبء المتعلِّق بالمراسلات البطيئة غير المرضية مع إليزابيث على عاتق آن.

لم يمض الكثير من الوقت بعد أن انتهوا من تناول الإفطار حتى انضمَّ إليهم القبطان هارفيل والسَّيِّدة زوجته والقبطان بينيك الذين اتَّفَقوا معهم على الدَّهاب للتَّنَزُّه للمَرَّة الأخيرة في أرجاء لايم. كان عليهم أن يتَّخذوا طريقهم نحو أبركروس في السَّاعة الواحدة، ولكن حتى ذلك الحين، كان الجميع سيمضون الوقت في الخارج معًا إلى آخر لحظةٍ ممكنة.

وجدت آن القبطان بينيك يقترب منها حالما خرج الجميع إلى الطَّريق. شجَّعه حديثهما المتبادل مساء أمس على طلب صحبتها مرَّةً ثانية. ولذا، سارا معًا لبعض الوقت وهما يتحدثان مرَّةً أخرى عن السيِّد سكوت واللُّورد بايرون. وظلَّا مثل أيِّ قارئين آخرين عاجزين عن الاتِّفاق على حسنات كلِّ منهما حتى حدث شيءٌ استدعى تغيير أماكن أفراد الجماعة، فوجدت القبطان هارفيل بجانبها بدلًا من القبطان بينيك.

قال محادثًا إيَّها بصوتٍ منخفضٍ: «آنسة إليوت، لقد أحسنت صنعًا بتشجيعك ذلك المسكين على الحديث بكثرةٍ هكذا. أتمنَّى لو كان بوسعه الحصول على رفقةٍ كهذه بدرجةٍ أكثر انتظامًا. أعرف أنَّه من غير المفيد له أن يبقى حبيسًا بهذا الشَّكل، ولكن ما الذي بوسعنا أن نفعله؟ إذ لا يمكننا أن نفترق».

قالت آن: «لا، يمكنني أن أصدِّق بالفعل أنَّ ذلك أمرٌ مستحيل. ولكن ربَّما بمرور الوقت؛ فنحن نعرف أثر الزَّمن على جميع المحن. وعليك أن تتذكَّر يا قبطان هارفيل أنَّ صديقك ما يزال في حالة حدادٍ منذ فترةٍ قريبة، منذ الصَّيف الماضي فحسب، بحسب ما فهمت».

قال بتهيدة عميقة: «أجل، هذا صحيح. منذ يونیو فحسب».

«وفي الغالب لم يعرف بوقوع الأمر على الفور».

«ليس قبل الأسبوع الأول من أغسطس، بعد أن عاد من رأس الرجاء الصالح. كان قد ترقى للتوّ إلى منصب قبطان السفينة جرابلر. كنت أنا في بليموث، وأخشى أن تبلغني منه أي أخبار، إذ كان يرسل لنا الخطابات. ولكن السفينة جرابلر صدرت لها الأوامر بالتّوجّه إلى بورتسموث. كان لا بدّ وأن تبلغه الأخبار هناك، لكن من عساه سيتولّى إبلاغه؟ ليس أنا. كان من الأهون بالنسبة إليّ أن يُحكم عليّ بالإعدام. لم يتمكّن أحدٌ من القيام بالأمر سوى ذلك الرّجل الطيّب (أشار إلى القبطان وينتورث). كانت السفينة لاكونيا قد وصلت إلى بليموث في الأسبوع السّابق، ولم يكن هناك احتمالٌ لأن يتمّ إرسالها إلى عرض البحر ثانية. تحمّل المجازفة؛ فقدّم طلباً بالحصول على إجازة، ودون أن يبقى في انتظار الرّدّ سافر دون راحة ليلاً ونهاراً، حتى وصل إلى بورتسموث، واستقلّ قارباً فور وصوله متوجّهاً إلى السفينة جرابلر، ولم يترك ذلك المسكين، ولو للحظة واحدة، طوال أسبوع كامل. هذا ما فعله، ولم يكن بوسع أيّ شخصٍ سواه إنقاذ المسكين جيمز. قد يوضّح لك هذا يا آنسة أنّ لما هو عزيزٌ للغاية علينا!».

فَكَرَّتْ آنَ فِي الْأَمْرِ بِتَمَعْنٍ، وَاکْتَفَتْ بِالرَّدِّ بِقَدَرٍ مَا أَمْلَاهُ عَلَيْهَا شَعُورُهَا،
وَبِقَدَرٍ مَا بَدَأَ أَنَّ الرَّجُلَ قَادِرٌ عَلَى تَحْمُلِهِ، فَقَدْ تَأَثَّرَ لِلْغَايَةِ مِنْ تَذَكُّرِ الْمَوْضُوعِ
مَرَّةً أُخْرَى. وَعِنْدَمَا عَادَ لِيَتَحَدَّثَ ثَانِيَةً، كَانَ مَوْضُوعُ حَدِيثِهِ مُخْتَلِفًا تَمَامًا.

رَأَتْ السَّيِّدَةُ هَارْفِيلَ أَنَّ زَوْجَهَا سَيَكُونُ قَدْ سَارَ لِمَسَافَةٍ كَافِيَةٍ بَعْدَ أَنْ يَصِلَ
إِلَى الْمَنْزِلِ، مِمَّا حَدَّدَ الْإِتِّجَاهَ الَّذِي سَلَكَهَ أَفْرَادُ الْجَمَاعَةِ فِي نَزْهَتِهِمْ
الْأَخِيرَةَ تِلْكَ. قَرَّرُوا مُرَافَقَتَهُمْ حَتَّى بَابِ الْمَنْزِلِ، قَبْلَ أَنْ يَعُودُوا أَدْرَاجَهُمْ
لِيَسْتَعِدُّوا لِلرَّحِيلِ. تَبَعًا لِحَسَابَاتِهِمْ، كَانَ الْوَقْتُ يَكَادُ لَا يَكْفِي لِهَذَا، وَلَكِنْ
عِنْدَمَا اقْتَرَبُوا مِنْ حَاجِزِ الْأَمْوَاجِ، أَحْسَسُوا بِالرَّغْبَةِ فِي السَّيْرِ بِمَحَازَاتِهِ مَرَّةً
أُخْرَى. أَرَادَ الْجَمِيعُ هَذَا، وَمَا لَبِثَ لُوِيْزَا أَنْ اِزْدَادَتْ إِصْرَارًا حَتَّى قَرَّرُوا أَنَّهُمْ
إِذَا تَأَخَّرُوا رُبْعَ سَاعَةٍ إِضَافِيَّةٍ فَلَنْ يَشْكَلَ ذَلِكَ فَارِقًا يَذْكُرُ. وَلِذَا، وَدَّعُوا
الْقَبْطَانَ هَارْفِيلَ وَالسَّيِّدَةَ زَوْجَتَهُ أَمَامَ بَابِ مَنَزَلِهِمَا، وَتَبَادَلُوا الدَّعَاوَاتِ
وَالْوَعْدَ بِالزِّيَارَةِ، ثُمَّ رَافَقَهُمُ الْقَبْطَانُ بَيْنِيكَ الَّذِي بَدَأَ أَنَّهُ يَرِيدُ التَّمَسُّكَ
بِصَحْبَتِهِمْ حَتَّى آخِرِ لَحْظَةٍ، وَتَوَجَّهُوا لِدَوَاعِ حَاجِزِ الْأَمْوَاجِ.

وَجَدَتْ آنَ الْقَبْطَانَ بَيْنِيكَ يَقْتَرِبُ مِنْهَا مَرَّةً أُخْرَى. كَانَ لَا بَدَّ وَأَنْ يَتَذَكَّرَا
الْأَبْيَاتَ الشَّعْرِيَّةَ الَّتِي كَتَبَهَا لورد بايرون عن «البحار الدَّاكنة الزُّرْقَةُ» فِي

وجود ذلك المشهد أمامهما. منحته كامل اهتمامها إلى أن اضطرت إلى أن تصبَّ جلَّ تركيزها على أمرٍ آخر.

كانت الرِّيح شديدةً لدرجةٍ جعلت من الصَّعب على السيِّدات الاستمتاع بالسَّير على المستوى العلويِّ من حاجز الأمواج؛ ولذلك اتَّفَقوا على هبوط الدَّرَجَات المؤدِّيَّة إلى المستوى السُّفليِّ. هبط الجميع الدَّرَجَات المنحدرة بهدوءٍ وحرصٍ، عدا لويزا. فقد صمَّمت أن يساعدها القبطان وينتورث على القفز عبر الدَّرَجَات. في كلِّ المرَّات التي ذهبوا فيها للتَّنزه، كان عليه أن يساعدها في القفز عبر الدَّرَجَات، ووجدت هي ذلك الشُّعور مسليًا. تردَّد في الأمر هذه المرَّة بسبب صلابة الأرض، ولكنَّه نفَّذ رغبتها، وهبطت بسلام. وبعد ذلك - ولكي تظهر مدى استمتاعها بالأمر - عادت لتصعد الدَّرَجَات مرَّةً أخرى على الفور كي يساعدها على القفز مرَّةً ثانية. نصَّحها ألا تفعل ذلك، لأنَّه يعتقد أنَّ قوَّة الاصطدام ستكون شديدةً للغاية، ولكنَّ كلَّ حديثه ونُصحه كان دون جدوى. ابتسمت قائلةً: «أنا مصمَّمةٌ على القيام بالأمر». مدَّ لها يديه، ولكنَّها تعجَّلت بمقدار نصف ثانية، وسقطت على حجارة الطَّرِيق في المستوى السُّفليِّ من حاجز الأمواج، وبدت جثَّة هامدة!

لم يكن هناك جرحٌ ظاهرٌ أو دماءٌ أو أيُّ كدماتٍ ظاهرة. ولكنَّ عينيها كانتا مغلقتين، وقد انقطعت أنفاسها، وبدأ وجهها شاحبًا كالموتى. غمر الشعور بالرُّعب جميع الواقفين حولها في تلك اللَّحظة!

رفعها القبطان وينتورث، وجثى على ركبتيه، وهي بين ذراعيه، مطالعًا إيَّاهَا في صمت، ووجهه شاحبٌ مثل وجهها. صرخت ماري قائلةً: «لقد ماتت! لقد ماتت!»، وأمسكت بزوجها لتشلَّ حركته، إلى جانب شعوره بالرُّعب الذي شلَّه هو الآخر. في اللَّحظة التَّالية، فقدت هينرييتا الوعي تحت وقع الصَّدمة، وكانت ستسقط على الدَّرجات لولا أن أمسكها القبطان بينيك وآن وأسنداها بينهما.

«ألن يقدِّم لي أيُّ شخصٍ العون؟». كانت تلك هي أولى الكلمات التي خرجت من بين شفتي القبطان وينتورث بنبرةٍ يغمرها اليأس، وكأنَّ كلَّ قواه قد فارقتَه.

صاحت آن قائلةً: «فلتذهب إليه، اذهب إليه. بحقِّ السَّماء، اذهب إليه. يمكنني أن أسنداها وحدي. اتركني واذهب إليه. قم بتدليك يديها وصدغها. هاك بعضًا من النُّشادر، خذها، خذها».

أطاعها كلُّ من القبطان بينيك وتشارلز في اللَّحظة نفسها، إذ حرَّر هذا الأخير نفسه من قبضة زوجته، وانضمَّ كلاهما إليه. رفعوا لويزا وأسندوها بإحكامٍ أكبر بينهم، وفعلوا كلَّ ما حَثَّهم عليه آن، ولكن دون جدوى. وبينما كان القبطان وينتورث يتعثَّر مستندًا إلى الجدار، صاح قائلاً بمرارة وألمٍ: «يا إلهي! والدها ووالدتها!».

قالت آن: «فليجلب أحدكم الطَّبيب!».

سمع عبارتها هذه، وبدأ أنه استفاق على الفور. قال: «أجل، أجل. يجب أن نجلب الطَّبيب حالاً»، ثمَّ ابتعد مسرعًا. اقترحت آن بحماسٍ: «ليذهب القبطان بينيك. ألن يكون من الأفضل أن يذهب القبطان بينيك؟ فهو يعرف عنوان الطَّبيب».

شعر الجميع بمدى صواب فكرتها، وفي لحظةٍ (جرى كلُّ شيءٍ سريعًا خلال لحظات) ترك القبطان بينيك جسدها الهامد مثل جثَّةٍ في رعاية شقيقها، وتوجَّه مسرعًا نحو البلدة.

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَفْرَادِ الزُّمَرَةِ الْبَائِسِينَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُمْكِنِ تَحْدِيدَ مَنْ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا فِي وَعِيهِمْ شَعْرَ الْأَلَمِ بِدَرَجَةٍ أَكْبَرَ: الْقَبْطَانُ وَيَنْتَوُورْثُ، أَمَّ آنَ، أَمَّ تشارلز الذي كَانَ شَقِيقًا حَنُونًا لِلْغَايَةِ. بَقِيَ جَائِيًا فَوْقَ لُوِيْزَا وَهُوَ يَبْكِي مِنَ الْأَلَمِ، وَلَمْ يَكُنْ يَبْعُدُ عَيْنِيهِ عَنْ شَقِيقَتِهِ إِلَّا لِيَدِيرَهُمَا نَحْوِ الثَّانِيَةِ الَّتِي كَانَتْ فَاقِدَةً الْوَعْيِ هِيَ الْآخَرَى، أَوْ لِيَرَاقِبَ زَوْجَتَهُ الَّتِي كَانَتْ تَنَادِيهِ فِي حَالَةٍ هَيْسْتِيرِيَّةٍ، طَالِبَةً مِنْهُ الْعَوْنَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ بَوْسَعَهُ أَنْ يَقْدِّمَهُ لَهَا.

اعْتَنَتْ آنَ بِهَيْنَرِيَّتَا بِكُلِّ مَا فِي وَسْعِهَا مِنْ قُوَّةٍ وَحِمَاسٍ وَاهْتِمَامٍ، وَظَلَّتْ مَعَ ذَلِكَ تَحَاوِلَ بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ أَنْ تَطْمَئِنِّ الْآخَرِينَ، وَتَهْدِيَّ مِنْ رُوعِ مَارِي، وَتَشْجَعُ تشارلزَ، وَتَهْدِيَّ مِنْ انْفِعَالَاتِ الْقَبْطَانِ وَيَنْتَوُورْثِ. بَدَا كِلَاهُمَا وَكَأَنَّهُمَا يَنْتَظِرَانِ تَعْلِيمَاتَهَا.

صَاحَ تشارلزُ قَائِلًا: «آنَ، آنَ، مَا الَّذِي عَلَيْنَا أَنْ نَفْعَلَهُ الْآنَ؟ مَا الَّذِي عَلَيْنَا أَنْ نَفْعَلَهُ الْآنَ بِحَقِّ السَّمَاءِ؟».

أَدَارَ الْقَبْطَانُ وَيَنْتَوُورْثُ نَظْرَهُ إِلَيْهَا هُوَ الْآخَرِ.

«أليس من الأفضل أن نحملها ونعود بها إلى النُّزل؟».

«أجل، أجل، إلى النُّزل»، كرَّرها القبطان وينتورث وقد هدأ نسبيًّا وبدأ عليه الحماس للتَّصَرُّف بأيِّ شكل. «سأحملها بنفسِي. ماسجروف، عليك أن تعتني أنت بالباقيين».

في ذلك الوقت، كانت أخبار الحادث قد انتشرت بين العمَّال وأصحاب القوارب عند حاجز الأمواج؛ فتجمَّع العديد بالقرب منهم لتقديم العون أو على الأقلِّ للاستمتاع بمراى سيِّدةٍ شابَّةٍ متوقِّةٍ، لا بل سيِّدتين شابَّتين، حيث ثبت أنَّ الواقع يفوق الأخبار التي بلغتهم في بادئ الأمر روعة. تولَّى بعض أولئك النَّاس ممَّن بدوا محلَّ ثقةٍ أمر هينرييتا. فمع أنَّها استفاقت إلى حدٍّ ما، إلا أنَّها كانت ما تزال عاجزة. وهكذا، بينما آن تسير بجانبها، وتشارلز يتولَّى أمر زوجته، مضوا قدمًا، بخطواتٍ مثقلةٍ على ذات الطَّرِيق الذي ساروا فوقه قبل لحظاتٍ - لا غير - بخفَّةٍ متناهية.

لم يتعدوا عن حاجز الأمواج قبل أن يلتقوا بآل هارفيل. كانا قد شاهدا القبطان بينيك وهو يمرُّ سريعًا من أمام منزلهما، وقد دلَّ التَّعبير المرتسم على ملامحه على أنَّ هناك خطبًا ما. ولذلك خرجا على الفور، وبلغتهما

الأخبار في طريقهما، حتى وصلا المكان المنشود. وبالرغم من إحساس القبطان هارفيل بالصدمة، تصرف بتعقل وثباتٍ كانا مفيدين للغاية. تبادل النظرة مع زوجته وقررا ما يتعين عليهما فعله. لا بد وأن يحملوها إلى منزلهما - لا بد وأن يأتي الجميع إلى منزلهما - وينتظروا مجيء الطبيب هناك. لم يلقيا بالآخريين الذين شعروا بتأنيب الضمير، فأطاعوه، وذهب الجميع إلى منزله. وبينما حملت لويزا، تحت إشراف السيدة هارفيل، إلى الطابق العلوي، حيث منحتها فراشها، قدم زوجها العون للباقيين، ووزع عليهم المشروبات المنعشة والمقوية.

فتحت لويزا عينيها مرةً، ولكنها عادت وأغلقتهما دون أن يبدو عليها أنها استعادت الوعي. ولكن هذا كان دليلاً على أنها ما زالت على قيد الحياة، ممّا هوّن على شقيقتها. ومع أنّ هينرييتا لم تكن قادرةً على البقاء في الغرفة نفسها مع لويزا، إلا أنّ شعورها بالأمل والخوف منعها من أن تفقد الوعي مرةً أخرى. كما أنّ ماري هدأت كثيراً هي الأخرى.

وصل الطبيب بسرعةٍ بدا من الصّعّب تصديقها. غمرهم الشعور بالخوف البالغ وهو يفحصها، ولكن لم يبد عليه الشعور بالقلق. لقد تلقت صدمةً

شديدةً في الرأس، ولكنه سبق وأن شاهد إصاباتٍ أشدَّ تعافى منها أصحابها. لم يبد عليه أيُّ قلق، وتحدّث بنبرةٍ يغلب عليها المرح.

لم يصدّقوا أنفسهم في بادئ الأمر، عندما لم يعتبر الحالة ميئوسًا منها، ولم يعلن أنّها ستفارق الحياة خلال ساعات. ويمكن للمرء أن يتخيّل السّعادة الغامرة التي أحسّوا بها، وفرحتهم العميقة، والصّمت الذي ساد بعد بضع كلماتٍ من الشّكر الحارّ للسّماء.

أحسّت آن بيقينٍ بأنّها لن تنسى أبدًا نبرة صوت وملامح القبطان وينتورث وهو يغمغم قائلاً: «حمدًا للرّب!». كما أحسّت أنّها لن تنسى منظره بعدئذٍ وهو جالسٌ إلى إحدى الطّاولات، وقد مال فوقها بذراعيه مخفيًا وجهه، وكأنّ المشاعر القويّة التي تضطرم داخل روحه قد غمرته تمامًا وهو يحاول أن يهدّئ من روعه بالدّعاء والتّأمّل.

كانت أطراف لويزا سالمةً دون إصابة، سوى إصابة رأسها.

بات على أفراد الجماعة الآن أن يقرّروا أفضل تصرّفٍ يمكنهم اتّخاذه حيال الوضع بصفةٍ عامّة. صاروا في حالةٍ تسمح لهم بتبادل الحديث

والتَّشاور. لم يكن هناك شكُّ في أنَّ لويْزا يجب أن تبقى في مكانها، مهما جعل ذلك أصدقاءها يشعرون بالاستياء بسبب إزعاجهم لآل هارفيل. كان من المستحيل نقلها من مكانها.

أسكت آل هارفيل حديث الجميع عن الشُّعور بتأنيب الضَّمير، وبقدر المستطاع أسكتوا عبارات الشُّكر أيضًا. كانوا قد فكَّروا في كلِّ شيء، وقاموا بالتَّرتيبات اللَّازمة، قبل أن تسنح للآخرين الفرصة للتَّفكير. سيتعيَّن على القبطان بينيك أن يترك لهم غرفته ويبحث عن مكانٍ آخر لبيت فيه، وهكذا تمَّ ترتيب الأمر. كان همُّهم الوحيد أنَّ المنزل قد لا يتَّسع لإقامة المزيد من الأفراد. ولكن ربَّما صار بوسعهم التَّصرُّف بطريقةٍ ما إن جعلوا الأطفال يبيتون في غرفة الخادمة، أو إن وضعوا فراشًا إضافيًا في مكانٍ ما. فلم يكن بوسعهم أن يتحمَّلوا فكرة عدم وجود مكانٍ لبيات شخصين أو ثلاثةٍ إضافيين فيما لو رغب أحدهم في ذلك. ولكن فيما يتعلَّق برعاية الآنسة ماسجروف، فلم يكن هناك أيُّ داعٍ للشُّعور بالقلق من تركها في رعاية السيِّدة هارفيل التي كانت ممرَّضةً ذات خبرة، كما أنَّ مربِّية أطفالها التي عاشت معها لسنواتٍ طويلةٍ، وصحبتها في كلِّ مكانٍ، كانت لها خبرةٌ بالتمريض هي الأخرى. ولن تحتاج إلى أيِّ شيءٍ ليلًا أو نهارًا تحت رعايتهما. قالوا كلُّ هذا بنبرةٍ من الصَّدق والإخلاص يصعب مقاومتها.

تشارلز وهينرييتا والقبطان وينتورث فيما بينهم، ولبضع لحظاتٍ كان الشعور الغالب عليهم هو الارتباك والخوف: أبركروس، وحاجتهم إلى أن يذهب أحدٌ إلى أبركروس كي يبلغهم الأخبار، وكيف يمكنهم إبلاغ السيّد والسيّدة ماسجروف بالأمر، وتأخّر الوقت في ذلك النّهار، بعد أن فات الموعد الذي كان من المفترض أن يرحلوا فيه، واستحالة وصولهم في موعدٍ ملائم. لم يستطيعوا سوى النّطق بمثل تلك العبارات في بادئ الأمر. ولكن بعد برهةٍ قصيرةٍ، بذل القبطان وينتورث جهداً حتى تمالك نفسه، وقال:

«يجب أن نقرّر، ودون أن نخسر ولو دقيقةً واحدةً إضافيةً. فلكلّ دقيقةٍ قيمةٌ الآن. يجب أن يقرّر بعضنا التّوجّه إلى أبركروس على الفور. ماسجروف، يجب أن يذهب أحدنا».

وافقه تشارلز على قوله، ولكنّه أعلن عزمه على البقاء. سيحاول بقدر الإمكان ألاّ يشكّل عبئاً على السيّد والسيّدة هارفيل، ولكن لا يمكنه أن يترك شقيقته وهي في هذه الحالة، ولن يفعل ذلك. ولذا اتّفقوا على هذا، وأعلنت هينرييتا الشّيء نفسه في بادئ الأمر. ولكنّهم ما لبثوا أن أقنعوها بالعدول عن رأيها. فما فائدة بقائها، وهي لم تستطع حتى أن تمكث في

الغرفة نفسها مع لويزا، أو أن تنظر إليها دون أن تعاني لدرجة جعلتها عاجزة تمامًا؟ اضطررت إلى الاعتراف بأنها لا تستطيع تقديم العون، ولكن مع ذلك لم ترغب في الرحيل إلى أن تأثرت من التفكير في حال والدها ووالدتها، فعدلت عن رأيها. وافقتهم الرأي، وشعرت بالرغبة في العودة إلى المنزل.

كانوا قد بلغوا هذا الحد من التخطيط حين نزلت آن بهدوء قادمة من غرفة لويزا، ولم يسعها سوى أن تستمع إلى حديثهم، إذ إن باب غرفة الاستقبال كان مفتوحًا.

صاح القبطان وينتورث: « اتفقنا إذن يا ماسجروف. ستبقى أنت، وسأعتني أنا بشقيقتك في طريقها للعودة إلى المنزل. أمّا بخصوص الباقين، إن كان أحدهم سيقى لمعاونة السيّدة هارفيل، فأعتقد أنّه يجب أن يكون شخصًا واحدًا فقط. سترغب السيّدة تشارلز ماسجروف بالطّبع في العودة إلى طفليها، ولكن ليت آن تبقى، لأنّه لن يكون هناك من هو أكثر مهارة ومقدرة من آن! ».

توقّفت للحظة كي تتمالك نفسها، بعد أن سمعته يتحدث عنها هكذا. وافق الآخرين على قوله هذا بحرارة، ثمّ ظهرت هي بعد ذلك.

«ستبقين. أنا واثقٌ من أنَّك ستبقين لرعايتها»، صاح يقول هذا وهو يستدير نحوها، متحدِّثًا بدفءٍ ورقَّةٍ، بحيث بدا وكأنَّه يكاد يستعيد الماضي. تخضَّب وجهها بالحمرة، ثمَّ تمالك هو نفسه وابتعد. قالت إنَّها على استعدادٍ تامٍّ لذلك، ويسعدُها البقاء، وإنَّ ذلك هو ما كانت تفكِّر فيه بالفعل، وترجو أن يسمحوا لها به. سيكفيها فراشٌ على الأرض في غرفة لويزا، إن سمحت لها السيِّدة هارفيل بذلك.

بدا أنَّهم انتهوا من ترتيب كلِّ شيء. لا بدَّ وأن يكون السيِّد والسيِّدة ماسجروف قد حزرا من تأخُّرهم في العودة أنَّ شيئًا ما قد طرأ، ولكنَّ الوقت الذي ستستغرقه العودة بالعربة التي تجرُّها خيول أبركروس سيطيل من المدة التي سيقضيانها في حالة ترقُّبٍ بصورةٍ مروِّعة. ولذلك اقترح القبطان وينتورث، ووافقه تشارلز ماسجروف، على أنَّه سيكون من الأفضل كثيرًا أن يستأجرا عربةً أخفَّ من الثُّزل، ويتركا عربة السيِّد ماسجروف وخيله ليتمَّ إرسالهما في وقت مبكِّرٍ من صباح اليوم التَّالي، بحيث تكون هناك حسنةٌ إضافيةٌ أخرى متمثِّلةٌ في إرسال أخبار حالة لويزا في اللَّيلة السَّابقة.

ذهب القبطان وينتورث مسرعًا ليعدَّ كلَّ شيءٍ ريثما تتبعه السيِّدتان لاحقًا. ولكن ما إن علمت ماري بالخطة التي اتَّفَقوا عليها حتى ثارت ثائرتها. عبَّرت عن غضبها بعنفٍ، واشتكت من انعدام العدالة من قبل الجميع الذين

توقَّعوا منها أن ترحل هي بدلاً من آن، آن التي لم تكن لها أيُّ صلةٍ بلويزا، في حين أنَّها تُعدُّ بمثابة شقيقةٍ لها هي، وكانت هي صاحبة الحقِّ في البقاء بدلاً من هينرييتا! ما الذي يمنعها هي من تقديم العون مثل آن تماماً؟ وهل تعود إلى المنزل من دون تشارلز أيضاً، من دون زوجها؟ لا، كانت هذه قسوةً بالغة! باختصارٍ، تحدَّثت وقالت الكثير الذي يفوق قدرة زوجها على التَّحمُّل. ولأنَّه لم يعد بوسع أيِّ شخصٍ آخر الاعتراض بعد أن وافقها هو، لم يعد هناك ما يمكن عمله بعد ذلك، ولم يعد هناك بدٌّ من أن تحلَّ ماري محلَّ آن.

لم يسبق وأن استسلمت آن لغيرة ماري وسوء حكمها على الوضع على مضضٍ أكثر ممَّا فعلت الآن، ولكن لم يكن أمامها خيارٌ آخر. لذا، توجَّهوا عائدين في طريقهم إلى البلدة، وتشارلز يعتني بشقيقته، بينما القبطان بينيك يعتني بها هي. فكَّرت للحظة، وهم يسيرون في طريقهم، في الأحداث التي شهدتها هذه الأماكن نفسها في وقتٍ سابقٍ من ذلك الصَّباح. فهنا استمعت لخطط هينرييتا المتعلقة برحيل الدُّكتور شيرلي عن أبركروس، وعلى مبعدةٍ أكبر قليلاً التقت بالسَّيِّد إليوت لأوَّل مرَّة. لم يبد أنَّه من الممكن منح أكثر من مجرَّد لحظةٍ للتَّفكير في أيِّ شيءٍ غير لويزا، وأولئك الذين انشغلوا بالعناية بها.

اهتمَّ القبطان ببيك بها اهتمامًا فائقًا. ولمَّا كان الحزن قد وَّحَدَ بينهم جميعًا في ذلك النَّهار، فقد تزايد شعورها بالرِّضا عنه، وأحسَّت بالسَّعادة حين فكَّرت في أنَّ الظُّروف قد تساعد على استمرار العلاقة بينهما.

كان القبطان وينتورث في انتظارهم، وكانت هناك عربةٌ تجرُّها أربعة خيولٍ تقف في انتظارهم عند طرف الشَّارع. ارتسم على ملامحه بوضوح شعورٌ بالمفاجأة والضَّيق حين وجد إحدى الشَّقِيقَتَيْن قد حلَّت محلَّ الأخرى. شعرت آن بالإهانة من استقباله لها إذ تغيَّرت تعبيرات وجهه وانتابته الدَّهشة، وبدا أنَّه يحاول كبت مشاعره وهو يستمع إلى تشارلز، أو على الأقلَّ أحسَّت أنَّه لا يعدُّها ذات أهمِّيَّةٍ إلَّا بقدر العون الذي يمكنها أن تقدِّمه للوزير.

حاولت أن تبدو متماسكةً، وأن تتحلَّى بالعدالة. فدون أن تحاكي مشاعر إيما تجاه هينري(5)، كانت سترعى لوزيرًا بحماسٍ يفوق ما هو مطلوبٌ منها لأجل خاطره هو. وتمنَّت ألا يطول ظلمه لها بافتراضه أنَّها تهزَّبت - دون سببٍ - من تقديم العون لأحد الأصدقاء.

في هذه الأثناء، جلست في العربة. كان قد ساعدهما على الرُّكوب، وجلس في مكانه بينهما. وفي هذه الظُّروف المدهشة والعامرة بالمشاعر

بالنسبة إلى آن، رحلت عن لايم. لم تستطع أن تتوقع كم سيمرُّ من الوقت حتى ينتهي هذا الجزء من الرحلة، وكيف سيؤثر الوضع على سلوكهما، وكيف سيتعاملان. ولكنَّ كلَّ شيءٍ بدا طبيعيًّا تمامًا. انشغل بهينرييتا، وكان يستدير نحوها كلَّما بادلها الحديث، على أمل تقديم الدَّعم لها ورفع معنوياتها. بصفةٍ عامَّةٍ، تحكَّم بهدوء نبرته وسلوكه. بدا أنَّ ما يهمُّ الآن هو تهدئة هينرييتا ومنعها من الاضطراب. ولكن في مرَّةٍ واحدةٍ فقط، حين كانت تعبِّر عن ندمها حيال تلك النُّزهة الأخيرة المشؤومة عند حاجز الأمواج، وتبكي بمرارةٍ لأنَّهم فكَّروا في الدَّهاب إلى هناك، انفجر، وكأَنَّ مشاعره غلبته، وصاح قائلاً:

«لا تذكرني ذلك الأمر! لا تذكره! يا إلهي! ليتني لم أَسْتسلم لرغبتها في تلك اللَّحظة المشؤومة. ليتني صمَّمت على موقفٍ. ولكنَّها كانت متحمَّسةً ومصمَّمةً للغاية! العزيزة الرَّقيقة لويزا!».

تساءلت آن إن كان قد خطر في باله الآن أن يعيد التَّفكير في عدالة رأيه السَّابق المتعلِّق بالسَّعادة المطلقة، وبالحسنات النَّاتجة عن ثبات الرَّأي، وإن كان سيفكِّر الآن أنَّ تلك الصِّفة مثل جميع الصِّفات الأخرى يجب أن تكون بدرجةٍ معيَّنة، ولها حدود. اعتقدت أنَّه لا يمكنه أن يغفل عن أنَّ

قابليّة المرء لتغيير رأيه قد تكون أحياناً سبباً من أسباب سعادته، تماماً مثل قابليّته للحفاظ على قوّة العزيمة.

قطعوا الطّريق بسرعةٍ. شعرت آن بالدّهشة حين ميّرت التّلال نفسها والأشياء نفسها مرّةً أخرى بهذه السّرعة. بدا الطّريق وكأنّه أقصر من طريق اليوم السّابق بمقدار النّصف، بسبب سرعتهم الفعلية، إضافةً إلى إحساسهم بالخوف من خاتمة رحلتهم تلك. ولكنّ الظّلام أخذ يحلّ قبل أن يقتربوا من أبركروس. كان الصّمت التّام قد حلّ بينهم لفترةٍ من الوقت، واستندت هينرييتا إلى أحد الأركان مغطّيةً وجهها بشالٍ، ممّا جعلهما يتمنّيان أن تكون قد انتهت من البكاء، وأخلدت إلى النّوم. وبينما كانوا يصعدون التّلال الأخير، وجدت آن القبطان ويتنوّرت يحدثها فجأةً بصوتٍ منخفضٍ وحذرٍ، وهو يقول:

«لقد فكّرتُ في أفضل طريقةٍ يمكننا التّصرّف بها. لا يجب أن تدخل هي أوّلاً. لن تتحمّل الأمر. لقد فكّرتُ فيما إذا كان من الأفضل أن تبقي أنت بصحبتهما في العربة، بينما أدخل أنا وأبلغ السيّد والسيّدة ماسجروف بالأخبار. هل تعتقدين أنّ هذه خطّة جيّدة؟».

وافقته الرَّأي فأحسَّ بالرِّضا، ولم يقل شيئا آخر. ولكنَّها شعرت بالسَّعادة البالغة للتَّفكير في أنَّه استشارها، وكأنَّ هذا دليلٌ على الصِّداقة، وعلى أنَّه يحترم رأيها. وازدادت قيمة الأمر عندها لأنَّه كان بمثابة الوداع بينهما.

حين انتهى من إبلاغ الأخبار المزعجة في أبركروس، واطمأنَّ إلى أنَّ الأب والأُمَّ استعدا هدوءهما بقدر الإمكان، وإلى أنَّ الابنة صارت بحالٍ أفضل بعد عودتها إلى كنفهما، أعلن عن نيَّته العودة إلى لايم بالعربة نفسها، وبعد إطعام الخيل مضى راحلاً في طريقه.

(5) الإشارة هنا إلى قصيدة ماثيو برايور التي بعنوان «هينري وإيما» التي تحكي عن إيما التي أثبتت حبَّها لحبيبها هينري من خلال إبداء استعدادها لخدمة المرأة التي اعتقدت أنَّها غريمتها.

قضت آن الفترة الباقية التي مكثتها في أبركروس، والتي بلغت مدتها يومين، في البيت الكبير. شعرت بالرّضا لعلمها أنّ لوجودها هناك فائدةً كبيرةً، سواءً لتسلّيتهم بصحبتها أو لمعاونتهم في التّرتيبات المستقبلية التي كانت ستشكّل عبئًا على السيّد والسيّدة ماسجروف في حالتها المضطربة تلك.

وصلتهم الأخبار من لايم في وقتٍ مبكرٍ من صباح اليوم التّالي. كانت حالة لويزا ما تزال كما هي، إذ لم تزد سوءًا عمّا كانت عليه من قبل. أتى تشارلز بعد ذلك بعدّة ساعاتٍ ومعه أخبارٌ أحدث وأكثر تفصيلًا. بدا عليه التّفأول إلى حدٍّ كبير. لم يكن عليهم أن يتوقّعوا تعافيا بسرعة، ولكنّ الأمور كانت تسير على ما يرام، حسبما تسمح به طبيعة الحالة. وفي حديثه عن آل هارفيل، بدا وكأنّه لا يستطيع التّعبير بدرجةٍ كافيةٍ عن مدى كرمهما، وخاصّةً جهود السيّدة هارفيل التي بذلتها في التّمرّض. فهي حقًا لم تترك لماري أيّ شيءٍ لتقوم به، وأقنعه هو وماري أن يعودا إلى النّزل في وقتٍ مبكرٍ من مساء اليوم السّابق. عادت ماري للتّصرّف بطريقةٍ هستيريةٍ مرّةً أخرى ذلك الصّباح. انتوت الدّهَاب للتّنزّه مع القبطان بينك قبل أن

يرحل، وكان يأمل أن يفيدها ذلك. وتمنّى لو أنّها اقتنعت بالعودة إلى المنزل في اليوم السّابق، ففي واقع الأمر، لم تترك السيّد هارفيل أيّ شيءٍ للآخرين كي يقوموا به.

كان تشارلز سيعود إلى لايم في عصر اليوم نفسه، ورغب والده في بادئ الأمر في مرافقته، ولكنّ السيّدات أبدين اعتراضهنّ، فإن ذهب سيزيد من متاعب الآخرين هناك، كما سيزيد من شعوره هو نفسه بالألم. بدلًا من ذلك، فكّروا في خطّة أفضل بكثير، وتصرّفوا على أساسها. طلبوا عربةً من كروكيرن، وأرسل تشارلز شخصًا أكثر فائدةً بكثيرٍ متمثّلًا في مربّية الأطفال القديمة التي تعمل لدى الأسرة. بعد أن قامت بتنشئة جميع الأطفال، وشهدت آخرهم، السيّد هاري المدلّل، وقد لحق بأشقائه في المدرسة، بقيت هي في غرفة الأطفال الخالية ترتق الجوارب، وتداوي الجروح والكدمات التي تصادفها. ولذلك فقد شعرت بالسّعادة عندما طلبوا منها الدّهاب لمعاونة العزيزة لويزا. كانت فكرة إرسال سارة إلى هناك قد خطرت من قبل في بال السيّد ماسجروف وهينريتا، ولكن دون مساعدة آن لم يكن من الممكن اتّخاذ القرار وتنفيذه بمثل هذه السّرعة.

في اليوم التّالي، كانوا مدينين لتشارلز هايتز لما أمدهم به من كلّ التّفاصيل الدّقيقة الخاصّة بحالة لويزا، والتي كان من الضّروريّ حصولهم عليها كلّ أربع وعشرين ساعة. فقد تطوّع بالذهاب إلى لايم، وكانت المعلومات التي حصل عليها ما تزال مشجّعة. ازدادت فترات استفاقتها التي تمتّعت فيها بالوعي. واتفقت جميع الأخبار حول بقاء القبطان وينتورث في لايم.

كانت آن سترحل عنهم في اليوم التّالي، وشعر الجميع بالقلق لرحيلها. فكيف سيتصرّفون من دونها؟ فلم يكن بوسعهم موااساة بعضهم بعضاً! تحدّثوا كثيرًا بخصوص هذا الأمر، حتى اعتقدت آن أنّ أفضل ما بوسعها القيام به هو أن تفصح لهم عن الرّغبة العامّة التي كانت هي على دراية بها، وتقنعهم بالتّوجّه إلى لايم جميعًا في وقتٍ واحد. لم تجد صعوبةً في ذلك، وسرعان ما قرّروا الذهاب. كانوا سيتوجّهون إلى هناك في الغد، وينزلون في نزلٍ أو يستأجرون منزلًا، بحسب ما تسمح به الطّروف، ويمكنون هناك حتى يستطيعوا نقل العريزة لويزا من هناك. ولا بدّ أن يساعدوا في تخفيف الحمل عن النّاس الكرماء الذين كانت تقيم لديهم. فبوسعهم على الأقلّ إعفاء السيّد هارفيل من رعاية أطفالها. باختصارٍ، شعروا بالسّعادة لقرارهم هذا؛ فأحسّت آن بالرّضا عمّا فعلته، وشعرت أنّ أفضل طريقةٍ يمكنها بها

قضاء يومها الأخير في أبركروس هي أن تعاونهم في الاستعداد، وتساعدتهم على السفر في وقتٍ مبكرٍ، مع أنَّ نتيجة هذا ستكون بقاءها وحدها في المنزل.

باستثناء الصَّبيِّين الصَّغيرين في الكوخ، كانت هي آخر من تبقى ممَّن ملأوا المنزلين بالحياة ومنحوا أبركروس طابعها المبهج. لكم شكَّلت بضعة أيَّامٍ فارقًا كبيرًا!

إن تعافت لويزا، سيعود كلُّ شيءٍ على ما يرام مرَّةً أخرى. ستعود سعادتهم أكبر ممَّا كانت من قبل. لم يكن لديها أدنى شكٍّ فيما سيحدث بعد أن تتعافى. فبعد عدَّة أشهر، ستمتلى الغرفة المهجورة الآن - سوى من آن الصَّامِة المتأمِّلة - بكلِّ ما هو مفرحٌ ومبهجٌ ومشرقٌ بالحبِّ، بخلاف ما هي عليه آن إليوت نفسها!

قضت ساعةً كاملةً متفرَّغةً لتأمُّلاتها هذه، في نهارٍ مظلمٍ من أيَّامِ نوفمبر التي انهمر فيها المطر بغزارةٍ كادت تختفي معها الصُّور القليلة البادية من النَّافذة، ممَّا حداها إلى الشُّعور بالسَّعادة لسماع صوت عربة اللِّيدي راسيل.

وبالرَّغم من رغبتهَا في الرَّحيل، لم تتمكَّن من مغادرة المنزل الكبير، أو إلقاء نظرة وداعٍ على الكوخ، بشرفته المظلمة التي يقطر منها المطر، أو حتى أن تلحظ من خلال نوافذ العربة التي تكثَّف عليها البخار بيوت القرية البسيطة، دون أن يغمر الحزن قلبها. لقد وقعت العديد من الأحداث في أبركروس جعلت المكان عزيزًا عليها. فقد شهد آلامًا عديدةً بدأت شديدةً قبل أن تخفت حدَّتها، كما شهد بعض مشاعر التَّسامح والصَّداقة والتَّصالح التي لا يمكن أن تجدها مرَّةً أخرى، والتي لن تفقد معزَّتها أبدًا. خلَّفت كلَّ ذلك وراءها، باستثناء ذكريات ما حدث هناك.

لم تدخل آن كيليتش منذ أن رحلت عن بيت الليدي راسيل في سبتمبر. لم تضطرَّها الطُّروف إلى ذلك. وفي المرَّات القليلة التي دعتهَا الحاجة إلى الدَّهاب إلى القصر، تمكَّنت من أن تتفادى الأمر وتتهرَّب منه. كانت المرَّة الأولى التي تعود فيها إلى مكانها في المنزل الحديث الأنيق، لتسعد صاحبه بوجودها.

امتزج شعور الليدي راسيل بالسَّعادة للقائها مع الشُّعور بالقلق. فقد كانت على درايةٍ بمن يزور أبركروس. ولكن لحسن الحظَّ بدت آن وكأنَّها قد ازدادت جمالًا وازدادت وزنًا أيضًا، أو على الأقلَّ تخيلتها الليدي راسيل

هكذا. وعندما سمعت آن مجاملاتها التي ألقته عليها حول هذا الشأن، وجدت الأمر مُبهجاً حين ربطت بين هذا الإطار وبين إعجاب ابن عمّها الصّامت، وتمتّت لو أنّه كان بوسعها التّمتع برّيع عمرٍ جديدٍ من الشّباب والجمال.

حين شرعنا في تبادل الحديث، ما لبثت أن أحسّت أنّ هناك تغيّراً في حالتها المزاجيّة. فالموضوعات التي كانت تشغل بالها عند رحيلها عن كيلينتش، والتي شعرت بأنّها مضطّرةٌ إلى أن تنحّيها جانباً وتكتّمها في أثناء وجودها بين آل ماسجروف، باتت الآن ثانويّةً بالنّسبة إليها. فلم يعد يشغلها حتى أمر والدها وشقيقتها في باث. صار اهتمامها بأمورهما يأتي في مرتبةٍ ثانيةٍ بعد أمور أبركروس. وحين عادت الليدي راسيل للحديث عن آمالهما السّابقة ومخاوفهما، وذكرت رضاها عن المنزل الذي استأجره في كامدن بليس، وعن شعورها بالأسف لأنّ السيّدة كلاي ما زالت تقيم معهما، أحسّت آن بالخجل إن عرفت أنّ تفكيرها كان منشغلاً بدرجةٍ أكبر بلايم ولويزا ماسجروف، وبكلّ معارفها هناك، وكيف أنّها مهتمةٌ بمنزل وصداقة آل هارفيل والقبطان بينيك أكثر من اهتمامها بمنزل والدها في كامدن بليس، وبعلاقة شقيقتها المقرّبة من السيّدة كلاي. اضطّرت إلى إجبار

نفسها على التّركيز كي تظهر أمام اللّيدي راسيل وكأنّها مهتمةٌ بتلك الموضوعات التي كان من الطّبيعيّ أن تحتلّ الصّدارة في اهتماماتها.

وفي بادئ الأمر، بدا الحديث صعبًا بعض الشّيء حين قامت بتغيير موضوع النّقاش. إذ كان لا بدّ وأن تتحدّثا عن الحادث الذي وقع في لايم. فما إن حضرت اللّيدي راسيل في اليوم السّابق حتى بلغتْها الأحداث كاملةً بعد مجرّد خمس دقائق من وصولها. ولكن مع ذلك، كان لا بدّ وأن تتحدّث في الموضوع، وأن تستفسر عنه، وأن تبدي أسفها على ذلك الطّيش وعلى النّتيجة التي ترتّبت عليه، كما كان لا بدّ وأن تذكر كلّ منهما اسم القبطان وينتورث. كانت آن تدرك أنّها لا تستطيع النّطق به بسهولةٍ مثل اللّيدي راسيل. فلم تتمكّن من النّطق باسمه وهي تنظر في عيني اللّيدي راسيل مباشرةً، حتى لجأت إلى الحيلة وحكت لها باختصارٍ عن رأيها في العلاقة بينه وبين لويزا. وحين حكّت لها هذا، لم يعد اسمه يزعجها.

استمعت اللّيدي راسيل إليها بهدوءٍ، وتمنّت لهما السّعادة. ولكن بداخلها كان قلبها يضطرب بمشاعر غضبٍ واحتقارٍ وشماتةٍ من أنّ هذا الرّجل

الذي بدا في سنّ الثالثة والعشرين من العمر وكأنّه يقدر قيمة واحدةٍ مثل آن إليوت، قد سحرتَه بعدها بشماني سنواتٍ واحدةٍ مثل لويزا ماسجروف.

مرّت الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى بهدوءٍ، دون أيّ أحداثٍ تذكر، سوى رسالةٍ أو اثنتين من لايم لم تعرف آن كيف وصلتَ إليها، وفيهما أخبارٌ عن تحسُّن حالة لويزا بدرجةٍ كبيرة. بنهاية تلك الفترة، لم تعد الليدي راسيل تستطيع تأجيل ما يحتمُّه عليها الواجب، واصطبغت نبرتها بالحسم وهي تعلن قائلةً: «يتعيَّن عليّ الذهاب لزيارة السيِّدة كروفت. حقًّا، يجب أن أذهب لزيارتها قريبًا. آن، هل لديك ما يكفي من الشَّجاعة لمرافقتي في زيارة ذلك المنزل؟ سيكون الأمر شاقًّا لكنينا».

لم تحاول آن تفادي الأمر. بل على النقيض، كان شعورها مطابقًا لقولها بالفعل:

«أعتقد أنّك ستألِّمين أكثر منِّي، فما تزال مشاعرك لا تتقبَّل التَّغيير الذي حدث بدرجةٍ أكبر من مشاعري أنا. فقد اعتدت الأمر ببقائي في المكان هنا».

كان بوسعها الحديث عن الموضوع باستفاضة أكبر، حيث كانت في الواقع تكن الكثير من التقدير لآل كروفت، وتعدُّ والدها محظوظًا لكونهم هم من استأجر القصر. كما أحسَّت أنَّهم سيمثلون قدوةً حسنةً لسكَّان الأبرشية، وأنَّ الفقراء منهم سيلقون أفضل اهتمامٍ وعون. ومهما بلغت درجة شعورها بالأسف والنَّدَم على الظروف التي حتمت عليهم الرِّحيل، لم يكن بوسعها سوى الاعتراف بأنَّ من رحلوا لم يكونوا يستحقُّون البقاء، وأنَّ قصر كيلينتش صار بين أيدي من يستحقُّونه أكثر من مالكيه. ولا بدَّ أنَّ قناعتها هذه كانت سببًا في شعورها بالألم الشديد، ولكنَّ هذه القناعة نفسها كانت مبررًا لنفي الحاجة إلى الشُّعور بالألم الذي سينتاب الليدي راسيل حين تدخل القصر مرَّةً أخرى وتعود لزيارة غرفه التي تعرفها جيِّدًا.

في مثل هذه اللَّحظات لم تكن آن تستطيع أن تحدِّث نفسها قائلةً: «يجب أن يكون هذا القصر لنا وحدنا! لكم تدهور به الحال! وكيف صار يقطنه من لا يستحقُّه؟ وكيف صارت أسرةً عريقةً مشرَّدةً هكذا، وقد احتلَّ مكانها غرباء؟». لم تكن تتنهَّد بحسرةٍ هكذا إلَّا حينما تفكَّر في والدتها وتذكَّر الأماكن التي كانت تجلس وتقيم فيها.

كانت السيِّدة كروفت تستقبلها دائماً بلطفٍ جعلها تشعر بالسَّعادة لاعتقادها أنَّها الأثيرة لديها. وفي تلك المناسبة بالتَّحديد، أولَّتها عنايةً فائقةً وهي تستقبلها في القصر.

ما لبث الحادث المؤسف في لايم أن صار موضوع الحديث الرَّئيس. وعند مقارنة الأخبار الأخيرة التي وصلتَهما بخصوص المريضة، اتَّضح أنَّ كلا السيِّدتين وصلتَهما الأخبار في السَّاعة نفسها من صباح يوم أمس، وأنَّ القبطان وينتورث كان في كيلينتش بالأمس (لأوَّل مرَّةٍ منذ وقوع الحادث)، وأنَّه هو من حمل لأن تلك الرِّسالة الأخيرة التي لم تستطع أن تعرف بالضَّبط كيف وصلتَها. بقي لبضع ساعاتٍ قبل أن يعود إلى لايم مرَّةً أخرى، دون أن تكون لديه النِّيَّة للعودة ثانيةً في الوقت الحاضر. عرفت أنَّه سأل عنها هي بالتَّحديد، وعبرَ عن أمله في ألاَّ تكون الآنسة إليوت قد شعرت بالتَّعب بعد الجهد الذي بذلته، وذكر أنَّها بذلت جهداً مضنياً. كان هذا أمراً رائعاً، وأسعدها أكثر من أيِّ شيءٍ آخر تقريباً.

أمَّا بخصوص الحادث المؤسف نفسه، فلم يكن من الممكن مناقشته من قبل سيِّدتين رصينتين عاقلتين سوى من منظورٍ واحدٍ، ذلك أنَّهما بنيتا حكمهما تبعاً لأحداثٍ محدَّدة، وقرَّرتا أنَّ الحادث كان نتيجةً للاستهتار

الشَّدِيد والطَّيِّش البالغ، وأنَّ نتائجهُ مخيفةٌ للغاية. ومن المقلق التَّفكير في الوقت الذي يمكن أن يستغرقه شفاء الآنسة ماسجروف بصورةٍ تامَّةٍ، وفي احتمالات أن تظلَّ تعاني من آثار الارتجاج لاحقًا! لخصَّ الأدميرال الموضوع بأكمله فقال:

«أجل، الأمر سيَّئٌ بالفعل. يا لها من طريقةٍ جديدةٍ يعبرُ بها الشَّابُّ عن حبِّه بأن يتسبَّب في شجِّ رأس محبوبته. أليس كذلك يا آنسة إليوت؟ فقد تسبَّب في جرحها حرفيًا، وسيحاول بعد ذلك مداواتها!».

لم يكن سلوك الأدميرال كروفت من اللّون الذي يناسب الليدي راسيل، ولكنَّه أسعد آن كثيرًا، فقد كانت طيبة قلبه وبساطة شخصيته أمرين لا يُقاومان.

قال هو يستفيق فجأةً من سرحانه: «لا بدَّ وأنَّ الأمر شاقٌّ للغاية بالنسبة إليك، أن تأتي وتجديننا هنا. في الحقيقة لم أفكر في الأمر من قبل، ولكن لا بدَّ وأنَّه شاقٌّ للغاية. بيدَ أنَّه لا يتوجَّب عليك الالتزام بالرَّسميات. بوسعك التَّجول في أرجاء الغرف كلّها إن رغبتِ في ذلك».

«مرّة أخرى يا سيّدي، أشكرك، ليس الآن».

«حسنًا، يمكنك القيام بذلك في الوقت الذي يناسبك. يمكنك المجيء عبر الحديقة، والدّخول في أيّ وقت. وستجدان أنّنا نحفظ بالمظلات معلّقةً بالقرب من ذلك الباب. إنّهُ مكانٌ ملائمٌ لها، أليس كذلك؟ ولكن»، (قطع حديثه)، «ولكنّك لن تعتقدي أنّهُ مكانٌ مناسبٌ؛ فقد كنتم تحتفظون بمظلاتكم في غرفة كبير الخدم. اعتقد أنّ الأمور تجري هكذا دومًا. قد تتلاقى الطُّرق المختلفة، ولكنّ كلّ شخصٍ يفضّل طريقته الخاصّة. لذا، عليك الاختيار بنفسك إنّ كان يناسبك التّجوّل في أرجاء المنزل أم لا».

عندما وجدت أنّ أنّها تستطيع رفض الدّعوة، قامت بذلك وهي توجّه له جزيل الشُّكر.

واصل الأدميرال حديثه بعد التّفكير للحظة، وقال: «وقد أجرينا بعض التّعديلات البسيطة! عددًا قليلًا للغاية. فقد أخبرناك ونحن في أبركروس عن باب غرفة الغسيل. كان هذا تعديلًا بالغ الأهمّيّة. اتّعجب كيف تحمّلت أيّ أسرةٍ على وجه الأرض صعوبة فتحه بهذه الطّريقة طوال تلك المدة! عليك أن تخبري السيّر والتر بما قمنا به، وبأنّ السيّد شيرد يعتقد أنّ هذا

هو أفضل تعديل طراً على القصر على الإطلاق. وفي الواقع سأكون منصفاً إذا قلتُ إنّ التعديلات البسيطة التي أجريناها أسهمت كلها في تحسينه بصورة أفضل. ولكنّ الفضل في ذلك يعود إلى زوجتي. فأنا لم أفعل سوى أقلّ القليل، باستثناء التّخلّص من بعض المرايا الضّخمة الموجودة في غرفة تبديل ملابس، والتي كانت ملكاً لوالدك. أنا متيقّن من أنّه رجلٌ محترمٌ وسيّد نبيلٌ للغاية، ولكنني أعتقد يا آنسة إليوت»، (بدا عليه التّفكير بجديّة)، «أعتقد أنّه مهتمٌّ بأناقته بدرجةٍ مبالغٍ فيها بالنسبة إلى سنّه. يا له من عددٍ ضخّمٍ من المرايا! يا إلهي! لم يكن من الممكن أن يتفادى المرء انعكاس صورته. ولذلك طلبت من صوفي المساعدة، وما لبثنا أن غيّرنا مكانها. والآن لديّ مرآتي الصّغيرة المخصّصة للحلاقة، في أحد الأركان، إلى جانب مرآةٍ أخرى ضخمةٍ لا أقرب منها أبداً».

وجدت أنّ الأمر مسلّياً رغماً عنها، ولكنّها عجزت عن إيجاد جوابٍ، وخشي الأدميرال ألا يكون قد تحلّى بالدّوق بدرجةٍ كافيةٍ، فواصل حديثه قائلاً:

«حين تكتبين خطاباً لوالدك المحترم في المرّة القادمة يا آنسة إليوت، أرجو أن ترسلي إليه تحيّاتي، أنا والسّيّدة كروفت. وأبلغيه أنّنا سعيّدان

بإقامتنا هنا، ولم نجد ما يزعجنا على الإطلاق في هذا المكان. عليّ الاعتراف بأنّ المدخنة في الغرفة التي نتناول فيها طعام الإفطار تسرّب الدخان بعض الشيء، ولكنّ هذا لا يحدث إلّا عندما تهبّ الرّيح بشدّة باتجاه الشّمال، وربّما لا يحدث هذا أكثر من ثلاث مرّات طوال فصل الشّتاء. وبعد أن دخلنا معظم البيوت في المنطقة، وصار بمقدورنا أن نصدر حكماً، فلا يوجد منزل آخر نفصّله أكثر من هذا. أرجو أن تخبريه هذا مع تحيّاتي. سيسعده سماع ذلك».

أعجبت كلّ من اللّيدي راسيل والسّيّدة كروفت إحداهما بالأخرى. ولكنّ معرفتهما - التي بدأت بهذه الزّيارة - لم يقدر لها الاستمرار طويلاً في الوقت الحاضر، فعندما قام آل كروفت برّد الزّيارة، أعلنّا أنّهما سيسافران لبضعة أسابيع لزيارة أقاربهما في شمال البلاد، وفي الغالب لن يعودا قبل ذهاب اللّيدي راسيل إلى باث.

ولذلك لم تعد هناك أيّ فرصة لأنّ تلتقي آن بالقبطان وينتورث في قصر كيلينتش، أو أن تقابله برفقة صديقتها. بدا كلّ شيء آمناً بما فيه الكفاية، وابتسمت عندما تذكّرت كلّ القلق الذي انتابها بخصوص هذا الأمر.

مع أنَّ تشارلز وماري بقيا في لايم بعد رحيل السيّد والسيّدة ماسجروف، لفترة أطول بكثير ممّا كانت آن تعتقد أنّهما في حاجةٍ إلى البقاء هناك، كانا أوّل من عاد إلى المنزل من أفراد الأسرة. وبعد عودتهما إلى أبركروس، استقلّا العربة متّجهين إلى منزل الليدي راسيل في أسرع وقتٍ ممكن. تركا لويزا وقد بدأت تجلس قائمةً، ولكنّها كانت عرضةً للإصابة بالدوار رغم صفاء ذهنها، كما كانت أعصابها في غاية الحساسيّة. ومع أنّها كانت بخيرٍ في المجل، إلا أنّه كان ما يزال من الصّعب تحديد متى يمكنها أن تتحمّل الحركة كي تعود إلى المنزل. ولم يكن لدى والدها ووالدتها - اللّذين تعيّن عليهما أن يعودا إلى المنزل لاستقبال أبنائهما الأصغر سنًا العائدين لقضاء إجازة الكريسماس - أيُّ أملٍ تقريبيًا في أن يتمّ السّماح لهما باصطحابها معهما.

كان الجميع قد أقاموا معًا في منزلٍ مستأجر. كما استضافت السيّدة ماسجروف أطفال السيّدة هارفيل بقدر ما استطاعت، وجلبوا كلّ الإمدادات الممكنة من أبركروس لتخفيف العبء عن آل هارفيل، في حين

أراد آل هارفيل دعوتهم لتناول الغداء كلَّ يوم. باختصارٍ، بدا أنَّ الطَّرفين كانا يتنازعان من منهما يمكنه أن يكون أكثر شهامةً وكرماً.

عانت ماري بعض المتاعب، ولكن بصفةٍ عامَّةٍ، أثبتت من خلال طول إقامتها هناك أنَّها استمتعت أكثر ممَّا عانت. فقد حضر تشارلز هايتز إلى لايم مرَّاتٍ عدَّةٍ، بقدرٍ أكبر ممَّا كان يلائمها، وعندما كانوا يتناولون الغداء مع آل هارفيل، لم تكن هناك سوى خادمةٍ واحدةٍ للقيام بخدمتهم. وفي بادئ الأمر كانت السيِّدة هارفيل دوماً تمنح السيِّدة ماسجروف مكان الصِّدارة، ولكنَّ ماري ما لبثت أن تلقَّت منها اعتذاراً وافراً حين عرفت من يكون والدها. كانت هناك الكثير من الأحداث التي تقع كلَّ يوم، كما خرجوا للتَّنزه كثيراً من منزلهم المستأجر حتى سكن آل هارفيل، وجلبت هي الكتب من المكتبة، واستبدلتها كثيراً بحيث صارت الكفَّة تميل بلا شكَّ لصالح لايم. كما ذهبت إلى تشارموث أيضاً، وسبحت في البحر، وذهبت إلى الكنيسة حيث كان هناك عددٌ من النَّاس لتتأملهم في الكنيسة في لايم أكبر بكثيرٍ ممَّا في أبركروس. وقد جعلها كلُّ هذا، إلى جانب شعورها بأنَّ وجودها مفيدٌ للغاية، تقضي أسبوعين ممتعين للغاية.

سألت آن عن القبطان بينيك. فتجهّمت ملامح ماري على الفور، وضحك تشارلز.

«أوه! أعتقد أنّ القبطان بينيك بخير. ولكنّه شابٌّ غريب الطّباع للغاية. لا أستطيع أن أفهمه. طلبنا منه أن يأتي بصحبتنا ليومٍ أو يومين، وعرض عليه تشارلز أن يصطحبه للصّيد، فبدأ عليه الشّعور بالسّعادة. ومن جانبي اعتقدت أنّهما اتّفقا على الأمر. ولكن انظري ما حدث! في مساء يوم الثلاثاء، تحجّج بعذرٍ غريبٍ للغاية، وقال إنّّه لم يسبق له أن ذهب للصّيد من قبل، وإنّ في الأمر سوء تفاهم، وإنّه قطع وعودًا بالتزاماتٍ مختلفة. في نهاية المطاف اكتشفت أنّه لا ينتوي المجيء. أعتقد أنّه خشي أن يشعر بالملل هنا. ولكن أظنّ أن روح المرح تعمُّ بيننا في الكوخ بما فيه الكفاية بالنّسبة إلى رجلٍ كسير القلب مثل القبطان بينيك».

ضحك تشارلز مرّةً ثانيةً وقال: «حسنًا يا ماري، أنت تعرفين جيّدًا حقيقة الوضع. فأنت السّبب في ذلك (موجّهًا الحديث لآن)، فقد كان يعتقد أنّه إن أتى بصحبتنا سيحدثك في مكانٍ قريب. فقد ظنّ أنّ الجميع يقطنون في أبركروس. ولكن ما إن اكتشف أنّ الليدي راسيل تسكن على مبعدة ثلاثة

أُميَالٍ حتَّى فقد حماسه ولم يتشجّع على الحضور. هذه هي الحقيقة، بشرفي. وماري تعرف هذا».

ولكنَّ ماري لم تقرّ بالأمر بسهولة. كان على المرء أن يحزر إن كان ذلك لأنّها لا تعدُّ القبطان بينك ذا حسبٍ ومكانةٍ يؤهّلانه للوقوع في حبٍّ آن إليوت، أو لأنّها لا ترغب في تصديق أنّ آن تمثّل سبباً أكبر جاذبيّةً للحضور إلى أبركروس منها هي نفسها. ولكنَّ مشاعر آن الطيّبة لم تتأثّر بما سمعته، وأعلنت بجرأةٍ أنّها تشعر بالإطراء، وواصلت أسئلتها.

«صاح تشارلز قائلاً: «أوه! إنّهُ يتحدّث عنك بطريقةٍ...». قاطعته ماري قائلةً: «حقّاً يا تشارلز، لم أسمعهُ يذكر اسم آن مرّتين طوال الوقت الذي قضيته هناك. حقّاً يا آن، فهو لا يتحدّث عنك البتّة».

اعترف تشارلز قائلاً: «لا، لا أعتقد عموماً أنّه يفعل ذلك. ولكن يبدو من الواضح جدّاً أنّه معجبٌ بك للغاية. فعقله مشغولٌ ببعض الكتب التي يقرأها بناءً على توصيةٍ منك، وهو يرغب في مناقشتها معك. فقد وجد شيئاً ما في أحدها يعتقد، أوه! لا يمكنني التّظاهر بأنني أتذكّر الأمر، ولكنّه كان شيئاً رائعاً للغاية، وقد سمعته يخبر هينرييتا عنه. ثمّ تحدّث بعدئذٍ عن «الآنسة

إليوت» بكلّ تقدير. حسنًا يا ماري، أوكد أنّ هذا ما حدث، وقد سمعته بنفسي، بينما كنت أنت في الغرفة الأخرى. «الأناقة واللطف والجمال».

أوه! لا يوجد حدّ لما ذكره عن جاذبيّة الأنسة إليوت».

صاحت ماري بحرارة قائلةً: «وأنا واثقة أنّ هذا يسيء إليه إن كان قد قال ذلك بالفعل. فقد توفّيت الأنسة هارفيل في شهر يونيو الماضي فحسب. وقلبٌ كهذا لا يستحقّ الفوز به، أليس كذلك يا ليدي راسيل؟ أنا واثقة أنّك ستتفقين معي في الرّأي».

ابتسمت الليدي راسيل، وهي تقول: «لا بدّ وأن أرى القبطان بينيك قبل أن أقرّر».

قال تشارلز: «وبوسعي أن أقول لك إنّك ستريه قريبًا جدًّا يا سيّدي. فمع أنّه لم يتحلّ بالشّجاعة الكافية كي يأتي معنا، ثمّ كي يأتي بعد ذلك في زيارةٍ رسميّةٍ إلى هنا، إلّا أنّه سيحضر إلى كيلينتش بمفرده ذات يوم. يمكنك أن تثقي في ذلك. فقد أخبرته عن المسافة والطريق، كما أخبرته أنّ الكنيسة تستحقّ الزيارة. فهو يهتمّ بمثل تلك الأشياء. ظننت أنّ هذا قد

يكون سبباً ملائماً للزيارة، واستمع هو إليّ بكلّ تركيزٍ واهتمام. وأنا واثقٌ من سلوكه هذا أنّه سيأتي للزيارة قريباً. لذا أحيطك علماً يا ليدي راسيل». «.

ردّت الليدي راسيل بلطفٍ قائلةً: «أيُّ شخصٍ من معارف آن سيكون دائماً مرحّباً به لديّ».

قالت ماري: «أوه! بخصوص كونه من معارف آن، أعتقد أنّه من معارفي أنا، فأنا التقيته كلّ يومٍ خلال الأسبوعين الماضيين».

«حسنًا، بصفته من معارفكما المشتركين، سيسعدني للغاية أن ألتقي القبطان بينيك».

«أؤكّد لك يا سيّدي أنّك لن تجدي فيه أيّ شيءٍ جدّاب. فهو من أكثر الشّباب الذين عاشوا على هذه الأرض إثارةً للملل. فأحياناً يسير بجواري من أحد طرفي الشّاطئ حتى الطّرف الآخر دون النّطق بكلمةٍ واحدة. فهو ليس شابّاً مهذبّاً على الإطلاق. وأنا واثقةٌ من أنّه لن يروق لك».

قالت آن: «أختلف معك في هذا يا ماري. أعتقد أنه سيروق لليدي راسيل. أظن أنها ستعجب بعقليته كثيرًا، لدرجة أنها لن تلحظ أي عيب في سلوكه».

قال تشارلز: «وأنا كذلك يا آن. أنا واثق من أن الليدي راسيل ستعجب به. فهو من الطراز الذي يروق لليدي راسيل. أعطه كتابًا، وسيظل يقرأ طوال اليوم».

صاحت ماري بتهكم: «أجل، سوف يفعل ذلك بالفعل! سيجلس مركّزًا على كتابه دون أن يعي أن هناك من يبادلّه الحديث، أو دون أن ينتبه إلى أن المرء قد أسقط المقص الذي معه، أو أن أي شيء آخر قد حدث. هل تعتقد أن ذلك سوف يروق لليدي راسيل؟».

لم تستطع الليدي راسيل أن تمنع نفسها من الضحك. قالت: «يا للعجب. لم أكن أتوقع أن رأيي في شخص ما قد يكون محل خلاف هكذا، إذ إنني أعد نفسي ذات شخصية واضحة وصريحة. لدي فضول حقيقي لرؤية الشخص الذي أثار آراءً متضاربةً هكذا. وددت لو أنه اقتنع

بزيارتنا هنا. وعندئذٍ يا ماري ثقي أنك ستعرفين رأيي. ولكنني عزمت على ألا أطلق عليه حكمًا مسبقًا».

«لن يروق لك. وأنا أتحمل مسؤولية قولِي هذا».

شرعت الليدي راسيل في الحديث عن موضوع آخر. وتحدثت ماري بحماسٍ عن لقائهم، أو بالأحرى عدم لقائهم، بالسيد إليوت بتلك الطريقة الغريبة.

قالت الليدي راسيل: «إنه رجلٌ لا توجد لديّ أدنى رغبةٍ في رؤيته. فقد خَلَفَ لديّ انطباعًا سيئًا للغاية عنه بسبب رفضه الحفاظ على علاقاتٍ طيبةٍ مع كبير أسرته».

تسبب حزم الليدي راسيل في الحدّ من حماس ماري، وجعلها تقطع حديثها عن تشابه ملامح آل إليوت.

أمّا بخصوص القبطان وينتورث، فمع أنّ آن لم تجازف بالقاء أيّ سؤالٍ، إلّا أنّها تلقت معلوماتٍ كافيةً عنه نطقوا بها طواعية. ارتفعت روحه المعنوية

إلى حدٍّ كبيرٍ أخيرًا، كما هو متوقَّع. فمع تحسُّن حالة لويْزَا، تحسَّنت روحه المعنويَّة. وصار الآن مختلفًا تمامًا عمَّا كان عليه خلال الأسبوع الأوَّل. لم ير لويْزَا، وكان يخشى للغاية أن تقع أيُّ عواقب غير محمودَةٍ في حال لقائهما، حتى إنَّه لم يلحح في الأمر. بل على النقيض، بدا أنَّه يخطِّط للسَّفر لمُدَّة أسبوعٍ أو عشرة أيَّامٍ حتى يتمَّ شفاؤها. تحدَّث عن رغبته في الدَّهاب إلى بليموث لقضاء أسبوعٍ هناك، وأراد أن يقنع القبطان بينيك بمرافقته. ولكن كما ظلَّ تشارلز مصمِّمًا حتى النِّهاية، بدا أنَّ القبطان بينيك يميل أكثر إلى المجيء إلى كيلينتش.

لم يكن هناك شكٌّ في أنَّ كلاً من اللِّيدي راسيل وآن قد انشغلتا بالتَّفكير في القبطان بينيك من وقتٍ لآخر منذ ذلك الحين. لم تكن اللِّيدي راسيل تسمع صوت جرس الباب دون أن تظنَّ أنَّه ربَّما كان رسولًا قادمًا من طرفه، ولم تكن آن تعود من التَّنزه بمفردها في أرض والدها، أو من أيِّ زيارةٍ خيريَّةٍ لها في القرية، دون أن تتساءل عمَّا إذا كانت ستلتقيه أو تسمع أخبارًا عنه. ولكنَّ القبطان بينيك لم يأت. إمَّا إنَّه كان أقلَّ حماسًا للأمر ممَّا افترض تشارلز، وإمَّا إنَّه كان يشعر بالخجل.

وبعد أن منحته فرصةً أسبوعٍ، قرَّرت اللِّيدي راسيل أنَّه لا يستحقُّ الاهتمام الذي أثاره.

عاد آل ماسجروف لاستقبال أولادهما وبناتهما السُّعداء العائدين من المدرسة، وجلبا معهما أطفال السيِّدة هارفيل لإضفاء المزيد من الحياة على أبركروس، ولتقليل الضَّجيج في لايم. بقيت هينرييتا إلى جانب لويزا، ولكن باقي أفراد الأسرة جميعهم عادوا مرَّةً أخرى إلى سكنهم المعتاد.

ذهبت كلُّ من الليدي راسيل وآن لزيارتهم مرَّةً، وشعرت آن أنَّ الحياة عادت إلى أبركروس من جديد. ومع أنَّ أيَّا من هينرييتا ولويزا وتشارلز هاتير والقبطان وينتورث لم يكن هناك، إلَّا أنَّ الغرفة بدت على النَّقيض تمامًا من حالها في المرَّة الأخيرة التي كانت عليها عندما رأتها.

أحاط أطفال آل هارفيل بالسيِّدة ماسجروف التي كانت تحميمهم باستمرارٍ من مضايقات الطِّفلين القادمين من الكوخ، واللَّذين أتيا خصيصًا لتسليتهم. وعلى أحد جوانب الغرفة كانت هناك طاولةٌ تشغلها بعض الفتيات اللَّاتي أخذن يتبادلن الثَّرتة، بينما انشغلن بقصِّ الحرير والورق المذهَّب. وعلى الجانب الآخر، كانت هناك حوامل وصواني تنوء تحت ثقل حملها من الأطباق المصنوعة من لحم الخنزير والفطائر الباردة، حيث كان الصِّبية المشاغبون يمرحون. واكتملت صورة الكريسماس بوجود نيرانٍ مضطربةٍ في المدفأة علا صوتها بالرَّغم من الضَّجيج الذي أثاره الآخرون. وجاء تشارلز،

وماري أيضاً بالطَّع، في أثناء زيارتهما. اهتَمَّ السَّيِّد ماسجروف بالترَّحيب بالليدي راسيل، وجلس بالقرب منها عشر دقائق وهو يتحدَّث بصوتٍ مرتفعٍ للغاية بسبب ضجيج الأطفال الجالسين على ركبتيه، ولكن كانت محاولاته في المَجمَل دون جدوى. بدت صورةً عائليَّةً رائعة.

وكانت آن - بحكم طبيعتها الشَّخصيَّة - ترى أنَّ مثل هذا الضَّجيج الأَسْرِي لا يساعد على تعافي الأعصاب التي لا بدَّ وأنَّها اضطربت كثيرًا في حالة لويزا. ولكنَّ السَّيِّدة ماسجروف التي تعمَّدت أن تُجلس آن بجوارها كي تكرِّر بوذِّ بالغٍ شكرها على كلِّ جهدها المبذول معهم، أنهت حديثها الذي لَخَّصت فيه ما عانته هي نفسها بأن قالت، وهي تجول بنظرها بسعادةٍ في أرجاء الغرفة، إنَّه بعد كلِّ ما عانته لم يكن هناك شيءٌ كفيلاً بأن يفيدَها مثل بعض البهجة البسيطة في المنزل.

أخذت لويزا تتعافى بسرعةٍ الآن، حتى إنَّ والدتها كانت تعتقد أنَّه ربَّما يمكنها أن تنضمَّ إليهم في المنزل قبل أن يعود أشقاؤها وشقيقاتها إلى المدرسة مرَّةً أخرى. كان آل هارفيل قد وعدوا بأن يأتوا معها، وقيموا في أبركروس، عندما تعود في أيِّ وقت. ورحل القبطان وينتورث في الوقت الحالي ليزور شقيقه في شروبشير.

ما إن جلستا في العربة حتى قالت الليدي راسيل: «أتمنى أن أتذكر مستقبلاً ألا أذهب لزيارتهم في أبركروس في وقت إجازة الكريسماس».

لكل شخص ذوقه الخاص فيما يتعلق بالضجيج، وبالأشياء الأخرى بصفة عامة. والأصوات تكون إما غير مؤذية وإما مزعجة للغاية، تبعاً للكيف أكثر ممّا تبعاً للكم. ولذا، عندما ذهبت الليدي راسيل بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ إلى باث في عصر يومٍ ممطرٍ، ومَرَّت بين الشوارع الطويلة المؤدية من الجسر القديم إلى كامدن بليس، وسط العربات المسرعة الأخرى، وضجيج العربات المحملة بالبضائع، وصياح باعة الصحف وباعة المخبوزات وباعة الحليب، وطققة القباقيب (6) التي لا تنتهي، لم تصدر عنها أيُّ شكوى. لا، فهذا الضجيج كان يعدُّ جزءاً من تسليتها في فصل الشتاء، وكانت روحها المعنوية ترتفع تحت تأثيره. ومثل السيّدة ماسجروف، شعرت دون أن تصرّح بذلك مباشرةً، بأنّه بعد بقائها لفترةٍ طويلةٍ في الرّيف لم يكن هناك شيءٌ يمكن أن يفيدّها مثل بعض البهجة البسيطة.

لم تشاركها آن هذا الشعور. صمّمت على نفورها الصّامت من باث. لمحت أوّل مشهدٍ باهتٍ لمبانيها المعتمة الممتدة وسط المطر دون أيّ رغبةٍ من جانبها في أن تراها بوضوحٍ أكبر. وشعرت أنّه مهما كان الطريق

منقراً، فقد كان تقدّمهما وسط الشوارع سريعاً للغاية، فمن ذاك الذي سيشعر بالسعادة لرؤيتها عندما تصل؟ وتذكرت بمحبّة وشوقٍ ضجيج أبركروس وهدوء كيلينتش.

كانت قد وصلتها بعض الأخبار المثيرة للاهتمام في رسالة إليزابيث الأخيرة مفادها أنّ السيّد إليوت كان موجوداً في باث، وقام بزيارة كامدن بليس. وكرّر الزيارة لمرة ثانية وثالثة، وحرص على مجاملتهما. وفي حال لم تكن إليزابيث ووالدها مخطئين، فقد بذل جهداً كبيراً للتعرّف عليهما وإعلان أهميّة الصّلة بينهما، بنفس القدر الذي سبق وأن أهمل به العلاقة من قبل. لو صحّ هذا الأمر لكان رائعاً للغاية. وشعرت الليدي راسيل بتحيّرٍ وفضولٍ بالغٍ حيال السيّد إليوت، وتراجعت عن شعورها الذي ذكرته لماري من قبل عندما قالت «إنّه رجلٌ لا توجد لديها أدنى رغبةٍ في رؤيته». فقد صارت لديها رغبةٌ كبيرةٌ في رؤيته. فإن كان يرغب حقّاً في العودة كفرع يدين لهم بالولاء، إذن عليهم أن يصفحوا عمّا اقترفه من قبل عندما انفصل عن الشجرة الأصل.

لم تشعر آن بحماسٍ مماثلٍ حيال الأمر. ولكنّ شعورها بالرغبة في رؤية السيّد إليوت مرةً أخرى كان يفوق رغبتها في عدم رؤيته، وكان هذا يفوق شعورها حيال العديد من الأشخاص الآخرين في باث.

نزلت في كامدن بليس، واتَّخذت بعدئذٍ اللّيدي راسيل الطّريق المؤدّية إلى سكنها في شارع ريفرز.

(6) كان يتمُّ انتعال القباقيب المشبّعة على الأحذية لرفعها عن مستوى ماء المطر المتساقط في الشّوارع.

سكن السَّير والتر في منزلٍ جيّدٍ للغاية في كامدن بليس، وهو مكانٌ فخْمٌ ومرموقٌ يليقُ برجلٍ ذي منزلةٍ اجتماعيّةٍ رفيعة. استقرَّ هو وإليزابيث هناك، وشعرا بالرّضا عن المكان.

دخلت آن وقلبها مليءٌ بالحزن لتوقّعها أن تظلَّ حبيسةً لأشهرٍ طويلةٍ هناك. حدّثت نفسها بقلقٍ قائلةً: «أوه! متى سأغادر هذا المكان ثانية؟». ولكنَّ التّرحيب الودّيّ غير المتوقّع الذي لاقته حسنٌ من مزاجها. شعر والدها وشقيقتها بالسّعادة لرؤيتها، إذ كانا يرغبان في اصطحابها لكي تشاهد المنزل والأثاث، واستقبلاها بودٍّ. كما أشارا إلى أنّ انضمامها إليهم كفرٍ رابعٍ على مائدة الغداء امتيازٌ من الامتيازات.

بدت السيّدة كلاي في غاية اللّطف وقد ارتسمت على شفيتها ابتسامةٌ، ولكنَّ انحناءها وتبسّمها كانا بحكم سلوكها المعتاد. لطالما توقّعت أنّ أنّها ستُظهر السُّلوك المهدّب المتوقّع عند وصولها، ولكنَّ السُّلوك اللّطيف الذي أظهره الباقون لم يكن متوقّعاً. بدا من الواضح أنّ معنويّاتهما كانت مرتفعةً، وما لبثت أن سمعت السّبب وراء ذلك. لم يكن لديهما أدنى رغبةٍ

في الاستماع إليها. حاولا أن يحصلتا منها على المجاملات حول افتقاد سَكَن حَيَّهما القديم لهما، وبعد أن فشلت آن في منحهما تلك المجاملات، لم يعد لديهما سوى القليل من الأسئلة لها قبل أن يتسلَّما هما دَقَّة الحديث. لم تثر أبركروس اهتمامهما على الإطلاق، واستحوذت كيلينتش على أقلِّ القليل من اهتمامهما، وبدأ أنَّ كلَّ ما كان يشغلها هو باث فحسب.

شعرا بالسَّعادة وهما يؤكِّدان لها أنَّ باث قد وافقت كلَّ توقُّعاتهما من جميع النَّواحي. ولم يكن هناك أدنى شكٍّ في أنَّ منزلهم هو أرقى منازل كامدن بليس. وكانت لغرف الاستقبال لديهم ميزات واضحةٌ تفوق كلَّ تلك الأخرى التي سمعا عنها أو شاهداها، كما كانوا يفوقون غيرهم في طراز الأثاث وذوقه. سعى الجميع بدأبٍ للتَّعرُّف عليهما، وأراد الجميع زيارتهما. امتنعا عن التَّعرُّف على العديد من النَّاس، ومع ذلك، كانا ما يزالان يتلقَّيان الكثير من البطاقات الشَّخصيَّة الخاصَّة بأناسٍ لا يعرفان عنهم أيَّ شيءٍ على الإطلاق.

كانت هذه مصادر سعادةٍ بالنَّسبة إليهما! ولذلك لم تتعجَّب آن من ابتهاج والدها وشقيقتها. ومع أنَّها لم تتعجَّب للأمر، إلَّا أنَّها تنهَّدت حين

وجدت أنَّ والدها لم يشعر بأيِّ غضاظةٍ في هذا التَّغيير، ولم يبد عليه أيُّ ندمٍ لتخلّيه عن واجبات ومكانة مالك الأرض القاطن في أملاكه، ولأنَّه وجد الكثير ممَّا يمنحه الشُّعور بالفخر في مثل هذه البلدة الصَّغيرة. ولم يكن أمامها سوى أن تنتهِّد وتبتسم، وأن تتعجَّب أيضًا، كيف أنَّ هذه المرأة التي كانت فيما مضى سيِّدة قصر كيلينتش، باتت تتباهى الآن بالمسافة الفاصلة بين جدارين، والتي لا تتعدَّى نحوَ ثلاثين قدمًا، حين فتحت إيزابيث الباب المنزلق، وسارت بسعادةٍ بالغَةِ بين غرفة استقبالٍ وأخرى وهي تتفاخر باتِّساع المكان.

ولكن لم يكن هذا وحده السَّبب وراء سعادتهما. فقد كان السيِّد إليوت أيضًا من بين تلك الأسباب. استمعت آن إلى الكثير عن السيِّد إليوت. فهما لم يصفحا عنه فحسب، بل أصبحا معجَّبين به أيما إعجاب. صار له أسبوعان في باث (كان قد مرَّ بباث في شهر نوفمبر، في طريقه إلى لندن، حين وصلته الأخبار عن استقرار السيِّر والتر هناك، مع أنَّه لم يكن قد قضى أكثر من أربعٍ وعشرين ساعةً في المكان. ولكنَّه لم يتمكَّن من التَّأكُّد من تلك الأخبار). ولكن ها قد صار له أسبوعان في باث، وكان أوَّل ما فعله عند وصوله أن ترك بطاقته الشَّخصيَّة في كامدن بليس. تلا ذلك بجهودٍ حثيثةٍ لترتيب اللِّقاء. وعندما التقوا بالفعل، أبدى صراحةً متناهيَّةً واستعدادًا

للاعتذار عن الماضي واهتمامًا بإعادة العلاقات بهم مرةً أخرى، حتى عاد التفاهم التَّامُّ ليسود بينهم من جديد.

لم يجدا به أيَّ عيب. وقد أوضح بدوره لهما كلَّ ما عدَّاه إهمالًا متعمَّدًا من جانبه. كان الأمر برمَّته سوء تفاهم. فهو لم يتعمَّد أبدًا قطع الصَّلات، بل اعتقد أنَّهم هم من قطعوا صلتهم به، دون أن يعرف السَّبب، ومنعته طبيعة الموضوع الحسَّاسة من الحديث. وحين لمَّحَا إلى أنَّه تحدَّث عن الأسرة، وعن شرف الأسرة، دون احترام، أو دون اكتراثٍ، شعر بالإهانة إلى حدِّ كبير، هو الذي طالما تفاخر بكونه ينتمي إلى آل إليوت، والذي كانت مشاعره حيال صلة القرابة تلك من القوَّة بحيث لا تتلاءم مع الجوّ العامَّ السَّائد آنذاك والمناهض للإقطاعيَّة! انتابته الدَّهشة لدرجةٍ كبيرة! ولكن لا بدَّ وأن تنفي عنه شخصيَّته وسلوكه العامُّ تلك التُّهمة. وكان بوسعهِ أن يجعل جميع من يعرفونه يشهدون أمام السَّير والتر. وبالتَّأكيد فإنَّ الجهد الذي تكبَّده من أجل هذا الأمر، عند أوَّل فرصةٍ للتَّصالح وإعادة الصِّلَة بصفته من الأقارب والوريث المنتظر، كان دليلًا قويًّا يثبت موقفه حيال الموضوع.

كما أنَّ الطُّروف المحيطة بزواجه أوجدت له، هي الأخرى، الكثير من المبرَّرات. لم يفتح هو الموضوع بنفسه، ولكنَّ من قام بذلك هو أحد

أصدقائه المقرّبين للغاية، الكولونيل واليس، الذي كان رجلاً محترماً للغاية وسيّداً نبيلاً (وأضاف السيّر والتر قائلاً إنّه يتمتّع كذلك بحسن المظهر). كان يحيا بمستوى جيّد للغاية في مساكن مارلبورو، وبناءً على طلبه هو تعرّف عليهم من خلال السيّد إليوت، وذكر بضعة أشياء تتعلّق بذلك الزّواج، فأسهّم إلى حدّ كبير في التّخفيف من استنكارهم له.

كان الكولونيل واليس يعرف السيّد إليوت منذ فترة طويلة، كما كان يعرف زوجته أيضاً بصورة جيّدة، وكان يعرف الحكاية بأكملها. بالتّأكيد لم تكن امرأة من أسرة معروفة، ولكنّها كانت متعلّمة تعليماً جيّداً، وكانت تتمتّع بالمهارة والثّراء، وواقعةً في حبّ صديقه إلى حدّ كبير. وهنا كان مكمّن الجاذبيّة، إذ إنّها هي من سعت خلفه. فمن دون تلك الجاذبيّة، لم يكن من الممكن أن يهتمّ إليوت بكلّ أموالها. وإلى جانب ذلك، تأكّد السيّر والتر من أنّها كانت امرأةً فائقة الجمال. خفّف كلّ هذا من حدّة الأمر. كانت امرأةً بالغة الجمال، وذات ثروة طائلة، وقد وقعت في حبّه! بدا أنّ السيّر والتر تقبّل هذا بصفته اعتذاراً تامّاً. ومع أنّ إليزابيث لم تتمكّن من النّظر إلى تلك الظّروف بعين الرّضا، إلّا أنّها عدّتها ظروفًا تخفّف من حدّة الوضع.

زارهما السيّد إليوت أكثر من مرّة، وتناول معهما الغداء في إحدى المرات. بدا واضحاً أنّه شعر بالسعادة لتلقّيه تلك الدّعوة المميّزة، فهما لم يكونا يقيمان مآدب الغداء بصفة عامّة. باختصارٍ، بدا سعيداً بكلّ لفتة تؤكّد أواصر الصّلة بينهم، وعلّق سعادته الثّامّة على بقاء دفء العلاقة بينه وبينهم في كامدن بليس.

استمعت آن إلى الحديث دون أن تفهم مقاصده تماماً. كانت تعلم أنّها لا بدّ وأن تتلمّس العذر للمتحدّثين بسبب الأفكار التي يحملانها، وأنّ ما سمعته خضع للمبالغة بصورة كبيرة. كما أنّ كلّ ما بدا مبالغاً فيه، أو غير منطقيّ في عمليّة التّصالح هذه، ربّما لم يكن له أيّ أصلٍ من الصّحّة سوى في حديث من نطقا به. ولكن مع ذلك، راودها شعورٌ بأنّ هناك شيئاً آخر خفياً أكثر من مجرّد ما هو ظاهرٌ للعيان، وراء رغبة السيّد إليوت بعد كلّ هذه السّنوات في إعادة الصّلات الطّيبة معهم. من وجهة النّظر المنطقيّة، لم يكن لديه ما يجنيه من علاقته الطّيبة بالسّير والتر، ولا ما يخسره من خلافه معه. وفي الغالب كان هو الأكثر ثراءً بين الاثنين، كما أنّه من المؤكّد أنّ ملكيّة كيلينتش ستؤول إليه مع اللّقب في نهاية المطاف. يا له من رجلٍ عاقل! وقد بدا عليه بالفعل أنّه رجلٌ متعقّلٌ للغاية، فلم إذن يهّمه الأمر إلى هذا الحدّ؟ لم تستطع التّفكير سوى في جوابٍ واحدٍ، وهو أنّ

إليزابيث قد تكون هي السَّبب. ربَّما كان هناك إعجابٌ متبادلٌ حقًّا من قبل حتى دعتَه الظُّروف والمصادفات لأن يسلك طريقًا مختلفًا. والآن، بعد أن صار بوسعه تحقيق رغباته، ربَّما كان ينتوي أن يخطب ودَّها. كانت إليزابيث بلا شكَّ جميلةً للغاية، وذات سلوكٍ مهذبٍ وراقٍ، وربَّما لم يعرف السيّد إليوت طبيعة شخصيّتها أبدًا لأنَّه لم يعرفها سوى عن بُعد، أيَّام كان لا يزال صغيرًا في السَّنِّ للغاية. أمَّا حكمه على طباعها وتفكيرها الآن عن قربٍ، بعد أن صار أكثر نضجًا، فقد كان هذا أمرًا آخر يستدعي الشعور بالقلق. تمتَّ بشدَّةٍ ألا يكون بالغ الحرص ودقيق الملاحظة إن كان حقًّا يسعى وراء إليزابيث. وكانت إليزابيث نفسها تعتقد هذا، وشجَّعتها على تلك الفكرة صديقتها السيِّدة كلاي كما اتَّضح من النظرات المتبادلة بينهما، في أثناء الحديث عن زيارات السيّد إليوت المتكرِّرة.

ذكرت آن أنَّها لمحتَه في لايم، ولكن لم يكثرثوا كثيرًا لحديثها. «أوه! أجل، ربما كان السيّد إليوت بالفعل». لم يكن أحدٌ منهم متأكَّدًا. «ربَّما كان هو». لم يهتمَّا بسماع وصفها له، فقد كانا يصفانه بنفسهما، وخاصةً السَّير والتر. لقد وصف بدقَّةٍ مظهره الذي لسيّد نبيلٍ، وطابع الرُّقيِّ والأناقة المحيط به، وشكلَ وجهه الحسن، ونظرة التَّعقُّل في عينيه، ولكن في الوقت نفسه، أبدى أسفه لبروز فكِّه السُّفلي الذي كان عيبًا تزايد مع مرور

الزّمن. كما لم يكن بمقدوره أن يتظاهر بأنّ مرور عشر سنواتٍ لم يؤثّر على كلّ شيءٍ في ملامحه، فتغيّرت إلى الأسوأ. بدا أنّ السيّد إليوت يعتقد أنّ السّير والتر احتفظ بشكله تمامًا كما كان منذ أن التقيا آخر مرّة. ولكنّ السّير والتر لم يتمكّن من ردّ المجاملة له، ممّا أصابه بالحرج. ولكنّه لم يكن يتعمّد الاستياء على أيّ حال، فقد كان السيّد إليوت أكثر وسامةً من معظم الرّجال الآخرين، ولم يكن لديه أيّ اعتراضٍ على الظّهور برفقته في أيّ مكان.

تحدّثوا طوال ذلك المساء عن السيّد إليوت وأصدقائه في مساكن مارلبورو. لم يستطع الكولونيل واليس الصّبر حتى تسنح له الفرصة للتّعرّف بهما! واهتمّ السيّد إليوت للغاية بأن يعرّفه بهما! كما كانت هناك زوجة السيّد واليس التي عرفاها من خلال الوصف فحسب، إذ ظلّت حبيسة المنزل لكونها على وشك الولادة. ولكنّ السيّد إليوت تحدّث عنها بوصفها سيّدةً لطيفةً للغاية وتستحقّ أن يتعرّفا بها في كامدن بليس، وسوف يقدّمها إليهما فورَ تعافيهما. صارت السيّدة واليس تتمتع بمكانةٍ كبيرةٍ لدى السّير والتر بعدما شاع عنها أنّها سيّدةٌ فائقة الجمال. تشوّق إلى رؤيتها، وتمنّى أن يعوّض بمرآها الوجوه القبيحة الكثيرة التي ظلّ يمرُّ بها في الطّرقات كلّ

يوم. كان أسوأ ما في باث هو هذا الكم من النساء القبيحات. لم يكن يقصد القول إنه لا توجد أي نساء جميلات على الإطلاق، ولكن عدد القبيحات كان يفوق عددهن بكثير. فعادةً ما لاحظ في أثناء سيره أن وجهًا حسنًا واحدًا ربّما يتبعه ثلاثون أو خمسةً وثلاثون وجهًا قبيحًا. وفي إحدى المرّات، بينما هو واقفٌ في أحد المتاجر في شارع بوند، أحصى ثماني وسبعين امرأة مرّت الواحدة منهنّ تلو الأخرى دون أن يكون هناك بينهنّ ولو وجهٌ واحدٌ تحتمل العين رؤيته. كان نهارًا باردًا، ومن المؤكّد أنّه لم تكن هناك امرأة من بين كلّ ألف امرأةٍ يمكنها تحمّل لسعة البرد القارس تلك دون أن تتأثّر. ولكن مع ذلك، كان هناك - قطعاً - عددٌ وافرٌ من النساء القبيحات في باث. أمّا بالنسبة إلى الرّجال، فقد كان الحال أسوأ بكثير. امتلأت الشوارع برجالٍ بالغي النّحافة كخيال المآتة! ومن خلال التأثير الذي كان يخلفه وجود أيّ شخصٍ ذي مظهرٍ جيّد، بدا من الواضح أنّ النّساء لم تعتدن رؤية أيّ شخصٍ ذي مظهرٍ معقول. لم يذهب إلى أيّ مكانٍ وهو يتأبّط ذراع الكولونيل واليس (والذي كان رجلًا عسكريًا حسن المظهر، بالرّغم من كونه ذا شعرٍ أشقر داكن)، دون أن يلحظ تعلّق عيون جميع النّساء به. كان أمرًا محتومًا أن تتعلّق أعين كلّ السيّدات بالكولونيل والاس. لكم بدا السيّر والتر متواضعًا! ولكنّه لم يفلت بقوله هذا. إذ اتّفقت ابنته والسيّدة كلاي في تلميحاتهما على أنّ مرافق الكولونيل واليس ربّما

كان يتمتع بحسن المظهر تمامًا مثل الكولونيل، وأنه قطعاً لم يكن ذا شعرٍ أشقر داكن.

قال السيّر والتر وهو في قَمّة سعادته: «كيف تبدو ماري الآن؟ ففي آخر مرّة شاهدتها كان أنفها أحمر اللّون. ولكن أرجو ألا يكون هذا هو حالها كلّ يوم».

«أوه! لا، لا بدّ وأنّ هذا كان أمراً عارضاً، فهي تتمتع بصحّة جيّدة إجمالاً، وتبدو بمظهر جيّد للغاية منذ عيد رؤساء الملائكة».

«لكنّ أرسلت لها قُبعةً ومعطفًا جديدين، لولا خشيتي من أن يغيرها الأمر بالخروج في الأجواء العاصفة فيتحول حالها وتصيبها الخشونة والغلظة».

فكرت آن إن كان عليها أن تقترح أن ثوباً أو قلنسوةً لن يكونا عرضةً لإساءة الاستخدام بهذه الطّريقة، حين قطعت بعض الطّرقات على الباب حديثهم. «طرقاتٌ على الباب في وقتٍ متأخّر كهذا!» كانت السّاعة العاشرة. «ترى هل يمكن أن يكون السيّد إليوت؟». كانوا على علمٍ بأنّه

سيتناول الغداء في أحد منازل لانسداون. ولذا، كان من المحتمل أن يمرَّ بهم في طريق عودته إلى منزله ليلقي عليهم التَّحيّة. لم يخطر في بالهم أحدٌ سواه. وشعرت السيّدة كلاي بالثّقة من أنّ السيّد إليوت هو صاحب تلك الطّرقات. واتّضح أنّ السيّدة كلاي كانت محقّة. بكلّ التّبجيل الذي استطاع أن يقدّمه كلّ من كبير الخدم والصّبيّ الذي يعمل خادماً هناك، تمّ اقتياد السيّد إليوت إلى الغرفة.

كان هو الرّجل نفسه دون أيّ اختلافٍ، سوى في الملابس التي يرتديها. تراجعت آن قليلاً إلى الخلف، بينما تلقّى الباكون منه المجاملات، وتلقّت شقيقتها منه اعتذاراً لزيارته إيّاهم في وقتٍ متأخّر كهذا. ولكنّه لم يستطع المرور بالقرب منهم هكذا دون أن يطمئنّ إن كانت هي أو صديقتها قد أصيبتا بالبرد في اليوم السّابق، إلى آخر مثل هذا التّوع من الحديث. دار الحديث بأدبٍ بالغ، وتمّ استقباله بأدبٍ مماثلٍ، حتى صار من الواجب أن يتحوّل الحديث نحوها. تحدّث السيّر والتر عن أصغر بناته: «لا بدّ أن يسمح له السيّد إليوت بأن يعرفه بأصغر بناته»، (لم تكن هناك مناسبة تستدعي أن يتذكّر ماري) وابتسمت آن، وتضرّج وجهها بالحمرة، فأظهرت للسيّد إليوت جمال ملامحها الذي لم يكن قد نسيه. وجد الشّعور بالدهشة الذي انتابه مسلياً، ولاحظ على الفور أنّه لم تكن لديه أدنى فكرة

من قبل عمّن تكون. بدت عليه الدهشة العارمة، ولكنّ سعادته بدت أكبر من دهشته. التمعت عيناه، ورَحِبَ بمعرفتها بكلِّ حماسٍ مشيرًا إلى ماضيه، ورجاها أن تتقبَّل معرفته كأحد الأقرباء. بدا حسن المظهر كما كان في لايم، وقد زاد حديثه من حسن ملامحه. كما أنَّ سلوكه كان مطابقًا لما هو مطلوبٌ تمامًا، وكان راقياً وبسيطاً ومحَبِّاً للغاية. لم يكن بوسعها مقارنته سوى بشخصٍ واحدٍ آخر يضاهي رقيَّ سلوكه. لم يكونا متشابهين، ولكن ربّما كانا على الدَّرَجَة نفسها.

جلس بصحبتهما، وحسّن وجوده من مستوى الحديث المتبادل بدرجةٍ كبيرة. لم يكن هناك أيُّ شكٍّ في كونه رجلاً يتمتّع بالحكمة. كانت عشر دقائق فحسب كافيةً للتأكّد من هذا؛ نبرةً صوته، وتعبيراتُ وجهه، واختياره لموضوعات حديثه، والطريقةُ التي كان يعرف بها متى عليه أن يتوقّف عن الحديث، كان كلُّ ذلك ثمرةً عقلٍ يتمتّع بالحكمة والقدرة على التّمييز. ما إن سنحت له الفرصة حتى أخذ يبادلها الحديث عن لايم، فقد أراد أن يقارن بين رأيه ورأيها بخصوص المكان. ولكن بصفةٍ خاصّةٍ، أراد أن يتحدّث عن الظُّروف التي جمعتهما كنزليّين في النُّزل نفسه في الوقت نفسه، وأن يعرفها بالطريق الذي سلكه هو، ويعرف القليل عن طريقها هي، وأن يبدي أسفه لأنّه لم تتح له الفرصة ليلقي عليها التّحية. حكّت له

باختصارٍ عن المجموعة التي كانت برفقتها، وعمّا حدث في لايم. تزايد شعوره بالأسف وهو يستمع إليها. فقد قضى ليلته بأكملها وحده في غرفته المجاورة لغرفتهم، وسمع أصواتهم، ومرحهم الدائم. واعتقد أنّهم لا بدّ وأن يكونوا مجموعةً من الأشخاص المبهجين للغاية، وتمنّى لو كان برفقتهم. ولكنّه لم يكن يعتقد البتّة أنّ لديه أيّ حقّ في التّعرّف بهم. لو كان فقط استفسر عن هويّة أفراد تلك المجموعة! كان اسم ماسجروف وحده كفيلاً بأن يمدّه بما فيه الكفاية من المعلومات. حسنًا، كان ذلك كفيلاً بجعله يقلع عن تلك العادة الغريبة التي اكتسبها في شبابه، والتي تمنعه من إلقاء أيّ أسئلةٍ في أثناء وجوده في أحد النُزل، إذ كان يعتقد أنّ الفضول سمةٌ لا تليق بسيدٍ نبيل.

قال: «إنّ المعتقدات التي يعتنقها شابٌّ في سنّ الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين، والمتعلّقة بالسلوكيّات التي عليه أن يتّصف بها حتى يتمتّع بالاحترام، فهي أكثر غرابةً على ما أعتقد من معتقدات أيّ أشخاصٍ آخرين في العالم. فحماقة الأساليب التي يلجأون إليها في العادة لا يضاهيها سوى حماقة الأهداف التي يسعون لتحقيقها».

ولكنّه كان يعلم أنّه يتوجّب عليه ألاّ يخصّ آن وحدها بحديثه، ولذلك ما لبث أن وجّه حديثه إلى الآخرين مرّةً ثانية. ولم يستطع أن يوجّه دقّة الحديث نحو لاييم مرّةً أخرى سوى خلال فترات الصّمت التي تخلّلت الحديث.

ولكنّه لم يلبث أن كوّن صورةً من خلال تساؤلاته عمّا انشغلت به هناك بعد رحيله. وبعد أن أشارت إلى وقوع حادثٍ ما، أراد أن يستمع إلى الحكاية بأكملها. وحين طرح عليها السُّؤال، شرع كلّ من السيّر والتر وإليزابيث أيضًا في إلقاء الأسئلة. ولكن كان هناك فارقٌ واضحٌ وملموسٌ في أسلوب كلّ منهم. لم يسعها سوى أن تقارن السيّد إليوت بالليدي راسيل من حيث الرّغبة الحقيقيّة في فهم ما حدث، ومن حيث درجة الاهتمام بما لا بدّ وأنها قد عانت منه حين شهدت ذلك.

بقي معهم لمدّة ساعة. دقّت السّاعة الصّغيرة الأنيقة الكائنة على الرّفّ فوق المدفأة معلنةً الحادية عشرة بصوتها الشّبيه بأجراسٍ من فضّة. وتناهى إلى أسماعهم صوت الحارس الليليّ آتياً من بعيدٍ معلناً الشّيء ذاته قبل أن يشعر السيّد إليوت أو أيّ منهم أنّه قضى وقتاً طويلاً هناك.

لم تكن آن لتعتقد أنّه من الممكن أن تمرّ الأمسية الأولى التي تقضيها في كامدن بليس على نحوٍ طيّبٍ هكذا!

بعد أن عادت آن للانضمام إلى أسرتها، كانت هناك نقطة واحدة أرادت أن تتأكد منها، أكثر حتى مما رغبت في التأكد مما إذا كان السيّد إليوت واقعاً في حبّ إليزابيث، فقد أرادت أن تطمئن أن والدها لا يحبّ السيّدة كلاي. وقد راودها القلق بخصوص هذا الأمر إلى حدّ كبير بعد أن قضت مجرد بضع ساعات في المنزل بعد وصولها. فعندما نزلت لتناول وجبة الإفطار في صباح اليوم التّالي، وجدت أن السيّدة كلاي تظاهرت بأنّها ترغب في الرّحيل. تخيلت أن السيّدة كلاي قالت إنّها الآن، وبعد حضور الأنسة آن، فهي لا تعتقد أن وجودها مرغوب فيه. وكانت إليزابيث تجيب بنبوة تكاد تكون هامسةً وهي تقول: «في الحقيقة هذا لا يُعدُّ سبباً على الإطلاق. أوّكد لك أنني لا أعتقد هذا. فهي لا تساوي شيئاً لديّ مقارنةً بك». ووصلت في الوقت المناسب لسماع والدها يقول: «يا سيّدي العزيزة، لا يجب أن يحدث هذا. فأنت لم تشاهدي أيّ شيء في باث حتى الآن. فقد جئت بصورة أساسيّة لتقديم المساعدة. فلا يجب أن تهربي منّا الآن. بل يجب أن تبقي، وتتعرفّي على السيّدة واليس الجميلة. فأنا على يقين من أنّ مرأى الجمال يمثل متعةً حقيقيّةً لتفكيرك الرّاقى».

حدّثها، ونظر إليها بحماسٍ، لدرجة أنّ آن لم تفاجأ عندما رأت السيّدة كلاي تختلس نظرةً نحوها ونحو إليزابيث. ربّما بدا على ملامحها هي بعض الترقّب، ولكنّ ثناءه على رقيّ تفكيرها لم يبدُ أنّه أثار انتباه شقيقتها على الإطلاق. لم تجد السيّدة بدّاً من الاستجابة لرجائهما المشترك؛ فوعدت بأن تبقى.

في صباح ذلك اليوم نفسه، صادف أن وُجِدَت آن ووالدها معاً وحدهما، فشرع يشي على التّحسّن الذي طرأ على مظهرها. قال إنّهُ يعتقد أنّها تبدو أقلّ نحولاً، وأنّ وجنتيها وبشرتها بدا عليهم التّحسّن إلى حدّ كبير، إذ صاروا أصفى وأكثر نضارةً. وسأل إن كانت تستخدم أيّ منتجاتٍ خاصّة. «لا، لا شيء». قال: «مجرّد جاولاند(7)، على ما أعتقد». «لا، لا شيء على الإطلاق». «ها!». شعر بالدهشة لهذا، وأضاف قائلاً: «يقيناً لا يوجد ما يمكنك أن تفعليه أفضل من الاستمرار كما أنت الآن. فلا يمكن أن تفعلي ما هو أفضل من هذا. أو يمكنني أن أوصيك باستخدام جاولاند باستمرارٍ خلال أشهر الرّبيع. فالسيّدة كلاي صارت تستخدمه بناءً على توصيتي، ويمكنك أن تشاهدي تأثيره عليها. فها أنت ترين كيف أزال التّمش من وجهها».

لو أنَّ إيزابيث سمعت قوله هذا! لربَّما كان مثل هذا الشَّاء الشَّخصيَّ قد لفت انتباهها. خاصَّةً وأنَّ آن لم تلحظ أنَّ النَّمش قلَّ على الإطلاق. ولكن لا بدَّ أن يستغلَّ كلُّ منهم الفرص التي تسنح له. سيقُلُّ الأثر السيِّئ لذلك الزَّواج إلى حدِّ كبيرٍ في حال تزوَّجت إيزابيث أيضًا. أمَّا بالنَّسبة إليها هي، فبوسعها دومًا أن تجد سكناً لها لدى الليدي راسيل.

وقد كان هذا الأمر بمثابة الاختبار لرباطة جأش الليدي راسيل وسلوكها المهدَّب في أثناء تعاملاتها في كامدن بليس. إذ كانت رؤيتها للسَّيدة كلاي وهي تلقى كلَّ هذه المحاباة، بينما آن تعاني من الإهمال، مصدرًا دائمًا للاستفزاز خلال وجودها هناك. كما شكَّل لها ذلك مصدر إزعاجٍ حتى وهي بعيدة عن المكان، بقدر ما كان الوقت يسمح لشخصٍ موجودٍ في باث ومنشغلٍ بشرب المياه المعدنيَّة (8) وقراءة الكتب الجديدة، ولديه دائرة معارف واسعة للغاية، بالشُّعور بالانزعاج.

وعندما تعرَّفت بالسَّيد إليوت بدرجةٍ أكبر، صارت أكثر تسامحًا وأقلَّ اكتراثًا بالآخرين. أعجبت بسلوكه أيما إعجاب. وبعد أن تبادلت معه الحديث، وجدت أنَّ مظهره يتوافق تمامًا مع مخبره، لدرجة أنَّها في البداية وكما أخبرت آن، كادت تقول: «هل يعقل أن يكون هذا هو السَّيد

إليوت؟». ولم تستطع أن تتخيل وجود رجلٍ لطفٍ أو أجدر بالاحترام. فقد اجتمعت فيه كلُّ الصِّفات، من الفهم، وحسن الرّأي، والخبرة في الحياة، ودفء المشاعر. إذ كان شعوره بالانتماء إلى الأسرة، وبشرف الأسرة، قويًّا للغاية، دون كِبَرٍ أو ضعف. كان يحيا بسخاء رجلٍ صاحب ثروة، دون تباهِ، وكان يتخذ قراراته بنفسه، في كلِّ ما هو ضروريٌّ، دون أن يخالف العرف العامَّ في أيِّ شيءٍ متعلِّقٍ بقواعد اللّياقة. كان رصينًا قويًّا الملاحظة، معتدلاً ونزيهاً، ولا يندفع أبداً وراء التّهوُّر أو الأنانيّة التي تصوّر نفسها على أنّها حماسٌ متّقد. وكان يَكُنُّ مشاعر لكلِّ ما هو جميلٌ ويستحقُّ أن يحبّه المرء، ويقدر كلَّ مباحج الحياة الزّوجيّة. وكان من النّادر أن يمتلك أصحاب الشّخصيّات المندفعة وسريعو الاستشارة مثل هذه الصِّفات. شعرت بالثّقة من أنّه لم يكن سعيداً في حياته الزّوجيّة. فالكولونيل واليس قال هذا، كما رأت الليدي راسيل ذلك.

ولكنّ تعاسته لم تتسبّب في إصابته بالمرارة، كما لم (سرعان ما تسرّب إليها الشكُّ في هذا الأمر) تمنعه من التّفكير في الارتباط مرّة ثانية. فاق شعورها بالرّضا حيال السيّد إليوت كلّ شعورها بالانزعاج من السيّدة كلاي.

كانت آن قد عرفت منذ بضع سنواتٍ أنّه يمكنها أحياناً أن تختلف في التفكير مع صديقتها المقرّبة. ولذا، لم تفاجأ حين لم تشعر الليدي راسيل أنّ هناك شيئاً مريباً أو متناقضاً، أو أنّ هناك دوافع خفية وراء رغبة السيّد إليوت القويّة في مصالحتهم. في رأي الليدي راسيل، كان من الطّبيعيّ تماماً أن يشعر السيّد إليوت بالرّغبة الشّديدة في ذلك بعد أن بلغ سنّ النّضج. وكان ما دفعه بصفةٍ عامّةٍ كأيّ شخصٍ عاقلٍ لمصالحة ربّ أسرته هو أبسط شيءٍ في العالم، ألا وهو مرور الزّمن، وأثره الذي خلّفه في عقلٍ يتّصف بالصّفاء، لولا أنّه أساء التّقدير في شرح الشّباب. ولكنّ آن تجاسرت واكتفت بالابتسام وفي نهاية المطاف ذكرت إليزابيث. استمعت الليدي راسيل إليها وهي تنظر نحوها، وردّت بحذرٍ قائلةً: «إليزابيث! حسناً إذن. ستّضح الأمور مع الوقت».

كان في هذا إشارةً إلى المستقبل الذي شعرت آن بعد التفكير لبعض الوقت أنّ عليها أن تخضع له. فلم يكن بوسعها أن تحدّد أيّ شيءٍ في الوقت الحالي. ففي هذا المنزل يجب أن تأتي إليزابيث في المرتبة الأولى. وقد اعتادت هي أن يشير إليها الآخرون بالإجمال على أنّها «الآنسة إليوت»، بحيث صار أيّ اهتمامٍ موجّهٍ إليها، هي على وجه الخصوص، يكاد يبدو مستحيلاً. كما كان على المرء أن يتذكّر أيضاً أنّ السيّد إليوت

فقد زوجته قبل سبعة أشهرٍ فحسب. ولذلك فمن الممكن إيجاد العذر له إن تأخر بعض الشيء في الإفصاح عن نواياه. وفي الواقع، لم تكن آن ترى قماش الكريب (9) المحيط بقبّعته في كلّ مرّة دون أن تعتقد أنّها هي التي لا يوجد لديها أيُّ عذرٍ يدفعها إلى أن تتخيّل أنّه يمكنه التّفكير في مثل هذه الأمور. فمع أنّ زواجه لم يكن سعيدًا، إلّا أنّه استمرّ لسنواتٍ طويلةٍ، بحيث لم تتخيّل أنّه يمكن أن يتعافى سريعًا من الشّعور بالفقد.

وأياً كانت النتيجة التي سيؤول إليها الأمر، فقد كان بلا شكّ ألطف معارفهم في باث. إذ لم تر أيّ شخصٍ يدانيه، وكان يسعدها للغاية أن تبادلته الحديث بين وقتٍ وآخر حول لايم التي بدا عليه أنّه يرغب في زيارتها مرّةً ثانية، وفي رؤية المزيد من معالمها، مثلها هي أيضًا. وقد أعادا الحديث حول ملابسات لقائهما الأوّل مرّاتٍ عديدة. فهمت من حديثه أنّه نظر نحوها باهتمام، وكانت هي تعرف ذلك جيّدًا. كما كانت تتذكّر نظرة شخصٍ آخر نحوها.

لم يتّفقا في تفكيرهما على الدّوام. فقد وجدت أنّ تقديره للمكانة الاجتماعية والصّلات يفوق تقديرها. لم يكن ذلك بدافعٍ من مجرد الأدب، بل لا بدّ وأنّه كان معجبًا بالأمر، ممّا جعله يشارك والدها وشقيقتها الاهتمام

الحارّ بموضوعٍ كانت تعتقد أنّه لا يليق بأن يشير اهتمامهم. ففي صباح أحد الأيّام، أعلنت صحيفة باث عن وصول الأرملة الفيسكونتيسة دالريمبل وابنتها الآنسة كارتريت المبجّلة. وبعدها عمّت الفوضى في منزل كامدن بليس لأيّامٍ عديدةٍ، فقد كان آل دالريمبل (لسوء الحظّ، في رأي آن) من أبناء عمومة آل إليوت. وكانت المعضلة هي كيف يقدّمون أنفسهم لهم بطريقةٍ لائقة.

لم تر آن والدها وشقيقتها من قبل وهما يتعاملان مع طبقة النبلاء، وكان عليها الاعتراف بأنّها أصيبت بخيبة الأمل. فقد كانت تأمل أن تكون لأفكارهما عن مكانتهما الاجتماعية الرّفيعّة أثرًا أفضل من ذلك، وبلغ بها الأمر أن تتمنّى شيئًا لم تتوقّعه أبدًا، إذ تمنّت أن يتحلّيا بالمزيد من الكبرياء. ظلّت عبارات «بنّتا عمومّتنا اللّيدي دالريمبل، والآنسة كارتريت» و«أبناء عمومّتنا آل دالريمبل» تتردّد في أذنيها طوال اليوم.

كان السّير والتر قد التقى بالفيسكونت الرّاحل مرّةً من قبل، ولكن لم يسبق قطّ أن رأى بقيّة أفراد الأسرة. ونتجت صعوبة الوضع عن الانقطاع التامّ لتبادل الرّسائل الرّسميّة بينهم منذ وفاة الفيسكونت المذكور، بعد أن حدث سهوٌ مؤسّفٌ في كيلينتش إبّان إصابة السّير والتر بمرضٍ خطيرٍ في

ذلك الوقت فلم يرسل خطابَ تعزيةٍ إلى أيرلندا. وعاد ذلك السَّهو بالوبال على صاحبه، فلم تصل، بعد وفاة المسكينة اللّيدي إليوت، أيُّ رسالة تعزيةٍ إلى كيليتش. ونتيجةً لهذا، كانت هناك العديد من الأسباب التي دفعتهم إلى الاعتقاد بأنَّ آل دالريمبل يعدُّون العلاقات بينهم في حُكم المنتهية. وكانت المشكلة تكمن في كَيْفِيَّة تصحيح هذا الوضع وإعادة العلاقات بأبناء العمومة. ومن وجهة نظرٍ عقلانيَّة، لم يكن أيُّ من اللّيدي راسيل والسّيد إليوت يعتقد أنَّ المشكلة دون أهميَّة.

فمن المهمّ دومًا الحفاظ على العلاقات الأسريَّة، والصُّحبة الطَّيِّبة تستحقُّ دومًا أن يبحث المرء عنها. استأجرت اللّيدي دالريمبل منزلًا في لورا بليس لمدة ثلاثة أشهر، وكانت ستعيش هناك حياةً باذخة. وقد سبق وأن زارت باث في العام الماضي، وسمعت اللّيدي راسيل أنَّها سيِّدة ذات شخصيَّة جذابة. وكان من المهمّ للغاية أن تتجدَّد الصَّلّات بينهم، إن أمكن هذا دون أن يخالف آل إليوت قواعد اللّياقة.

ولكنَّ السَّير والتر اختار أن يتبع طريقته هو، وفي نهاية المطاف كتب رسالةً في غاية البلاغة قدَّم فيها شرحًا وافيًا، وأعرب عن أسفه ورجائه لابنة عمِّه المبجَّلة. لم يُعجب أيُّ من اللّيدي راسيل والسّيد إليوت بالرسالة،

ولكنّها أتت بالنتيجة المطلوبة، فقد وصلتهم رسالةً من ثلاثة أسطرٍ من الأرملة الفيسكونتيّسة. « سيكون ذلك من دواعي الشرف البالغ لنا، وسيسعدنا اللقاء بكم». انتهى الجزء الشاقُّ في الأمر، وبدأ الجزء الممتع. ذهبوا لزيارة لورا بليس، وقاموا بوضع الكروت الشخصيّة الخاصّة بالأرملة الفيسكونتيّسة دالريمبل، والآنسة كارتريت المبجّلة، في مكانٍ ظاهر. وحَدَّثوا الجميع عن «أبناء عمومتنا في لورا بليس» و«بنّي عمومتنا اللّيدي دالريمبل والآنسة كارتريت».

أحسّت آن بالخزي. وحتى لو كانت اللّيدي دالريمبل وابنتها تتمتّعان بشخصيّة لطيفة، كانت ستظلُّ تشعر بالخزي بسبب كلّ القلق الذي تسبّبتا فيه بينما لم تكن لهما أيُّ قيمةٍ على الإطلاق. لم تكونا تتمتّعان برقيّ السلوك ولا بالمهارة أو الذكاء. واشتهرت اللّيدي دالريمبل بوصفها ذات شخصيّة ساحرةٍ لمجرّد أنّها كانت تقابل الجميع بابتسامةٍ وكلامٍ معسول. وكانت الآنسة كارتريت أقلّ فصاحةً منها، وتفتقر إلى الجمال والكياسة، بحيث لم يكونوا ليرحّبوا بها في كامدن بليس لولا مكانتها الاجتماعيّة المرموقة.

اعترفت الليدي راسيل بأنها كانت تتوقع ما هو أفضل من ذلك، ولكنها رأت أنها علاقة تستحق الحفاظ عليها. وحين شرعت آن في التعبير عن رأيها فيهما للسيد إليوت، وافقها الرأي في أنه لا قيمة لهما في حد ذاتهما، ولكنه أكد أن قيمتهما تكمن في كونهما من أقارب الأسرة، وفي كونهما تمثّلان صحبة طيبة، وبوسعهما جمع المزيد من الصحبة الطيبة حولهما. ابتسمت آن وقالت: «فكرتي عن الصحبة الطيبة يا سيد إليوت أنها صحبة الأذكاء من الناس، المطلعين على الأمور، والذين لديهم الكثير من الأحاديث الشيقة ليتبادلوها. هذا هو ما أعدّه صحبة طيبة».

قال برفق: «أنت مخطئة. هذه ليست صحبة طيبة، بل هي أفضل صحبة على الإطلاق. ولكن الصحبة الطيبة لا تتطلب سوى المكانة الاجتماعية المرموقة، والتعليم، والسلوك. وحتى فيما يتعلق بالتعليم، فهو ليس ذا أهمية كبيرة. المكانة الاجتماعية والسلوك ضروريان، أمّا قلة التعليم فليست شيئاً ذا بال فيما يخص الصحبة الطيبة. بل على العكس، فقد تفي بالغرض تماماً. ابنة عمي آن تهز رأسها، ولا يبدو عليها الاقتناع. فمن الصعب إرضائها. يا ابنة عمي العزيزة، (جلس بجوارها) لديك الحق في ألا تمنحي رضاك بسهولة أكثر من أي امرأة أخرى أعرفها تقريباً. ولكن هل سيفيد ذلك؟ هل سيجعلك تشعرين بالسعادة؟ ألن يكون من الأكثر حكمة قبول

صحبة تينك السَّيِّدَتَيْنِ الطَّيِّبَتَيْنِ فِي لُورَا بَلِيسْ، وَالْاِسْتِمْتَاعُ بِكُلِّ امْتِيازَاتِ
تِلْكَ الْعِلَاقَةِ إِلَى أَقْصَى حَدٍّ مُمْكِنٍ؟ يُمْكِنُكَ أَنْ تَتَّقِي تَمَامًا فِي أَنْهُمَا
سَتَحَرَّكَانِ بَيْنَ أَرْقَى الْأَوْسَاطِ فِي بَاثْ خِلَالَ هَذَا الشَّتَاءِ، وَحَيْثُ إِنََّّ لِلْمَكَانَةِ
الْاجْتِمَاعِيَّةِ أَهْمِيَّتَهَا، فَسَيَكُونُ مِنَ الْمَفِيدِ أَنْ يَعْرِفَ الْآخَرُونَ صَلَاتَكُمَا بِهِمَا،
مِمَّا سَيَسَاعِدُ عَلَى وَضْعِ أُسْرَتِكَ (أَوْ اسْمَحِي لِي أَنْ أَقُولَ أُسْرَتِنَا) فِي تِلْكَ
الْمَكَانَةِ الَّتِي لَا بَدْءَ وَأَنْنَا جَمِيعًا نَصْبُو إِلَيْهَا».

تَنْهَدَتْ آنَ قَائِلَةً: «أَجَلْ، سَيَعْرِفُ الْجَمِيعُ بِالْفِعْلِ أَنَّنا نَمْتُ إِلَيْهِمَا بِصِلَةِ
قَرَابَةٍ!»، وَلَكِنَّهَا مَا لَبِثَتْ أَنْ انْتَبَهَتْ، وَلَمْ تَرْغَبْ فِي أَنْ يَجِيبَهَا عَلَى قَوْلِهَا
هَذَا، فَأَضَافَتْ: «فِي الْحَقِيقَةِ أَعْتَقَدُ أَنَّهُ بُذِلَ الْكَثِيرُ مِنَ الْجُهْدِ لِمُتَعَادَةِ
هَذِهِ الْعِلَاقَةِ. أَظُنُّ (ابْتَسَمَتْ) أَنَّني أَمْتَمْتُ بِقَدْرِ مِنَ الْكِبْرِيَاءِ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ
مَنْكُم. وَلَكِنْ عَلَيَّ أَنْ أَعْتَرِفَ أَنَّ الْأَمْرَ يَشِيرُ ضَيْقِي؛ فَقَدْ أَبْدَيْنَا كُلَّ هَذَا
الْاهْتِمَامِ لِكَيْ يَتِمَّ الْاعْتِرَافُ بِهَذِهِ الصَّلَةِ، فِي حِينٍ يُمْكِنُنَا أَنْ نَتَّقَ تَمَامًا أَنَّهَا
لَا تَعْنِي لِهَما أَيُّ شَيْءٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ».

«عَذْرًا يَا ابْنَةَ عَمِّي الْعَزِيزَةِ، فَأَنْتِ غَيْرُ مُنْصَفَةٍ لِقَضِيَّتِكَ. فِي لَنْدُنَ رَبَّمَا،
وَمَعَ أَسْلُوبِ مَعِيشَتِكُمُ الْبَسِيطِ حَالِيًّا، قَدْ يَكُونُ الْحَالُ كَمَا تَقُولِينَ. وَلَكِنْ

في باث، ستظل معرفة السَّير والتر إليوت وأسرته دوماً مهمّةً، وستظلّ دوماً للعلاقة بهما قيمتها».

قالت آن: «حسنًا، فلديّ بالفعل قدرٌ من الكبرياء يمنعني من أن أشعر بالسَّعادة من التَّرحيب القائم بصورةٍ كليّةٍ على المكان فحسب».

قال: «يعجبني شعورك بالغضب، وهو طبيعيٌّ جدًّا. ولكنَّك هنا في باث، والهدف هو أن تستقرُّوا هنا بكلِّ التَّقدير والوقار اللذين يليقان بالسَّير والتر إليوت. تقولين إنَّ لديك كبرياءً، وأنا أعلم أنَّ النَّاس يصفونني بالكبر، ولا أرغب في أن أكون بخلاف ذلك. فليس لديّ شكٌّ في أنَّك لو فكَّرت في كبريائنا، لوجدتِ أنَّ له الهدف نفسه مع أنَّه ربَّما يبدو في ظاهره مختلفًا بعض الشيء. فأنا متأكَّد أنَّ هناك نقطةً واحدةً يا ابنة عمِّي العزيزة (واصل الحديث بصوتٍ أكثر انخفاضًا، مع أنَّه لم يكن هناك أحدٌ سواهما في الغرفة)، نقطةً واحدةً أنا واثقٌ من أننا لا بدَّ سنَتفق في شعورنا حيالها. فلا بدَّ وأننا نشعر أنَّ كلَّ شخصٍ إضافيٍّ يعرفه والدك، من بين أولئك الذين يتساوون معه، أو يفوقونه في المكانة، قد يفيد في شغل تفكيره عن أولئك الذين هم أدنى منزلةً منه».

وبينما هو يتحدث، وجَّه نظره نحو المقعد الذي كانت تجلس عليه السيِّدة كلاي قبل وقتٍ قريبٍ، وكان هذا تفسيرًا كافيًا لتوضيح ما يعنيه بالتحديد. ومع أنَّ آن لم تكن تعتقد أنَّهما يتشاركان نوعَ الكبرياءِ نفسه، إلَّا أنَّها شعرت بالرِّضا حياله لأنَّ السيِّدة كلاي لا تروقه هو الآخر. واعترفت لنفسها بأنَّ رغبته في أن يقيم والدها صلاتٍ مع أصحاب المكانة المرموقة له ما يبرِّره في سبيل التَّغلب عليها.

(7) كان مرطَّب جاولاند علاجًا شائعًا للبشرة، يحتوي في تركيبه على الرُّبْق.

(8) كان زوَّار باث يشربون المياه المعدنية المتدفِّقة من جوف الأرض هناك، وجعل العديد منهم هذا جزءًا من روتينهم اليوميِّ إيمانًا منهم بفوائدها الصَّحيَّة.

(9) قماشٌ كان يُلبَس للدَّلالة على الحداد.

في حين حرص السير والتر وإليزابيث على الاستمتاع بحسن طالعهما الذي لقيه في لورا بليس، انشغلت آن بتجديد علاقةٍ من نوعٍ مختلفٍ تمامًا بأحد معارفها.

كانت قد قامت بزيارة مربيتها السابقة وسمعت منها أنّ هناك زميلةً دراسيةً قديمةً لها موجودةٌ في باث. واستدعى ذلك انتباهها لسببين قويين: كرمها السابق معها، ومعاناتها الحالية. فقد أظهرت الآنسة هاميلتون، التي صارت الآن السيّدسة سميث، نحوها لطفًا في المعاملة في فترةٍ من فترات حياتها حين كانت في أشدّ الحاجة إلى ذلك. كانت آن تذهب إلى المدرسة وهي تشعر بالتّعاسة، وفي حالة حدادٍ على والدتها التي كانت تحبّها بشدّة، كما آلمها بعدها عن منزلها. وكانت تتألّم كأيّ فتاةٍ في الرّابعة عشرة من العمر ذات حساسيةٍ مفرطةٍ وروحٍ معنويّةٍ متدنّيةٍ في مثل تلك الظروف. كانت الآنسة هاميلتون تكبرها بثلاث سنواتٍ، ولكنّها بقيت لعامٍ إضافيٍّ في المدرسة لأنّه لم يكن لديها أيّ أقاربٍ مقربين أو منزلٍ مستقر. وقد أفادتها وعاملتها بلطفٍ، بدرجةٍ قلّلت من شعورها بالتّعاسة إلى حدٍّ كبير. ولم يكن بوسعها أن تستعيد تلك الذكريات دون اكتراث.

تزوَّجت الآنسة هاميلتون بعد أن غادرت المدرسة بوقتٍ قصير، وقيل إنَّ زوجها كان رجلاً ثريًّا. ولكن هذا هو كلُّ ما عرفته آن عنها، حتى حكت لها مربَّيتها بالتفصيل الآن عن وضعها الذي اختلف كثيرًا.

لقد صارت أرملةً فقيرة. كان زوجها مسرفًا في نفقاته، وعند وفاته قبل حوالي عامين خَلَفَ أموره في حالةٍ بالغة التّعقيد. واجهتها صعوباتٌ من كلِّ نوع، وإلى جانب هذه المشكلات، أصيبت بحمّى روماتيزميّةٍ حادّةٍ أثّرت في نهاية المطاف على ساقها، بحيث صارت مقعّدةً في الوقت الحالي. وهذا هو ما جاء بها إلى باث حيث كانت الآن تسكن بجوار عيون المياه الحارّة. كانت تحيا حياةً بسيطةً للغاية، ولم تكن قادرةً حتى على تحمّل تكلفة خادمة، وبطبيعة الحال لم تكن لها أيُّ علاقاتٍ اجتماعيّةٍ تقريبًا.

أخبرتها صديقتهما المشتركة عن السّعادة التي ستشعر بها السيّدة سميث إن زارتها الآنسة إليوت، لذا، لم تضيّع آن الوقت في التّفكير في الدّهاب. لم تذكر شيئًا عمّا سمعته، أو عمّا انتوته لمن معها بالمنزل، فلم يكن ليروقهم ذلك. اكتفت باستشارة اللّيدي راسيل التي شاركتها شعورها ووافقت على أن تقوم بتوصيلها إلى أقرب مكانٍ اختارته آن عند سكن السيّدة سميث في مساكن ويستجيت.

تَمَّتِ الزَّيَارَةُ، وَتَمَّ التَّعَارُفُ بَيْنَهُمَا مِنْ جَدِيدٍ، وَأَبَدَتْ كُلُّ مِنْهُمَا الْإِهْتِمَامَ
بِالْأُخْرَى. كَانَتْ أَوَّلَ عَشْرِ دَقَائِقَ مَفْعَمَةً بِالْحَرْجِ وَالْمَشَاعِرِ؛ فَقَدْ مَرَّ اثْنَا
عَشَرَ عَامًا مِنْذُ فِرَاقِهِمَا، وَبَدَتْ كُلُّ مِنْهُمَا مُخْتَلِفَةً إِلَى حَدٍّ مَا عَمَّا تَخَيَّلَتْهُ
الْأُخْرَى. تَغَيَّرَتْ آنَ بَعْدَ مَرُورِ اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا، فَلَمْ تَعُدْ فَتَاةً هَادِئَةً فِي سِنِّ
النُّمُوِّ تَبْلُغُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْعُمُرِ وَلَمْ تَنْضَجْ بَعْدَ، بَلْ صَارَتْ امْرَأَةً شَابَّةً
أَنِيقَةً فِي السَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْعُمُرِ تَتَمَتَّعُ بِكُلِّ صِفَاتِ الْجَمَالِ، عِدا
نِضَارَةِ الشَّبَابِ، وَبِسُلُوكِيَّاتٍ مُنضَبِطَةٍ وَرَقِيقَةٍ. كَمَا غَيَّرَتْ اثْنَا عَشَرَ عَامًا مِنْ
حَسَنِ مَظْهَرِ الْإِنْسَةِ هَامِيلْتُونَ النَّاضِجَةُ، وَالتِّي كَانَتْ تَتَمَتَّعُ بِأَتَمِّ الصِّحَّةِ
وَتَشْعُرُ بِالثَّقَّةِ، لِتَصِيرَ أَرْمَلَةً عَاجِزَةً فَقِيرَةً وَمَقْعَدَةً تَسْتَقْبِلُ زِيَارَةَ مَنْ صَدِيقَتِهَا
الَّتِي كَانَتْ تَحْتَ حِمَايَتِهَا عَلَى سَبِيلِ إِسْدَاءِ الْمَعْرُوفِ لَهَا. وَلَكِنْ لَمْ تَلْبَثْ
كُلُّ الْمَشَاعِرِ غَيْرِ الْمَرِيحَةِ فِي ذَلِكَ اللَّقَاءِ أَنْ تَبَدَّدَتْ وَلَمْ تَخْلَفْ سِوَى
جَازِيَّةِ الذِّكْرِيَّاتِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي اسْتَعَادَتَاهَا، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْأَيَّامِ الْخَوَالِي.

وَجَدَتْ آنَ السَّيِّدَةَ سَمِيثَ تَتَمَتَّعُ بِالْحِكْمَةِ وَالسُّلُوكِ الطَّيِّبِ الَّذِي طَالَمَا
اعْتَمَدَتْ عَلَيْهِ، فَضْلًا عَنِ الطَّابَعِ الْمَرَحِ، وَالْمِيلِ إِلَى تَبَادُلِ الْحَدِيثِ بِدَرَجَةٍ
فَاقَتْ تَوَقُّعَاتِهَا. لَمْ يَبْدَأَنَّ مَشَاكِلَ إِسْرَافِ زَوْجِهَا فِي الْمَاضِي، وَقَدْ عَانَتْ
مِنْ مَشَاكِلِ الْحَيَاةِ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، وَلَا مَشَاكِلَ الْحَاضِرِ، سِوَاءَ مَرَضِهَا أَوْ
حُزْنِهَا، قَدْ أَثْقَلَتْ قَلْبَهَا أَوْ ثَبَّتَتْ مِنْ مَعْنَوِيَّاتِهَا.

خلال الزيارة الثانية، تحدّث بصراحةٍ شديدةٍ، فتزايدت دهشة آن. لم يكن بوسعها أن تتخيّل موقفًا أكثر كآبةً من موقف السيّدة سميث، فقد كانت تحبُّ زوجها للغاية، وفي النّهاية قامت بدفنه. كما اعتادت حياة الثّراء الذي زال عنها، ولم يكن لديها أطفالٌ ليعيدوا إليها صلتها بالحياة وبالسّعادة مرّةً أخرى، ولا أقارب ليعينوها على ترتيب كلّ أمورها المعقّدة. كما ضاعت صحّتها التي كان يمكنها أن تعينها على تحمّل كلّ شيءٍ آخر. اقتصر سكنها على غرفة استقبالٍ صغيرةٍ مزعجةٍ، وفي الخلف كانت هناك حجرة نومٍ صغيرةٍ مظلمة. ولم تكن تستطيع التّحرّك من غرفةٍ لأخرى دون مساعدة، ولم يكن هناك في المنزل سوى خادمةٍ واحدةٍ لتقدّم لها العون. لم تكن تغادر المنزل أبدًا سوى للذهاب إلى عيون المياه الحارّة. ولكن مع هذا كلّهُ، كانت آن تعتقد أنّها لا تعاني سوى من بعض لحظات الوهن والاكتئاب مقابل ساعاتٍ طوالٍ من الانشغال والشّعور بالمتعة.

كيف يمكن هذا؟ راقبت الوضع، ولاحظته وتأملّته، وفي النّهاية قرّرت أنّ الأمر لم يكن بدافعٍ من الإحساس بالشّجاعة والتّسليم فحسب. فربّما كان الصّبر من صفات الرّوح التي تتحلّى بالتّسليم، ويمكن أن تساعد الحكمة على التّحلّي بالثّبات، ولكن كان هناك شيءٌ إضافيّ في هذه الحالة. لقد وهبتها الطّبيعة مرونة التّفكير، والقدرة على التّمثّع براحة البال، إلى جانب

القدرة على الانشغال بالخير عن الجوانب الأخرى التي يغلب عليها الشرُّ،
والعثور على أعمالٍ تشغلها عن التّفكير في حالها. كانت هذه هي أكبر
منحةٍ من السّماء، ورأت آن صديقتها باعتبارها مثلاً لتلك الحالات التي
يتدخّل فيها القدر ليوازن بهذا كلّ مشاكلها الأخرى تقريباً.

أخبرتها السيّدة سميث أنّه مرّ عليها وقتٌ كادت تفقد فيه عزميتها تماماً.
فلم تكن تستطيع أن تعدّ نفسها مقعّدةً مقارنةً بحالها في البداية حين
وصلت إلى باث. كانت آنذاك تستحقّ الشّفقة حقّاً، فقد أصيبت بدور بردٍ
في أثناء رحلتها، ولم تكّد تستقرّ في سكنها حتى اضطرّت إلى ملازمة
الفرّاش مرّةً أخرى وهي تعاني آلاماً حادّةً مستمرّة. ومرّت بكلّ هذا وهي
بين مجموعةٍ من الغرباء، وفي حاجةٍ ملحّةٍ إلى وجود ممرّضةٍ بانتظامٍ، بينما
ظروفها الماديّة في ذلك الوقت لم تمكّنها من تحمّل أيّ تكاليف مرتفعة.
ولكنّها تحمّلت الأمر، وكان بوسعها أن تقول إنّها حقّاً أفادها، فقد زاد من
شعورها بالارتياح لإدراكها أنّها بين أيدي أمينة. كانت قد خبرت الحياة كثيراً،
بدرجةٍ جعلتها لا تتوقّع العثور على اهتمامٍ مفاجئٍ دون أيّ مصلحةٍ في أيّ
مكانٍ، ولكنّ مالكة المنزل الذي تقيم فيه كانت ترغب في الحفاظ على
سمعتها، ولم تسئ استغلالها. كما صادفها حسن الطّالع في العثور على
ممرّضةٍ، فقد كانت شقيقة مالكة المنزل تعمل كممرّضة، ودوماً ما كانت

تقيم في ذلك المنزل في الأوقات التي لم تكن مرتبطةً فيها بالعمل. وقد صادف أنها لم تكن منشغلةً آنذاك، فتمكّنت من رعايتها. قالت السيّدة سميث: «والى جانب رعايتها لي بكلّ مهارةٍ، ثبت أنّ معرفتها لا تقدّر بثمن. فما إن تمكّنتُ من استخدام يديّ من جديدٍ حتى علّمتني حبك الصُوف الذي صار مصدر تسليّةٍ بالغةٍ لي. وعلّمتني كيف أصنع تلك الحقائق الصّغيرة لتنظيم الخيوط، ووسائل الدّبابيس، وحوامل عرض البطاقات الشّخصيّة التي دوّمًا ما تجدينني منشغلةً بصنعها، والتي تمكّني من تقديم بعض العون لأسرةٍ أو أسرتين تعانيان من الفقر الشّديد في هذا الحي. فلديها بالطّبع العديد من المعارف من خلال عملها، والذين يمكنهم الشّراء. لذا فهي تتولّى بيع بضاعتي. ودوّمًا ما تستغلّ اللّحظة الملائمة لتعرضها عليهم. فكما تعلمين، دائميّ ما تكون قلوب الجميع مفتوحةً حين يكونون قد تعافوا للتوّ من آلامٍ مبرّحة، أو شرعوا يستعيدون نعمة الصّحة. والممرّضة روك تعرف تمامًا الوقت المناسب للحديث. فهي امرأةٌ فطنةٌ وذكيّةٌ وعاقلة. فعملها يتيح لها تأمل الطّبيعة البشريّة، كما أنّها تتمتع بالحكمة وقوّة الملاحظة. وكلّ هذا يجعل صحبتها أفضل كثيرًا من صحبة آلاف الذين حصلوا على أفضل قسطٍ من التّعليم دون أن يعرفوا أيّ شيءٍ يستحقّ الاهتمام. يمكنك أن تعدّي هذا نوعًا من الثّروة إن شئت، ولكن عندما تسنح للممرّضة روك نصف ساعةٍ دون عملٍ يمكنها أن تقضيها

بصحبتي، فمن المؤكّد أنّه سيكون لديها شيءٌ ممتعٌ ومفيدٌ لتحكيه، ممّا يساعد المرء في معرفة طبيعة البشر بصورةٍ أفضل. فالمرء يحب أن يعرف ما يدور، وأن يبقى مطلعًا على الأمور فيما يتعلّق بأحداث الطُّرق التي ينشغل بها النّاس في ممارسة التّفاهات والحماقات. وبالنّسبة إليّ، أنا التي أحيأ وحدي، فبوسعي أن أوّكد لك أنّ حديثها ممتعٌ للغاية».

لم ترغب آن في تسفيه متعتها تلك، فقالت: «يمكنني تصديق ذلك بكلّ سهولة. فالسيّئات اللّاتي ينتمين إلى تلك الطّبقة الاجتماعيّة تسنح لهنّ فرصٌ رائعة. وإن كنّ يتمتّعن بالذكاء، استحقّق الأمر أن ينصت المرء إلى حديثهنّ. فهنّ يطلّعن على طبائع بشريّة متباينةٍ للغاية! ولا يقتصر الأمر على خبرتهنّ بنقائص النّفس البشريّة فحسب، فبين وقتٍ وآخر تسنح لهنّ الفرصة لمراقبة البشر تحت ظروفٍ قد تكون مثيرةً للاهتمام أو مؤثّرةً للغاية. فلا شكّ في أنّه تمرّ بهنّ حالاتٌ من الحماس، والنّزاهة، وإنكار الذات، والبطولة، والصّبر، والتّسليم، وكلّ أنواع الصّراعات والتّضحيات التي تصقلنا لأقصى درجة. فغرف المرضى يمكنها أن توفرّ حكاياتٍ تكفي لملء مجلّداتٍ كاملة».

قالت السيِّدة سميث بشيءٍ من الشكِّ: «أجل، يمكن أن يحدث ذلك في بعض الأحيان. لكنني أخشى ألا تكون معظم الدُّروس التي يستقيها المرء منها بمثل تلك الدَّرَجَة من الثُّبُل التي تتحدَّثين عنها. بين حينٍ وآخر، يمكن أن تتَّضح عظمة الطَّبيعة البشريَّة في وقت المحن. ولكن بصفةٍ عامَّةٍ، ما يظهر في حجرات المرضى هو ضعف النَّفس البشريَّة، وليس مكان قوَّتها، حيث يسمع المرء حكايات الأنانيَّة وانعدام الصَّبْر أكثر ممَّا يسمع حكايات الكرم ورباطة الجأش. وهناك عددٌ قليلٌ للغاية من علاقات الصَّدَاقَة الحقيقيَّة في هذا العالم! ولسوء الحظِّ»، (تحدَّثت بنبرة هامسةٍ ومرتعشةٍ) «هناك الكثيرون ممَّن ينسون تدبُّر الأمور بجديَّةٍ قبل فوات الأوان».

رأت آن مدى البؤس الذي تسبَّبت فيه مشاعرها تلك. فلم يتصرَّف الزَّوج كما ينبغي، واضطَّرت الزَّوجة إلى التَّعامل مع أصنافٍ من البشر جعلوها تسيء الظَّنَّ بالعالم بدرجةٍ أكثر ممَّا كانت آن تتمنَّى أنَّه يستحقُّه بالفعل. ولكنَّ هذا كان مجرَّد شعورٍ عابرٍ، ولم تلبث السيِّدة سميث أن تخلَّصت منه وأضافت قائلةً بنبرةٍ مختلفةٍ:

«لا أعتقد أنَّ الحالة التي تتعامل معها صديقتي السيِّدة روك في الوقت الحاليّ ستوفِّر أيَّ حكاياتٍ تثير اهتمامي أو تفيدني. فهي تقوم برعاية

السَّيِّدَةُ واليس في مساكن مارلبورو. وهي ليست إِلَّا سَيِّدَةً جميلةً حمقاء
وثريةً وأنيقةً على ما أعتقد. وبالتأكيد لن يكون لديها ما تحكي عنه سوى
الدَّانْتِيل والحُلِيِّ. ولكنني أنوي الاستفادة من السَّيِّدَةِ واليس. فلديها الكثير
من المال، وأنوي أن أبيعها كلَّ الأشياء الثَّمينة التي لديَّ الآن».

قامت آن بزيارة صديقتها عدَّة مرَّاتٍ قبل أن يعرف أحدٌ في كامدن بليس
بوجودها. ولكن في النَّهاية اضطرَّت إلى الحديث عنها. فقد عاد السَّيِّر
والتر وإليزابيث والسَّيِّدَةُ كلاي في صباح أحد الأيَّام من لورا بليس وهم
يحملون دعوةً مفاجئةً من اللِّيدي دالريمبل لزيارتها في مساء اليوم ذاته.
وكانت آن قد ارتبطت بالفعل بقضاء ذلك المساء في مساكن ويستجيت.
لم تندم على عذرها هذا. فقد كانت على ثقةٍ من أنَّهم لم يُدعَوْنَ إِلَّا لأنَّ
اللِّيدي دالريمبل كانت تلتزم منزلها وهي تعاني من نوبةٍ بردٍ وقد أسعدها
الاستفادة من تلك العلاقة التي فُرِضَتْ عليها. رفضت هي الدَّعوة بسرعة،
فقد كانت مرتبطةً بقضاء ذلك المساء مع صديقةٍ قديمةٍ من أيَّام الدَّراسة.
لم يكن هناك اهتمامٌ عمومًا بأيِّ شيءٍ يخصُّ آن، ولكنَّهم مع ذلك، طرحوا
ما يكفي من الأسئلة لكي يعرفوا من تكون هذه الصَّديقة الدَّراسيَّة القديمة.
أبدت إليزابيث احتقارها، وأبدى السَّيِّر والتر حزمًا شديدًا.

قال: «مساكن ويستجيت؟ ومن الذي ستقوم الآنسة آن إليوت بزيارته في مساكن ويستجيت؟ سيّدة تدعى سميث. أرملة تدعى السيّدة سميث. ومن تُراه كان زوجها؟ واحدًا من آلاف الذين يدعون سميث، والذين يلتقيهم المرء في كلّ مكان. وما الذي يميّزها؟ فهي كبيرة في السنّ ومريضة. حقًا يا آنسة آن إليوت، إنَّك تتمتّعين بذوقٍ غريبٍ للغاية! فكلُّ ما ينفر منه الآخرون، مثل صحبة أصحاب المكانة الاجتماعية المتدنّية، والمساكن الحقيمة، والهواء الملوّث، والصّلات التي ينفر منها المرء، كلّ ذلك يبدو جدًّا لك. ولكن بالتأكيد يمكنك تأجيل زيارة هذه السيّدة العجوز إلى الغد. فلا أعتقد أنّها على وشك الموت، بل آمل أن تعيش حتى الغد. كم يبلغ عمرها؟ أربعين عامًا؟»

«لا يا سيّدي. إنّها تبلغ الحادية والثلاثين من العمر فحسب. ولكن لا أعتقد أنّي سأتمكّن من تأجيل زيارتي، لأنّ هذه هي الأمسية الوحيدة المناسبة لها، ولي أيضًا في الوقت الحالي. فهي سوف تذهب لزيارة عيون المياه الحارّة غدًا، وأنت تعلم أنّنا منشغلون بقيّة أيّام الأسبوع».

سألت إليزابيث: «ولكن ما رأي الليدي راسيل في هذه العلاقة؟».

أجابت آن قائلةً: «إنَّها لا ترى فيها ما يشين. بل على النَّقيض، فهي تشعر بالرَّضا حيالها. وعمومًا كانت تصطحبني في رَوْحاتي لزيارة السيِّدة سميث».

قال السيِّر والتر: «لا بدَّ وأنَّ قاطني مساكن ويستجيت قد أصيبوا بالدَّهشة عند رؤيتهم عربةً تجرُّها الخيل وهي تقترب من الرِّصيف المقابل لهم! وحتماً لا يوجد هناك شيءٌ مميّزٌ في شعار النَّبالة الخاصِّ بأرملة السيِّر هنري راسيل، ولكنَّها مع ذلك عربةٌ أنيقةٌ، ولا شكَّ في أنَّه من المعروف أنَّ من تستقلُّها هي الآنسة إليوت. أرملةٌ تدعى السيِّدة سميث، قاطنةٌ في مساكن ويستجيت! أرملةٌ فقيرةٌ تتشبَّث بالحياة بشقِّ الأنفس، ويتراوح عمرها بين الثلاثين والأربعين! مجرَّد السيِّدة سميث، سيِّدةٌ تدعى سميث، كأولئك الذين نلتقيهم كلَّ يومٍ، دونًا عن كلِّ الأشخاص والأسماء الأخرى في العالم، تصير هي الصَّديقة المقرَّبة للآنسة آن إليوت، وتفضِّلها دونًا عن باقي معارف أسرتها المنتمين إلى طبقة النُّبلاء في إنجلترا وأيرلندا! السيِّدة سميث، يا له من اسم!».

كانت السيِّدة كلاي حاضرةً حتى هذه اللَّحظة، ولكنَّها اعتقدت أنَّه ربَّما يكون من الأفضل أن تغادر الغرفة الآن. وكان بوسع آن أن تقول الكثير،

وقد أرادت أن تقول شيئاً بالفعل دفاعاً عن صديقتها التي لم يكن وضعها يختلف كثيراً عن وضع السيِّدة كلاي، ولكنَّ شعورها بالاحترام حيال والدها منعها من ذلك. فلم تحر جواباً. بل تركته ليدرك وحده أنَّ السيِّدة سميث لم تكن الأرملة الوحيدة في باث بين الثلاثين والأربعين من العمر، ولا تملك الكثير من المال، ولا تحمل لقباً نبيلًا.

حافظت آن على موعدها، كما حافظ الآخرون على موعدهم. وقد سمعت بطبيعة الحال في صباح اليوم التَّالي أنَّهم قضوا أمسيةً لطيفةً للغاية. كانت هي الوحيدة التي غابت من جماعتهم، إذ لم يكن السيِّر والنتر وإليزابيث وحدهما الخاضعين لإمرة الليدي دالريمبل، بل أسعدهما أنَّها كلَّفتها بدعوة الآخرين، وتجنَّها عناء دعوة كلِّ من الليدي راسيل والسيِّد إليوت. ترك السيِّد إليوت صحبة الكولونيل وليس في وقتٍ مبكرٍ، وأعادت الليدي راسيل ترتيب كلِّ مواعيدها في ذلك المساء كي تذهب لزيارتها. سمعت آن كلَّ ما حدث في ذلك المساء من الليدي راسيل. وبالنسبة إليها كان أكثر ما أثار اهتمامها أنَّ صديقتها والسيِّد إليوت تحدَّثا كثيراً عنها، إذ تمنَّيا وجودها، وأسفا على غيابها، وفي الوقت نفسه احترما غيابها لسبب نبيلٍ كهذا. بدا أنَّ زياراتها لصديقتها الدَّراسية القديمة بدافعٍ من العطف والشفقة بعد أن صارت مريضةً وفقيرةً قد أثارت إعجاب السيِّد إليوت. كان

يعتقد أنَّها شائبةٌ استثنائيةٌ للغاية، سواءً في شخصيتها أو في سلوكها وتفكيرها، ومثالٌ للأنثى كما يجب أن تكون. بل كاد يضاهاى الليدي راسيل في وصف مزاياها. ولم تستطع آن أن تسمع ذلك من صديقتها، وتعرف أنَّها محلُّ تقديرٍ بالغٍ إلى هذا الحدِّ من قبل رجلٍ يتحلَّى بالحكمة، دون أن تعثرها الكثير من المشاعر الإيجابية التي تعمّدت صديقتها أن تبثّها بداخلها.

صارت الليدي راسيل واثقةً الآن تمام الثقة من رأيها في السيّد إليوت. كما صارت متيقّنةً أنّه ينتوي الارتباط بآن مع الوقت، بنفس قدر ثقتها في أنّه يستحقّها تمامًا. وشرعت تحسب عدد الأسابيع المتبقّية حتى يتحرّر من القيود المتبقّية التي يفرضها عليه الحداد كي يستطيع التعبير عن مشاعره بحريّة. لم تتحدّث مع آن في الموضوع بنصف ذلك القدر من الثقة التي تشعر بها، بل اكتفت بمجرد التلميح إلى ما قد يحدث لاحقًا، وإلى احتمال أن يكون متعلّقًا بها، وإلى مزايا ذلك الارتباط فيما إذا كان تعلّقه هذا حقيقيًا بالفعل ومتبادلاً من طرفها هي. أنصت آن إليها، ولم تبد اعتراضًا. اكتفت بالابتسام، وقد تضرّج وجهها بالحمرة، وهزّت رأسها برفق.

قالت الليدي راسيل: «كما تعلمين، أنا لا أَلعب دور الخاطبة، فأنا أدرك تمامًا أنه لا يمكن الاعتماد على الطَّبيعة البشريَّة وما إلى ذلك من حساباتٍ مختلفة. كلُّ ما أعنيه هو أنه في حال أبدى السيّد إليوت اهتمامًا بك لاحقًا، وإن كنت أنت تميلين إلى تقبُّله، فأنا أعتقد أنَّ هناك احتمالًا كبيرًا لأن تسعدا معًا. فهو ارتباطٌ ملائمٌ للغاية، وعلى الجميع أن يفكِّروا فيه. ولكنني أعتقد أنه قد يكون ارتباطًا باعثًا على السَّعادة البالغة».

قالت آن: «السيّد إليوت رجلٌ لطيفٌ للغاية، وأنا أكرُّ له تقديرًا بالغًا من جوانب عديدة. ولكننا لا يلائم أحدا الآخر».

تركت الليدي راسيل قولها هذا يمرُّ دون تعليقٍ من جانبها، واكتفت بأن قالت: «عليَّ الاعتراف بأنني حين أفكّر في احتمال أن تكوني سيِّدة قصر كيلينتش المقبلة، والليدي إليوت المقبلة، وأتطلَّع لرؤيتك تحتلِّين مكانة والدتك العزيزة وترثين كلَّ حقوقها وكلَّ شعبيَّتها، إلى جانب كلِّ فضائلها، فإنَّ ذلك يمثلُّ أقصى درجات السَّعادة بالنَّسبة إليَّ. فأنت تشبهين والدتك من ناحية الملامح والشَّخصيَّة، وليتني أراك مثلها من ناحية المكانة واللقب والسَّكن، تقطين المكان نفسه، وتباركينه بوجودك، ولا تفوقينها سوى في

كونك محلّ تقديرٍ أكثر ممّا كانت هي! يا عزيزتي آن، سيمنحني هذا قدرًا من السَّعادة أكبر ممّا شعرت به طوال حياتي كلّها!».

اضطّرت آن إلى أن تشيخ بوجهها، ونهضت لتسير إلى طاولةٍ بعيدةٍ، حيث استندت إليها، وتظاهرت بالانشغال وهي تحاول تهدئة المشاعر التي أثارتها في نفسها تلك الصُّورة. شعرت بخيالها وقلبها واقعين تحت تأثيرٍ ساحرٍ لبضع لحظات.

كانت فكرة احتلال موقع والدتها، والحصول على لقب «الليدي إليوت» الثَّمين، والعودة إلى قصر كيلينتش وعدّه منزلها مرّةً أخرى، لتسكن هناك إلى الأبد، كان كلّ هذا يمثّل لها سحرًا لا تقدر على مقاومته. لم تنطق الليدي راسيل بكلمةٍ أخرى، فقد أرادت أن تترك الأمور تسير على طبيعتها وهي مقتنعةٌ أنّ السيّد إليوت كان ليحدثها بنفسه في تلك اللّحظة لو استطاع ذلك دون مخالفة قواعد اللّياقة! باختصارٍ، كانت مقتنعةٌ بما لم تقتنع به آن. وقد ساعدت تلك الصُّورة نفسها للسيّد إليوت وهو يحدثها بنفسه على أن تستعيد آن تحكُّمها في نفسها مرّةً أخرى. زال كلّ سحر قصر كيلينتش ولقب «الليدي إليوت». فلم يكن بوسعها أن تتقبّله أبدًا. ولم تكن مشاعرها وحدها التي تميل إلى رجلٍ واحدٍ دونًا عن بقيّة الرّجال،

بل إنّ حكمها العقلانيّ بعد التّفكير الجادّ في كلّ ملابسات ذلك الأمر لم يكن في صالح السيّد إليوت.

فمع أنّ معرفتهما استمرّت شهرًا حتى الآن، إلّا أنّها لم تقتنع تمامًا أنّها تعرف طبيعة شخصيّته بوضوح. بدا من الواضح كفايةً أنّه رجلٌ عاقلٌ ولطيفٌ، وأنّه لبق الحديث، صائب الرّأي، ذو حكمٍ جيّدٍ على الأمور، وصاحب مبادئ. وكان قطعًا يميّز الصّواب من الخطأ، فلم يكن بوسعها الإشارة إلى قاعدةٍ واحدةٍ من القواعد الأخلاقيّة والإدّعاء بأنّه اخترقها بوضوح. ولكن مع ذلك، كانت ستخشى أن تقدّم شهادةً بحسن سلوكه. فقد كانت تفتقد الثّقة في ماضيه، وإن لم تفتقدها في حاضره. فالأسماء التي كانت تُذكر أحيانًا لمعارفه في الماضي، والإشارة إلى ممارساته واهتماماته السّابقة، كانت تثير الشّكوك في طبيعة شخصيّته في الماضي. أدركت أنّه كانت لديه عاداتٌ سيّئةٌ، وأنّه اعتاد السّفَر في أيّام الأحد، وأنّه مرّ بفترةٍ في حياته (وفي الغالب لم تكن قصيرةً) كان خلالها مهملاً في كلّ الأمور الهامّة. ومع أنّه ربّما يكون قد غيّر من أفكاره في الوقت الحالي، ولكن من بوسعها اكتشاف حقيقة نوايا رجلٍ يتمتّع بالذكاء والحرص بعد أن نضج بقدرٍ يكفي لجعله يقدرُ أهميّة التّمتّع بحسن السلوك؟ كيف يمكن التّأكّد من أنّه طهّر أفكاره بالفعل؟

كان السيّد إليوت عاقلاً وحصيفاً ومهذباً، ولكنه لم يكن يتّصف بالصّراحة. لم يُظهر أبداً أيّ مشاعر قويّة من غضبٍ حارٍّ أو سعادةٍ حيال شرور الآخرين أو تصرّفاتهم الطّيبة. بالنّسبة إلى آن، كان هذا عيباً واضحاً. ولم تستطع التّخلّص من انطباعاتها الأولى. فقد كانت تقدّر الشّخصيّات الصّريحة والواضحة التي تتّصف بالحماس أكثر من غيرها. وما يزال دفء المشاعر والحماس يأسرناها. إذ كانت تشعر أنّه يمكنها أن تثق في صدق أولئك الذين أحياناً ما يتصرّفون أو ينطقون ببعض الإهمال والتسرّع أكثر ممّا في أولئك الذين كان ذهنهم حاضراً على الدّوام دون أن تزلّ ألسنتهم أبداً.

كان السيّد إليوت لطيفاً على الدّوام. وبالرّغم من تعدّد طبيعة الشّخصيّات المختلفة في منزل والدها، حاز على إعجاب الجميع. كان يتحمّل الجميع، ويرضي الجميع. سبق وأن حدّثها بدرجةٍ من الصّراحة بخصوص السيّدة كلاي، وبدا أنّه يرى حقيقة السيّدة كلاي وأنّه يُضمر حيالها شعوراً بالاحتقار. ولكن مع ذلك، كانت السيّدة كلاي تشعر أنّه شخصٌ لطيفٌ مثل أيّ شخصٍ آخر.

أمّا الليدي راسيل فكانت ترى فيه ما هو إمّا أقلّ وإمّا أكثر ممّا تراه صديقتها الشّابة؛ فهي لم تعتقد أنّ هناك ما يشير الشّكوك. لم تتخيّل وجود

رجلٍ مثاليٍّ أكثر من السيّد إليوت، ولم يكن لديها أملٌ أكبر من أن تراه
يتزوَّج من حبيبتهَا آن في كنيسة كيلينتش، خلال فصل الخريف المقبل.

مكتبة 729

telegram @t_pdf

كان الوقتُ بدايةَ شهر فبراير، وبعد أن قضت آن شهرًا في باث، صارت تتوق إلى معرفة أخبار أبركروس ولايم. أرادت أن تعرف أكثر بكثيرٍ ممَّا كانت ماري تكتفي بإرساله. فقد مضت ثلاثة أسابيع منذ آخر مرَّةٍ وصلتها منها أيُّ أخبار. كلُّ ما كانت تعرفه هو أن هينرييتا عادت إلى المنزل، وأنَّ لويزا، مع أنَّها باتت تتعافى بسرعةٍ، كانت ما تزال في لايم. كانت تفكِّر فيهم جميعًا باهتمامٍ ذات مساءٍ حين وصلتها من ماري رسالةٌ أكبر من المعتاد، وممَّا زاد من شعورها بالسَّعادة والمفاجأة هو أنَّ الرِّسالة كانت مصحوبةً بتحيَّات الأدميرال كروفت والسَّيدة زوجته.

لا بدَّ وأنَّ الزَّوجان آل كروفت قد حضرا إلى باث! كان ذلك مشيرًا للاهتمام بالنَّسبة إليها. فقد كان قلبها يميل إليهما بطبيعة الحال.

صاح السيِّر والتر قائلاً: «ما هذا؟ هل وصل آل كروفت إلى باث؟ آل كروفت اللذان يستأجران قصر كيلينتش؟ ماذا أحضرا لك؟».

«رسالةٌ من كوخ أبركروس يا سيِّدي».

«أوه! تلك الرسائل ما هي إلَّا وسيلة ملائمة تؤمّن لهما لقاءً بنا. ولكن كان عليّ القيام بزيارة الأدميرال كروفث على أيّ حال، فأنا أعلم الحقوق التي أدين بها لمن يستأجر قصري».

لم تستطع آن الاستماع إلى حديثه أكثر من ذلك. لم تعرف حتى كيف نجا الأدميرال المسكين من الانتقادات الموجّهة إلى مظهره، فقد استحوزت الرسالة على جلّ اهتمامها. كانت بتاريخ يعود لعدّة أيّام مضت.

1 فبراير

عزيزتي آن:

لن أعتذر عن تأخري في الكتابة إليك، فأنا أعرف أنّ النّاس لا يهتمّون كثيرًا بالرسائل في مكانٍ مثل باث. فلا بدّ وأنّك تشعرين بالسّعادة لدرجة كبيرة تمنعك من الاهتمام بأبركروس التي لا يوجد فيها الكثير ممّا يمكن للمرء أن يحكي عنه، كما تعلمين. كان عيد الكريسماس مملاً للغاية، إذ لم يقيم السيّد والسّيّدة ماسجروف بإقامة أيّ مآدب غداء طوال فترة الأعياد. فأنا لا أعدّ آل هايتز أشخاصًا يُعتدّ بهم. ولكن ها قد انتهت فترة

الأعياد أخيرًا. لا أعتقد أنه يوجد هناك أيُّ أطفالٍ سبق وأن حصلوا على إجازةٍ طويلةٍ إلى هذا الحدِّ من قبل. فأنا متيقنة من أنني لم أحصل على مثلها. لقد غادر الجميع المنزل بالأمس، ما عدا صغار آل هارفيل. ستتفاجئين عندما تعلمين أنَّهم لم يعودوا إلى منزلهم أبدًا. لا بدَّ وأنَّ السيِّدة هارفيل أمٌّ غريبةٌ للغاية حتى تتمكَّن من فراقهم لمدةٍ طويلةٍ كهذه. لا أستطيع أن أفهم هذا الأمر. وهم في رأيي ليسوا أطفالًا لطفاء على الإطلاق، ولكن يبدو أنَّ السيِّدة ماسجروف تحبُّهم مثل أحفادها إن لم يكن أكثر. يا له من طقسٍ بشعٍ هذا الذي عانينا منه! ربَّما لا تشعرُونَ بأثره في باث حيث الطُّرقات ممهَّدة، ولكن في الرِّيف يبدو أثره جليًّا. لم يقم أيُّ شخصٍ بزيارتي منذ الأسبوع الثَّاني من يناير باستثناء تشارلز هايتز الذي صار يزورنا بدرجةٍ تفوق كثيرًا ما هو مرحَّبٌ به. أُسرُّ لك بأنَّني أعتقد أنَّه من المؤسف للغاية أنَّ هينرييتا لم تبق في لايم لفترةٍ طويلةٍ مثل لويزا. فقد كان هذا سيبقيها بعيدًا عنه بعض الشيء. تمَّ إرسال العربة اليوم لتحضر لويزا وآل هارفيل غدًا. ولكن لم ندعَ لتناول الغداء معهم حتى اليوم الذي يليه، ذلك أنَّ السيِّدة ماسجروف تخشى أن تكون مرهقةً من أثر الرِّحلة، ولكن من غير المحتمل حدوث ذلك، نظرًا لأنَّه سيتمُّ الاعتناء بها جيّدًا. وسيلأثمني بدرجةٍ أكبر أن أتناول الغداء هناك غدًا. يسعدني أنكَ تعتقدين أنَّ السيِّدة إليوت لطيفٌ للغاية، ووددتُ لو كان بوسعي التَّعرُّف به أنا

الأخرى. ولكن هذا هو حظي المعتاد، فدائمًا ما أكون بعيدةً عندما يحدث أيُّ شيءٍ مثيرٍ للاهتمام، ودائمًا ما أكون آخر أفراد العائلة الذين يعيرونهم أحدٌ أيَّ اهتمام. يا له من وقتٍ طويلٍ للغاية هذا الذي قضته السيِّدة كلاي بصحبة إليزابيث! ألا تنتوي الرِّحيل أبدًا؟ ولكن ربَّما لن تتمَّ دعوتنا حتى لو تركت غرفتها خالية. دعيني أعرف رأيك بخصوص هذا الموضوع. وكما تعلمين، فأنا لا أتوقَّع أن يُدعى أطفالي أيضًا. إذ يمكنني أن أتركهم في المنزل الكبير لحوالي شهرٍ أو ستَّة أسابيع. عرفت الآن أنَّ آل كروفت ذاهبان إلى باث على الفور. فهما يعتقدان أنَّ الأدميرال مصابٌ بالتُّقرس. سمع تشارلز بالأمر عن طريق المصادفة، إذ لم يتحلَّيا بما يكفي من اللياقة لإبلاغي بالأمر، أو ليعرضا القيام بتوصيل أيِّ شيء. لا أعتقد أنَّهما جيرانٌ طيِّبون على الإطلاق. فنحن لا نراهما إطلاقًا، وهذا يُعدُّ إهمالًا بالغًا. يرسل تشارلز حبَّه وتحياَّته هو الآخر. مع حبِّي،

ماري م.

يُوسُفني أن أقول إنَّني لست بخيرٍ على الإطلاق. أخبرتني جيمايما للتَّوَّ أنَّ الجزار قال لها إنَّه يوجد دورٌ منتشرٌ من التهاب الحلق الشَّدِيد. أعتقد أنَّني سأصاب به. وكما تعلمين، فعندما أصاب بالتهاب الحلق يكون حالي أسوأ كثيرًا من حال الآخرين.

وبهذا انتهى الجزء الأول من الرسالة التي وُضِعَتْ في ظرفٍ يحتوي على رسالةٍ أخرى تكاد تظاهيها طولًا.

أُبْقِيتِ الظَّرْفَ مفتوحًا كي أرسل لك أخبار لويزا وكيف تحمّلت الرحلة. وأنا سعيدةٌ لأنني فعلت، ذلك أنَّ لديَّ الكثير لأضيفه. في بادئ الأمر، وصلتني بالأمس رسالةٌ من السيِّدة كروفت تعرض فيها أن تقوم بتوصيل أيِّ شيءٍ إليك. كانت رسالةٌ لطيفةٌ وودودةٌ للغاية، موجَّهةٌ إليَّ حسب الأصول. لذا، سأتمكَّن من الإطالة في الرِّسالة كما أرغب. لا يبدو الأدميرال مريضًا للغاية، ولكنني حقًا أرجو أن تفيده باثٍ بالقدر الذي يرغب فيه. سأسعد حقًا بعودتهما مرَّةً ثانية، فحينًا لا يستطيع الاستغناء عن وجود أسرةٍ لطيفةٍ مثل أسرتهما. ولكن لنعد إلى لويزا الآن. لديَّ شيءٌ أخبرك به سوف يثير دهشتك للغاية. لقد وصلت هي وآل هارفيل يوم الثلاثاء بسلامٍ وذهبنا في المساء للسُّؤال عن حالها، وفوجئنا حين لم نجد القبطان بينيك بصحبتهما، مع أنَّه كان مدعوًّا مع آل هارفيل. فما الذي تعتقدين أنَّه كان السَّبب؟ لم يكن السَّبب أكثر ولا أقلَّ من كونه واقعًا في حبِّ لويزا، واختار عدم الدَّهاب إلى أبركروس حتى يحصل على ردٍّ من السيِّد ماسجروف، إذ كان قد اتَّفَق معها على كلِّ شيءٍ قبل أن ترحل، وأرسل رسالةً إلى والدها مع القبطان هارفيل. حقًا، بشرفي، ألا تشعرين بالدَّهشة؟ سأشعر بالدَّهشة إن

كنتِ قد شعرتِ بأيّ تلميحاتٍ حيال الأمر من قبل، فأنا لم أشعر بذلك على الإطلاق. والسيدة ماسجروف تصرُّ بجديّة تامّة أنّها لم تكن تعرف أيّ شيءٍ عن الموضوع. ولكن مع ذلك كلّهُ، نحن جميعًا سعداء للغاية. فمع أنّه لا يضاهاى زواجها من القبطان وينتورث، إلّا أنّه أفضل بكثيرٍ من تشارلز هايتير. وقد ردّ السيّد ماسجروف بالموافقة، ومن المتوقّع حضور القبطان بينيك اليوم. تقول السيدة هارفيل إنّ زوجها يشعر بالحزن بسبب شقيقته المسكينة، ولكن كلاهما يحبّان لويزا. وفي الواقع فإنّني أتفق مع السيدة هارفيل في أنّنا صرنا نحبُّ لويزا أكثر بعد أن قمنا برعايتها. يتساءل تشارلز عمّا سيقوله القبطان وينتورث، ولكن إن كنت تتذكّرين، لم أعتقد أبدًا أنّه متعلّق بلويزا. لم أر أيّ شيءٍ يدلُّ على ذلك. وكما ترين فهذا ينهي الجدل المفترض حول كون القبطان بينيك معجبًا بك. لم أستطع أن أفهم أبدًا كيف فكّر تشارلز في مثل ذلك الأمر. أرجو أن يصير أطف الآن. حتمًا لا يعدُّ هذا الارتباط رائعًا بالنسبة إلى لويزا ماسجروف، ولكنّه أفضل مليون مرّة من الزّواج من آل هايتير.

لم يكن هناك داعٍ لأن تشعر ماري بالقلق من كون شقيقتها على علمٍ بالأخبار على الإطلاق. فلم يسبق وأن شعرت بهذا القدر من الدّهشة في حياتها من قبل. القبطان بينيك ولويزا ماسجروف! كان الأمر مذهشًا بصورة

تستعصي على التّصديق! احتاجت لبذل جهدٍ فائقٍ لكي تتمكّن من البقاء في الغرفة، والحفاظ على هدوئها، والإجابة على الأسئلة المعتادة الموجهة إليها في تلك اللحظة. ومن حسن حظّها أنّها لم تكن كثيرة. أراد السّير والتر أن يعرف إن كان آل كروفت يسافران بعربةٍ تجرّها أربعة خيول، وإن كانا سيستقرّان في مكانٍ في باث يكون ملائمًا لكي يزورهما فيه هو والآنسة إليوت. ولكنّه لم يشعر بالفضول حيال شيءٍ آخر بخلاف ذلك.

قالت إليزابيث: «كيف حال ماري؟»، ودون أن تنتظر جوابًا أكملت قائلةً: «وماذا بحقّ السّماء دعا آل كروفت للقدوم إلى باث؟».

«لقد أتيا بسبب الأدميرال كروفت، إذ يعتقدان أنّه مصابٌّ بالنُّقرس».

قال السّير والتر: «النُّقرس والعجز، يا للسّيّد العجوز المسكين!».

سألت إليزابيث: «هل لهما أيُّ معارف هنا؟».

«لا أدري، ولكن لا أعتقد أنّ الأدميرال كروفت، في مثل سنّه هذه ومهنته هذه، يمكن أن يكون له العديد من المعارف في مكانٍ كهذا».

قال السّير والتر ببرود: «أعتقد أنّ الأدميرال كروفت سيشتهر في باث بصورةٍ أساسيّةٍ بصفته مستأجر قصر كيليتش. إليزابيث، هل يمكننا أن نجازف، ونقوم بتقديمه هو وزوجته في لورا بليس؟».

«أوه! لا، لا أعتقد هذا. فنحن نمثُ بصلة قرابةٍ إلى اللّيدي دالريمبل؛ ونظرًا لكوننا من أبناء العمومة، فعلينا أن نتحلّى بالحرص البالغ لئلا نخرجها بتقديم معارف قد لا يحوزون استحسانها. لو لم تكن تربطنا صلة قرابةٍ لما كان الأمر مهمًّا. ولكن بصفتنا من أبناء العمومة، يجب أن نتحلّى بالحرص فيما يتعلّق بأيّ اقتراحٍ نقدّمه. من الأفضل أن نترك آل كروفت يعثران على من هم من مستواهم نفسه. فهناك العديد من الرّجال غربيي الهيئة الذين يتجولون في المكان هنا، وقد بلغني أنّهم بحّارة. سينضمُّ آل كروفت إلى صحبتهم!».

كان هذا هو كلّ الاهتمام الذي أبداه السّير والتر وإليزابيث بالرّسالة. وبعد أن أبدت السيّدة كلاي اهتمامًا أكثر تهذيبيًا، وسألت عن السيّدة تشارلز ماسجروف وابنيها الصّغيرين الجميلين، صار بمقدور آن أن تغادر.

بعد أن ذهبت إلى غرفتها الخاصة، حاولت أن تفهم الأمر. كان تشارلز محققاً في تساؤله عن شعور القبطان وينتورث! ربّما تخلّى عن الأمر وابتعد عن لويزا ولم يعد منشغلاً بالحبّ بعد أن اكتشف أنّه لا يحبّها. لم تتحمّل فكرة حدوث أيّ نوع من الخيانة أو الطّيش أو أيّ شيءٍ يماثل سوء المعاملة بينه وبين صديقه. لم تتحمّل إمكانيّة انتهاء صداقةٍ مثل صداقتهما بطريقةٍ غير عادلة.

القبطان بينيك ولويزا ماسجروف! لويزا ماسجروف المبتهجة المرحّة الثّرائرة، والقبطان بينيك المكتئب المفكّر الحساس المهتمّ بالقراءة: بدا أنّ كلّ شيءٍ فيهما لا يلائم الآخر. كان تفكيرهما مختلفاً تمام الاختلاف! ما الذي جذبهما بعضهما إلى بعضٍ؟ ما لبثت الإجابة أن اتّضحت. كان الموقف نفسه هو ما ساعد على ذلك. فقد قضيا بضعة أسابيع أحدهما برفقة الآخر، وكانا يعيشان في كنف الأسرة الصّغيرة نفسها. ومنذ رحيل هينرييتا، لا بدّ وأنّهما صارا يعتمدان بصورةٍ كليّةٍ أحدهما على الآخر. وحيث إنّ لويزا كانت تتعافى من المرض، فقد كانت في حالةٍ تستدعي الاهتمام، كما لم يكن القبطان بينيك في حالةٍ من الحزن العميق. كانت هذه النّقطة مثار شكّ آن من قبل. وبدلاً من الوصول إلى نفس الاستنتاج الذي توصّلت إليه ماري من الطّريقة التي سارت بها الأحداث الحاليّة، أكّد

هذا فكرة أنه كانت لديه بعض المشاعر تجاهها هي من قبل. ولكنها لم تقصد التباهي بالأمر بدرجة أكبر مما كانت ستسمح ماري لها به. فقد كانت على يقين بأن أي امرأة شابة لطيفة أبدت الاهتمام بالاستماع إليه، وأظهرت مشاعرها تجاهه، كانت ستلقى هذه المجاملة نفسها. فقد كان ذا قلب حنون، وفي حاجة إلى أن يشعر بالحب حيال شخص ما.

لم تر سبباً يحول دون تمتعهما بالسعادة. كانت لويزا متحمسة للبحرية منذ البداية، ولن يلبث أن يزداد الشبه بينهما. سيزداد طابعه هو بهجة، وستعلم هي أن تتحمس لسكوت وللورد بايرون. لا، بل لا بد وأن هذا قد حدث بالفعل، لا بد وأنهما قد وقعا في الحب بسبب الشعر. بدت فكرة مسلية أن تصبح لويزا ماسجروف ذات ذائقة أدبية وتفكير عاطفي. ولكن لم يكن لديها أدنى شك في أن هذا قد حدث بالفعل. بدا أن ذلك اليوم في لايم، وسقوطها من على حاجز الأمواج، قد أثر في صحتها وأعصابها وشجاعتها وشخصيتها حتى نهاية حياتها، تماماً مثلما أثر في قدرها.

وخلاصة الأمر هو أنه إن كان بوسع المرأة، التي أدركت حسنات القبطان وينتورث، أن تفضل رجلاً آخر، فإنه لن يكون في الأمر ما يثير العجب بعد ذلك. وإن لم يخسر القبطان وينتورث صديقه بسبب الموضوع، فلن يكون

هناك ما يستدعي الأسف إذن. لا، لم يكن الشُّعور بالأسف هو ما جعل دَقَّات قلب آن تتسارع رَغْمًا عنها، ووجنتيها تتخضَّبان بالحمرة، حين فَكَّرت في أنَّ القبطان وينتورث حرٌّ طليق. فقد انتابتها بعض المشاعر التي منعها الخجل من التَّفكير فيها. بدت مشاعرها تلك وكأنَّها بهجةٌ وسعادةٌ عارمة!

كانت تتوق إلى رؤية آل كروف، ولكن حين حدث اللِّقاء، بدا من الواضح أنَّ الأخبار لم تبلغهما بعد. تَمَّت الزِّيارة الرَّسْمِيَّة، وتمَّ رُدُّها بزيارةٍ مماثلةٍ، ودُكرت لويزا ماسجروف كما ذُكر القبطان بينيك أيضًا دون حتى شبح ابتسامة.

استقرَّ آل كروف في سكنٍ يقع في شارع جاي، وحاز ذلك رضا السيِّر والتر. لم يشعر بالخزي من معرفتهما على الإطلاق، بل في الواقع شغل الأدميرال تفكيره، وصار يتحدَّث عنه أكثر بكثيرٍ ممَّا كان الأدميرال نفسه يفكِّر فيه، أو يتحدَّث عنه.

كان لآل كروف عددٌ كبيرٌ من المعارف في باث، بالقدر الذي يرغبان فيه، وكانا يعدَّان صلتَهما بآل إليوت مجرَّد رَسْمِيَّاتٍ لا يستمدَّان منها أدنى

متعة. التزما بعادتهما التي ألفاها في الرّيف والتي تدفعهما إلى البقاء معًا معظم الوقت. أمره الطّبيب بالمشي لمقاومة أثر النّقرس. شاركته السيّدة كروفت كلّ شيءٍ وكأنّها تمارس المشي حفاظًا على حياتها هي، كي تساعد هـو. وأينما ذهبت آن، كانت تشاهد هـما. اصطحبت هـا الليدي راسيل في عربتها كلّ صباحٍ تقريبًا، ولم تتوقّف عن التّفكير فيهما أبدًا، ولم تمرّ مرّةً دون أن تراهما. وإذ كانت تعرف طبيعة مشاعرهما، كانا يمثلان لها صورةً من السّعادة المطلقة. دومًا ما كانت تراقبهما لأطول فترةٍ ممكنة، وتشعر بالسّعادة حين تتخيّل أنّها تعرف ما الذي يتبادلان الحديث حوله في أثناء سيرهما معًا في سعادة. كما كانت تسعد حين تشاهد الأدميرال يلتقي أحد أصدقائه القدامى ويصافحه بحرارة، وكانت تراقب الحديث الدّائر بحماسٍ في بعض الأحيان عندما يتجمّع بعض أفراد البحريّة وتبدو السيّدة كروفت وسطهم بنفس ذكاء وحدة الضّبّاط المجتمعين حولها.

كانت آن منشغلةً مع الليدي راسيل بدرجةٍ كبيرةٍ تمنعها من الدّهاب لتتّزّه وحدها كثيرًا. ولكن صادف في صباح أحد الأيّام، بعد حوالي أسبوعٍ أو عشرة أيّامٍ من وصول آل كروفت، أنّها شعرت أنّ من الملائم لها أن تترك صديقتها أو عربة صديقتها في جنوب البلدة لتعود وحدها إلى كامدن بليس. وفي أثناء سيرها في شارع ميلسوم، صادفها حسن الطّالع فالتقت

بالأدميرال. كان يقف وحده أمام واجهة أحد متاجر بيع المطبوعات، عاقداً يديه خلف ظهره، يتأمل إحدى المطبوعات بجديّة. كان بوسعها أن تمرّ به دون أن يلحظ وجودها، كما اضطرّت إلى أن تلمسه، وتناديه، قبل أن تتمكن من لفت انتباهه. ولكن حين انتبه، وعرفها، فعل ذلك بكلّ صراحته وروح دعابته المعهودة. «ها! أهذه أنت؟ شكراً، شكراً. ها أنت تعامليني كصديق. ها أنا كما ترين، أحقق في إحدى الصُّور. لا يمكنني المرور بجوار هذا المتجر أبداً دون أن أتوقّف عنده. ولكن يا له من قاربٍ في الصُّورة هنا. فلتنظري إليه. هل رأيت مثيلاً له من قبل؟ لا بدّ وأنّ أولئك الرّسّامين يتمتّعون بشخصيّاتٍ غريبةٍ للغاية إن كانوا يعتقدون أنّه يوجد أيّ شخصٍ قد يخاطر بحياته ويحاول الإبحار في قاربٍ صغيرٍ قديمٍ ومشوّهٍ مثل هذا. ولكن، يوجد رجلان منحشران بداخله بكلّ أريحيّةٍ ويتأمّلان الصُّخور والجبال من حولهما وكأنّ القارب لن ينقلب بهما في اللّحظة التّالية، مع أنّ من المؤكّد حدوث ذلك. أتساءل أين صنّع ذلك القارب؟»، (ضجّ بالضحك)، «لن أغامر بركوبه حتى في بركة ماء. حسناً»، (استدار ليواجهها)، «والآن، أين أنت ذاهبة؟ هل يمكنني أن أذهب إلى أيّ مكانٍ نيابةً عنك، أو أن أصحبك إلى أيّ مكان؟ هل يمكنني أن أفيدك في شيء؟».

«لا، شكرًا. إِلَّا إن أسعدتني بصحبتك خلال الجزء الصَّغير من الطَّرِيق الذي سنسلكه معًا. فأنا في طريقي إلى المنزل».

«سأفعل بكلِّ سرور، وسأرافقك لمسافةٍ أطول أيضًا. أجل، أجل سنستمتع بالسَّير معًا، فلديَّ ما أخبرك به في أثناء سيرنا. هاك، فلتمسكي بذراعي. أجل، لا أشعر بالرَّاحة إن لم تكن هناك امرأةٌ متشبَّهةٌ بذراعي. يا إلهي! يا له من قارب!». ألقى نظرةً أخيرةً طويلةً على القارب، بينما هما يشرعان في السَّير.

«هل قلت إنَّ لديك ما تخبرني به يا سيّدي؟».

«أجل، لديّ بالفعل. سأخبرك بعد قليل. فها هو صديقٌ مُقبِلٌ، القبطان بريجدين. سَأُحيِّيه فحسب، في أثناء مرورنا، ولكنني لن أتوقَّف. كيف حالك؟ بريجدين يحدِّق متعجبًا لرؤية امرأةٍ أخرى برفقتي غير زوجتي. المسكينة ترقد عاجزةً بسبب ألَمٍ في ساقها. فلديها بثرةٌ في أحد كعبيها بحجم عملةٍ معدنيَّةٍ من فئة ثلاثة شلنات. ولو نظرت إلى الجانب الآخر من الطَّرِيق، لرأيت الأدميرال براند مُقبِلًا مع شقيقه. كلاهما يتَّصفان بالدَّناءة! وأنا سعيدٌ أنَّهما ليسا على نفس الجانب من الطَّرِيق. كما أنَّ صوفي لا

تطيقهما. لقد قاما بخداعي بطريقةٍ دنيئةٍ ذات مرّة، واستوليا على بعض أفضل الرّجال العاملين لدي. سأقصُّ عليك الحكاية كاملةً في مرّةٍ أخرى. وها هو السّير ارتشيبالد درو العجوز مُقبِلٌ مع حفيده. انظري، لقد رآنا؛ وها هو يرسل لك قبلة. لقد اعتقد أنّك زوجتي. آه! لقد حلّ السّلام في وقتٍ مبكّرٍ بالنّسبة إلى ذلك الشّاب. يا للسّير ارتشيبالد العجوز المسكين! هل تعجبك باث يا آنسة إليوت؟ فهي تناسبنا للغاية. فدومًا ما نلتقي ببعض الأصدقاء القدامى الذين تمتلئ بهم الطّرقات في كلّ صباح. ولدينا الكثير لتبادل الحديث حوله. وبعدئذٍ، نبتعد عن الجميع، ونغلق الباب على أنفسنا في سكنا، ونجلس في مقعدينا وكأنّنا في كيلينتش، أو حتى كما كنّا نفعل في يارموث أو ديل. وبوسعي أن أخبرك أنّنا نحبُّ سكنا هنا لأنّه يذكّرنا بأوّل سكنٍ لنا في شمال يارموث، فالريّح تصفر داخل أحد الدّواليب بالطّريقة نفسها تمامًا».

بعد أن قطعنا شوطًا من الطّريق، حاولت أن مرّةٍ أخرى أن تسأل عمّا كان يرغب في إخبارها به. كانت تأمل أن يرضي فضولها بعد أن يبتعدا عن شارع ميلسوم. ولكنّها اضطرّت إلى الانتظار؛ ذلك أنّ الأدميرال قرّر ألاّ يبدأ الحديث حتى يصلا إلى شارع بيلمونت الذي كان أكثر اتّساعًا وهدوءًا. ولأنّها لم تكن زوجته في الواقع، اضطرّت إلى أن تتركه يتصرّف

كما يحلو له. ما إن شرعا في الصُّعود عبر شارع بيلمونت حتى بدأ الحديث:

«حسنًا، ستسمعين شيئًا سوف يثير دهشتك الآن. ولكن في البداية عليك أن تخبريني باسم تلك الشَّابَّة التي سوف أحدثك عنها. أتعرفين، تلك الشَّابَّة التي انشغلنا جميعًا بشأنها. الأنسة ماسجروف التي وقع لها ذلك الحادث. اسمها الأوَّل، دومًا ما أنسى اسمها الأوَّل».

شعرت آن بالخرجل من إظهار أنَّها فهمت الأمر منذ البداية، ولكن صار بوسعها الآن أن تذكر اسم لويزا دون حرج.

«أجل، أجل، الأنسة لويزا ماسجروف. هذا هو الاسم. وددتُ لو لم يكن للشَّابَّات كلُّ هذا العدد من الأسماء الجميلة. فلن تتتابني الحيرة لو كنَّ جميعهنَّ يحملن اسم صوفي أو ما شابه. حسنًا، فكما تعرفين، نحن جميعًا ظنَّنا أنَّ فريدريك سيتزوَّج الأنسة لويزا هذه. فقد ظلَّ يغازلها طوال أسابيع. كان تساؤلنا الوحيد هو ما الذي يؤخِّرهما، حتى وقع ذلك الحادث في لايم. وبعدها بات من الواضح أنَّ عليهما الانتظار حتى تتعافى. ولكن حتى ذلك الحين، بدا أنَّ هناك شيئًا غريبًا في سلوكهما. فبدلًا من البقاء في لايم، ذهب هو إلى بليموث، وبعد ذلك ذهب للقاء إدوارد. وبعد عودتنا

من ماينهيده، كان قد ذهب إلى إدوارد، وبقي هناك منذ ذلك الحين. لم نره على الإطلاق منذ نوفمبر. حتى صوفي لم تفهم الأمر. ولكن الموضوع بات أكثر غرابة الآن، فهذه الشابة، الآنسة ماسجروف نفسها، بدلاً من أن تتزوج فريدريك، سوف تتزوج جيمز بينيك. أنت تعرفين جيمز بينيك».

«بعض الشيء. أعرف القبطان بينيك بعض الشيء».

«حسنًا، سوف تتزوجه. لا، بل أغلب الظن أنهما تزوجا بالفعل. فلا أعرف ما الذي يقتضي منهما الانتظار».

قالت آن: «أعتقد أن القبطان بينيك شابٌ لطيفٌ للغاية. وبحسب ما عرفت، فهو يتمتع بشخصية ممتازة».

«أوه! أجل، أجل. لا توجد أيُّ مآخذ على جيمز بينيك. صحيح أنه تمت ترقيته إلى رتبة ضابط في البحرية في الصيف الماضي فحسب، وأن الوقت الآن غير مناسبٍ للمزيد من الترقّيات في عمله، ولكن لا يوجد به أيُّ عيبٍ آخر على حدِّ علمي. أوكد لك أنه شابٌ ممتازٌ طيّب القلب. وهو ضابطٌ

نشيظٌ ومليءٌ بالحماس أيضاً، بخلاف ما قد تعتقدينه ربّما، إذ إنّ سلوكه العاطفيّ هذا ربّما لا يفيه حقّه».

«في الواقع أنت مخطئٌ في هذا يا سيّدي. فأنا لم أر في سلوك القبطان بينيك أبداً دليلاً على افتقاره إلى الشّجاعة. بل اعتقدت أنّ سلوكه بصفةٍ عامّةٍ لطيفٌ للغاية، ويمكنني أن أشهد له بذلك».

«حسنًا، حسنًا، فالسيّّدات هنّ من يمكنه الحكم بصورةٍ أفضل. ولكنّ جيمز بينيك رقيقٌ بدرجةٍ زائدةٍ بالنّسبة إليّ. ومع أنّنا في الغالب متحيّزان، لا يسعنا - أنا وصوفي - إلّا أن نعتقد أنّ سلوكيّات فريدريك تفوق سلوكيّاته هو. فهناك شيءٌ ما في فريدريك يلائم ذوقنا بدرجةٍ أكبر».

شعرت أنّ أنّها وقعت في ورطة. فكلّ ما كانت تعنيه هو أن تنفي تلك الفكرة الشّائعة بأنّ الشّجاعة والرّقة سمتان لا تتفقان، ولم تتعمّد على الإطلاق أن تصوّر سلوك القبطان بينيك على أنّه أفضل سلوكٍ ممكن. وبعد قليلٍ من التّردّد، شرعت تقول: «لم أكن أقارن بين الصّديقين»، ولكنّ الأدميرال قاطعها قائلاً:

«والأمر قطعاً حقيقيّ، وليس مجرد شائعات. فقد بلغنا الخبر من فريدريك نفسه. وصلت رسالةً منه لشقيقته بالأمس أخبرنا فيها بالأمر، بعد أن وصلته الأخبار في رسالةٍ من هارفيل كتبها هذا الأخير على الفور في أبركروس. اعتقد أنهم جميعاً موجودون في أبركروس».

لم تستطع آن مقاومة الفرصة التي سنحت لها، فقالت: «أتمنّى يا أدميرال ألا يكون هناك شيءٌ في أسلوب رسالة القبطان وينتوورث جعلك أنت والسيدة كروفت تشعران بالقلق. فقد بدا من الواضح خلال الخريف الماضي أنّ هناك علاقةً بينه وبين لويزا ماسجروف. ولكن أتمنّى أن تكون العلاقة قد انتهت من كلا الجانبين دون أيّ مشاكل. أتمنّى ألا يكون في رسالته ما يوحي بأنّه يشعر أنّه تعرّض للاستغلال».

«لا، أبداً، ليس هناك شيءٌ على الإطلاق. لا يوجد أيّ سببٍ أو احتجاجٍ من بداية الرسالة إلى نهايتها».

خفضت آن نظرتها كي تخفي ابتسامتها.

«لا، لا، فريدريك ليس من صنف الرجال الذين يئنون بالشكوى؛ فهو أكثر شجاعةً من هذا. وإن كانت الفتاة تفضل رجلاً آخر، فمن اللائق جداً أن تناله».

«بالطبع. ولكن ما أعنيه هو أنني أتمنى ألا يكون هناك شيء في أسلوب رسالة القبطان وينتوورث يوحي لك بأنه يشعر أن صديقه غدر به. فمن الممكن أن يظهر هذا دون أن يقال صراحةً، كما تعلم. سيؤسفني للغاية أن تتدمر صداقةً مثل التي تجمع بينه وبين القبطان بينيك، أو حتى تنجرح بسبب ظرفٍ من هذا النوع».

«أجل، أجل، بوسعي أن أفهمك. ولكن لا يوجد في رسالته أي شيء من هذا القليل. وهو لا يلّمح لبينيك بأي سوءٍ، ولم يذكر حتى أنه متعجبٌ من الأمر. لا، لا يمكنك أن تحزري من أسلوب كتابته أنه قد فُكّر في هذه الآنسة (ما اسمها؟) أبداً من قبل. بل إنه يتمنى من قلبه أن يسعدا معاً، ولا أعتقد أن في هذا ما ينم عن شعوره بالضغينة».

لم تشعر آن باليقين التام الذي أراد الأدميرال أن يعبر لها عنه، ولكن لم يكن هناك جدوى من الإلحاح في السؤال أكثر من ذلك. لذا، قنعت ببعض

التعليقات العادية، أو اكتفت بالاستماع في صمتٍ، بينما واصل الأدميرال الحديث كما يحلو له.

أخيراً قال: «يا للمسكين فريدريك! عليه الآن أن يبدأ من جديد مع شخصٍ آخر. أعتقد أنَّ علينا إحضاره إلى باث. لا بدَّ وأن تقوم صوفي بكتابة رسالةٍ ترجوه فيها أن يأتي إلى باث. فأنا متأكِّد أنَّ هناك عددٌ كافٍ من الفتيات الجميلات هنا. لن تكون هناك أدنى فائدةٍ من عودتنا إلى أبركروس مرَّةً أخرى، فعلى حدِّ علمي، الآنسة ماسجروف الأخرى مخطوبةٌ لابن خالتها، ذلك الكاهن الشاب. ألا تعتقدن يا آنسة إليوت أننا يجب أن نحاول إحضاره إلى باث؟».

بينما كان الأدميرال كروفث يسير مع آن، ويعبر لها عن رغبته في إحضار القبطان وينتورث إلى باث، كان القبطان وينتورث في طريقه إلى هناك بالفعل. وقبل أن ترسل إليه السيّدة كروفث رسالةً، وصل إلى هناك، وشاهدته آن في المرّة التّالية التي خرجت فيها.

كان السيّد إليوت بصحبة ابنتي عمّه والسيّدة كلاي في شارع ميلسوم. شرع المطر في الهطول بشكلٍ خفيفٍ، ولكن بما يكفي لجعل السيّدات يرغبن في البحث عن ملاذٍ للاحتماء، وبما يكفي لجعل الآنسة إليوت ترغب بشدّة في التّمتع بمزيّة العودة إلى المنزل في عربة اللّيدي دالريمبل التي شاهدوها تقف منتظرةً على مبعدهٍ منهم. لذا، دخلت هي وآن والسيّدة كلاي إلى متجر مولاندرز(10) بينما ذهب السيّد إليوت إلى اللّيدي دالريمبل ليطلب منها العون. ما لبث أن انضمَّ إليهم ثانيةً وقد أتمَّ مهمّته، فقد أبدت اللّيدي دالريمبل الموافقة على اصطحابهم إلى المنزل، ولن تلبث أن ترسل في طلبهم بعد بضع دقائق.

كانت عربة اللّيدي دالريمبل ذات مقعدين يتّسع كلّ منهما لفردين، ولذلك لم يكن من الممكن أن تقلّ أكثر من أربعة أفراد. كانت الآنسة كارتريت بصحبة والدتها، ولذلك لم يكن من الممكن أن يتوقّعوا أن تسع العربة السيّدات الثلاث القادمات من كامدن بليس جميعهنّ. لم يكن هناك أدنى شكّ بخصوص الآنسة إليوت. أيّا كان من سيعاني بسبب هذا الوضع، فلا يجب أن تكون هي من تعاني. ولكنّ الأمر استغرق بعض الوقت ريثما تتّفق الاثنتان على الأمر بتهذيب. كان المطر خفيفاً، وكانت آن مخلصّة في إبداء رغبتها في السّير بصحبة السيّد إليوت. ولكنّ السيّدة كلاي أيضاً كانت تعدّ المطر خفيفاً. بل كانت تعتقد أنّه لا يهطل تقريباً، كما أنّ حذاءها كان سميكاً للغاية! أكثر سمكاً من حذاء الآنسة آن. باختصارٍ، أبدت رغبتها بتهذيبٍ بالغٍ في السّير برفقة السيّد إليوت مثل آن تماماً. تناقشتا في الأمر بكرمٍ وتهذيبٍ وتصميمٍ لدرجةٍ حدثت بالآخرين إلى التّدخل لحسم الأمر. قالت الآنسة إليوت إنّ السيّدة كلاي مصابةٌ بالبرد بعض الشيء بالفعل، وحين لجأن إلى السيّد إليوت، قرّر أنّ حذاء ابنة عمّه آن يبدو أكثر سمكاً.

وهكذا تمّ الاتفاق على انضمام السيّدة كلاي إلى الجماعة التي استقلت العربة. وما إن بلغوا هذه النّقطة حتى لمحت آن بكلّ وضوحٍ، إذ كانت تجلس بجوار النّافذة، القبطان وينتورث يسير في الطّريق.

لم يلحظ أحدُ الدَّهْشَةَ التي أصابَتْها، ولكنَّها شعرت على الفور بمدى سذاجتها وحمافتها. انقضت بضع دقائق لم تر خلالها شيئاً حولها بوضوح، واعتراها شعورٌ بالاضطراب. أحسَّت بالحيرة، وحين تمكَّنت من السَّيطرة على مشاعرها، وجدت الآخرين ما يزالون في انتظار العربة بينما السيِّد إليوت (الذي كان خدومًا على الدَّوام) على وشك التَّوجُّه إلى شارع يونيون لقضاء حاجةٍ للسَّيدة كلاي.

اعترتها رغبةٌ عارمةٌ في التَّوجُّه نحو الباب الخارجي. كانت ترغب في التَّأكُّد إن كان الجوُّ ما يزال ممطرًا. لم كان عليها أن تشكَّ في أنَّ لديها دوافع أخرى؟ فلا بدَّ وأنَّ القبطان وينتورث ابتعد عن ناظرها. غادرت مقعدها لتتوجَّه إلى هناك. لا يجب أن تعاني من هذا الانقسام، بحيث يتصرَّف نصف عقلها وكأنَّه دائماً أكثر حكمةً من النِّصف الآخر، أو كأنَّه يشكُّ دائماً في أنَّه أسوأ ممَّا هو عليه بالفعل. ستذهب لتتأكَّد إن كان المطر ما يزال يهطل. ولكنَّها تراجعت إلى الخلف بعد لحظةٍ حين دخل القبطان وينتورث برفقة جماعةٍ من الرِّجال والسَّيِّدات بدا من الواضح أنَّهم من معارفه، وأنَّه انضمَّ إليهم عند بداية شارع ميلسوم. بدت عليه الدَّهْشَةُ والاضطراب لرؤيتها أكثر ممَّا رآته عليه في أيِّ وقتٍ مضى، وتضرَّج وجهه بالحمرة. لأوَّل مرَّةٍ منذ أن تجدَّدت معرفتهما، أحسَّت أنَّها هي الأكثر

تحكُّمًا في مشاعرها منه. فقد كانت لها اليد العليا في الموقف، إذ استعدَّت له خلال اللَّحظات الفائتة. انقضى تأثير كلِّ المشاعر القويَّة المحيِّرة النَّاتجة عن إحساس المفاجأة، والتي اعترتها في بادئ الأمر. ولكنَّها مع ذلك، كانت ما تزال تضطرم بمشاعر قويَّةٍ ما بين الاضطراب، والألم، والمتعة، والشُّرور، والشَّقَاء.

تحدَّث إليها قبل أن يستدير مبتعدًا. كان الحرج يغلب على سلوكه. لم يكن بوسعها أن تصفه بالبرود أو الودِّ أو بأيِّ شيءٍ آخر أكثر وضوحًا من الشُّعور بالحرج.

ولكنَّه عاد بعد برهةٍ قصيرةٍ ليبادلها الحديث مرَّةً ثانية. تبادلًا السُّؤال عن بعض الموضوعات العاديَّة دون أن يعي أيُّ منهما شيئًا ممَّا سمعه في الغالب. استمرَّ إحساس آن بكونه يشعر بالقلق أكثر ممَّا كان من قبل. ولأنَّ الفرصة سنحت لهما لقضاء الكثير من الوقت معًا من قبل، كانا قد اعتادا تبادل الحديث بقدرٍ واضحٍ من اللَّامبالاة والهدوء، ولكنَّه لم ينجح في ذلك الآن.

إِذَا أَنَّهُ تَغَيَّرَ بِفَعْلِ الزَّمَنِ، وَإِذَا أَنَّ لَوِيزَا غَيَّرَتْهُ. بَدَتْ عَلَيْهِ الْحَسَاسِيَّةُ بِطَرِيقَةٍ
مَا. كَانَ يَبْدُو بِمَظْهَرٍ جَيِّدٍ لِلْغَايَةِ، وَلَمْ يَبْدَ عَلَيْهِ الْمَرَضُ أَوْ الْكَآبَةُ. تَحَدَّثَ
عَنْ أُبْرَكَوْس، وَعَنْ آلِ مَاسْجَرُوف، بَلْ عَنْ لَوِيزَا أَيْضًا، حَتَّى إِنَّهُ بَدَأَ
مُشَاكِسًا لِلْحِظَةِ وَهُوَ يَذْكُرُ اسْمَهَا. وَمَعَ ذَلِكَ، لَمْ يَبْدَ عَلَى الْقَبْطَانِ
وَيَنْتَوَرِثِ الشُّعُورَ بِالْارْتِيَاكِ أَوْ بِالْهَدُوءِ، وَلَمْ يَتِمَكَّنْ مِنْ أَنْ يَتَصَنَّعَ خِلَافَ
ذَلِكَ.

لَمْ تَنْدَهِشْ آنَ، وَلَكِنَّهَا شَعُرَتْ بِالْحُزْنِ حِينَ رَفَضَتْ إِيْلِيزَابِيثَ أَنْ تَحْيِيَهُ.
لَا حِظْتَ أَنَّهُ رَأَى إِيْلِيزَابِيثَ، وَأَنَّ إِيْلِيزَابِيثَ رَأَتْهُ، وَأَنَّ كِلَا مِنْهُمَا عَرَفَ الْآخَرَ.
صَارَتْ لَدَيْهَا قِنَاعَةٌ أَنَّهُ كَانَ يَرْغَبُ فِي أَنْ يُعْتَرَفَ بِهِ كَوَاحِدٍ مِنْ مَعَارِفِهَا،
بَلْ وَكَانَ يَتَوَقَّعُ ذَلِكَ، وَشَعُرَتْ بِالْأَلَمِ حِينَ ابْتَعَدَتْ عَنْهُ شَقِيقَتُهَا بِرُودٍ تَامٍّ.

اقْتَرَبَتْ عَرَبَةُ اللَّيْذِيِّ دَالْرِيمْبَلْ بَعْدَ أَنْ كَادَ صَبْرُ الْآنْسَةِ إِلْيُوتِ يَنْفَدَ،
وَدَخَلَ خَادِمٌ لِيُعْلِنَ عَنْ قُدُومِهَا. شَرَعَ الْمَطَرُ فِي الْهَطُولِ مِنْ جَدِيدٍ، وَمَعَ
كُلِّ التَّأْخِيرِ الَّذِي حَدَثَ، وَكُلِّ الْهَرَجِ وَالْحَدِيثِ الدَّائِرِ، عَرَفَ الْحَشْدُ
الصَّغِيرَ الْحَاضِرَ فِي الْمَتَجَرِّ أَنَّ اللَّيْذِيَّ دَالْرِيمْبَلْ أَتَتْ لِتَقْلَّ الْآنْسَةَ إِلْيُوتِ
فِي عَرَبَتِهَا. وَأَخِيرًا، خَرَجَتْ الْآنْسَةُ إِلْيُوتِ وَصَدِيقَتُهَا وَحَدُمَا، دُونَ أَنْ
يُرَافِقَهُمَا سِوَى الْخَادِمِ (إِذْ لَمْ يَكُنْ ابْنُ الْعَمِّ قَدْ عَادَ بَعْدَ). رَاقِبَهُمَا الْقَبْطَانُ

وينتوورث، ثمَّ استدار نحو آ ن مرَّةً ثانية، وأظهر من خلال سلوكه، لا من خلال الحديث، أنَّه يعرض عليها خدماته.

أجابت قائلةً: «أنا ممتنةٌ لك غاية الامتنان، ولكنني لن أذهب برفقتهم. فالعربة لن تتسع لكلِّ هذا العدد. سوف أمشي. فأنا أفضل المشي».

«ولكنَّها تمطر».

«أوه! إنَّه مطرٌ خفيفٌ للغاية. لا يهمني ذلك كثيرًا».

بعد لحظةٍ من الصمت، قال: «مع أنني لم أحضر إلَّا البارحة فحسب، إلَّا أنني تهيأت لبث بالفعل كما ترين»، (أشار نحو مظلةٍ جديدةٍ)، «وأتمنى أن تنتفعي أنتِ بها إن كنتِ مصرَّةً على المشي. ولكنني أعتقد أنَّه سيكون من الأكثر حكمةً أن تسمحي لي بأن أجلب لك عربةً صغيرة».

شعرت بالامتنان البالغ له، ولكنَّها رفضت كلَّ ذلك وكرَّرت قناعتها بأنَّ المطر لن يلبث أن يتوقَّف الآن، وأضافت قائلةً: «إنني أنتظر قدوم السيِّد إليوت فحسب، فأنا متأكِّدةٌ أنَّه سيأتي بعد لحظات».

ما كادت تنتهي من نطق كلماتها حتى دخل السيّد إليوت. تذكّره القبطان وينتورث بوضوح. فلم يكن هناك أيُّ فارقٍ بينه وبين الرّجل الذي وقف على درجات السُّلّم في لايم، متأملاً آن يَعْجَبُ في أثناء مرورها، سوى أنّ سلوكه والجوّ المحيط به الآن صارا يشيان بأنّه أحد المعارف المقرّبين والأصدقاء. دخل متحمّساً، وبدا أنّه لا يرى ولا يفكر في شخصٍ سواها، واعتذر عن تأخّره، وأبدى أسفه لأنّه اضطرَّ إلى أن يبقّيها في انتظاره. أراد أن يصطحبها بعيداً في أسرع وقتٍ قبل أن تزداد شدّة المطر. بعد لحظة، خرجا معاً وهي تتأبّط ذراعه. لم يسعفها الوقت بما يكفي لأكثر من نظرة رقيقة مفعمة بالحرص، وهي تقول «أتمنّى لك صباحاً طيّباً»، قبل أن تمضي.

ما إن ابتعدا عن الأنظار حتى شرعت النّساء في الجماعة المرافقة للقطان وينتورث في الحديث عنهما.

«لا أعتقد أنّ السيّد إليوت يشعر بالنفور من ابنة عمّه، أليس كذلك؟».

«أوه! لا، هذا واضحٌ جدّاً. بوسع المرء أن يحزر ما سيحدث بينهما. فهو بصحبتهُم دوماً، بل إنّه يكاد يحيا مع الأسرة على ما أعتقد. يا له من رجلٍ وسيم!».

«أجل، والسَيِّدة اتكينسون التي تناولت الغداء بصحبته ذات مرّة لدى آل واليس، تقول إنه ألطف رجلٍ قضت الوقت بصحبته على الإطلاق».

«أعتقد أنّ آن إليوت جميلة. جميلةٌ للغاية حين يتأمّلها المرء. ليس من الشائع أن يقول أحدٌ هذا، ولكن عليّ أن أعترف بأنني معجبةٌ بها أكثر من شقيقتها».

«أوه! وأنا كذلك».

«وأنا أيضًا. ليس هناك أيُّ وجهٍ للمقارنة بينهما. ولكنّ الرجال كلّهم يفضلون الأنسة إليوت، ذلك أنّ آن رقيقةٌ بدرجةٍ بالغةٍ بالنسبة إليهم».

كانت آن ستشعر بالامتنان لابن عمّها لو أنّه اكتفى بالسَّير بجوارها، حتى يصلّا إلى كامدن بليس، دون أن ينطق بكلمة. لم تشعر أنّها في حاجةٍ إلى بذل كلّ هذا القدر من الجهد من قبل كي تنصت إليه، مع أنّه كان بالغ الاهتمام والحرص، ومع أنّ موضوعات حديثه كانت شائعةً كعهده دومًا. تحدّث عن الليدي راسيل بالكثير من الشَّاء والدَّفء والإنصاف والتَّمييز، كما قام ببعض التّلميحات العقلائيّة للغاية ضدّ السيِّدة كلاي. ولكن لم

يكن بوسعها الآن سوى التفكير في القبطان وينتورث. لم تتمكّن من فهم طبيعة مشاعره الحالّية، إن كان يعاني بشدّة من خيبة الأمل بالفعل، أم لا. وإلى أن تتمكّن من فهم تلك النّقطة لن تستطيع أن تتصرّف بصورة طبيعيّة.

تمنّت أن تستطيع التّصرّف بحكمةٍ وتعقّلٍ مع مرور الوقت، ولكن يا للأسف! يا للأسف! كان عليها أن تعترف لنفسها بأنّها لا تتحلّى بما يكفي من الحكمة بعد.

كما كان هناك شيء آخر أرادت أن تعرفه بشدّة، وهو طول المدة التي ينتوي أن يقضيها في باث. إمّا أنّه لم يذكر الأمر، وإمّا أنّها لم تستطع أن تتذكّر ذلك. ربّما كان مجرد مرورٍ عابرٍ، ولكنّه في الغالب جاء ليقى. وفي هذه الحالة، وحيث إنّ الجميع غالبًا ما يلتقون معًا في باث، فإنّ الليدي راسيل سوف تصادفه غالبًا في مكانٍ ما. هل ستتذكّره؟ وكيف سيسير الأمر؟

كانت قد اضطرّرت بالفعل إلى إخبار الليدي راسيل بأنّ لويزا ماسجروف ستزوّج من القبطان بينيك. أبدت الليدي راسيل دهشتها من الأمر. والآن، إن جمعتها المصادفة بالقبطان وينتورث، فقد تؤدّي عدم معرفتها بكلّ جوانب الأمر إلى إبداء انحيازها ضده بصورة أكبر.

خرجت آن بصحبة صديقتها في صبيحة اليوم التالي، وقضت الساعة الأولى بلا طائل وهي تترقب حضوره بقلق لا ينقطع. وفي نهاية المطاف، بعد أن عادتا للمرور عبر شارع بولتني، لمحته على الرصيف المقابل من جهة اليمين، من على مبعدةٍ تتيح لها رؤيته لأغلب المسافة في ذلك الطريق. كان هناك رجالٌ آخرون كثيرون يحيطون به، وجماعاتٌ كثيرةٌ من الناس السائرين في نفس الاتجاه، ولكن لم يكن من الممكن أن تخطئه. نظرت لاشعوريًا نحو الليدي راسيل، ولكن دون أن تتوقع منها التعرف عليه بنفس السرعة التي تعرّفت هي عليه بها. لا، لم يكن من المتوقع أن تلاحظه الليدي راسيل حتى تصبحا قبالة تقريبًا. ولكنّها نظرت نحوها بقلقٍ من وقتٍ لآخر، وحين أتت اللحظة التي لا بدَّ وأن تراه فيها، ومع أنّها لم تجرؤ على النظر نحوه مرّةً أخرى (إذ كانت تعرف أنّ ملامح وجهها غير مناسبة لأن يراها أحدُ الآن)، كانت على وعيٍ تامٍّ بعيني الليدي راسيل وهي تديرهما ناحيته وكأنّها باختصارٍ تراقبه بتمعّن. كانت تتفهم تمامًا انبهار الليدي راسيل به، ومدى صعوبة أن تشيح بعينيها عنه، والدّهشة التي لا بدَّ وأنّها اعترتها بعد أن مرّت به ثمان أو تسع سنوات في أجواء غريبةٍ وهو في الخدمة دون أن يفقد شيئًا من حسن مظهره.

وفي النهاية، أرجعت الليدي راسيل رأسها للخلف. والآن هل ستحدّث عنه؟

قالت: «قد تتساءلين عما استرعى انتباهي طوال هذا الوقت، ولكنني كنت أبحث عن ستائر نافذةٍ حدّثني عنها الليدي إيشيا والسيدة فرانكلاند مساء أمس. فقد وصفتا ستائر لنافذة غرفة الاستقبال بأحد المنازل على هذا الجانب من الطريق، وفي هذا الجزء من الشارع، باعتبارها أجمل وأفضل من أيّ ستائر أخرى معلّقة في باث. ولكنني لم أتمكن من تذكّر رقم المنزل بدقّة، وكنت أحاول العثور عليه. ولكن عليّ أن أعترف بأنني لا أرى أيّ ستائر هنا ينطبق عليها هذا الوصف».

تنهّدت آن، وتضرّج وجهها بالحمرة، وابتسمت بشفقةٍ وازدراءٍ، إمّا حيال صديقتها وإمّا حيال نفسها. كان أكثر ما استفزّها هو كلّ هذا الترقّب والحذر دون داعٍ، والذي منعها من أن تتنبّه في اللّحظة الملائمة لترى إن كان لاحظ وجودهما.

مرّ يومٌ أو يومان دون أن يحدث شيء. لم يكن المسرح أو أماكن التّجمّعات التي كان يرتادها في الغالب بدرجةٍ كافيةٍ من الرّقّي لتلائم آل إليوت الذين كانوا يقضون أوقاتهم مساءً بصورةٍ حصريّةٍ في الحفلات الخاصّة الرّاقية والمملّة التي أخذ انشغالهم بها يتزايد أكثر وأكثر. أحسّت آن بالملل من حالة الجمود هذه، وسئمت من كونها لا تعرف أيّ شيء،

واعتقدت أنَّها أقوى ممَّا هي عليه في الواقع لأنَّها لم تختبر قوَّتها تلك بعد. لذا، باتت تتعجَّلُ الأُمسية التي سيقام فيها الحفل الموسيقي. كان حفلًا لصالح شخصٍ ترعاه اللَّيدي دالريمبل، وبالطَّبع كان عليهم أن يحضروه. كان من المتوقَّع أن يكون حفلًا جيّدًا، كما كان القبطان وينتورث مولعًا بالموسيقى. اعتقدت أنَّها ستشعر بالراحة إن سنحت لها الفرصة لتبادل الحديث معه مرَّةً ثانيةً لبضع دقائق فحسب. كما شعرت أنَّها ستتحلَّى بالشَّجاعة الكافية لتبادل الحديث معه إن سنحت لها الفرصة لذلك. كانت إليزابيث قد أشاحت عنه، كما تجاهلته اللَّيدي راسيل، فجعلها ذلك تتمنَّع بقوة الأعصاب وتعتقد أنَّها مدينةٌ له ببعض الاهتمام.

سبق وأن وعدت السيِّدة سميث بقضاء الأُمسية معها، ولكن في زيارةٍ قصيرةٍ وسريعةٍ اعتذرت لها، وقامت بتأجيل الموعد، ووعدتها بأن تقوم بزيارةٍ أطول في الغد. وافقتها السيِّدة سميث على ذلك بطيب خاطر.

قالت: «بكلِّ سرور، ولكن عليك أن تقصِّي عليَّ كلَّ شيءٍ عندما تأتين. مع من ستذهبين؟».

ذَكَرْتُ آنَ أَسْمَاءَ الْجَمِيعِ. لَمْ تَحِرِ السَّيِّدَةُ سَمِثَ جَوَابًا. وَلَكِنْ حِينَ
أَوْشَكَتْ عَلَى الرَّحِيلِ، قَالَتْ وَقَدْ ارْتَسَمَ عَلَى مَلَامَحِهَا تَعْبِيرٌ نَصْفُهُ جَادٌّ،
وَنَصْفُهُ مَشَاكِسُ: «أَتَمَنَّى مِنْ كُلِّ قَلْبِي أَنْ يَكُونَ الْحَفْلُ الْمَوْسِيقِيُّ مُرَضِيًّا.
وَلَا تَتَأَخَّرِي عَلَيَّ غَدًا، إِنْ كَانَ بَوَسْعُكَ الْمَجِيءُ، فَلَدَيَّ شَعُورٌ أَنَّنِي رُبَّمَا لَنْ
أَتَلَقَّى مِنْكَ الْعَدِيدَ مِنَ الزِّيَارَاتِ بَعْدَ ذَلِكَ».

اعْتَرَى آنَ شَعُورٌ بِالْدَّهْشَةِ وَالْحَيْرَةِ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ وَقَفَتْ لِلْحِظَةِ فِي تَوْتُرٍ،
اضْطَرَّتْ إِلَى الرَّحِيلِ مُسْرِعَةً دُونَ أَنْ تَشْعُرَ بِالْأَسْفِ لَذَلِكَ.

(10) متَجَرٌّ شَهِيرٌ لِبَيْعِ الْمَخْبُوزَاتِ فِي بَاثِ.

كان السَّير والتر وابنتاه والسَّيِّدة كلاي أوَّل من وصل من أفراد جماعتهم إلى الغرفة التي سيجتمعون فيها ذلك المساء. ولأنَّه كان يتعيَّن عليهم انتظار وصول اللّيدي دالريمبل، وقفوا في الانتظار إلى جانب مدفأة في الغرفة المثمَّنة الأضلاع. ولكن ما إن استقرُّوا هناك حتى انفتح الباب وولج القبطان وينتورث الغرفة وحده. كانت المسافة بينه وبين آن أقرب من تلك التي بينه وبين الآخرين، فتقدَّمت منه أكثر، وشرعت تبادله الحديث على الفور. كان ينتوي أن يكتفي بالانحناء لهم قبل أن يمضي في طريقه، ولكنَّ عبارتها التي نطقت بها برقَّةً قائلةً: «كيف حالك؟»، جعلته يخرج عن صفِّ طویل من الأشخاص ليقف بجوارها ويبادرها السُّؤال بدوره، بالرَّغم من وجود والدها صعب المراس وشقيقتها خلفها. أحسَّت آن بالاطمئنان لأنَّهما كانا يقفان بعيدًا في الخلف، ولم تعرف شيئًا عن التَّعبيرات المرتسمة على ملامحهما. أحسَّت أنَّها قادرةٌ تمام المقدرة على القيام بما تعتقد أنَّه التَّصرُّف الصحيح الذي يجب القيام به.

وبينما هما يتبادلان الحديث، لفت انتباهها همسٌ دائرٌ بين والدها وإليزابيث. لم تتمكَّن من تمييز الحديث، ولكن كان بوسعها أن تحزر

موضوعه. وبعد أن قدّم لهما القبطان وبنطورث انحناءً خفيفةً، أدركت أنّ والدها اتخذ قرارًا صائبًا وقرّر تحيته بصفته واحدًا من معارفهم. كما أسعفها الوقت بنظرة جانبيةٍ شاهدت خلالها إليزابيث وهي تنحني بخفة. ومع أنّ هذه التّحية أتت متأخرةً، وعلى مضضٍ، ودون كياسةٍ، إلّا أنّها كانت أفضل من لا شيء. ورفع هذا من روحها المعنوية.

بعد أن تبادلا الحديث عن الطّقس، وباث، والحفل الموسيقيّ، أخذ حديثهما يتعثّر، فلم يبق سوى القليل ممّا يمكن أن يقال. توقّعت أن يرحل في أيّ لحظةٍ، ولكنّه لم يفعل، ولم يبدُ عليه أنّه يتعجّل الرّحيل. لم يلبث أن قال بحيويّة متجدّدةٍ وابتسامةٍ صغيرةٍ متوهّجة:

«لم أرك تقريبًا منذ ذلك اليوم في لايم. أخشى أن تكوني عانيت من الصّدمة، خاصّة أنّ أثرها لم يظهر عليك حينذاك».

أكّدت له أنّ هذا لم يحدث.

قال: «كانت ساعةً مروّعةً. بل يومًا مروّعًا!»، ومرّر يده أمام عينيه وكأنّ الذّكرى ما تزال مؤلمة. ولكن بعد برهةٍ قصيرةٍ عاد لابتسامةٍ ثانيةٍ، وأضاف

قائلاً: «ولكنَّ ذلك اليوم نتجت عنه بعض الآثار؛ بعض النَّتائج التي هي نقيض المروِّع تمامًا. حين تَمَتَّعتِ أنت بما يكفي من حضور الدَّهن، لكي تقترحي أنَّ بينيك هو أنسب شخصٍ بوسعه الدَّهاب لإحضار الطَّبيب، لم يكن لديك أدنى فكرةٍ ساعتئذٍ أنَّه سيصير واحدًا من أكثر المهتمِّين بأن تتعافى».

«بالأكيد لم تكن لديَّ أدنى فكرة. ولكن يبدو أن... أتمنَّى أن يكون زواجًا سعيدًا؛ ف كلا الطرفين يتحلَّيان بالمبادئ والطَّباع الطَّيبة».

قال دون أن ينظر أمامه مباشرةً: «أجل، ولكن أعتقد أنَّ هذه هي كلُّ حدود الشَّبه بينهما. أتمنَّى لهما السَّعادة من كلِّ قلبي، وأسعد بكلِّ الظروف التي تتيح لهما ذلك. فلا تواجههما أيُّ مشاكل في المنزل، ولا أيُّ اعتراض، أو تقلُّباتٍ في الرَّأي، أو تأجيل. وآل ماسجروف يتصرَّفون على طبيعتهم بكلِّ طيبةٍ وكرم، ولا يشغل بالهم سوى قلق الأهل على راحة ابنتهم. وكلُّ هذا في صالح سعادتهما. ربَّما أكثر من -».

توقَّف عن الحديث وكأنَّه تذكَّر شيئًا ما فجأةً، واعتراه ذات الشُّعور الذي جعل وجنتي آن تتضرَّجان بالحمرة، بينما غَضَّت هي طرفها. ولكنَّه تنحنح

وواصل الحديث قائلاً: «عليّ الاعتراف بأنّي أعتقد أنّ هناك تفاوتاً كبيراً بينهما، وهو تفاوتٌ في نقطةٍ بالغة الأهميّة، ألا وهي تفكيرهما. أعتقد أنّ لويزا ماسجروف فتاةٌ لطيفةٌ للغاية، وحسنة الطّباع، ولا ينقصها حسن الفهم، ولكنّ بينك يفوق ذلك كلّهُ. فهو رجلٌ ذكيٌّ وقارئٌ مطّلع. وأعترف أنّي فوجئت بقراره الارتباط بها. لو كان ذلك نتيجةً لشعوره بالعرفان، ولو كان قد وقع في حبّها بعد أن اعتقد أنّها تميل إليه، لاختلف الأمر. ولكن لا أظنّ أنّ هذا هو ما حدث. بل على العكس، يبدو أنّ مشاعره كانت تلقائيّةً تماماً، وهذا هو ما فاجأني. رجلٌ مثله، في مثل موقفه! بقلبٍ جريح، شبه محطّم! كانت فاني هارفيل مخلوقاً استثنائياً للغاية، وكان هو بالغ التعلّق بها. ولا يمكن أن يتعافى الرّجل من تعلّق قلبه بامرأة كهذه! لا ينبغي له ذلك، ولا يمكنه ذلك».

لم يواصل حديثه هذا، إمّا لوعيه بأنّ صديقه قد تعافى بالفعل، وإمّا لوعيه بشيءٍ آخر. وبالرّغم من الضّيق الذي غلب على نبرة صوته خلال الجزء الأخير من حديثه، وبالرّغم من كلّ الضّجيج السّائد في الغرفة، وارتطام الباب شبه الدّائم، وضجيج الأشخاص الذين يمرّون عبر الغرفة، تمكّنت آن من تمييز كلّ كلمةٍ، وانتابتها مشاعر الدّهشة والسّرور والحيرة. تسارعت أنفاسها، واضطّرت بداخلها العديد من المشاعر المختلفة في وقتٍ واحد.

بدا من المستحيل بالنسبة إليها أن تشارك في مثل هذا الحديث، ولكن بعد برهة من الصمت، شعرت أنه من الضروري أن تقول شيئاً ما، ولم ترغب في تغيير الموضوع كلياً، فأنحرفت عن موضوع الحديث قليلاً، وقالت:

«أعتقد أنك مكثت لفترة طويلة في لايم؟».

«حوالي أسبوعين. لم أتمكن من الرحيل قبل أن أتأكد تمامًا من أن لويزا تتعافى. فقد كنت متورطاً في المشكلة إلى درجة تمنعني من أن أنعم براحة البال. كنت أنا السبب - أنا وحدي. فما كنت لتصمم بعناد هكذا لو لم أكن ضعيف الإرادة. المنطقة الواقعة حول لايم فائقة الجمال. مشيت، وركبت الخيل كثيراً. وكلما شاهدت المكان أكثر، وجدت ما يستحق التقدير».

قالت آن: «سيسعدني كثيراً أن أرى لايم مرة أخرى».

«حقاً؟ لم أعتقد أنك وجدت أي شيء في لايم يجعلك تشعرين بهذا حيالها. فقد أصبت بالهلع والحزن، وأنهلك عقلك وروحك! كنت أعتقد أن انطباعك الأخير عن لايم هو الكراهية الشديدة».

أجابت آن قائلة: « كانت السّاعات الأخيرة هناك مؤلمةً بكلّ تأكيد، ولكن بعد انقضاء الألم، كثيرًا ما يصبح تذكّر المكان ممتعًا. فالمرء لا يحبُّ مكانًا ما بدرجةٍ أقلّ لأنّه عانى فيه بعض الشّيء ما لم يكن قضى وقته كلّهُ هناك في معاناةٍ تامّةٍ، ولا شيء غير ذلك. ولم يكن هذا هو الحال في لايم. فلم نعانِ القلق والحزن سوى خلال السّاعتين الأخيرتين. وقبل ذلك استمتعنا كثيرًا، وكان هناك الكثير ممّا هو جديدٌ وجميل! لم أسافر كثيرًا؛ ولذا فكلُّ مكانٍ جديدٍ مشيرٌ للاهتمام بالنّسبة إلَيّ. ولكنّ لايم جميلةٌ حقًا، وباختصار»، (تخصّب وجهها بالحمرة حين استعادت بعض الذّكريات)، «فبصفةٍ عامّةٍ رأيي عن المكان إيجابيّ للغاية».

ما إن توقّفت عن الحديث حتى انفتح باب الدّخول مرّةً أخرى، وظهرت الجماعة التي كانوا في انتظارها. تردّدت عبارة «الليدي دالريمبل، الليدي دالريمبل»، وبكلّ حماسٍ وتلهّفٍ وكياسةٍ تقدّم السّير والتر والسّيّدتان اللّتان برفقته للقائهما. تقدّمت الليدي دالريمبل والآنسة كارتريت، وبصحبتهما السيّد إيوت والكولونيل واليس اللّذان صادف أن وصلا في اللّحظة نفسها، ودخلوا الغرفة. انضمّ إليهم الباقون، ووجدت آن نفسها بحكم الضّرورة تنضمّ إليهم وتفرّق عن القبطان وينتورث. كان لا بدّ وأن ينقطع حديثهما الشّيق مؤقتًا، ولكنّ حزنها لذلك لم يكن يقارن بالسّعادة التي

استمدَّتْها من ذلك الحديث! فقد عرفت خلال الدقائق العشر الأخيرة الكثير عن مشاعره تجاه لويزا، والكثير عن مشاعره بصفة عامّة، بل أكثر ممّا كان يمكنها أن تتخيّل! استسلمت لمتطلّبات الحفل، وما يستدعيه منها من مجاملاتٍ، بينما غمرتها مشاعر السّعادة والتّوتّر في آنٍ واحد. شعرت بالرّضا حيال الجميع، وحداها تفكيرها إلى التّصرّف بتهذيبٍ ولطفٍ مع الجميع، وشفقةٍ على الجميع، باعتبارهم أقلّ سعادةٍ منها.

هدأت حدّة مشاعرها السّعيدة تلك بعض الشّيء حين تراجعت مبتعدةً عن باقي المجموعة لتضمّ إلى القبطان وينتورث مرّةً أخرى، فوجدته قد اختفى. أسعفها الوقت لتلمحه وهو يستدير داخلًا الغرفة التي سيقام بها الحفل الموسيقي. ذهب، واختفى عن الأنظار. شعرت بالنّدم لوهلة. ولكنّهما سيلتقيان ثانية. سيبحث عنها، وسيجدها قبل أن تنتهي الأمسية. وربّما كان من الأفضل أن يفترقا في الوقت الحالي. فقد كانت في حاجةٍ إلى بعض الوقت كي تتمالك نفسها.

اكتمل أفراد المجموعة حين ظهرت الليدي راسيل بعد ذلك بقليل، ولم يبق سوى أن يجتمعوا ويتوجّهوا نحو غرفة الحفل الموسيقي وهم يظهرون

مكانتهم بقدر الإمكان، ويجذبون الانتباه، ويشيرون الهمسات، ويزعجون الناس بقدر المستطاع.

غمرت السَّعادة العارمة كلّاً من إليزابيث وآن إليوت وهما تدخلان الغرفة. دخلت إليزابيث وهي تعقد ذراعها بذراع الأنسة كارتريت، ونظرها مثبتٌ على الظَّهر العريض للأرملة الفيسكونتيَّة دالريمبل التي كانت أمامها، وبدأ لها أنّ كلّ ما يمكنها أن تتمنَّاه ليس بعيداً عن منالها. أمّا آن، فسيكون الأمر بمثابة الإهانة لطبيعة السَّعادة التي شعرت بها إن عقد المرء أيّ مقارنةٍ بينها وبين سعادة شقيقتها، إذ إنّ مصدر إحداهما الغرور والكبر، بينما مصدر الأخرى كرم المشاعر.

لم تلاحظ آن شيئاً من أناقة الغرفة، ولم يشغل ذلك بالها. بل نبعت سعادتها من الدَّاخل. التمتعت عيناها، واصطبغت وجنتاها بالحمرة، ولكنها لم تكن على درايةٍ بذلك. كلّ ما كان يشغل تفكيرها هو نصف السَّاعة الماضية. وبينما هم في طريقهم إلى مقاعدهم، أعاد عقلها التّفكير فيها بسرعة: اختياره لموضوعات حديثه، وتعبيراته، بل وأكثر من ذلك، سلوكه ونظرته.

لم تتمكّن من أن ترى كلّ هذا سوى بطريقةٍ واحدةٍ، أنّ رأيه في نقص شخصيّة لويزا ماسجروف، والذي بدا عليه الاهتمام بالتعبير عنه، وشعوره بالتعجّب من القبطان بينيك، ومشاعره حيال الحبّ الأوّل بطبيعته الفيّاضة، والجمال التي بدأها دون أن يتمكّن من إكمالها، وعينيه اللّتين أشاح بهما عنها، ونظراته المعبّرة، كلّ ذلك كان بمثابة الدّليل على أنّ قلبه أخذ يميل إليها مرّةً أخرى، وعلى أنّه لم يعد يشعر بالغضب والمرارة والرّغبة في تلافي لقاءها، ولكنّ كلّ ذلك حلّ محلّه لا الصّدّاقة والاحترام فحسب، بل وبعض المشاعر الرّقيقة التي كان يكتنّنها لها. أجل، بعض المشاعر الرّقيقة التي كان يكتنّنها لها في الماضي. لم تتمكّن من التّفكير في أنّ هذا التّغيير يعني شيئاً أقلّ من هذا. لا بدّ وأنّه يكتنّ لها مشاعر الحب.

شغلّتها هذه الأفكار والخيالات المصاحبة لها، وأصابتها بالاضطراب إلى درجةٍ منعتها من ملاحظة أيّ شيءٍ آخر. مرّت عبر الغرفة دون أن تلمحه، ودون أن تحاول حتى البحث عنه. حين اختاروا مقاعدهم وجلسوا جميعاً، جالت بنظرها لترى إن كان في نفس المنطقة من الغرفة، ولكنّه لم يكن موجوداً هناك، ولم تتمكّن من أن تلمحه. بدأ الحفل الموسيقيّ، واضطّرت إلى الاقتناع مؤقتاً بسعادةٍ من نوعٍ أدنى درجةً.

انقسم أفراد المجموعة، وجلسوا على مقعدين متقاربين. كانت آن من ضمن أولئك الذين جلسوا في المقدمة، وقام السيّد إليوت بالتخطيط جيّدًا بمؤازرة صديقه الكولونيل واليس، بحيث تمكّن من الجلوس بجوارها. أمّا الآنسة إليوت التي جلست محاطةً بأبناء عمومتها، وكانت محطّ اهتمام الكولونيل واليس، فقد شعرت بالرّضا التّام.

كانت آن في حالةٍ مزاجيّةٍ ملائمةٍ تمامًا للحفل التّرفيهيّ ذلك المساء. فقد شغل انتباهها بدرجةٍ كافيةٍ: مسّت المقطوعات الرّقيقة مشاعرها، ورفعت المقطوعات المبهجة من روحها المعنويّة، بينما شحذت المقطوعات المعقّدة تركيزها، وصبرت على المقطوعات المثيرة للضّجر. لم يحز حفلٌ موسيقيّ إعجابها إلى هذا الحدّ من قبل، على الأقلّ خلال الفصل الأوّل. قرب نهايته، وخلال الفاصل التّالي لإحدى الأغنيات الإيطاليّة، شرحت معنى كلمات الأغنيّة للسيّد إليوت وهما يمسكان ببرنامج الحفل.

قالت: « هذا هو الإحساس العامّ تقريبًا، أو بالأحرى المعنى العامّ للكلمات، فقطعاً لا يستطيع أحدٌ أن يتحدّث عن الإحساس في إحدى أغنيات الحبّ الإيطاليّة. ولكن هذا هو أقرب معنىٍ بوسعي أن أشرحه. لا أدّعي معرفة اللّغة، فأنا مجرّد تلميذة مبتدئةٍ في اللّغة الإيطاليّة.»

«أجل، أجل، أرى أنك كذلك بالفعل. وأرى أنك لا تعرفين أيَّ شيءٍ عن الأمر على الإطلاق. فمعرفتكَ بالُّغة تكاد لا تكفي لترجمي على الفور هذه الأسطر المقتبسة والملحّنة والمبتورة من اللُّغة الإيطاليّة إلى لغةٍ إنجليزيّةٍ واضحةٍ ومفهومةٍ وأنيقة. لا حاجة بك إلى ذكر المزيد عن مدى جهلك، ففي هذا دليلٌ كافٍ».

«لن أبدي الاعتراض على هذه المجاملة المهدّبة، ولكن سيؤسفني أن أضطرّ إلى الخضوع للاختبار من قبل خبيرٍ حقيقيٍّ».

أجابها قائلاً: «لم أسعد بزيارة كامدن بليس طوال تلك الفترة دون أن أكون قد عرفت بعض الأشياء عن الأنسة آن إليوت، وأنا أعدّها شخصاً بالغ التّواضع لدرجةٍ تمنع النّاس بصفةٍ عامّةٍ من معرفة نصف ما تتمتع به من الفضائل، كما أنّها بارعةٌ للغاية بحيث لا يمكن لامرأةٍ أخرى أن تتحلّى بالتّواضع بصورةٍ طبيعيّةٍ مثلها».

«كم أشعر بالخجل! هذه المجاملات زائدةٌ عن الحد. لقد نسيت ما الفقرة التّالية التي سيتمّ عرضها»، قالتها وهي تستدير لتطالع برنامج الحفل.

قال السيّد إليوت بصوتٍ منخفضٍ: «ربّما كانت لديّ معلوماتٌ حول طبيعة شخصيّتك منذ فترةٍ أطول ممّا تعتقدن». .

«حقّاً؟ كيف هذا؟ لا يمكن أن تكون قد عرفتني إلّا منذ أتيتُ أنا إلى باث. إلّا إن كنتَ سمعتَ شيئاً عنّي من أفراد أسرتي».

«لقد بلغتني معلوماتٌ عنك قبل فترةٍ طويلةٍ من حضورك إلى باث. فقد سمعت أولئك الذين يعرفونك عن قربٍ وهم يصفونك. لقد سمعت عنك قبل سنواتٍ طويلة. شخصيّتك، وطباعك، ومهاراتك، وسلوكك؛ وصفوها كلّها وعرفتُها كلّها».

لم تحب آمال السيّد إليوت. لقد نجح في إثارة فضولها. فلا يمكن لأحدٍ أن يقاوم سحرًا بمثل هذا الغموض. امتلأت آن بالفضول بعد أن عرفت أنّ أناسًا مجهولين وصفوها قبل فترةٍ طويلةٍ لأحد معارفها الجدد. تعجّبت، ووجّهت له الأسئلة بحماسٍ، ولكن دون جدوى. بدا عليه الشُّرور وهي تسأله، ولكنّه رفض الجواب.

«لا، لا، ربّما في وقتٍ لاحقٍ، ولكن ليس الآن». رفض أن يذكر أيّ اسمٍ في الوقت الحالي، ولكنّه أكّد لها أنّ هذا هو ما حدث بالفعل، فقد وصله قبل سنواتٍ وصف الآنسة آن إليوت، ممّا جعله يؤمن بفضائلها، وأثار فضوله للقائها.

لم تستطع آن التّفكير في أيّ شخصٍ بوسعه الحديث عنها بتحيزٍ هكذا، قبل سنواتٍ عديدةٍ مثل السيّد وينتورث القاطن في مونكفورد، وشقيق القبطان وينتورث. ربّما تعرّف على السيّد إليوت، ولكنّها لم تتحلّ بالشّجاعة الكافية للسؤال.

قال: «لطالما أثار اسم آن إليوت اهتمامي. ولطالما سحر خيالي. وإن تجرّأت سأعترف أنّي أتمنّى ألا يتغيّر ذلك الاسم أبداً».

كانت هذه كلماته التي نطق بها على حدّ علمها، ولكن ما إن سمعتها حتى لفتت انتباهها أصواتٌ أخرى تعالت خلفها مباشرةً وجعلت كلّ شيءٍ آخر يبدو ثانويًا مقارنةً بها. كان والدها والليدي دالريمبل يتبادلان الحديث.

قال السَّير والتر: «إنَّه رجلٌ حسن المظهر. حسن المظهر للغاية!».

قالت اللّيدي دالريمبل: «يا له من رجلٍ وسيمٍ حقًّا! وهو أكثر أناقةً ممَّن اعتاد المرء أن يراهم في باث. لا بدَّ وأنَّه أيرلندي».

«لا، ولكنني لا أعرف سوى اسمه. فهو مجرد واحدٍ من المعارف العابرين فحسب. وينتوورث، القبطان وينتوورث من البحريَّة. شقيقته متزوَّجةٌ من مستأجر أملاكي في سومرستشير، فرد أسرة آل كروف الذي يستأجر قصر كيلينتش.»

قبل أن يبلغ السَّير والتر هذه النُّقطة من حديثه، صوّت آن نظرها في الاتجاه الصَّحيح، وميّزت القبطان وينتوورث وهو يقف وسط مجموعةٍ من الرِّجال على مسافةٍ قريبة. حين وقعت عيناها عليه، بدا وكأنَّه قد حوَّل نظره عنها. بدا الأمر وكأنَّها تأخَّرت هُنيئةً، وطوال المدَّة التي استمرَّت فيها بالنَّظر تجاهه، لم ينظر إليها ثانيةً. لم يلبث العرض أن استؤنَّف من جديد واضطرَّت إلى النَّظر أمامها مباشرةً والتَّظاهر بأنَّها توجَّه انتباهها إلى الفرقة الموسيقيَّة.

حين تمكّنت من النّظر تجاهه مرّةً أخرى، كان قد رحل. لم يكن بوسعه الاقتراب منها حتى لو أراد، فقد كانت محاطةً وحبيسةً من كلّ الجوانب. ولكنّها تمنّت لو بادلها النّظر.

كما أنّ حديث السيّد إليوت أثارَ ضيقها. لم تعد ترغب في تبادل الحديث معه. وتمنّت لو لم يكن قريباً منها إلى هذا الحد.

انتهى الفصل الأوّل. وتمنّت أن تحدث بعض التّغييرات المفيدة الآن. وبعد فترةٍ من الصّمت بين أفراد المجموعة، قرّر بعضهم الدّهاب لتناول الشّاي. كانت آن من القلّة التي اختارت البقاء. ظلّت في مقعدها، وكذلك فعلت الليدي راسيل. ولكنّها سعدت بالتّخلّص من السيّد إليوت. ومهما كانت مشاعرها حيال موقف الليدي راسيل، لم تكن تتوي الامتناع عن تبادل الحديث مع القبطان وينتورث إن أتاح لها الفرصة. صارت واثقةً من التّعبير المرتسم على ملامح الليدي راسيل أنّها شاهدته.

ولكنّه لم يأت. أحياناً كانت تتخيّل أنّها لمحتة على مبعده، ولكنّه لم يأت أبداً. انقضى الفاصل المليء بالقلق دون نتائج. عاد الباقون، وامتلأت الغرفة مرّةً أخرى، وعاد الجميع إلى مقاعدهم. كانت أمامهم ساعةً أخرى

من المتعة أو الملل، وساعةً أخرى من الموسيقى التي تثير إمّا البهجة وإمّا التثاؤب، تبعاً للذوق الشخصي إن كان طبعياً أم مفتعلاً. وبالنسبة إلى آن، كانت بصورة أساسية ساعةً مليئةً بالقلق. لم يكن بوسعها مغادرة تلك الغرفة بسلام دون أن تلتقي بالقبطان وينتورث مرةً أخرى، ودون أن يتبادلا ولو نظرةً ودّيةً واحدة.

بعد أن عادوا إلى مقاعدهم من جديد، حدثت العديد من التغيرات التي كانت في صالحها. رفض الكولونيل واليس الجلوس، ودعت إليزابيث والآنسة كارتريت السيّد إليوت ليجلس بينهما بأسلوبٍ لا يمكن رفضه، وبعض التغيرات الأخرى، وبعض التخطيط من جانبها، تمكّنت آن من الجلوس في مكانٍ أقرب من ذي قبل إلى طرف المقعد، بحيث يمكن أن يصل إليها المارة بسهولة أكبر. لم يسعها أن تفعل ذلك دون أن تعقد مقارنةً بينها وبين الآنسة لارول، الآنسة لارول التي لا تضاهي، (11) ولكنها فعلت ذلك دون أن تحصل على نتيجةٍ هي الأخرى. ولكن صادفها حسن الطالع بعد أن رحل بعض الجالسين بجوارها مبكراً، فوجدت نفسها عند طرف المقعد قبل نهاية الحفل.

صار هذا هو موقعها وبجوارها مكانٌ شاغرٌ حين لاح القبطان وابتوورث
للأنظار مرّةً أخرى. رآته على مسافةٍ ليست بالبعيدة، كما رآها هو أيضاً،
ولكن بدت عليه أمارات الجدّة، كما بدا متردّداً، واقترب منها ببطءٍ شديدٍ
حتى أصبح في نهاية المطاف على مسافةٍ تمكّنه من تبادل الحديث معها.

شعرت أنّ هناك خطباً ما، إذ لم يكن هناك شكٌ في التغيّر الذي اعتراه.
كان الفارق بين سلوكه الحالي وسلوكه السّابق في الغرفة المثمّنة الأضلاع
كبيراً للغاية. ترى ما السّبب؟ فكّرت في والدها، وفي اللّيدي راسيل. هل
من الممكن أن يكون أحدهما قد وجّه إليه نظراتٍ سيئة؟ شرع في الحديث
عن الحفل الموسيقيّ بجدّةٍ تليق بالقبطان وابتوورث الذي كان في
أبركروس. اعترف بأنّه يشعر بخيبة الأمل، وبأنّه كان يتوقّع أن يكون الغناء
أفضل. باختصارٍ، كان عليه الاعتراف بأنّه لن يشعر بالأسف عند نهاية
الحفل. أجابت آن مدافعةً عن الحفل الموسيقيّ، ولكنّها أخذت مشاعره
في الاعتبار بطريقةٍ لطيفةٍ حتى انفجرت أساريه، وأجابها ثانيةً وهو يكاد
يبتسم. تبادلا الحديث لبضع دقائق أخرى، واستمرّ مزاجه معتدلاً، حتى إنّ
نظر نحو المقعد وكأنّه يعدّه مكاناً يستحقّ الجلوس فيه. وعندئذٍ، اضطرت
آن إلى أن تستدير بعد لمسةٍ على كتفها لترى أنّها كانت من السيّد إليوت.
طلب المَعذرة، فقد كانوا في حاجةٍ إليها كي تفسّر لهم اللّغة الإيطاليّة مرّةً

ثانيةً، إذ كانت الآنسة كارتريت حريصةً على أن تكون لديها فكرةٌ عامّةٌ عن الأغنيّة الثّالية. لم تستطع آن أن ترفض، ولكن لم يسبق لها وأن شعرت بمثل هذا الألم وهي توضّح في سبيل الحفاظ على سلوكيّاتها المهدّبة.

لم يكن هناك بدٌّ من أن تضع منها بضع دقائق، مع أنّها حاولت أن تقلّل منها بقدر الإمكان. وحين صارت حرّةً مرّةً أخرى، واستدارت لتواجه القبطان وينتورث كما كانت تفعل من قبل، وجدته يحييها بطريقةٍ متحفّظةٍ ومتعجّلة. تمنّى لها أمسيّةً طيّبةً، إذ كان ينتوي الرّحيل وعليه العودة إلى المنزل بأسرع ما يمكن.

«ألا تستحقّ منك هذه الأغنيّة أن تبقى لأجلها؟»، قالتها آن، وقد خطرت لها فجأةً فكرةٌ جعلتها تحرص على تشجيعه على البقاء.

ردّ بحسم: «لا! لا يوجد هنا ما يستحقّ أن أبقى لأجله!»، ورحل بعد ذلك فوراً.

الغيرة من السيّد إيوت! كان هذا هو السّبب الوحيد المفهوم. شعر القبطان وينتورث بالغيرة من اهتمامها به! لم يكن من الممكن أن تصدّق

ذلك قبل أسبوعٍ مضى، بل ولا قبل ثلاث ساعاتٍ مضت! للحظةٍ بدا شعورها بالسعادة غامراً. ولكن يا للأسف! تلا ذلك بعض الأفكار المغايرة تماماً. كيف يمكنها أن تُسكت مشاعر الغيرة هذه؟ وكيف يمكن أن تصله الحقيقة؟ وكيف يمكنه أن يعرف حقيقة مشاعرها، بالرغم من كلِّ الظروف المعقّدة في موقفيهما؟ شعرت بالבוُس وهي تفكّر في اهتمام السيّد إليوت بها؛ فقد سبّب لها ذلك الكثير من الأذى.

(11) الآنسة لارول هي شخصيّةٌ في روايةٍ لفرانسيس بيرني بعنوان «سيسيليا». وفي الرواية تحاول الآنسة لارول أيضاً الجلوس على طرف المقعد خلال حفلٍ موسيقيٍّ كي تتمكّن من تبادل الحديث مع شابٍّ تسعى إلى لفت انتباهه، ولكنّها تفشل في ذلك.

في صباح اليوم التالي، تذكّرت آن بسرورٍ وعدها بالذهاب لزيارة السيّدة سميث. كان ذلك يعني أنّها ستتشغل بعيداً عن المنزل في الوقت الذي كان من المحتمل أن يقوم فيه السيّد إليوت بزيارتهم، إذ بات تفادي السيّد إليوت هدفها الأوّل.

كانت تكنّ له كلّ ودٍّ. وبالرغم من المتاعب التي سبّبا لها اهتمامه بها، كانت تشعر حياله بالامتنان والاحترام، وربّما حتى بالتعاطف. لم يكن بوسعها سوى أن تفكّر في الطُّروف الاستثنائية التي أحاطت بتعارفهما، وفيما بدا أنّه يتمتّع به من حقٍّ في أن تبادله الاهتمام بدافعٍ من كلّ ملابسات الموقف، وبدافعٍ من مشاعره هو، وبسبب فكرته المسبقة عنها. كان الأمر برمّته استثنائياً للغاية. بدا وكأنّ فيه إطرأً لها، ولكنّه كان مؤلماً. كان هناك الكثير ممّا يستدعي الشعور بالأسف. لم يستدع الأمر التّساؤل حول طبيعة شعورها في حال لم يكن هناك وجودٌ للقبطان وينتورث، فهو كان موجوداً بالفعل. وسواءً أكانت نتيجة الوضع الحاليّ المعلق بينهما جيّدة أم سيّئة، فسوف تظلّ مشاعرها ملكاً له إلى الأبد. كانت تؤمن أنّ

فراقهما إلى الأبد سيجعلها تبتعد عن باقي الرجال جميعًا، حتى أكثر من زواجهما.

لم يمرَّ أحدٌ من قبل في شوارع باث وهو منشغلٌ بأفكارٍ ساميةٍ عن قوّة الحبّ والوفاء الأبديّ مثل تلك التي انشغلت بها آن في طريقها من كامدن بليس إلى مساكن ويستجيت، حتى كادت تنشر النّقاء والعبير على امتداد الطّريق.

كانت على يقينٍ بأنّها ستلقى استقبالًا حسنًا، وبدت صديقتها في هذا الصّباح ممتنةً أكثر من المعتاد لزيارتها وكأنّها لم تكن تتوقّع قدومها، مع أنّهما كانتا متّفقتين على الموعد.

طلبت أن تحكي لها آن عن الحفل الموسيقيّ على الفور، وكانت ذكريات آن عن الحفل سعيدةً لدرجةٍ أضاءت ملامحها وجعلتها تبتهج بالحديث عنه. حكّت كلّ ما بوسعها عن طيب خاطر. ولكنّ ما حكته كان قليلًا بالنّسبة إلى شخصٍ حضر الحفل، ولم يُرضِ فضولَ شخصٍ مليءٍ بالأسئلة مثل السيّدة سميث التي سبق وأن بلغتْها أخبارٌ عن النّجاح العامّ للحفل، وعن نتائج الأمسية، عن طريق سيّدةٍ تعمل في غسل الملابس، وأحدٍ

النُّدُل، أكثر ممَّا استطاعت أن تحكيه لها آن. شرعت الآن تسأل دون جدوى عن بعض التَّفاصيل الخاصَّة بالحضور. كانت السيِّدة سميث تعرف بالاسم كلَّ أصحاب الشَّان والشُّهرة في باث.

قالت: «أعتقد أنَّ صغار آل دوراند كانوا هناك، وكانت أفواههم مفتوحةً لالتقاط الموسيقى مثل فراخ الدُّوريِّ الذين ينتظرون تلقِّي الطَّعام. فهم لا يفوِّتون أيَّ حفل».

«أجل. لم أشاهدهم بنفسي، ولكنني سمعت السيِّد إليوت يذكر أنَّهم موجودون بالغرفة».

«وآل أبستون، هل كانوا موجودين هناك؟ والسيِّدتان الجديدتان الجميلتان اللتان بصحبة الضَّابط الأيرلندي الطَّويل، والذي يقال إنَّه خطب إحداهما؟».

«لا أدري. لا أعتقد أنَّهم كانوا هناك».

«والليدي ماري ماكلين العجوز؟ لا حاجة بي إلى السؤال عنها. فهي لا تفوّت حفلًا أبدًا، كما أعرف، ولا بدّ أنّك رأيتها. فلا بدّ وأنها كانت في دائرة الأشخاص المحيطين بك، فأنت ذهبت برفقة الليدي دالريمبل، ممّا يعني أنّكم كنتم في مقاعد النبلاء، حول الأوركسترا بالطّبع».

«لا، فهذا ما كنت أخشاه. كان الأمر سيزعجني للغاية من كافّة النّواحي. ولكن لحسن الحظّ، الليدي دالريمبل دومًا ما تختار الجلوس بعيدًا. وكنا نجلس في مكانٍ جيّدٍ للغاية كي نستطيع الاستماع جيّدًا، ولكن عليّ الاعتراف بأنّه لم يكن مناسبًا للرؤية، إذ يبدو أنّي شاهدت أقلّ القليل».

«أوه! لقد شاهدت ما يكفي لتسليتك أنت. بوسعي أن أتفهّم ذلك. فهناك نوعٌ من التّسلية يجده الشّخص مع معارفه حتى لو كان وسط حشد، وقد توافر هذا لك. كنتم مجموعة كبيرة العدد، ولم تحتاجي شيئاً غير ذلك».

«ولكن كان عليّ أن أنظر حولي بدرجة أكبر»، قالتها آن وهي تعي أنّها في الواقع كانت تنظر حولها بالفعل، ولكنّها لم تجد ما كانت تبحث عنه.

«لا، لا، فقد كان لديك ما هو أهمُّ من ذلك كي تشغلي به. لا حاجة بك إلى إخباري بأنك قضيت أمسيةً ممتعة. فأنا أرى ذلك منعكسًا في عينيك. وأرى بوضوحٍ تامٍّ كيف قضيت الوقت، وأنَّه كان لديك ما تستمتعين بالاستماع إليه طوال الوقت. وفي فترات الفاصل بين فقرات الحفل، كان ما يمتُّعك هو تبادل الحديث».

ابتسمت آن نصف ابتسامةٍ، وقالت: «هل ترين ذلك منعكسًا في عيني؟».

«أجل، أراه بالفعل. فملاحك تخبرني بوضوحٍ أنك كنت مساءً أمس بصحبة من تربنه ألطف شخصٍ في العالم، وهو الشَّخص الذي يثير اهتمامك في الوقت الحالي أكثر من بقيَّة النَّاس مجتمعين».

تضرَّجت وجنتا آن بالحمرة، وعجزت عن الحديث.

واصلت السيِّدة سميث حديثها، بعد لحظةٍ من الصَّمْت، وقالت: «بطبيعة الحال، أتمنّى أن تصدِّقي كم أقدر كرمك بزيارتي في هذا الصَّبَّاح. إنَّه كرمٌ

بالغُ منك أن تأتي للجلوس بصحبتى في حين أنَّ لديك ما هو ألطف بكثيرٍ
لتشغلى به وقتك».

لم تسمع آن شيئاً من حديثها هذا، إذ كانت ما تزال تشعر بالدهشة
والحيرة من نظرة صديقتها الثاقبة. ولم تتخيّل كيف وصلتها الأخبار
بخصوص القبطان وينتورث. بعد فترةٍ قصيرةٍ أخرى من الصمت، قالت
السيدة سميث:

«رجاءً، هل السيّد إليوت على درايةٍ بعلاقتك بي؟ وهل يعلم أنني موجودةٌ
في باث؟».

«السيّد إليوت!»، كرّرت آن قولها وهي ترفع عينيها نحوها في دهشةٍ.
وبعد لحظةٍ من التّفكير، اتّضح لها خطؤها. انتبهت على الفور، واستجمعت
شجاعتهَا، بعد أن شعرت بالأمان، وما لبثت أن أضافت قائلةً بنباتٍ أكبر:
«هل تعرفين السيّد إليوت؟».

أجابت السيدة سميث بجديّة: «كنت أعرفه عن قربٍ، ولكن يبدو أنَّ
علاقتنا انتهت الآن. فقد مضى وقتٌ طويلٌ منذ آخر لقاءٍ لنا».

«لم أكن أعرف ذلك على الإطلاق. فلم تذكرى الأمر من قبل. لو كنت أعرف ذلك لكنت استمتعت بالحديث عنك معه».

تبنت السيِّدة سميث نبرتها المبتهجة المعتادة، وقالت: «عليَّ الاعتراف بأنَّ هذا هو ما أريدك أن تفعله بالتَّحديد. فأنا أريدك أن تحدّثي السيِّد إليوت عني. فأنا أريد استغلال تأثيرك عليه، لأنَّ بوسعه أن يقدِّم لي خدمةً كبيرة. وإن تحلَّيتِ بالكرم يا عزيزتي الآنسة إليوت، وطلبتِ منه ذلك بنفسك، فإنَّ الأمر قطعاً سينقضي».

أجابت آن قائلةً: «سيسعدني ذلك للغاية، وأرجو ألا يساورك أدنى شكٍّ في أنَّي أرغب في تقديم العون لك مهما كان بسيطاً. ولكنني أعتقد أنَّك تظنَّين أنَّ لي نفوذاً لدى السيِّد إليوت وتأثيراً عليه أكبر بكثيرٍ ممَّا هو في الواقع. أنا متأكِّدة أنَّك استقيت تلك الفكرة بطريقةٍ أو بأخرى. عليك أن تعدِّيني مجرد قريبةٍ من أقرباء السيِّد إليوت. وفي ضوء هذا، إن كان هناك أيُّ شيءٍ تعتقدين أنَّ ابنة عمِّه تستطيع أن تطلبه منه على نحوٍ لائقٍ، فأرجو ألا تتردّدي في طلب العون مني».

وجَّهت لها السيِّدة سميث نظرةً ثابتةً، ثمَّ ابتسمت قائلةً:

«لقد تعجّلت في الأمر بعض الشيء كما أرى. أستمحك عذراً. كان عليّ أن أنتظر حتى تصلني الأخبار بصورةٍ رسميّة. ولكن الآن أيتها الأنسة إليوت العزيزة، وبصفتي صديقةً قديمةً، فلتلمّحي لي متى يمكنني أن أحادثك في الموضوع؟ الأسبوع القادم؟ طبعاً بوسعي أن أتوقّع أن يتمّ الاتفاق على كلّ شيء الأسبوع القادم، ويمكنني ساعتئذٍ أن أخطّط للاستفادة من حسن طالع السيّد إليوت».

أجابت آن قائلةً: «لا، لا الأسبوع القادم، ولا الذي يليه، ولا الذي يليه. أوّكد لك أنّه لن يتمّ الاتفاق على أيّ شيءٍ مما تفكّر في فيه في أيّ وقت. فأنا لن أتزوّج من السيّد إليوت. وأريد أن أعرف السّبب الذي دعاك إلى هذا الاعتقاد».

نظرت إليها السيّدة سميث مرّةً أخرى بتمعّنٍ، وابتسمت وهي تهزّ رأسها، قائلةً:

«كم أتمنّى لو كان بوسعي أن أفهمك! وكم أتمنّى لو أعرف ما الذي تنتوينه! أعتقد أنّك لا تنتوين التّصرّف بقسوةٍ حين تحين اللّحظة المناسبة. ولكن حتى يأتي ذلك الوقت، أنت تعرفين أنّنا نحن معشر النّساء لا ننتوي

أن نقبل بأيّ شخصٍ على الإطلاق. فهذا أمرٌ شائعٌ بيننا بالطبع، أنّا نرفض كلّ رجلٍ حتى يقدّم لنا هو عرضه. ولكن لمّ عليك أن تكوني قاسيةً؟ دعيني أتضرّع إليك نيابةً عن - لا يمكنني أن أقول صديقي الحالي - ولكن عن صديقي السابق. أين يمكنك العثور على علاقةٍ مناسبةٍ أكثر من هذه؟ وأين بوسعك العثور على رجلٍ أكثر نبلاً ولطفًا؟ فلتسمح لي أن أزكي السيّد إليوت. فأنا متيقّنة أنّك لا تسمعين عنه سوى كلّ خيرٍ من الكولونيل واليس. ومن عساه يعرفه بصورةٍ أفضل من الكولونيل واليس؟».

«يا عزيزتي السيّدة سميث، لم يمضِ أكثر من نصف عامٍ على وفاة زوجة السيّد إليوت. ولا ينبغي له إظهار اهتمامه بأيّ شخصٍ على الإطلاق».

صاحت السيّدة سميث بمكر: «أوه! إن كان هذا هو اعتراضك الوحيد، فالسيّد إليوت في أمانٍ إذن، ولن أقلق بشأنه. ولكن لا تنسيني حين يتمّ زواجكما، هذا هو كلّ ما في الأمر. دعيه يعرف أنّي صديقةٌ لك، وعندئذٍ لن يستشعر مشقّة الجهد المطلوب منه. فمن الطّبعيّ بالنّسبة إليه الآن، مع كلّ مشاغله وارتباطاته، أن يحاول تفاديها والتّخلّص منها بقدر المستطاع، وربّما كان هذا طبعيّاً للغاية. تسعٌ وتسعون شخصاً من بين كلّ مائة سيفعلون مثله. وبالطّبع لا يمكن أن يكون على درايةٍ بأهمّيّة الأمر بالنّسبة

إِلَيَّ. حَسَنًا يَا عَزِيزَتِي الْآنَسَةُ إِيْلُوت، أَتَمَنَّى أَنْ تَكُونِي سَعِيدَةً لِلْغَايَةِ. وَالسَّيِّدُ
إِيْلُوت يَتَمَتَّعُ بِحَسَنِ التَّقْدِيرِ الَّذِي يَجْعَلُهُ يَدْرِكُ قِيَمَةَ امْرَأَةٍ مِثْلِكَ.

وَلَنْ تَفْقِدِي الْأَمَانَ كَمَا فَقَدْتَهُ أَنَا. فَأَنْتِ فِي أَمَانٍ مِنْ كَافَّةِ النَّوَاحِي الْمَادِّيَّةِ،
وَفِي أَمَانٍ مِنْ نَاحِيَةِ طَبَاعِهِ. لَنْ يَضِلَّ الطَّرِيقَ، وَلَنْ يَدْعِ الْآخَرِينَ يَقُودُونَهُ إِلَى
الْخَرَابِ».

قَالَتْ آن: «لَا، فَبُوسَعِي أَنْ أَصَدِّقَ كُلَّ ذَلِكَ بِخُصُوصِ ابْنِ عَمِّي. يَبْدُو
أَنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِطَبْعٍ هَادِئٍ وَحَاسِمٍ، وَلَا يَخْضَعُ إِطْلَاقًا لِأَيِّ تَأْثِيرَاتٍ سَيِّئَةٍ. وَأَنَا
أَكُنُّ لَهُ كُلَّ احْتِرَامٍ. وَلَمْ أَلْحِظْ أَيَّ شَيْءٍ يَمْنَحُنِي أَسْبَابًا لِأَفْعَلِ عَكْسَ ذَلِكَ.
وَلَكِنِّي لَمْ أَعْرِفْهُ مِنْذُ فِتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، وَلَا أَعْتَقِدُ أَنَّهُ رَجُلٌ يُمْكِنُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَعْرِفَهُ
عَنْ قَرَبٍ بِسُرْعَةٍ. أَلَنْ يَقْنَعَكَ أَسْلُوبِي هَذَا فِي الْحَدِيثِ عَنْهُ يَا سَيِّدَةَ سَمِثْ،
أَنَّهُ لَا يُمَثِّلُ لِي أَيَّ شَيْءٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ؟ لَا شَكَّ أَنَّ أَسْلُوبِي هَذَا هَادِئٌ
كَفَايَةً. وَأَقْسَمُ لَكَ أَنَّهُ لَا يُمَثِّلُ أَيَّ شَيْءٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ. وَإِنْ
حَدَثَ وَطَلَبَ مِنِّي الزَّوْاجُ (وَلَا تَوْجَدُ لَدَيَّ أَسْبَابًا تَجْعَلُنِي أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَفْكُرُ
فِي ذَلِكَ) فَلَنْ أَقْبَلَهُ. أُوَكِّدُ لَكَ أَنَّنِي لَنْ أَفْعَلَ. وَأُوَكِّدُ لَكَ أَنَّ السَّيِّدَ إِيْلُوتَ لَمْ
يَكُنْ لَهُ أَيُّ نَصِيبٍ، كَمَا تَعْتَقِدِينَ، مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَتْ الْحَفْلَ

الموسيقى مساء أمس ممتعاً. ليس السيّد إليوت، لم يكن السيّد إليوت هو الذي...».

توقّفت عن الحديث، وقد تخصّب وجهها بالحمرة، واعتراها الندم لأنها لمّحت في حديثها كلّ ذلك التّلميح. ولكن لم يكن أقلّ من ذلك ليكفي، فالسيّدة سميث لم تكن لتقتنع بفشل السيّد إليوت في مسعاه لولا شعورها بوجود شخصٍ آخر سواه. وهكذا استسلمت على الفور وهي تتظاهر بعدم معرفة أيّ شيءٍ آخر. حرصت آن على تفادي المزيد من فضولها، وأرادت أن تعرف بشدّة السّبب الذي دعا السيّدة سميث إلى الاعتقاد بأنّها ستزوّج السيّد إليوت: من أين أتتها تلك الفكرة، أو ممّن عساها تكون قد سمعتها.

«فلتخبريني كيف واثتك تلك الفكرة».

أجابتها السيّدة سميث: «أتني الفكرة في بادئ الأمر حين لاحظت كثرة الوقت الذي تقضيانه معاً، كما شعرت أنّه من الطّبيعيّ أن يتمنّى كلّ من يمتُّ بصلةٍ إليك وإليه حدوث ذلك. ويمكنك الوثوق بأنّ كلّ معارفك فكّروا في الشّيء ذاته. ولكنني لم أسمع أحداً يتحدّث عن الأمر، إلّا قبل يومين».

«وهل تحدّث أحدهم عن الأمر بالفعل؟».

«هل لاحظتِ المرأة التي فتحت لك الباب حين أتيت لزيارتي بالأمس؟».

«لا. ألم تكن هي السيّدة سبيد كالعمّاد، أو الخادمة؟ لم ألاحظ شخصاً محدّداً».

«كانت صديقتي، السيّدة روك. الممرّضة روك، والتي بالمناسبة كان لديها فضولٌ كبيرٌ لترك، وسعدت للغاية حين ساحت لها الفرصة بأن تفتح لك الباب. أتت من مساكن مارلبورو يوم الأحد، وكانت هي من أخبرني أنّك ستزوّجين من السيّد إليوت. وقد أخبرتها بذلك السيّدة وليس نفسها التي بدت مصدراً موثوقاً به. جلست لمدة ساعةٍ برفقتي مساء يوم الاثنين، وحكت لي الحكاية بأكملها».

كرّرت آن ضاحكةً: «الحكاية بأكملها! لا يمكنها على ما أعتقد أن تنسج حكايةً طويلةً من مجرد خبرٍ واحدٍ غير صحيح».

لم تحر السيّدة سميث جواباً.

ما لبثت آن أن واصلت قائلة: «ولكن مع أنه لا توجد أيُّ صحَّةٍ على الإطلاق في كوني أحظى بالتُّفوذ لدى السيِّد إليوت، فسيسرُّني للغاية أن أقدم لك العون بأيِّ طريقةٍ أستطيعها. هل أذكر له أنك موجودةٌ في باث؟ أو هل أوصل له أيَّ رسالة؟».

«لا، شكرًا. لا، قطعًا لا. ربَّما دفعني الحماس في لحظةٍ ما، وأنا واقعةٌ تحت انطباعٍ خاطئ، إلى محاولة الاستعانة بمساعدتك. ولكن ليس الآن، كلاً، أشكرك. ليس لديَّ ما أزعجك به».

«أعتقد أنك ذكرت أنك عرفت السيِّد إليوت لسنواتٍ عديدةٍ؟».

«أجل، لقد فعلت».

«لم يكن ذلك قبل زواجه على ما أعتقد؟».

«أجل، لم يكن متزوِّجًا في بادئ الأمر، حين عرفته».

«وهل كنت تعرفينه جيِّدًا؟».

«حقًا؟ إذن احكي لي كيف كانت طبيعة شخصيته في تلك الفترة من حياته. لديّ فضولٌ بالغٌ لمعرفة كيف كان السيّد إليوت في شرح الشّباب. هل كان يبدو كما هو الآن؟».

«لم أر السيّد إليوت منذ ثلاث سنوات»، أجابتها السيّدة سميث بجديّةٍ بالغةٍ منعتهَا من مواصلة الحديث حول الموضوع. شعرت أنّ أنّها لم تزدها إلّا فضولًا. بقيتا كلتاهما صامتتين، وقد استغرقت السيّدة سميث في التّفكير. وأخيرًا صاحت قائلةً بنبرتها المعتادة التي تغلب عليها المودّة:

«أستميحك عذرًا يا عزيزتي الآنسة إليوت. أرجو أن تعذريني لأنني كنت أمنحك إجاباتٍ مقتضبةً، ولكنني لم أكن واثقةً ممّا يتعيّن عليّ فعله. انتابتنى الشُّكوك، وأخذت أفكر فيما عساي أخبرك به. كانت هناك العديد من الأمور التي يجب وضعها في الاعتبار. فالمرء يكره التّدخّل وإعطاء الانطباعات السيّئة عن الغير والتّسبّب في المشاكل. وحتى الصّورة الخارجيّة البرّاقة للوحدة الأسريّة تبدو وكأنّها تستحقّ الحفاظ عليها، حتى لو لم يكن وراءها أساسٌ قويّ. ولكنني بتّ مصمّمةً، وأعتقد أنّي على حقّ،

وأظنُّ أنَّه من الواجب أن تعرفي الشَّخصيَّة الحقيقيَّة للسَّيِّد إليوت. فمع أنَّني مقتنعةٌ أنَّه لا توجد لديك أدنى نيةٍ في قبوله في الوقت الحاضر، لا يمكن للمرء أن يعرف ما قد يحدث لاحقًا. فربَّما تغيَّرين رأيك حياله في وقتٍ أو آخر. فلتسمعي الحقيقة الآن إذن، بينما ما تزالين غير متحيِّزةٍ إليه. السَّيِّد إليوت رجلٌ ليس له قلبٌ أو ضمير، وهو مخلوقٌ مأكَّرٌ، وحذرٌ، وباردٌ، ولا يفكِّر سوى في نفسه. ومن أجل تحقيق مصلحته، أو راحته الشَّخصيَّة، بوسعه اقتراف أيِّ قسوةٍ أو خيانةٍ يمكنه اقترافها دون المجازفة بسمعته. ولا توجد لديه أدنى شفقةٍ حيال الآخرين. فبوسعه أن يهمل ويهجر أولئك الذين كان هو السَّبب الرَّئيس في تدميرهم دون أدنى شعورٍ بالنَّدَم. ولا يوجد لديه أيُّ حسٍّ بالعدالة أو الشَّفقة. أوه! إنَّ قلبه حالك السَّواد، خاوٍ وحالك السَّواد!».

جعلها تعجَّب آن البادي، وتعبيرُها عن دهشتها، تتوقَّف عن الحديث، ثمَّ أضافت قائلةً بنبرةٍ أكثر هدوءًا:

«لقد أدهشك أسلوبِي في الحديث. عليك أن تلتمسي العذر لسيِّدةٍ جريحةٍ وغاضبةٍ. ولكنني سأحاول التَّحكُّم في نفسي. لن أوجِّه له الإهانات. بل سأكتفي بإخبارك بما عرفته عنه. ستتحدَّث الحقائق عن نفسها. كان

صديقًا حميمًا لزوجي العزيز الذي وثق به، وأحبّه، وظنّه يتّسم بالطّيبة مثله هو. كانت علاقتهما مقرّبةً قبل زواجنا. وجدتهما صديقين حميمين، وصرت أنا الأخرى معجبةً للغاية بالسّيّد إليوت وأكنُّ له كلّ تقدير. فكما تعلمين، لا يفكر المرء بصورة عقلانيّة في سنّ التاسعة عشرة، ولكنّ السّيّد إليوت بدا لي شخصًا طيبًا مثل الآخرين، بل بدا ألطف بكثيرٍ من معظم الآخرين. وكنا نقضي معظم الوقت معًا. كنا نعيش بصورة أساسيّة في لندن في مستوى جيّد للغاية. وكان هو آنذاك في منزلة أدنى ويعاني الفقر ويقطن في سكنٍ مخصّصٍ لدارسي القانون، وبصعوبةٍ يستطيع الحفاظ على مظهره كسيّدٍ محترم. كان منزلنا مفتوحًا له في أيّ وقتٍ يشاؤه، ودومًا ما كان مرحّبًا به. كان بمثابة الشّقيق. وكان المسكين تشارلز الذي يتمتّع بأرقّ وأكرم روح في العالم سيتقاسم معه آخر ما يملكه من مالٍ، وأنا أعرف أنّ محفظته كانت مفتوحةً له على الدّوام، وأعلم أنّه كثيرًا ما أمده بالعون».

قالت آن: «لا بدّ وأنّ هذا كان في تلك الفترة من حياة السّيّد إليوت، والتي دومًا ما أثارت فضولي. لا بدّ وأنّ هذا تزامن مع الفترة نفسها التي عرفه فيها والدي وشقيقتي. فأنا لم أعرفه أبدًا بنفسي، بل سمعت عنه فحسب. ولكن كان هناك شيءٌ ما في سلوكه آنذاك مع والدي وشقيقتي،

وبعد ذلك في الظروف المحيطة بزواجه، لم أستطع أبداً أن أوفّق بينه وبين سلوكه في الحاضر. بدا أنه ينمُّ عن رجلٍ ذي شخصيّةٍ مختلفةٍ».

صاحت السيّدة سميث: «أنا أعرف كلّ شيءٍ، أنا أعرف كلّ شيءٍ. فقد تعرّف على السيّر والتر وشقيقتك قبل أن أتعرّف أنا عليه، ولكنني كثيراً ما سمعته يتحدث عنهما. أعرف أنه تمّت توجيه الدّعوة إليه وتشجيعه على الزّيارة، وأعرف أنه اختار ألاّ يذهب. ربّما أستطيع أن أرضي فضولك حول بعض النّقاط التي قد لا تتوقّعينها. وأمّا بخصوص زواجه، فقد كنت على درايةٍ بكلّ ما يتعلّق به آنذاك. وكنت أعرف كلّ الجوانب الإيجابيّة والسّلبيّة، فقد كنت الصّديقة التي يسرُّ إليها بآماله وخططه. ومع أنّي لم أكن أعرف زوجته قبل ذلك (لأنّ منزلتها الاجتماعيّة المتدنيّة جعلت ذلك أمراً مستحيلاً) إلّا أنّي عرفتُها لبقية حياتها بعد ذلك، أو على الأقلّ إلى ما قبل العامين الأخيرين من حياتها. وبوسعي الإجابة على أيّ سؤالٍ تطرحينه».

قالت آن: «لا، ليس لديّ أيّ سؤالٍ محدّدٍ بخصوصها. فلطالما عرفت أنّهما لم يكونا زوجين سعيدين. ولكن أريد أن أعرف، لم استخفّ بمعرفة والدي في تلك الفترة من حياته كما فعل؟ فالحقُّ أنّ والدي كان يميل إلى رعايته كما يليق، وبكلّ كرم. فلم ابتعد السيّد إليوت؟».

أجابت السيِّدة سميث: «كان للسيِّد إليوت في تلك الفترة من حياته هدفٌ واحدٌ: أن يحقق ثروةً بطريقةٍ أسرع مما يتيحها له ممارسة العمل بالمحاماة. وقد عزم على تحقيق ذلك عن طريق الزَّواج. أو على الأقلَّ كان مصمِّمًا على ألا يفسد فرصته من خلال زواجٍ طائش.

وأنا أعرف أنَّه كان يعتقد (سواءً أكان محقًّا أم لا، لا يمكنني أن أحدِّد بالطبع) أنَّ والدك وشقيقتك من خلال تعاملاتهما الودِّيَّة، ودعواتهما له، كانا يخططان للزَّواج بين الوريث والليدي الشَّابَّة. وكان من المستحيل أن يتوافق ذلك الزَّواج مع أفكاره المتعلقة بالثَّراء والاستقلال. وبوسعي أن أوكِّد لك أنَّ هذا هو ما حداه إلى الابتعاد. ذلك أنَّه قصَّ عليَّ الحكاية بأكملها. فلم يكن يخفي شيئًا عني. بدا من الغريب أنَّني ما إن تركتك في باث حتى صار أوَّل وأهمُّ معارفي بعد الزَّواج هو ابن عمِّك. وإنَّني سمعت باستمرارٍ منه عن والدك وشقيقتك. كان هو يصف واحدةً من الآنستين إليوت، بينما أفكَّر أنا بوذٍّ بالغٍ في الأخرى».

صاحت آن بعد أن خطرت لها فكرةٌ مفاجئة: «ربَّما كنت تحدِّثين السيِّد إليوت عني أحيانًا؟».

«بالتأكيد، فعلت ذلك كثيرًا. كنت أتفاخر بصديقتي آن إليوت، وأشهد لها بأنها مختلفةٌ تمام الاختلاف عن...»

توقفت عن الحديث في الوقت المناسب.

صاحت آن قائلةً: «هذا يفسر شيئًا قاله السيّد إليوت في الليلة الماضية. هذا يوضح الأمر. فقد اكتشفت أنه اعتاد أن يسمع عني، ولم أعرف كيف. كم يمكن للمرء أن يجنح بخياله حين يكون الموضوع متعلقًا به! وكم يمكن أن يخطئ التفكير! ولكن أستمحك عذرًا إن كنت قد قطعت حديثك. إذن فقد تزوّج السيّد إليوت من أجل المال فحسب؟ ربّما كانت هذه الظروف هي ما دعتك لاكتشاف حقيقة شخصيته لأول مرة».

حينئذٍ تردّدت السيّدة سميث بعض الشيء. «أوه! مثل هذه الأمور شائعٌ للغاية. وحين يعتاد المرء التعامل مع العالم من حوله، تصير فكرة زواج الرجل أو المرأة بدافع من المال أمرًا شائعًا للغاية ولا يثير دهشته كما يجب. وقد كنت صغيرةً في السنّ للغاية وأمضي الوقت بصحبة الشباب فحسب. كنّا مجموعةً مستهترّةً يغلب عليها طابع البهجة، ودون أيّ قواعد صارمةٍ للانضباط في السلوك. كنّا نحيا من أجل المتعة فحسب. بتُّ أفكر

بطريقةٍ مختلفةٍ الآن، فالزَّمن والمرض والحزن غيَّروا من أفكارِي. ولكن في تلك الفترة عليَّ أن أعترف أنَّي لم أرَ أيَّ شيءٍ مخزٍ فيما كان يفعله السيِّد إليوت، فقد كنَّا نعتقد أنَّ من واجب المرء أن يبحث عن مصلحته».

«ولكن ألم تكن امرأة ذات مستوى اجتماعيٍّ متدنٍّ للغاية؟».

«أجل، وقد اعترضت أنا على ذلك. ولكنَّه رفض أن يضع هذا في الاعتبار. كان كلُّ ما يريده هو المال والمزيد من المال. كان والدها يربِّي الماشية، بينما كان جدُّها جزَّارًا. ولكن لم يهْمه ذلك في شيء. كانت امرأة جميلةً حاصلةً على قدرٍ ملائمٍ من التَّعليم، وقد جلبها بعض أبناء عمومتها، وألقوها بطريق الصدفة في طريق السيِّد إليوت، ف وقعت في حبِّه. لم يواجه أيَّ صعوبةٍ في اتِّخاذ القرار، أو أيَّ وخز ضميرٍ فيما يتعلَّق بأصلها. فكلُّ حذرِه انصبَّ على التَّأكُّد من مقدار ثروتها الحقيقيَّة قبل أن يرتبط بها. كوني على يقينٍ من أنَّه مهما يكن مقدار اهتمام السيِّد إليوت بمكانته الاجتماعيَّة الآن، لم يكن للأمر أيُّ تقديرٍ في شبابه. كان مهتمًّا بفرصته في الحصول على ملكيَّة كيلينتش، ولكنَّ شرف العائلة كلَّه لم يكن يساوي شيئًا عنده. وكثيرًا ما سمعته يتمنَّى لو كان بوسعه بيع لقب بارونيت، فسيكون بوسع أيِّ شخصٍ الحصول على لقبه، إلى جانب شعار النِّبالة،

ولقب الأسرة، والزَّيِّ المميّز لخدم الأسرة، مقابل خمسين جنيهاً. ولن أدّعي أنني ذكرت ولو نصف ما كان يتحدث به حول الموضوع. لن يكون ذلك عدلاً مني. ولكن يجب أن تطلّعي على الدليل، فما كلُّ هذا سوى مجرد حديث. وسوف أمنحك الدليل».

صاحت آن قائلةً: «حقاً يا عزيزتي السيّدة سميث، لا أريد أيّ دليل. فلم تذكرني أنتِ شيئاً يتناقض مع طبيعة شخصيّة السيّد إليوت كما بدت قبل عدّة سنواتٍ مضت. بل إنّ كلّ هذا يؤكّد ما كنّا نسمعه ونؤمن به. ولكنني أشعر بالفضول حيال السّبب الذي جعله يتغيّر إلى هذا الحدّ الآن؟».

«لكي أشعر بالرضا، هلاًّ تتكرّمين وترنّين الجرس لطلب ماري - بل ابقِي هنا، فأنا واثقة أنّك ستتكرّمين بما هو أكثر من ذلك وتذهبين إلى غرفة نومي بنفسك كي تجلبي لي الصُّندوق الصّغير المرصّع الذي ستجدينه على الرّفّ العلويّ من الخزانة».

حين رأت آن أنّ صديقتها مصمّمة على ذلك الأمر بشدّة، فعلت كما طلبت منها. جلبت الصُّندوق ووضعتّه أمامها. تنهّدت السيّدة سميث وهي تفتحه، وقالت:

«إنَّه مليءٌ بأوراقٍ تخصُّ زوجي. وهذا جزءٌ بسيطٌ فحسب ممَّا اضطرت إلى تفحصه بعد أن فقدته. والرَّسالة التي أبحث عنها كتبها له السيّد إليوت قبل زواجنا، وقد احتفظ هو بها، ولا يمكنني أن أتخيّل السَّبب وراء ذلك. ولكنَّه كان مهملاً وغير منظمٍ، مثل سائر الرِّجال، فيما يتعلَّق بمثل هذه الأشياء.

فحين شرعت في تفحص أوراقه، وجدتها مع أوراقٍ أخرى أقلَّ أهميَّة متناثرة هنا وهناك، من أشخاص مختلفين. بينما، في المقابل، تمَّ إتلاف العديد من الرِّسائل والمذكَّرات ذات الأهميَّة البالغة. ها هي. رفضت إحراقها، فمع أنَّني حتى ذلك الوقت كنت أشعر بالغضب من السيّد إليوت، إلَّا أنَّني كنت مصمِّمةً على الاحتفاظ بكلِّ الرِّسائل التي تثبت علاقتنا المقرَّبة سابقاً. ولديَّ الآن سببٌ آخر يجعلني أشعر بالسَّعادة لكوني احتفظت بها».

كانت الرِّسالة موجَّهةً إلى: «السيّد المبجل تشارلز سميث، تونبريدج ويلز»، ومؤرَّخةً في لندن، بتاريخ يعود إلى يوليو، 1803.

عزيري سميث،

لقد تلّقيت رسالتك. وغمرني فيضُ كرمك. أتمنّى لو أنّ الطّبيعة خلقت قلوبًا أكثر مثل قلبك، ولكنني عشت ثلاثة وعشرين عامًا في هذا العالم ولم أر له مثيلاً. وصدّقني، لستُ في حاجةٍ إلى مساعدتك في الوقت الحاضر، فقد حصلتُ مرّةً أخرى على بعض المال. كم أنا سعيدٌ: لقد تخلّصت من السّير والتر وابنته. عادا إلى كيلينتش بعد أن كادا يجعلاني أقسم أنّي سأقوم بزيارتهما هذا الصّيف. غير أنّ زيارتي الأولى إلى كيلينتش ستكون بصحبة مسّاح أراضٍ كي يخبرني بأفضل سعرٍ يمكنني الحصول عليه عند طرحه في المزاد. ولكن من المحتمل أن يتزوَّج البارونيت مرّةً أخرى، فهو يتمتّع بقدرٍ كافٍ من الحماقة. وإن فعل هذا، فسيتركاني في سلامٍ، وربّما استحقّق الأمر ذلك، بل إنّه يكاد يكون مساوياً لحصولي على الميراث. فقد صار أسوأ حالاً ممّا كان عليه في العام الماضي.

وددتُ لو كنت أحمل أيّ لقبٍ غير إليوت، فقد سئمت منه. وأحمد الرّبّ أنّه يمكنني ألاّ أستخدم اسم والتر! أريدك ألاّ تهينني بمخاطبتي باسم والتر ثانيةً، فأنا أريد أن أظلّ لما تبقى لي من العمر مجرد صديقك المخلص،

و.م. إليوت

لم تستطع آن قراءة مثل هذه الرسالة دون أن تشتعل غضبًا. وحين لاحظت السيِّدة سميث احمرار وجهها، قالت: «أعرف أن لغة الرسالة تنمُّ عن قدرٍ كبيرٍ من عدم الاحترام. فمع أنني نسيت الكلمات المستخدمة بصورةٍ دقيقةٍ، إلَّا أنني ما أزال أتذكَّر المعنى العامَّ بكلِّ وضوح. ولكنَّ هذا يكشف لك عن شخصيَّة الرجل. فلتلحظي اعترافاته لزوجي المسكين. هل يمكن أن يكون هناك ما هو أقسى من ذلك؟».

لم تستطع آن أن تتجاوز بسهولةٍ شعورها بالصَّدمة والإهانة من رؤية مثل تلك الكلمات الموجهة إلى والدها. واضطَّرت إلى تذكير نفسها بأنَّ رؤيتها للرسالة تخرق قواعد الشَّرَف، وأنَّه لا يجب الحكم على أيِّ شخصٍ من خلال شهادةٍ كهذه، وأنَّ الرسائل الخاصَّة لا يجب أن يطلَّع عليها الآخرون، قبل أن تتمكَّن من استعادة هدوئها بالقدر الكافي لتعيد الرسالة التي كانت تتأمَّلها وتقول:

«شكرًا. هذا دليلٌ كافٍ دون أدنى شكٍّ، دليلٌ يثبت كلَّ ما قلته. ولكن لمَّ عاد ليجدِّد علاقته بنا الآن؟».

ابتسمت السيِّدة سميث وهي تصيح قائلة: «بوسعي أن أوضح هذا أيضاً».

«هل يمكنك ذلك حقاً؟».

«أجل. لقد أريتك شخصيَّة السيِّد إليوت كما كانت قبل اثني عشر عاماً. وسأريك شخصيَّته كما صارت عليه الآن. لا يمكنني أن أوفِّر دليلاً كتابياً مرَّةً أخرى، ولكن بوسعي أن أعطيك شهادةً شفويَّةً موثوقٌ بها عمَّا يرغب فيه الآن، وما يسعى إليه. فهو لم يعد منافقاً الآن، بل إنَّه حقاً يرغب في الزَّواج منك. واهتمامه الحاضر بأسرتك مخلصٌ ومن القلب. وسأبوح لك بمصدر المعلومات: صديقه الكولونيل واليس».

«الكولونيل واليس! هل هو من معارفك؟».

«لا، فالمعلومات لم تصلني منه بصورةٍ مباشرة. اقتضى الأمر الانتقال من شخصٍ إلى آخر، ولكن لم يؤثِّر ذلك على شيء. فماء الجدول نقيٌّ كما هو عند المنبع، ومن السَّهل إزالة الشَّوائب القليلة التي تتجمَّع فيه عند تعرُّج مساره. فالسيِّد إليوت يتحدَّث عن رأيه فيك دون تحفُّظٍ مع

الكولونيل واليس، وأعتقد أنّ الكولونيل واليس نفسه رجلٌ عاقلٌ وحريصٌ وذو قدرةٍ على التّمييز. ولكنّ زوجة الكولونيل واليس امرأةٌ حمقاء للغاية، وهو يحكي لها عن أشياء كان من الأفضل ألا يذكر لها شيئاً عنها ويكرّر على مسامعها كلّ شيء. ولمّا كانت معنويّاتها مرتفعةً لأنّها تتعافى، فإنّها تقوم بدورها بترديد كلّ شيءٍ على مسامع الممرّضة. ولمّا كانت الممرّضة تعرف علاقتي بك، فمن الطّبيعيّ أن تحكي لي كلّ شيء. وفي مساء يوم الاثنين، أطلعتني صديقتي العزيزة السيّدة روك على أسرار مساكن مارلبورو. لذا، حين ذكرت لك أنّ هناك حكايةً بأكملها، لم أكن أبالغ بالقدر الذي تصوّرتَه أنت».

«يا عزيزتي السيّدة سميث، معلوماتك منقوصةٌ. فهذا لا يفي بالغرض. فأراء السيّد إليوت بخصوصي لا تفسّر بأيّ حالٍ من الأحوال الجهد الذي بذله من أجل التّصالح مع والدي. فقد حدث كلّ هذا قبل حضوري إلى باث حيث وجدتهما على علاقةٍ طيّبةٍ حين وصلت».

«أعرف أنّك وجدت هذا، وأعرف كلّ شيءٍ بالتّفصيل. ولكن...»

«في الحقيقة يا سيّدة سميث، لا يجب علينا أن نتوقّع الحصول على معلوماتٍ حقيقيّةٍ عبر طريقٍ كهذا فالمعلومات أو الآراء التي تنتقل من شخصٍ إلى آخر يمكن أن يسيء أحدهم فهمها بسبب الحماسة، أو يسيء الآخر فهمها بسبب الجهل، بحيث لا يكاد يتبقّى فيها أثرٌ من الحقيقة».

«فلتسمعي فحسب. فلن تلبثي أن تتمكّني من الحكم بنفسك على مصداقيّة الحديث حين تسمعين بعض التّفاصيل التي بوسعك أن تؤكّديها أو تنفيها على الفور. لا أحد يعتقد أنّك هدفه الأوّل. فقد رآك بالفعل قبل مجيئك إلى باث، وأعجب بك، ولكن دون أن يعرف هويّتك. أو على الأقلّ هذا ما تقوله محدّثتي. هل هذا صحيحٌ؟ هل رآك في الصّيف الماضي، أو في الخريف «في مكانٍ ما غرباً»، كما قالت هي، دون أن يعرف من أنت؟».

«أجل، بالفعل. الحكاية صحيحةٌ حتى الآن. في لايم. حدث ذلك في لايم».

واصلت السيّدة سميث الحديث بنبرة المنتصر، وقالت: «حسنًا، فلتشقي في مصداقيّة صديقتي بعد أن ثبتت صحّة أوّل نقطةٍ في الموضوع. لقد رآك

آنذاك في لايم، وأعجب بك للغاية، لدرجة أنه سعد سعادةً بالغةً حين التقاك مرّةً أخرى في كامدن بليس وعرف أنك الأنسة آن إليوت. ومنذ تلك اللحظة، ليس لديّ أدنى شكّ في أنه صار لديه غايتان وراء زيارته المتكرّرة إلى هناك. ولكن كان هناك سببٌ آخر قبل ذلك، سأشرحه لك الآن. إن كان هناك أيُّ شيءٍ في حكايتي تظنّين أنه خاطئ، أو من غير المحتمل أن يكون صحيحًا، أوقفيني عن الحديث. تقول الحكاية التي وصلتني إنّ صديقة شقيقتك، السيّدة التي تقيم معكم الآن، جاءت إلى باث برفقة الأنسة إليوت والسير والتر منذ سبتمبر الماضي (باختصار، منذ جاءا وحدهما في بادئ الأمر)، وإنّها تقيم هناك منذ ذلك الحين. وهي ذكيّةٌ ومتملّقةٌ وجميلةٌ، كما أنّها فقيرةٌ ولطيّفةٌ، وبصفةٍ عامّةٍ فإنّ وضعها وسلوكها يوحيان لمعارف السير والتر بأنّها تنتمي أن تصبح الليدي إليوت. ويشعر الجميع بالدهشة كيف يمكن أن تعمى إليزابيث عن مثل هذا الخطر».

وعندئذٍ توقّفت السيّدة سميث عن الحديث للحظةٍ، ولكن لم يكن لدى آن ما تقوله، فواصلت الحديث قائلةً: «كان هذا هو الوضع الذي رآه معارف الأسرة قبل عودتك بفترةٍ طويلة. وكان الكولونيل وليس يراقب والدك جيّدًا، بدرجةٍ مكّنته من التنبّه للأمر مع أنه لم يكن يزورهم في كامدن بليس آنذاك. ولكنّ تقديره للسيّد إليوت دفعه إلى الاهتمام

بملاحظة كلِّ ما يدور هناك. وحين صادف أن حضر السيّد إليوت إلى باث ليوم أو يومين قبل الكريسماس بقليل، حكى له الكولونيل واليس عمّا يدور، وعن الحكايات التي أخذت تنتشر. والآن عليك أن تدركي أنّ الزّمن أثّر بدرجة كبيرة في آراء السيّد إليوت فيما يتعلّق بقيمة لقب بارونيت، وفيما يتعلّق بقيمة صلة الدّم والرّوابط الأسريّة، فقد صار شخصاً مختلفاً تماماً. ولأنّ أمداً طويلاً مضى عليه وهو يتمتّع بالثّروة، ولم يعد ينقصه شيءٌ قد يدفعه إليه الطّمع أو الرّغبة في إرضاء الشّهوات، تعلّم أن يعلّق سعادته على المكانة التي سيرتها. اعتقدت أنّ هذا التّعير بدأ قبل انتهاء علاقتنا، ولكنني بثّ واثقةً من ذلك الآن. فهو لا يطيق فكرة ألا يكون هو السيّر ويليام. لذا، يمكنك أن تحزري أنّ الأخبار التي بلغته من صديقه لم تكن مرضيةً له، ويمكنك أن تحزري أيضاً نتيجة ذلك. فقد قرّر العودة إلى باث مرّةً أخرى في أقرب وقتٍ ممكنٍ، والاستقرار لبعض الوقت هنا، بغية تجديد علاقته السابقة واستعادة مكانته لدى الأسرة. وبهذا يمكنه أن يتحقّق من مدى الخطر، وأن يمنع السيّدة من تحقيق نواياها، إن وجد الأمر حقيقياً بالفعل. اتّفق الصّديقان على هذا، وعلى أنّه لا يوجد شيءٌ آخر يمكنهما فعله. وكان الكولونيل واليس يساعده بكلّ طريقةٍ ممكنة. اتّفقا على أن يتمّ التّعارف بين الجميع وبين الكولونيل واليس والسيّدة زوجته. وبهذا عاد السيّد إليوت، وبعد أن قدّم اعتذاره، صُفّح عنه كما تعلمين، وتمّ قبوله في الأسرة من

جديد. وكان هذا هو هدفه الأساسي والوحيد (حتى أضافت له عودتك هدفًا آخر): أن يراقب السير والتر والسيدة كلاي. لم يغفل عن أي فرصة تسنح له ليكون بصحبتهما، وألقى بنفسه في طريقهما، كما قام بالزيارة في أي وقت. ولكن لا حاجة بي إلى الخوض بالتفصيل في هذا الجانب، فبوسعك أن تتخيلي ما يمكن أن يفعله رجلٌ صاحب حيلةٍ، وبهذا ربّما يمكنك أن تتذكّري ما سبق وأن شاهدته بنفسك وهو يفعله».

قالت آن: «أجل، فلم تذكرني شيئًا يخالف ما أعرفه أو ما بوسعي أن أتخيّله. فدومًا ما يكون هناك ما يشير الاستياء في التفاصيل المتعلقة بالمكر. ولا بدّ أن تكون الحيل الأنانيّة والخداع دومًا مثيرةً للاشمئزاز. ولكنني لم أسمع شيئًا أثار دهشتي بالفعل.

فأنا أعرف عددًا من الأشخاص قد يُصابون بالصدمة من تلك الصُورة التي رسمتها للسيد إليوت، وقد تواجههم صعوبةً في تصديقها، ولكنني لم أشعر بالاطمئنان حياله من قبل، ولطالما رغبت في معرفة الدافع وراء سلوكه ووراء ما كان يظهره. ولكنني أرغب في معرفة رأيه الحالي بخصوص ذلك الاحتمال الذي كان يخشاه. هل يعتقد أنّ درجة الخطر قلّت أم لا؟».

أجابتها السيِّدة سميث: «بل قلتُ، بحسب ما فهمت. فهو يعتقد أنَّ السيِّدة كلاي تخشاه، وتعي أنَّه يرى نواياها بوضوح، ولا تجرؤ على المضيَّ قدماً في مخطَّطها، كما قد تفعل في غيابه. ولكن لأنَّه يتعيَّن عليه أن يغيب في وقتٍ أو في آخر، فلا أدري كيف يمكنه أن يشعر بالأمان ما دامت هي تحتفظ بنفوذها الحالي. أخبرتني الممرضة أنَّ السيِّدة وليس لديها فكرةٌ مشيرةٌ للضحك، وهي أنَّه يتعيَّن عليه اشتراط ذلك في بنود عقد الزَّواج عند زواجكما أنت والسيِّد إليوت: ألاَّ يُقدم والدك على الزَّواج بالسيِّدة كلاي. وهي خطَّةٌ تليق بتفكير السيِّدة وليس بكلِّ تأكيد. ولكنَّ الممرضة روك التي تتَّصف بالحكمة ترى مدى سخافة ذلك الأمر. فقد قالت: «ولكن في الواقع يا سيِّدتي، لن يمنعه هذا من الزَّواج من أيَّة امرأةٍ أخرى». وفي الواقع عليَّ أن أعترف أنَّي لا أعتقد أنَّ الممرضة في أعماقها تعارض زواج السيِّر والتر. فلا بدَّ وأن نعرف بأنَّها من أنصار الزَّواج كما تعلمين، (إذ من الطَّبعيُّ أن تتدخَّل المصالح الشَّخصيَّة في الأمر) فمن عساه يستطيع القول إنَّ الخيالات لا تراودها بأنَّها هي التي ستقوم برعاية الليدي إليوت القادمة بناءً على توصية السيِّدة وليس؟».

قالت آن بعد فترةٍ من التَّفكير: «أنا سعيدةٌ للغاية لأنِّي عرفت كلَّ هذا. سيزعجني الوجود بصحبته بطريقةٍ ما، ولكنني سأعرف كيف أتصرَّف بطريقةٍ

أفضل. وسيكون سلوكي مباشرًا بدرجةٍ أكبر. فمن الواضح أنَّ السيّد إليوت رجلٌ مخادعٌ ومصطنعٌ وذو خبرةٍ، ولا توجد لديه أيُّ مبادئ تقوده سوى الأنايَّة».

ولكنَّ الحديث عن السيّد إليوت لم يكن قد انتهى بعد. فقد غيّرت السيّدة سميث مجرى حديثها الذي بدّأته في البداية، ونسيت أنّ بسبب اهتمامها بمصالح أسرتها كلّ ما تمّ التّلميح إليه ضده. ولكنّها عادت لتتبه الآن وتطلب تفسيرًا لتلك التّلميحات الأولى، فاستمعت إلى حكايةٍ إن لم تكن تبرّر الشّعور بالمرارة الذي يملأ السيّدة سميث، فهي تثبت أنّه تجرّد من كلّ المشاعر في تعامله معها، وأنّه عديم الإحساس بالعدالة والشفقة.

علمت أنّ العلاقة المقربة بينهم استمرّت دون أن تتأثر بزواج السيّد إليوت، واستمرّت رفقتهم كما كان الوضع دومًا من قبل. وقاد السيّد إليوت صديقه للإنفاق ببذخ يفوق قدراته بكثير. لم ترغب السيّدة سميث في تحمّل نصيبها من اللّوم، وبالغت في رفقها وهي تحاول حماية زوجها من اللّوم، ولكنَّ آن استنتجت أنّ دخلهما لم يكن متناسبًا أبدًا مع نمط معيشتهم، وأنّه كان هناك الكثير من البذخ المشترك منذ البداية. ومن وصف زوجته له، اتّضح لها أنّ السيّد سميث كان رجلًا دافئ المشاعر، ليّن

الطَّبَاع، وله عاداتٌ تَتَّسِمُ بالفوضى، ولم يكن ذا ذكاءٍ حادٍّ، كما كان
الطَّف بكثيرٍ من صديقه ويختلف عنه كليًّا. كان تابعًا له، وفي الغالب كان
محلَّ احتقاره. صار السيِّد إليوت يتمتَّع بالثَّراء البالغ بعد زواجه، وبات
يرغب في تحقيق كلِّ ملذَّاته، وإرضاء غروره بقدر ما يستطيع، دون أن
يتورَّط في أيِّ مشكلاتٍ (فبالرَّغم من كلِّ انغماسه هذا في الملذَّات، صار
يَتَّسِم بالحكمة). ولأنَّه صار يتمتَّع بالثَّراء، في الوقت نفسه الذي وجد فيه
صديقه وقد صار فقيرًا، لم يبد عليه الاهتمام على الإطلاق بحالة صديقه
المادِّيَّة. بل على العكس، راح يحثُّه ويشجِّعه على المزيد من النِّفقات التي
لا يمكن أن تنتهي سوى بالخراب الشَّامل. وبالفعل انتهى الأمر بآل سميث
وقد أفلسوا تمامًا.

توفي الزَّوج في الوقت المناسب، قبل أن يعرف مدى فداحة الأمر. كانا
قد تعرَّضا لمشكلاتٍ ماليَّةٍ من قبل تكفي لدفعهما لاختبار صداقة
أصدقائهما، كما تكفي لإثبات أنَّه من الأفضل عدم اختبار صداقتهما مع
السيِّد إليوت. ولكن لم تتَّضح فداحة موقفه الماليِّ إلَّا بعد وفاته. كان
السيِّد سميث يثق في اهتمام السيِّد إليوت بأمرهما، وكانت ثقته هذه عائدةً
لمشاعره أكثر ممَّا لحسن تقديره؛ لذا فقد قام بتسميته منقِّدًا لوصيِّته.
ولكنَّ السيِّد إليوت رفض التَّصرُّف في الموضوع، فتراكمت عليها

المصاعب والمشكلات النَّاتجة عن رفضه هذا، إضافةً إلى معاناتها التي لا مفرَّ منها بسبب الموقف ذاته. ولم يكن من الممكن أن تحكي عن كلِّ هذا دون لوعةٍ، ولا أن يستمع أحدٌ إليها دون إبداء سخطه.

رأت آن بعض رسائله المتعلِّقة بالموضوع، والتي ردَّ فيها على رسائل السيِّدة سميث العاجلة. وقد عبَّر فيها كلّها عن رفضه التَّأمُّ لأن يشغل نفسه بجهدٍ لا داعي له، كما عبَّر بتهذيبٍ يغلب عليه البرود عن قسوته وعدم اكتراثه لأيِّ من المشاكل التي قد يتسبَّب لها فيها بذلك. كان موقفًا بشعًا مليئًا بالجحود وانعدام الإنسانيَّة. وشعرت آن للحظاتٍ أنَّه لا يمكن أن تكون هناك جريمةٌ صريحةٌ أسوأ من هذا. كان لديها الكثير لتستمع إليه: فقد دار الحديث بإسهابٍ الآن عن تفاصيل المواقف المحزنة التي وقعت في الماضي، وعن أدقِّ تفاصيل المشكلات المتراكمة التي تمَّ التَّلْميح إليها خلال محادثتهما السَّابقة فحسب. أحسَّت آن أنَّها تفهَّم تمامًا شعورها بالرَّاحة بعد ذلك، كما ازدادت تعجُّبًا من الثَّبات المعتاد لحالة صديقتها المزاجيَّة.

كان هناك موقفٌ محدَّدٌ من بين جميع شكاواها يشير ضيقها أكثر من غيره. فقد كانت لديها أسبابٌ وحيهةٌ تدفعها إلى الاعتقاد بأنَّه في حال

اتّخاذ الإجراءات الملائمة، فمن الممكن استعادة بعض أملاك زوجها الواقعة في جزر الهند الشرقيّة، والتي ظلّ عائدها طوال سنواتٍ واقعاً تحت الحجز لسداد الدّيون. ومع أنّ هذه الممتلكات لم تكن كبيرةً، إلّا أنّها ستكفي لجعلها ثريّةً نسبيّاً. ولكن لم يكن هناك من يتّخذ الإجراءات المطلوبة. فقد رفض السيّد إليوت القيام بأيّ شيء، ولم يكن بوسعها القيام بشيءٍ بنفسها بسبب حالتها الصّحيّة التي تمنعها من بذل أيّ جهدٍ، إلى جانب أنّها لم تكن تستطيع توظيف الآخرين بسبب حاجتها إلى المال. ولم يكن لديها فوق ذلك أيّ أقارب لمساعدتها بإسداء المشورة، ولم يكن بوسعها تكبّد تكاليف المشورة القانونيّة. وكان هذا يزيد من قسوة ضائقتها الماليّة. كان من الصّعب عليها أن تتحمّل معرفة أنّها من الممكن أن تحيا في ظروفٍ أفضل، وأنّ بعض الجهد المبذول في الطّريق الصّحيح قد يحقّق لها ذلك، وأنّ تخشى أن يؤدّي ذلك التّأخير إلى إضعاف حجّتها في استعادة حقّها!

وكان هذا هو الموضوع الذي أرادت أن تستغلّ من أجله نفوذ آن لدى السيّد إليوت. كانت قد شعرت بالقلق من خسارة صديقتها بعد أن توقّعت زواجهما، ولكن بعد أن تأكّدت من أنّه لن يحاول القيام بذلك، حيث أنّه لم يكن يعلم حتى أنّها في باث، خطر لها على الفور أنّ بإمكانها الاستفادة من المرأة التي يحبّها لما لها من تأثيرٍ عليه، وخطّطت لإثارة اهتمام آن بالقدر

الذي تستطيعه دون المساس بشخصية السيد إليوت خلال حديثها. ولكن إنكار آن للخطوبة المزعومة تسبب في تغيير كل شيء. ومع أن ذلك حرمها من أملها في النجاح في تحقيق هدفها الأول، إلا أنه ساعدها على الأقل في الشعور بالراحة بعد أن حكّت حكايتها كلها بطريقتها هي.

بعد أن استمعت إلى كل هذا الوصف للسيد إليوت، لم تستطع آن أن تمنع نفسها من إبداء دهشتها من حديث السيدة سميث عنه بصورة إيجابية في بداية حديثهما. فقد بدت وكأنها توصيها به وتثني عليه!

أجابت السيدة سميث قائلة: «يا عزيزتي، لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً آخر. كنت أعتقد أن زواجك منه أمرٌ محققٌ مع أنه ربما لم يكن قد عرض عليك ذلك بعد. ولم يكن بوسعي إخبارك بحقيقته ساعتئذٍ، تماماً مثلما لم أكن لأتمكّن من ذلك لو كان قد أصبح زوجك بالفعل. كان قلبي يعتصر ألماً من أجلك بينما أنا أحادثك عن السعادة. ولكن بالرغم من كل شيء، إنه رجلٌ عاقلٌ ولطيفٌ، ومع امرأةٍ مثلك لم يكن الأمر دون بارقة أمل. فقد كان بالغ القسوة مع زوجته الأولى، وكانا في غاية التعاسة. ولكنها كانت تتّصف بالجهل والطيش، ولم تكن جديرةً بالاحترام، ولم يحبّها هو أبداً. كنت آمل أن تصبحي أنتِ أوفر حظاً».

فَكَرَّتْ أَنْ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَحْتَمَلِ أَنْ تَقْتَنَعَ بِالزَّوْاجِ مِنْهُ، وَارْتَعَدَتْ مِنَ التَّفْكِيرِ فِي الْبُؤْسِ الَّذِي لَا بَدَّ وَأَنَّهَا كَانَتْ سَتَعَانِي مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ. كَانَ مِنَ الْمَحْتَمَلِ أَنْ تَنْجَحَ اللَّيْذِي رَاسِيلَ فِي إِقْنَاعِهَا! وَبَعْدَ افْتِرَاضِهَا هَذَا، تَرَى مِنْ مَنِهْمَا كَانَتْ سَتَصِيرُ أَكْثَرَ بُؤْسًا عِنْدَ اكْتِشَافِ كُلِّ شَيْءٍ بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ؟

كَانَ مِنَ الْمَهْمِّ لِلْغَايَةِ أَلَّا تَظَلَّ اللَّيْذِي رَاسِيلَ مَخْدُوعَةً بِهِ. وَكَانَتْ إِحْدَى النِّقَاطِ الَّتِي اتَّفَقْنَا عَلَيْهَا بَعْدَ حَدِيثِهِمَا الْهَامِّ هَذَا، وَالَّذِي اسْتَمَرَ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ مِنْ ذَلِكَ الصَّبَّاحِ، هِيَ أَنَّ لَدَى أَنْ كَامَلَ الْحَرِيَّةَ لَتَحْكِي لَصَدِيقَتِهَا كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِسُلُوكِهِ فِيمَا يَخْصُ السَّيِّدَةُ سَمِثَ.

رجعت آن إلى المنزل لتعيد التفكير في كل ما سمعته. بطريقة ما، بدت مرتاحة بعد ما عرفته عن السيّد إليوت. فلم تعد تكن له أيّ شعور طيّب. وبدا وكأنّه يقف على طرف النقيض من القبطان وينتورث، بكلّ تطفله غير المرحّب به. كما شرعت تفكّر بحسم ووضوح في الأذى الذي سبّبه لها باهتمامه مساء اليوم الماضي، وفي الضرر الذي تسبّب فيه، والذي ربّما يتعدّر إصلاحه. انتهى شعورها بالتعاطف معه. ولكن كان هذا هو مصدر الرّاحة الوحيد لها. أمّا فيما يتعلّق بجميع الجوانب الأخرى، فقد كانت تشعر بالقلق والتوجّس كلّما نظرت حولها وفكّرت فيما هو قادم. كانت تشعر بالقلق من خيبة الأمل والألم اللذين سينتابان الليدي راسيل، ومن العار الذي سيلحق بوالدها وشقيقتها. اغتمّت بسبب توقّعها لكلّ هذه الشرور دون أن تعرف كيف تتفادى أيّاً منها. ولكنّها باتت تشعر بالامتنان لأنّها صارت تعرف حقيقته. لم يسبق وأن فكّرت أنّها تستحقّ المكافأة لأنّها لم تتجاهل صديقةً قديمةً مثل السيّدة سميث، ولكن ها هي قد حصلت على مكافأةً بالفعل عن طريق تلك العلاقة! فقد تمكّنت السيّدة سميث من إخبارها بما لم يكن من الممكن أن يخبرها به أيّ شخصٍ آخر. لو كان بوسعها فقط أن تشارك تلك المعلومات مع أسرتها! ولكن لم يكن

هناك جدوى من تلك الفكرة. عليها أن تتحدّث مع الليدي راسيل وتخبرها بالأمر وتستشيرها. وبعد أن تفعل ما بوسعها، عليها انتظار النتيجة بأكبر قدر ممكن من الثبات. وفي النهاية، سيكون أكثر ما تحتاج أن تتحلّى بالثبات من أجله هو ما يشغل ذلك الجزء من عقلها، الجزء الذي لا يمكنها أن تشارك الليدي راسيل مكنونه، ومن أجل ذلك الفيض من القلق والمخاوف التي كان عليها الاحتفاظ بها لنفسها فحسب.

بعد وصولها إلى المنزل، وجدت أنّها نجحت في التهرّب من زيارة السيّد إليوت، كما انتوت بالفعل، فقد قام بزيارتهم في الصّباح ومكث لفترة طويلة. ولكن ما إن هئأت نفسها، وشعرت أنّها في أمانٍ إلى الغد، حتى سمعت أنّه ينتوي الحضور ثانيةً ذلك المساء.

قالت إليزابيث وهي تتصنّع عدم الاكتراث: «لم تكن لديّ أدنى نيّة في دعوته. ولكنّه قدّم الكثير من التّلميحات، أو على الأقلّ هذا هو ما تدّعيه السيّدة كلاي».

«هذا هو ما أقوله بالفعل. فلم يسبق وأن شاهدت أحداً في حياتي من قبل يلمّح كلّ هذه التّلميحات إلى أنّه يرغب في أن تتمّ دعوته. يا للرّجل

المسكين! لقد أشفقت عليه، فعلى ما يبدو يا آنسة آن أن شقيقتك ذات القلب القاسي تنتوي أن تعامله بقسوة».

صاحت إيزابيث قائلةً: «أوه! لديّ خبرةٌ كافيةٌ بهذه الألاعيب تجعلني لا أتأثر بتلميحات الرجال. ولكن حين وجدته يبدي أسفه البالغ بعد أن فاتته رؤية والدي هذا الصّباح، استسلمت على الفور. فلا يمكنني أن أفرط في فرصةٍ يمكن أن تجمع بينه وبين والدي. فهما يبدوان رائعين للغاية أحدهما بصحبة الآخر! وكلّ منهما يتصرّف بلطفٍ بالغ، والسّيّد إليوت يتطلّع إليه بكلّ احترام!».

«يا له من أمرٍ يبعث على البهجة!»، صاحت السيّدة كلاي دون أن تواتيها الجراءة على أن تحوّل نظرها نحو آن، «تمامًا، وكأنّهما أبٌ وابنه! يا عزيزتي الآنسة إليوت، هل بوسعي أن أطلق عليهما لقب الأب وابنه؟».

«أوه! لن أحجر على كلمات أحد. إن كان هذا هو ما تعتقدينه! ولكنني حقًا لا أعتقد أنّ اهتمامه يتجاوز اهتمام أيّ رجلٍ آخر».

«يا عزيزتي الأنسة إليوت!»، صاحت السيّدة كلاي وهي ترفع يديها ونظرها للأعلى، بينما دفعها شعورها بالدهشة إلى التزام الصّمت كما هو لائق.

«حسنًا يا عزيزتي بينيلوبي، لا داعي لأن تشعرني بالقلق حياله. فقد وجّهت إليه الدّعوة كما تعلمين، وجعلته يرحل والابتسامة تعلو وجهه. فعندما علمت أنّه ينتوي الدّهاب لزيارة أصدقائه في ثورنبيري بارك طوال اليوم غدًا، أشفقت عليه».

تعجّبت آن من مقدرة تلك الصّديقة على التّمثيل، إذ استطاعت إظهار سعادتها وهي تتوقّع وصول الشّخص نفسه الذي لا بدّ وأنّ وجوده يمنعها من تحقيق مأربها الرّئيس. كان من المستحيل ألاّ تمقت السيّدة كلاي مرأى السيّد إليوت. ولكنّها استطاعت أن ترسم على ملامحها أمارات اللّطف والهدوء، وأن تبدو راضيةً تمام الرّضا، وهي تولي السّير والتر مجرّد نصف مقدار الاهتمام الذي كانت ستوليّه له في العادة.

أما بالنّسبة إلى آن نفسها، فقد كان من المزعج للغاية أن ترى السيّد إليوت يلج الغرفة، كما آلمها أنّه اقترب منها ليبادلها الحديث. اعتادت من

قبل أن تشعر أنه قد لا يكون صادقاً في بعض الأحيان، ولكنها باتت الآن ترى زيفه في كل شيء. كان اهتمامه بوالدها، واحترامه له، مقارنةً بأسلوب حديثه السابق، أمراً كريهاً للغاية.

وحين تذكّرت سلوكه القاسي حيال السيّدة سميث، أحسّت أنها لن تتمكّن من تحمّل منظر ابتساماته الحالّة ورقّته، أو الاستماع إلى مشاعره الطيّبة المصطنعة، دونما صعوبة. حاولت أن تتفادى أيّ تغيّرٍ واضحٍ في سلوكها يمكن أن يشير احتجاجه. وكان من المهمّ بالنسبة إليها ألاّ تتعرّض لأيّ تساؤلات، وألاّ تلفت إليها الأنظار. ولكنها انتوت أن تعامله ببرودٍ، بالقدر الذي ينسجم مع علاقتهما، وأن تتراجع بهدوءٍ قدر الإمكان عن الخطوات القليلة من الحميمية غير المبرّرة التي انجرت إليها. لذا، بدت أكثر حذراً وبروداً ممّا كانت عليه في مساء اليوم السابق.

أراد أن يشير فضولها مرّةً أخرى بخصوص الطّريقة والمكان الذي سمع فيه أحدهم يُثني عليها. كما رغب بشدّة في أن ترضيه بالمزيد من المناشدات، ولكنّ الأمر فقد سحره. وجد أنّه في حاجةٍ إلى جوٍّ من الحرارة والحيويّة، مثل ذلك الذي في أماكن التّجمّع العامّة، كي يستشير غرور ابنة عمّه المتواضعة. واكتشف أنّه لن يستطيع القيام بذلك الآن عبّر أيّ من محاولاته التي كان بوسعه الإتيان بها وسط اهتمامه الذي اضطرّ إلى توزيعه على

الآخرين. لم تكن لديه أدنى فكرة أنّ ذلك الأمر لم يعد في صالحه، فهو يذكّرها بشكلٍ مباشرٍ بكلّ سلوكيّاته التي لا تغتفر.

أحسّت بالرّاحة نوعًا ما حين علمت أنّه سيغادر باث بالفعل في وقتٍ مبكّرٍ من صباح اليوم التّالي، وأنّه سيغيب ليومين. لقد دُعِيَ إلى كامدن بليس مرّةً أخرى في مساء يوم عودته نفسه. ولكنّ غيابه كان مؤكّدًا ما بين يوم الخميس ومساء السّبت. كان وجود السيّدة كلاي الدّائم أمام ناظرها سيّئًا بما فيه الكفاية، ولكنّ وجود شخصٍ أشدّ نفاقًا بين أفراد جماعتهم بدا وكأنّه يقضي على أيّ أثرٍ للهدوء والرّاحة. وكان التّفكير في ذلك الخداع الدّائم الذي يتعرّض له كلّ من والدها وإليزابيث أمرًا مخزيًا للغاية، إلى جانب التّفكير في أشكال الإهانة المختلفة التي بانتظارهما! لم تكن أنايّة السيّدة كلاي معقّدة، ولا مثيرةً للاشمئزاز، بقدر أنايّته هو. وكانت آن ستوافق على الزّواج على الفور، بالرّغم من كلّ شروره، لكي تتخلّص من كلّ دهاء السيّد إليوت الذي يمارسه في سبيل منعه.

انتوت الدّهّاب لزيارة اللّيدي راسيل في وقتٍ مبكّرٍ من صباح الجمعة لكي تحادثها في الموضوع. كانت ستذهب بعد الإفطار مباشرةً لولا أنّ السيّدة كلاي كانت ستخرج هي الأخرى لقضاء مشوارٍ نيابةً عن شقيقتها،

لتوفّر عليها مشقّة ذلك، ممّا اضطرّها إلى الانتظار كي لا تُجبر على مرافقتها. انتظرت حتى ابتعدت السيّدّة كلاي بمسافةٍ كافيةٍ قبل أن تبدأ في الحديث عن نيّتها في قضاء ذلك الصّباح في شارع ريفرز.

قالت إليزابيث: «حسنًا، ليس لديّ ما أرسله سوى تحيّاتي. أوه! بوسعك أن تأخذي معك ذلك الكتاب المملّ الذي أعارتني إيّاه، وتظاهري بأنّي قرأته. في الحقيقة لا يمكنني الاستمرار في إزعاج نفسي بكلّ القصائد الجديدة وأخبار اليوم التي تصدر. الليدي راسيل تصيب المرء بالملل بكلّ مطبوعاتها الجديدة. لا داعي لأن تخبريها بذلك، ولكنني أعتقد أنّ ثوبها الذي ارتدته في اللّيلة الماضية كان بشعًا للغاية. كنت أظنّ أنّها تتمتع بالدّوق في اختيار ملابسها، ولكنني شعرت بالخجل منها في الحفل الموسيقيّ. كانت محاطةً بجوٍّ رسميٍّ ومدرّوسٍ للغاية. كما أنّها جلست في وضعٍ بالغ الاستقامة! أرسلني إليها تحيّاتي بالطّبع».

أضاف السيّر والتر قائلاً: «وأنا أيضًا. أرقّ تحيّاتي. وبوسعك إخبارها أنّي أنتوي زيارتها قريبًا. أبلغها بطريقةٍ لطيفة. ولكنني سأكفي بترك بطاقتي فحسب(12). فالزيارات الصّباحيّة لا تكون عادلةً أبدًا بالنّسبة إلى السيّدات اللّاتي في مثل عمرها، واللّاتي لا يضعن إلّا أقلّ قدرٍ من

المساحيق. لو كانت تستخدم حمرة الخدود على الأقلّ، لما خشيت أن يراها أحد. ولكن في أثناء زيارتي لها آخر مرّة، لاحظت أنّ السّتائر أسدلت على الفور».

وبينما والدها يتحدّث، تعالت الطّرقات على الباب. تُرى من يمكن أن يكون الطّارق؟ تذكّرت أنّ زيارات السيّد إليوت التي خطّط للقيام بها في جميع ساعات اليوم، وكانت ستوقّعه هو لولا أنّه كان من المعلوم أنّه منشغلٌ بزيارة أخرى على مبعدة سبع أميال. بعد الفترة المعتادة من التّشويق، سمعوا الأصوات المألوفة وهي تقترب، وتمّ الإعلان عن قدوم السيّد والسيّدة تشارلز ماسجروف اللّذين اقتيدا إلى الغرفة.

كان الإحساس بالمفاجأة هو أكبر شعورٍ ساد عند قدومهما، ولكنّ آن أحسّت بالسّعادة البالغة لرؤيتهما. ولم يشعر الباقون بالأسف بدرجةٍ تمنعهم من التّرحيب بهما بطريقةٍ معقولة.

وما إن اتّضح أنّ هذين اللّذين هما أقرب أقربائهم (13) لم يصلا، وهما ينتويان الإقامة في ذلك المنزل، حتى استطاع السيّر والتر وإليزابيث أن يرفعا من حرارة مشاعرهما ويرحّبا بهما بصورةٍ لائقة. جاءا إلى باث لبضعة

أَيَّامٍ بصحبة السيِّدة ماسجروف، وكانوا يقيمون في نُزل وايت هارت. ما لبثت تلك المعلومات أن صارت معروفةً للجميع، ولكن إلى أن قام السيِّر والتر وإليزابيث باصطحاب ماري إلى غرفة الاستقبال الأخرى، وابتهجيا من انبهارها، لم تتمكَّن آن من تبادل الحديث مع تشارلز لمعرفة أسباب حضورهم، أو معرفة التفسير وراء بعض تلميحات ماري التي قالتها وهي تبتسم بخصوص شأنٍ محدَّد أتوا من أجله، إلى جانب توضيح بعض اللبس البادي حول أفراد المجموعة التي بصحبتهما.

عرفت حينئذٍ أنَّ المجموعة مؤلَّفة من السيِّدة ماسجروف، وهينرييتا، والقبطان هارفيل، إلى جانبهما. حكى لها الحكاية بأكملها بأسلوبٍ واضحٍ ومفهومٍ، ورأت هي أنَّ تلك الحكاية تدلُّ على الطَّريقة المعتادة لتصرُّفاتهم. خطرت لهم الفكرة في بادئ الأمر حين أراد القبطان هارفيل الحضور إلى باث لمتابعة بعض أعماله. شرع في الحديث عن الأمر قبل أسبوعٍ مضى، واقترح تشارلز أن يرافقه علَّه يجد شيئاً ينشغل به بعد انتهاء موسم الصيد. بدا أنَّ السيِّدة هارفيل أعجبت بالفكرة أيما إعجاب، ورأت أنَّ ذلك في صالح زوجها، ولكنَّ ماري لم تتحمَّل فكرة أن يتركها وحدها، وغمرتها التَّعاسة ليومٍ أو يومين، لدرجة أنَّ الأمور بدت معلقةً أو مُلغاة. ولكنَّ والده ووالدته ما لبثا أن تبَّنيا الفكرة. فقد كان لوالدته بعض الأصدقاء القدامى في

باث، وكانت ترغب في رؤيتهم، كما رأوا أنَّها فرصة ملائمة لهينرييتا كي تأتي لشراء بعض ملابس الزَّفاف لها ولشقيقتها. باختصارٍ، انتهى بهم الأمر وقد صارت المجموعة تابعةً لوالدته، وانضمَّ هو وماري إليهم، إذ كان ذلك ملائمًا للجميع. وصلوا في وقتٍ متأخِّرٍ من مساء اليوم السَّابق، بينما بقيت السيِّدة هارفيل وأبناؤها والقبطان بينيك مع السيِّد ماسجروف ولويزا في أبركروس.

كان الشَّيء الوحيد الذي أثار دهشة آن هو أنَّ الأمور تسير بطريقةٍ جيِّدةٍ تسمح بالتَّفكير في ملابس زفاف هينرييتا. إذ تخيَّلت أنَّ هناك صعوباتٍ تواجههم وتمنع تحديد موعدٍ قريبٍ للزَّفاف. ولكنَّها عرفت من تشارلز أنَّ أحد أصدقاء تشارلز هايتز طلب منه أخيرًا (بعد آخر رسالةٍ أرسلتها إليها ماري) أن يشغل منصب الكاهن نيابةً عن فتىٍّ لن يستطيع شغل المنصب قبل سنواتٍ عديدةٍ (14)، وأنَّه بفضل وفرة دخله الحالي، ومع شبه يقينهم بأنَّه سيعثر على منصبٍ دائمٍ قبل انتهاء تلك الفترة المحدَّدة بكثيرٍ، وافقت الأُسرتان على رغبة الشَّباب، وفي الغالب سيتمُّ زفافهما خلال عدَّة أشهر، في وقتٍ مقاربٍ لزفاف لويزا. وأضاف تشارلز قائلاً: «وهو منصبٌ جيِّدٌ للغاية، ولا يبعد عن أبركروس سوى خمسةٍ وعشرين ميلًا. وهو في بلدةٍ جميلةٍ للغاية، في مكانٍ جميلٍ من دورسيتشير. يقع المكان وسط بعض

أفضل محمّيات الصّيد في المملكة، ويحيط به ثلاثة من كبار الملاك، وكلّ منهم أكثر حرصًا وغيره على أملاكه من الآخر. وبوسع تشارلز هايتز أن يحصل على تركيبة خاصّة لدى اثنين منهما على الأقلّ، ولكنّه لن يقدّر قيمة ذلك كما يجب». أضاف قائلاً: «تشارلز لا يهتمّ بالرياضة بدرجة كافية، وهذه هي أسوأ خصاله».

صاحت آن قائلةً: «أنا حقًا سعيدة للغاية. سعيدة على وجه الخصوص أنّ هذا قد حدث، وأنّ الشقيقتين اللّتين تستحقّان كلّ خيرٍ، واللّتين طالما كانتا صديقتين مقربتين، لن يقلّل حسن طالع إحداهما من سعادة الأخرى، وأنّ حظّهما من الثّراء والرّغد بات متساويًا. آمل أن يكون والدك ووالدتك يشعران بالسّعادة لأجلهما».

«أوه! أجل. كان والدي سيسعد أكثر لو كان الرّجلان يتمتّعان بشراء أكبر، ولكن ليس لديه اعتراض آخر. فالمال كما تعلمين، وتدير المال، لابنتين في الوقت نفسه، لا يمكن أن يكون أمرًا باعثًا على الرّاحة، وهذا يقيّد من حرّيته بطرق عدّة. ولكنني لا أعني أنّهما لا تستحقّان ذلك. فمن اللاّئق أن تحصلا على نصيبيهما. ومن المؤكّد أنّه لطالما كان أبًا طيبًا وكريمًا معي. أمّا ماري، فعلى مضضٍ تقبل بخطيب هينريتا. لم تقبله أبدًا

كما تعلمين. ولكنّها غير منصفّةٍ معه كما يجب، ولا تقدّر وينشروب كما يجب. لا يمكنني أن أجعلها تدرك قيمة ذلك المكان. فهو زواجٌ ملائمٌ للغاية في زمننا هذا. ولطالما أحببت تشارلز هايتز طوال حياتي، ولن أتوقّف عن ذلك الآن».

قالت آن: «لا بدّ وأن يسعد والدان رائعان مثل السيّد والسيّدة ماسجروف بزفاف بنتيهما. وأنا على ثقةٍ من أنّهما يفعلان كلّ ما بوسعهما ليمنحاهما السّعادة. من حسن طالع الفتاتين أن تنعما بمثل تلك الرّعاية، إذ يبدو والدك ووالدتك وكأنّه ليس لديهما كلّ تلك التّطلّعات التي تسبّبت في الكثير من التّصرّفات السيّئة والبؤس بين كلّ من الشّباب وكبار السنّ! أتمنّى أن تكون لويزا قد تعافت تمامًا الآن؟».

أجابها بتردّدٍ قائلاً: «أجل، أعتقد أنّها كذلك بالفعل، لقد تعافت إلى حدّ كبير. ولكنّها تغيّرت، فلم تعد تركض وتتقافز، أو تضحك وترقص. صارت مختلفةً إلى حدّ كبير. فإن حدث أن أغلق أحدهم بابًا بقوة، تفرع وتنتفض مثل طائرٍ صغيرٍ بلّله الماء. أما بينيك فيظلّ جالسًا بجوارها يقرأ لها الشعر ويهمس في أذنها طوال النّهار».

لم تتمالك آن نفسها من الضحك. قالت: «أعرف أنّ ذلك لا يتفق مع ذوقك، ولكنني أعتقد أنّه شابٌّ رائع».

«إنّه كذلك بكلّ تأكيد. ولا أحد يشكُّ في ذلك. وأتمنّى ألاّ تظنّي أنّي ضيق الأفق بحيث أرغب في أن يشاركني كلّ الرّجال الاهتمام بالموضوعات والهوايات نفسها. فأنا أقدر بينك كثيرًا، وحين ينجح المرء في أن يحثّه على الحديث، يكتشف أنّ لديه الكثير ليقوله. ولم يضرّه شغفه بالقراءة، فقد خاض القتال إلى جانب اهتمامه بالقراءة أيضًا. إنّهُ رجلٌ شجاع. عرفته عن قربٍ يوم الاثنين الماضي، أكثر من أيّ وقتٍ سبق. فقد تسابقنا في صيد الجرذان في حظائر والدي الكبيرة طوال الصّباح، وقام هو بدوره جيّدًا، وأحببته أكثر منذ ذلك الحين».

وهنا قطع حديثهما، إذ توجّب على تشارلز أن يتبع الآخرين ليبيدي إعجابه بالمرايا والخزف. ولكنّ آن كانت قد سمعت ما فيه الكفاية لفهم الوضع الحاليّ في أبركروس، ولتسعد لسعادتهم. ومع أنّها تنهّدت وهي تشعر بالسّعادة لأجلهم، إلّا أنّ تنهّداتها تلك لم تحمل أيّ نوعٍ من الحسد. فبالأكيد كانت ستسعى للحصول على نصيبها من السّعادة مثلهم، لو كان بوسعها ذلك، ولكنّها لم ترغب في الانتقاص من سعادتهم.

انقضت تلك الزّيارة والجميع في حالة مزاجيّة طيّبة. بدت معنويّات ماري مرتفعةً وهي تستمتع بجوّ البهجة والتّغيير، كما كانت سعيدةً بالرحلة التي قطعها في عربة والده زوجها التي تجرّها أربعة خيول، وباستقلالها التّام عن كامدن بليس، بحيث باتت في حالة مزاجيّة ملائمةً تمامًا لإبداء إعجابها بكلّ شيء كما يجب، وللحديث بالتّفصيل عن كلّ مزايا المنزل التي ذكروها لها. لم تكن لها أيّ طلباتٍ من والدها، ولا من شقيقتها، كما أنّ مكانتها الاجتماعيّة تعزّزت إلى حدٍّ ما بفضل فخامة غرف الاستقبال لديهم.

عانت إليزابيث كثيرًا لبعض الوقت، فقد أحسّت أنّ من الواجب دعوة السيّدة ماسجروف والمجموعة المصاحبة لها لتناول الغداء، ولكنّها لم تُطق أن يرى أولئك الذين كانوا دائمًا في منزلة أدنى من منزلة آل إليوت، أصحاب قصر كيلينتش، مدى التّغيّر في أسلوب حياتهم وقلة عدد الخدم الذي لا بدّ وأن تشي به مأدبة غداء. كان صراعًا بين الواجب والغرور، ولكنّ الغرور انتصر في نهاية المطاف، وعادت إليزابيث تشعر بالسّعادة من جديد. كانت هذه هي الأفكار التي دارت في عقلها: «إنّها عادات باليّة، وتقاليد ضيافة ريفيّة. نحن لا نقيم مادب غداء، ولا يفعل ذلك عددٌ كبيرٌ من النّاس في باث. لا تقوم الليدي إيشيا بذلك أبدًا، فهي لم تقم حتى بدعوة أسرة شقيقتها، مع أنّهم مكثوا هنا لمُدّة شهر. وأعتقد أنّ الأمر لن

يكون ملائمًا للسيدة ماسجروف، وسيعيقها عن خطتها. وأنا واثقة أنها
تفضل عدم المجيء، إذ لا يمكن أن تشعر بالراحة معنا. سأدعوهم جميعًا
لقضاء الأمسية، وسيكون ذلك أفضل بكثير. سيكون هذا شيئًا جديدًا
وممتعًا. فلم يسبق لهم أن رأوا غرفتي استقبال كهاتين من قبل. وسيسعدهم
للغاية الحضور مساء الغد. سيكون حفلًا عاديًا، صغيرًا ولكن أنيقًا.
وهكذا أحست إليزابيث بالرضا، وحين وجهت الدعوة للاثنتين الحاضرتين
إلى جانب الغائبين، أحست ماري بالرضا التام هي الأخرى. طلبوا منها على
وجه التحديد أن تلتقي السيد إليوت، وأن تتعرف على الليدي دالريمبل
والآنسة كارتريت، الذين سبق وأن تم الاتفاق على حضورهم لحسن الحظ،
ولم يكن بوسعها أن تحصل على قدرٍ من الاهتمام أكبر من هذا. وبالطبع
كانت الآنسة إليوت ستتشرف بزيارة السيدة ماسجروف في الصباح التالي،
بينما ذهبت آن مع تشارلز وماري لتراها هي وهينرييتا على الفور.

كان عليها أن تؤجل خطتها لزيارة الليدي راسيل في الوقت الحالي. ذهب
ثلاثتهم لزيارة شارع ريفرز لبضع دقائق، ولكن آن أقنعت نفسها بأن تأجيل
الحديث في الموضوع الذي تنتويه ليوم واحد لن يشكّل أيّ فارق. لذا،
أسرعت بعدئذٍ إلى نزل وايت هارت لترى أصدقاء ورفاق الخريف الماضي
بحماسٍ وودّ شارك في تشكيلهما العديد من الذكريات الطيبة.

وجدوا السيِّدة ماسجروف وابنتها وحدهما بالداخل، وتلقَّت آن ترحيبًا حارًّا من كليتهما. أبدت هينرييتا ودَّها واهتمامها بكلِّ من سبق وأن أحبَّتهم من قبل، بفضل ظروفها التي تحسَّنت أخيرًا وسعادتها التي عثرت عليها حديثًا. أمَّا محبَّة السيِّدة ماسجروف الحقيقيَّة، فكانت قد اكتسبتها بعد معاونتها لهم في فترة محنتهم. سعدت آن بتلك المودَّة والدَّفء والإخلاص بصورةٍ أكبر لأنَّها كانت للأسف تفتقد ذلك في منزلها. ترجَّتها أن تمضي معهم أكبر قدرٍ ممكنٍ من وقتها، ودعتها لزيارتهم طوال اليوم كلَّ يوم، وعدَّتاتها فردًّا من أفراد الأسرة. وبدورها، مارست دورها المعتاد موليةً إيَّاهما الاهتمام والعون. وبعد أن تركهنَّ تشارلز معًا، أنصت لما حكته لها السيِّدة ماسجروف عن لويزا، ولما حكته هينرييتا عن نفسها، وأعطتهما رأيها حول بعض المسائل، وأوصتهما بزيارة بعض المحلَّات. ووسط كلِّ ذلك، كانت تلبي طلبات ماري التي تنوَّعت ما بين معاونتها على تعديل ربط وشاحها، وتسوية حساباتها، والعثور على مفاتيحها، وترتيب حليِّها. كما حاولت إقناعها بأنَّه لا يوجد هناك من يتعمَّد إساءة معاملتها، إذ لم يكن هناك مفرُّ من أن تتخيَّل ماري ذلك أحيانًا وهي تجلس بجوار النَّافذة وترجِّي وقتها بمراقبة مدخل حجرة مضخَّات المياه المعدنيَّة (15).

كان من المتوقع أن تعمّ الفوضى التامة في ذلك الصباح. ذلك أن وجود جماعة كبيرة من الأشخاص في أحد النزل كان سيتسبب لا محالة في الكثير من التغيرات المستمرة وعدم الاستقرار. بعد خمس دقائق وصلتهم رسالة، وبعد خمس دقائق من ذلك وصلهم طرد. ولم يمض على وجود آن هناك أكثر من نصف ساعة حتى بدا وكأنّ نصف مساحة غرفة طعامهم قد امتلأت بالرغم من اتساعها. جلست جماعة من الأصدقاء القدامى وأحاطوا بالسيدة ماسجروف، ثم عاد تشارلز وبصحبه القبطان هارفيل والقبطان وينتورث. بدا ظهور هذا الأخير مفاجئاً لأوّل وهلة. كان من المستحيل بالنسبة إليها أن تنسى أنّ وصول أصدقائهما المشتركين لن يلبث أن يجمعهما معاً مرةً أخرى. كان لقاؤهما الأخير هاماً للغاية، إذ عبّر فيه عن مشاعره، وخرجت هي بفضل ذلك بقناعة تبعث على الشّور. ولكنّها خشيت من التعبير المرتسم على ملامحه أن يكون ما يزال محتفظاً بالقناعة السيئة نفسها التي دفعته إلى مغادرة الحفل الموسيقيّ على عجل. إذ لم يبد عليه أنّه يرغب في الاقتراب منها على نحوٍ يمكّنهما من تبادل الحديث.

حاولت أن تحافظ على هدوئها وتترك الأمور تأخذ مجراها. كما حاولت أن تركّز تفكيرها على مبدأ الثقة القائمة على أساس العقل: «لا بدّ وأن يتفاهم قلبانا في نهاية المطاف إن كان هناك ارتباط وثيق بين الطرفين.

فنحن لم نعد صبيًا وفتاةً صغيرين لكي يتَّصف الواحد منَّا بالنَّزق، ويصير صعب الإرضاء، ويخدعنا كلُّ سهوٍ غير مقصودٍ حتى نتعسّف ونخاطر بسعادتنا». ولكن بعد بضع دقائق، أحسّت أنّ وجودهما معًا في الطُّروف الحاليّة لا يمكنه سوى أن يعرّضهما للسَّهْو وسوء الفهم من أسوأ نوع.

صاحت ماري وهي ما تزال جالسةً بجوار النّافذة: «آن، ها هي السيّدة كلاي، أنا واثقةٌ من هذا. إنّها تقف هناك تحت صفّ الأعمدة، وبصحبتها رجلٌ ما. لقد شاهدتهما ينعطfan من ناصية شارع باث الآن. يبدو عليهما الاستغراق في الحديث. ترى من يكون؟ تعالي وأخبريني. يا إلهي! لقد تذكّرت. إنّهُ السيّد إليوت بلحمه وشحمه».

صاحت آن بسرعةٍ قائلةً: «لا، لا يمكن أن يكون السيّد إليوت. أوّكد لك ذلك، فهو كان سيغادر باث في السّاعة التّاسعة من صباح اليوم، ولن يعود حتى الغد».

وبينما هي تتحدّث، شعرت أنّ القبطان ويتوورث ينظر نحوها، وقد أصابها ذلك الإحساس بالارتباك والحرّج، وجعلها تندم لأنّها قالت ما قالته على الرّغم من بساطته.

شعرت ماري بالضيق من افتراضها أنَّها لا تعرف ابن عمِّها، وشرعت تتحدَّث بحرارةٍ عن تشابه ملامح أفراد الأسرة، وتحتجُّ بإصرارٍ، مصمِّمةً أنَّه السيِّد إليوت، ونادت آن لتأتي وترى بنفسها. ولكنَّ آن لم تكن تنوي أن تتحرَّك من مكانها، وحاولت أن تبدو هادئةً وغير مكترثة. ولكنَّ شعورها بالقلق لم يلبث أن عاودها حين لاحظت بعض الابتسامات والنَّظرات ذات المغزى المتبادلة بين اثنتين أو ثلاث من السيِّدات اللَّاتي حضرن للزيارة، وكأنَّهنَّ يعتقدن أنَّهنَّ على درايةٍ بسرٍّ ما. بدا من الواضح أنَّ الشائعة التي تدور حولها قد انتشرت.

تلا ذلك فترةً قصيرةً من الصَّمْت، ممَّا أكَّد أنَّها ستأخذ في الانتشار بصورةٍ أكبر.

صاحت ماري: «تعالى يا آن، تعالَى وانظري بنفسك. سيفوتك الأمر إن لم تأتِ بسرعة. يبدو أنَّهما سيفترقان، إذ إنَّهما يتصافحان. إنَّه يستدير مبتعدًا. كيف لا أعرف السيِّد إليوت؟ يبدو أنَّك نسيت ما حدث في لايم.»

تحرّكت آن بهدوءٍ نحو النّافذة إرضاءً لماري، وربّما لتخفي شعورها بالحرّج أيضًا. وصلت في الوقت المناسب، كي تتأكّد أنّه بالفعل السيّد إليوت (إذ لم تكن تصدّق ذلك من قبل)، قبل أن يختفي على أحد جانبي الطّريق، بينما سارت السيّدة كلاي مبتعدةً بسرعةٍ على الجانب الآخر. حاولت أن تتحرّك في الدّهشة التي لا بدّ وأنها انتابتها لرؤية ما بدا وكأنّه حديثٌ ودّيٌّ بين شخصين مصالحيهما متضاربةٌ تمامًا، وقالت بهدوء: «أجل، إنّهُ السيّد إليوت بكلّ تأكيد. أعتقد أنّه غير موعّد رحيله، هذا هو كلّ ما في الأمر. أو ربّما كنت مخطئة، ربّما لم أنتبه جيّدًا». ثمّ عادت إلى مقعدها، وقد تمالكت نفسها، وهي تأمل أن تكون قد برّأت نفسها.

استأذن الزّوّار في الرّحيل، وبعد أن ودّعهم تشارلز بكلّ أدب، قلب ملامح وجهه بسخريّة وانتقد زيارتهم، ثم قال: «حسنًا يا أمّي، لقد فعلت من أجلك شيئًا سيحوز إعجابك. لقد ذهبت إلى المسرح، وقمت بحجز بلكونٍ لمساء الغد. ألسنت فتىً طيبًا؟ فأنا أعرف أنّك تحبّين المسرحيّات، وهناك مكانٌ يتّسع لنا جميعًا. فهو يكفي تسعة أشخاص. لقد وجّهت الدّعوة للقبطان وينتورث، وأنا واثقٌ أنّ آن لن تندم إن انضمت إلينا. فجميعنا نستمع بالمسرح. ألم أبل بلاء حسنًا يا أمّي؟».

أخذت السيِّدة ماسجروف تعبرَ بمرحٍ عن استعدادها التَّامَّ لمشاهدة المسرحيَّة إن وافقت هينرييتا والآخرون على الأمر، حين قاطعتها ماري بحماسٍ قائلة: «يا إلهي، يا تشارلز! كيف يمكنك أن تفكّر في مثل هذا الأمر؟ كيف يمكنك أن تحجز بلكوناً لمساء الغدا! هل نسيت أننا مدعوُّون إلى كامدن بليس مساء الغد؟ وأنَّهم تعمَّدوا دعوتنا على وجه الخصوص كي نلتقي الليدي دالريمبل وابنتها والسيِّد إليوت - كلَّ معارف الأسرة المهمِّين - تعمَّدوا دعوتنا ليقدمونا إليهم؟ كيف يمكنك أن تنسى هذا الأمر؟».

أصدر تشارلز صوتاً ينمُّ عن الاستهزاء، وأجاب قائلاً: «ما قيمة حفلٍ مسائيٍّ؟ فهو لا يستحقُّ حتى أن يذكره المرء. على ما أعتقد كان بوسع والدك أن يدعونا لتناول الغداء إن كان يرغب في رؤيتنا. يمكنك أن تفعل كما يحلو لك، ولكنني سأذهب لمشاهدة المسرحيَّة».

«أوه! أوكد لك يا تشارلز أنَّ الأمر سيكون كريهاً للغاية إن فعلت ذلك! وقد وعدتهم بأن تذهب».

«لا، لم أعدهم. كلُّ ما فعلته هو أنني ابتسمت بتكلُّفٍ وأنا أنحني، وذكرت كلمة «سعيد»، ولكنني لم أقطع أيَّ وعد».

«ولكن يجب عليك أن تذهب يا تشارلز، إذ سيكون غيابك أمرًا لا يغتفر. لقد تعمّدوا دعوتنا حتى نتعارف، ولطالما كانت الصّلة قويّةً بيننا وبين آل دالريمبل. ولم يحدث أيُّ شيءٍ لأيٍّ من الطّرفين دون أن يتمّ تبادل الأخبار على الفور. فنحن أقرباء وثيقو الصّلة كما تعلم، كما أنّ هناك السيّد إليوت أيضًا الذي يتعيّن عليك أن تعرفه على وجه الخصوص! فمن حقّ السيّد إليوت أن نوليّه كلّ اهتمامنا. فلتفكّر في الأمر: إنّهُ وريث والدي، والممثل المستقبلُ للأسرة».

صاح تشارلز قائلاً: «لا تحدّثيني عن الورثة والممثّلين، فأنا لست واحدًا من أولئك الذين يهملون الملك وينحنون لوليّ عهده. فإن لم أذهب لأجل والدك، أعتقد أنّ الأمر سيكون بمثابة الفضيحة إن ذهبت لأجل وريثه. فما أهميّة السيّد إليوت بالنّسبة إليّ؟».

ابتهجت آن من أسلوبه المستهتر هذا، ولاحظت أنّ القبطان وينتورث متنبّه تمامًا، ويراقب، وينصت بكلّ جوارحه، حتى دفعته تلك الكلمات الأخيرة إلى تحويل نظره المتسائلة عن تشارلز ليوجّهها إليها.

استمرّ تشارلز وماري في تبادل الحديث بالطريقة نفسها: أصرّ هو بالأسلوب نفسه، الذي انقسم ما بين الجدّ والسُّخريّة، على خطّته الخاصّة بمشاهدة المسرحيّة، بينما غلبت عليها هي الجدّيّة الثّامّة، وهي تعارضه بحرارة، دون أن تغفل عن التّصريح بأنّها وإن كانت مصمّمة على الدّهاب إلى كامدن بليس بنفسها، لن تعتقد أنّهم يحسنون معاملتها إن حضروا المسرحيّة بدونها. تدخّلت السيّدّة ماسجروف قائلةً:

«من الأفضل أن نوجّل الموضوع. من الأفضل أن تعود وتغيّر موعد الحجز حتى يوم الثّلاثاء يا تشارلز. سيكون من المؤسف أن نفرق، وسنخسر صحبة الآنسة آن أيضًا إن كان والدها يقيم حفلًا. وأنا على يقين من أنّنا، لا أنا ولا هينريتا، سنهتّم بالمسرحيّة على الإطلاق إن لم تتمكّن الآنسة آن من مرافقتنا».

أحسّت آن بامتنانٍ بالغٍ لكلّ تلك المودّة، خاصّةً وأنّها منحتها الفرصة لتقول بلا تردّد: «لو كان الأمر متوقّفًا عليّ يا سيّدي، لما شكّل الحفل المُقام في المنزل (باستثناء حضور ماري) أيّ عائقٍ على الإطلاق. فأنا لا يسعدني حضور مثل تلك التّجمّعات، وسأستبدل بذلك بكلّ سرور مشاهدة المسرحيّة برفقتكم. ولكن ربّما كان من الأفضل ألاّ أحاول فعل ذلك».

نطقت بالكلمات، ولكنّها ارتعدت بعد انتهائها من الحديث وهي تعي أنّ هناك من ينصت لكلماتها، ولم تجرؤ حتى على أن تحاول ملاحظة أثر تلك الكلمات.

ما لبثوا أن اتّفقوا على أنّ الثلاثاء يومٌ مناسبٌ، بينما أصرّ تشارلز على مشاكسة زوجته بأن أعلن تصميمه على الذهاب لمشاهدة المسرحيّة غدًا حتى لو لم يذهب أحدٌ سواه.

غادر القبطان وينتورث مقعده، وتوجّه نحو المدفأة وهو في الغالب ينتوي الابتعاد عنها سريعًا كي يتّخذ مكانًا بجوار آن بطريقةٍ مواربة.

قال: «لم تقض وقتًا كافيًا في باث يتيح لك فرصة الاستمتاع بالحفلات المسائيّة التي تقام هنا».

«أوه! لا. فالطّابع المعتاد لتلك الحفلات لا يلائمني. فأنا لا أهتمُّ بلعب الورق».

«أعرف أنك لم تكوني مهتمةً بذلك في السابق. لم تكوني مهتمةً بلعب الورق، ولكنَّ الزمن يُحدث الكثير من التَّغيرات».

صاحت آن قائلةً: «لم أغيِّر إلى هذا الحدِّ بعد»، ثم توقَّفت وهي تخشى أن يسيء تفسير كلامها بطريقةٍ لا تعلمها. انتظر لبضع لحظاتٍ ثم قال وكأنَّ حديثه ناتجٌ عن المشاعر التي غمرته حينئذٍ: «يا لها من فترةٍ زمنيَّةٍ! فثماني سنواتٍ ونصف فترةٍ طويلة!».

كان على آن أن تتخيَّل لاحقًا في وقتٍ أكثر هدوءًا إن كان سيكمل حديثه ذاك، فبينما هي ما تزال تصغي إلى كلماته، شدَّت هينرييتا انتباهها بحديثها عن مسائل أخرى، فقد كانت متحمَّسةً لاستغلال وقت الفراغ الحاليِّ للخروج، وطالبت رفاقها بالألا يضيِّعوا الوقت قبل أن يحضر زوَّار آخرون.

اضطرَّا إلى التَّحرُّك من مكانهما. قالت آن إنَّها مستعدةٌ تمامًا، وحاولت أن تبدو كذلك بالفعل. ولكنَّها فكَّرت لو أنَّ هينرييتا عرفت مقدار الأسف والتردُّد الذي ساور قلبها وهي تغادر ذلك المقعد وتستعدُّ للخروج من

الغرفة، لشعرت حينئذٍ بالإشفاق عليها بسبب كلِّ مشاعرها التي تكنُّها لابن خالتها، وثقتها في حبِّه لها.

ولكنَّ استعداداتهم توقَّفت فجأةً حين سمعوا أصواتًا أثارت اضطرابهم وأنبأتهم بأنَّ هناك زوارًا آخرين قادمين. انفتح الباب للسير والتر والآنسة إليوت، وبدأ أنَّ هناك جوًّا عامًّا من البرودة قد عمَّ بعد دخولهما. أحسَّت آن بالضيق على الفور، وأينما ولَّت نظرها رأت علاماتٍ تدلُّ على الشعور نفسه. تبخَّر الشعور بالرَّاحة والحرِّيَّة والبهجة الذي كان سائدًا في الغرفة، وتحوَّل ليعمَّ بينهم الهدوء البارد، أو العزم على الصَّمْت التَّامِّ، أو الأحاديث غير المشوَّقة، في مقابل أناقة والدها وشقيقتها الباردة. لكم أحسَّت بالحرَج حين استشعرت ذلك!

دفعها شيءٌ واحدٌ فحسب إلى الشعور بالرِّضا، وهو أنَّ كليهما قدَّما التَّحيَّة للقبطان وينتورث، خاصَّةً وأنَّ إليزابيث حيَّته بلطفٍ أكبر من ذي قبل. حتى إنَّها وجَّهت إليه الحديث مرَّةً، ووجَّهت نظرها نحوه أكثر من مرَّة. كانت إليزابيث في الواقع تفكَّر في الإقدام على خطوةٍ هامَّة. وقد فسَّر ما حدث بعد ذلك الأمر. فبعد إهدار بضع دقائق في تبادل مجاملاتٍ لا طائل منها، شرعت في توجيه الدَّعوة التي كانت آخر ما تدين به لآل

ماسجروف. « مساء الغد، كي نلتقي ببعض الأصدقاء. لن يكون حفلًا رسميًا». وجَّهت الدَّعوة بلطفٍ بالغٍ، ووضعت بطاقتها التي كُتِبَ عليها «الآنسة إليوت في المنزل» على الطَّاولَة وهي توجَّه ابتسامةً مجاملةً للجميع. ثمَّ أضافت بطاقةً أخرى وابتسامةً أخرى للقبطان ومنتورث. في الحقيقة كانت إليزابيث قد قضت فترةً كافيةً في باث لتدرك أهميَّة المكانة الاجتماعيَّة لرجلٍ بمثل شخصيَّته ومظهره. لم يعد الماضي يعني أيَّ شيء. وكان الحاضر يعني أنَّ القبطان ومنتورث بات ينتمي إلى طبقة زوَّار غرفة استقبالها. منحتَه البطاقة بكلِّ وضوحٍ، وبعد ذلك نهض كلٌّ من السيِّر والثر وإليزابيث، ورحلا.

كانا قد تسبَّبا في مقاطعتهم لفترةٍ قصيرةٍ، ولكنَّها كانت ثقيلةً للغاية. شعر معظم الحضور بالراحَة، وعاودوا الحديث ما إن رحلا وانغلق الباب وراءهما، باستثناء آن. فلم تستطع التَّفكير في شيءٍ سوى في تلك الدَّعوة التي شهدتها وهي تشعر بالدهشة، وفي الأسلوب الذي تمَّ تلقِّي الدَّعوة به. كان أسلوبًا ملتبسًا يبدو عليه الدهشة أكثر من السُّرور، والقبول بأدبٍ أكثر من الموافقة. كانت تعرفه جيّدًا، ولاحظت نظرة الازدراء في عينيه، ولم تستطع التَّصديق أنَّه قرَّر قبول مثل هذه الدَّعوة كنوعٍ من التَّعويض عن كلِّ

إهانات الماضي. شعرت بخيبة الأمل. أمسك بالبطاقة في يده بعد رحيلهما وكأنه يفكر في الأمر بعمق.

همست ماري بصوتٍ مرتفعٍ مسموعٍ للجميع، وقالت: «هل لاحظت كيف وجَّهت إليزابيث الدَّعوة للجميع؟! لا غرو أنَّ القبطان وينتورث مبتهجٌ! فكما ترى، هو لا يستطيع أن يضع البطاقة جانبًا!».

التقت عينا آن بعينيه، ولاحظت اصطباغ وجنتيه بالحمرة، وأنَّ شفثيه اتَّخذتا تعبيرًا ينمُّ عن الاحتقار، استمرَّ للحظة. استدارت هي بعدئذٍ كي لا تشاهد أو تسمع المزيد ممَّا يشير ضيقها.

افترق أفراد المجموعة. كان للرجال اهتماماتهم، بينما تابعت النساء شؤونهنَّ، ولم يجتمعوا ثانيةً خلال وجود آن هناك. ترجَّوها بحماسٍ أن تعود لتتناول الغداء معهم وتقضي معهم باقي اليوم. ولكنَّ روحها كانت قد أنهكت تمامًا، بحيث أحسَّت أنَّها لا تقوى على المزيد في الوقت الحاضر، ولا يناسبها سوى الوجود في المنزل حيث يمكنها التزام الصَّمت كما تشاء.

وعدتهم بقضاء صباح اليوم التّالي بأكمله برفقتهم، وبهذا ختمت متاعبها بتمشٍّ منهكِ إلى كامدن بليس حيث قضت المساء وهي تستمع إلى إليزابيث والسّيّدة كلاي اللّتين انشغلتا بالترتيبات الخاصّة بحفل الغد، وعدّ الأفراد المدعوّين، والاهتمام بتفاصيل الزّينة التي ستجعله أكثر الحفلات أناقةً في باث. وفي تلك الأثناء، انشغلت سرّاً بتساؤلاتها عمّا إذا كان القبطان وينتورث سيحضر الحفل أم لا؟ كانتا على ثقةٍ من حضوره، ولكن بالنّسبة إليها، كان القلق ينهشها، ولم يتوقّف ولو لخمس دقائق. بشكلٍ عامٍّ كانت تعتقد أنّه سيأتي، لأنّها كانت متيقّنةً من أنّه يتعيّن عليه ذلك. ولكنّها لم تتمكّن من حسم الأمر، ومعرفة ما إذا كان سيتصرّف بدافعٍ من الشّعور بالواجب، أو بضرورة التّزام الحذر، ولم تعرف أيّ من ذينك الشّعورين المتضاربين سيملي عليه خياره.

انتبهت من أفكارها القلقة هذه كي تخبر السّيّدة كلاي أنّها شوهدت برفقة السّيّد إليوت بعد ثلاث ساعاتٍ من الوقت الذي كان من المفترض أن يكون قد غادر فيه باث. فبعد أن ظلّت مترقّبةً دون جدوى وهي تنتظر أن تذكر السّيّدة بنفسها شيئاً عن ذلك اللّقاء، عزمت على أن تذكر هي الأمر. بدا لها أنّ أمارات الشّعور بالذّنب ارتسمت على ملامح السّيّدة كلاي وهي تستمع إليها. كان تعبيراً مؤقتاً، وما لبث أن اختفى على الفور.

ولكنَّ آن تخيَّلت أنَّها قرأت في ملامحها أنَّها بسبب خدعةٍ ما أو ضغطٍ ما تعرَّضت لهما منه، اضطرَّت إلى أن تستمع (ربَّما لنصف ساعةٍ) إلى حديثه وتحذيراته لها بخصوص خططها المتعلِّقة بالسَّير والتر. ولكنَّها قالت وهي تصطنع نبرةً طبيعيَّةً للغاية:

«يا إلهي! هذا صحيحٌ بالفعل. تخيَّلي يا آنسةٍ إليوت مدى دهشتي حين التقيت السيِّد إليوت في شارع باث! لم أشعر بمثل هذا القدر من الدَّهشة من قبل. ولقد استدار عائداً، وسار برفقتي حتى السَّاحة المقابلة لغرفة مضخَّات المياه المعدنيَّة. حدث شيءٌ ما منعه من الدَّهاب إلى ثورنبيري، ولكنني نسيت ما هو بالتَّحديد، فقد كنت على عجلةٍ من أمري ولم أنتبه كثيراً. كلُّ ما أعرفه هو أنَّه كان مصمِّماً ألاَّ يتأخَّر في العودة. أراد أن يعرف ما هو أبكر وقتٍ بوسعنا أن نستقبله فيه غداً. بدا منشغلاً بالغد، ومن الواضح أنَّني أنا أيضاً منشغلةٌ به منذ أن ولجت المنزل وعرفت بخطَّتكم وكلَّ ما حدث، وإلاَّ ما كان من الممكن أن أنسى كلياً أنَّني التقيته بهذه الطَّريقة».

(12) إلى جانب استخدامها كوسيلةٍ للتَّعارف، كانت البطاقات تُستخدم كدليلٍ على أنَّ الشَّخص قد زار أحد معارفه حين يترك بطاقته في المكان الذي قام بزيارته.

(13) المقصود ماري وزوجها تشارلز.

(14) سيشغل تشارلز هايتز مؤقتًا منصب كاهن أبرشيَّة نيابةً عن فتى وعده راعيه بالمنصب ولكنَّه ما يزال دون السنِّ التي تسمح له بذلك.

(15) كانت هناك غرفٌ للتَّجمُّعات العامَّة يلتقي فيها النَّاس لتبادل الحديث وهم يشربون المياه المعدنيَّة التي تُصخُّ من العيون.

مكتبة 729

telegram @t_pdf

مرَّ يومٌ واحدٌ فحسب منذ حديث آن مع السيِّدة سميث، ولكنَّها باتت أكثر اهتمامًا بأمرٍ آخر، ولم يعد يهْمُها من سلوك السيِّد إليوت سوى مجرد تأثيره على جانبٍ واحدٍ فحسب، حتى إنَّها قرَّرت في صباح اليوم التَّالي أن تؤجِّل زيارتها إلى شارع ريفرز، والتي انتوت أن تشرح الأمر خلالها. كانت قد وعدت أن تقضي اليوم بصحبة آل ماسجروف منذ الإفطار وحتى الغداء. بات ولاؤها في مآزق، بحيث اضطرَّت إلى أن تدع شخصيَّة السيِّد إليوت تحيا لمُدَّة يومٍ آخر، مثل رأس السُّلطانة شهرزاد.

ولكنَّها لم تتمكَّن من الحفاظ على مواعدها بسبب تقلُّبات الجو. شعرت بالأسف على أصدقائها لسقوط المطر، وظلَّت وحيدةً تعاني من الحزن قبل أن تتمكَّن من السَّير متوجِّهةً إلى هناك. حين وصلت إلى نُزل وايت هارت، وصعدت إلى مقرِّهم، وجدت أنَّها لم تصل في الموعد المناسب، إلى جانب أنَّها لم تكن أوَّل من حضر. وجدت أمامها السيِّدة ماسجروف تبادل السيِّدة كروفت الحديث، والقبطان هارفيل يحادث القبطان وينتوورث. علمت في الحال أنَّ ماري وهينرييتا لم تتحلَّيا بالصَّبر الكافي للانتظار، فخرجتا حالما صفا الجوّ، ولكنَّهما كانتا تنتويان العودة قريبًا، وقد أوصيتا

السَّيِّدَةُ مَاسْجُوفَ بِشَدَّةٍ أَنْ تَبْقِيَهَا هُنَاكَ حَتَّى عَوْدَتَهُمَا. كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَطِيعَهَا فَحَسَبَ، وَأَنْ تَجْلِسَ وَهِيَ تَحَافِظُ عَلَى هَدْوٍ مَظْهَرِهَا الْخَارِجِيِّ بَيْنَمَا هِيَ تَشْعُرُ بِذَاتِهَا وَقَدْ غَمَرَهَا فَجَاءَةٌ كُلُّ التَّوَثُّرِ الَّذِي تَوَقَّعَتْ أَنْ تَعَانِيَ مِنْهُ قَبْلَ نَهَايَةِ ذَلِكَ النَّهَارِ. لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ تَأْخِيرٍ أَوْ إِضَاعَةٍ لِلْوَقْتِ: اسْتَغْرَقَتْ عَلَى الْفُورِ فِي تِلْكَ السَّعَادَةِ الْمَشُوبَةِ بِالْبُؤْسِ، أَوْ ذَلِكَ الْبُؤْسِ الْمَشُوبِ بِالسَّعَادَةِ. وَبَعْدَ أَنْ وَلَجَتْ الْغُرْفَةَ بِدَقِيقَتَيْنِ، قَالَ الْقَبْطَانُ وَيَنْتَوُورْثُ:

«سَأَكْتُبُ الرِّسَالَةَ الَّتِي تَحَدَّثْنَا عَنْهَا الْآنَ يَا هَارْفِيلَ إِنْ أَمَدَدْتَنِي بِالْأَدَوَاتِ الْمَطْلُوبَةِ».

كَانَتِ الْأَدَوَاتُ الْمَطْلُوبَةُ مَوْجُودَةً عَلَى طَاوِلَةٍ مَنْفَصِلَةٍ، فَتَوَجَّهَ نَحْوَهَا، وَكَادَ يُولِي ظَهْرَهُ لِلْجَمِيعِ وَهُوَ مُسْتَغْرَقٌ فِي الْكِتَابَةِ.

كَانَتِ السَّيِّدَةُ مَاسْجُوفَ تَحْكِي لِلْسَّيِّدَةِ كُرُوفَ تَفَاصِيلِ خُطْبَةِ ابْنَتِهَا الْكُبْرَى بِنْبَرَةِ الصَّوْتِ غَيْرِ الْمَلَائِمَةِ تِلْكَ، النَّبْرَةِ الَّتِي تَكُونُ مَسْمُوعَةً بَوَاضِحٍ تَامٍّ بَيْنَمَا صَاحِبُهَا يَقْصِدُ الْهَمْسَ. أَحْسَسَتْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ طَرَفًا فِي الْمَحَادَثَةِ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الْقَبْطَانُ هَارْفِيلَ يَبْدُو مُسْتَغْرَقًا فِي التَّفْكِيرِ، وَلَمْ يَبْدَأْ أَنَّهُ يَرْغَبُ فِي تَبَادُلِ الْحَدِيثِ، لَمْ يَكُنْ بَوْسَعَهَا تَفَادِي سَمَاعِ بَعْضِ

التفاصيل غير المرغوب فيها مثل: «كيف التقى السيّد ماسجروف وزوج شقيقتي هايتّر مرّاتٍ عديدةً ليتحدّثا في الأمر، وما الذي قاله زوج شقيقتي هايتّر في يومٍ ما، وما اقترحه السيّد ماسجروف في اليوم التّالي، وما الذي خطر في بال شقيقتي السيّدة هايتّر، وما الذي أراده الشّباب، وما الذي قلت في بادئ الأمر إنّهُ من غير الممكن أن أبدي موافقتي عليه أبداً، ولكنني ما لبثت أن اقتنعت لاحقاً بأنّه ربّما يصبح على ما يرام»، إلى جانب الكثير من الأحاديث التي كانت بنفس هذا الأسلوب الصّريح. كانت هناك الكثير من التّفصيل التي حتى في حالة الالتزام بقواعد الدّوق والليّاقة التي أهملتها السيّدة ماسجروف، لم تكن لتهمّ أحداً سوى أصحاب الشّأن. ولكنّ السيّدة كروفست استمعت إليها بذوقٍ بالغٍ، وحين كانت تدلي بدلوها في الحديث، كانت تبدي تعقّلاً شديداً. تمّت آن أن يكون كلا الرّجلين منشغلاً بدرجةٍ تمنعه من سماع الحديث الدّائر.

قالت السيّدة ماسجروف بهمسها المرتفع: «وهكذا يا سيّدتِي، وإن وضعنا كلّ شيءٍ في الاعتبار، وإن كنّا نتمنّى لو سارت الأمور بشكلٍ مختلفٍ، لم نعتقد أنّ من الإنصاف أن نوجّل الموضوع أكثر من ذلك. فقد كان تشارلز هايتّر مصمّماً على الأمر بشدّة، وتصميم هينرييتا يكاد يقارب تصميمه، لذا ظنّنا أنّ من الأفضل أن يتزوّجا على الفور، ويتعاملا مع

الموقف بأفضل طريقةٍ ممكنةٍ، كما فعل العديد من قبلهما. على أيِّ حالٍ كما قلت، سيكون ذلك أفضل من إطالة فترة الخطبة».

صاحت السيِّدة كروفت قائلةً: «هذا هو ما كنت سأقوله تمامًا. فأنا أفضل أن يتزوَّج الشَّباب دون تأخيرٍ ولديهما دخلٌ بسيطٌ، وأن يتحمَّلا بعض المصاعب معًا، على أن تطول فترة الخطبة. لطالما اعتقدت أنَّه لا يوجد أيُّ شيءٍ مشترك...»

لم تستطع السيِّدة ماسجروف تركها تكمل حديثها، وصاحت قائلةً: «أوه! يا عزيزتي السيِّدة كروفت! لا يوجد شيءٌ أكرهه للشَّباب مثل طول فترة الخطبة. ولطالما اعترضت على هذا مع أبنائي. ودومًا ما كنت أقول إنَّه من الجيِّد أن تتمَّ خطبة الشَّباب إن كانوا على ثقةٍ من أنَّ هناك إمكانيَّةً لإتمام الزَّواج في غضون ستَّة أشهرٍ أو ربَّما حتى في غضون سنةٍ، ولكن لا يجب أن تطول فترة الخطبة!».

قالت السيِّدة كروفت: «أجل يا سيِّدتي العزيزة، ولا يجب الاتفاق على خطبةٍ غير مؤكَّدةٍ قد تطول أمدًا زائدًا عن الحدِّ. فأنا أعتقد أنَّ الشُّروع في ذلك، دون التَّأكُّد من إمكانيَّة إتمام الزَّواج خلال وقتٍ محدَّدٍ، هو أمرٌ غير

محمود العواقب ويفتقر إلى الحكمة. وأعتقد أنّ كلّ الأهل عليهم أن يحاولوا منع ذلك قدر المستطاع».

أحسّت آن أنّها مهتمةٌ بهذا الحديث على نحوٍ غير متوقّع، وشعرت أنّه ينطبق عليها. أحسّت بموجةٍ من التّوتر تعترّيها، وفي الوقت نفسه الذي توجّهت فيه نظرتها - بصورةٍ لاشعوريّةٍ - نحو الطّاولّة البعيدة، توقّف قلم القبطان وينتوورث عن الحركة، ورفع رأسه، وتوقّف وهو يصيخ السّمع. في اللّحظة التّالية، استدار ليمنحها نظرةً واحدةً حذرةً وسريعةً.

استمرّت السيّدتان في تبادل الحديث، وفي الحثّ على الحقائق نفسها وتأكيدهما بأمثلةٍ تدلّ على سوء الآثار المتربّبة على الممارسات التي تخالفها والتي لاحظتا حدوثها. ولكنّ آن لم تسمع شيئاً بوضوح، وبدت الكلمات كوشيشٍ في أذنيها، بينما عقلها يعاني البلبلة.

لم يكن القبطان هارفيل ينصت لشيءٍ من ذلك الحديث. قام مغادراً مقعده وتحرك نحو النّافذة. بدت آن وكأنّها تراقبه بدافعٍ من تشتّت الدّهن، وما لبثت أن تنبّهت إلى أنّه يدعوها للانضمام إليه حيث يقف. نظر نحوها بابتسامةٍ وحركةٍ صغيرةٍ من رأسه معناها: «تعالِي، فلديّ ما أقوله»، وبدأ

سلوكه طبعياً وبسيطاً ومليئاً بالودّ، وكأنّ معرفتهما أقدم ممّا هي عليه بالفعل، ممّا عزّز من قوّة دعوته لها. نهضت، وتوجّهت إليه. كانت النّافذة التي وقف قبالتها عند الطّرف المقابل من الغرفة للمكان الذي كانت تجلس فيه السيّدتان، ومع أنّه كان أقرب إلى طاولة القبطان وينتورث، إلّا أنّه لم يكن قريباً بدرجة كبيرة. بعد أن انضمت إليه، عادت ملامح القبطان هارفيل لتكتسي بقناعٍ من الجدّيّة والتّفكير والذي بدا وكأنّه يعبر عن طبيعة شخصيّته.

«انظري هنا»، قالها وهو يفتح طرداً في يده، لتظهر لوحةً دقيقةً صغيرة الحجم، «هل تعرفين من صاحب الصّورة؟».

«بالطّبع، إنّهُ القبطان بينيك».

«أجل، وبوسعك تخمين إلى من أرسل اللّوحة. ولكن (صارت نبرة صوته عميقة) لم تُرسم اللّوحة لأجلها هي. هل تذكرين يا آنسة إليوت سيرنا معاً في لايم، وشعورنا بالحزن من أجله؟ لم يخطر في بالي ساعتئذٍ... ولكن هذا لا يهمّ. لقد رُسمت اللّوحة عند رأس الرّجاء الصّالح حيث التقى بفنّانٍ ألمانيّ شابٍّ بارِع، وبناءً على وعده لشقيقتي المسكينة، جلس ليرسمه،

وكان سيجلبها معه لأجلها. والآن صرت مسؤولاً عن وضعها في بروازٍ ملائمٍ لأجل شخصٍ آخر! كلّفني هو بالأمر! ولكن ممّن سواي كان عساه سيطلب العون؟ أتمنّى لو استطعت أن أجد له العذر. فأنا حقّاً لا أشعر بالأسف لإعطائها لشخصٍ آخر. إنّهُ يتولّى القيام بالأمر (وجّه نظره نحو القبطان وينتوورث)، ويكتب رسالةً بخصوص ذلك الآن». وبشفاهٍ مرتعشةٍ ختم الأمر بأن أضاف قائلاً: «يا للمسكينة فاني! لم تكن لتساه بمثل هذه السُرعة!».

أجابت آن بصوتٍ منخفضٍ يفيض بالعاطفة: «لا، فبوسعي تصديق ذلك بكلّ سهولة».

«لم يكن ذلك من طبعها. كانت تحبّه بشدّة».

«لن يكون ذلك من طبع أيّ امرأةٍ تحبُّ بصدق».

ابتسم القبطان هارفيل وكأنّه يقول: «هل تعتقدين أنّ ذلك يقتصر على بنات جنسك فحسب؟»، فأجابت بابتسامةٍ هي الأخرى، وقالت: «أجل. فنحن لا ننساكم البتّة بالسُرعة نفسها التي تنسوننا بها. ربّما كان ذلك

قدرنا، بدلاً من كونه فضيلةً نتحلّى بها. لا يمكننا منع أنفسنا من ذلك. فنحن نحيا حبيساتٍ في المنزل في هدوءٍ، تحت رحمة مشاعرنا. بينما تضطّرون أنتم إلى العمل الشاق. فدومًا ما تكون لديكم أعمالٌ واهتماماتٌ ومشاغل من نوعٍ أو آخر تجعلكم تنشغلون بالعالم المحيط مرّةً أخرى على الفور. وسرعان ما يؤدّي ذلك الانشغال التّام إلى إضعاف المشاعر».

«إن افترضنا صحّة قولك هذا بأنّ الانشغال بأحوال العالم سرعان ما يكون له ذلك الأثر على الرّجال (مع أنّي لا أوافقك على ذلك)، فإنّ هذا لا ينطبق على القبطان بينيك. فهو لم يضطرّ إلى الانشغال بأيّ أعمالٍ شاقّة. لقد عاد إلى البرّ بسبب حالة السّلام السّائد في ذلك الوقت، وظلّ يحيا معنا في نطاق أسرتنا الصّغيرة منذ ذلك الحين».

قالت آن: «هذا صحيحٌ، صحيحٌ بالفعل. لم أتذكّر ذلك. ولكن ما الذي يتعيّن علينا قوله الآن، أيّها القبطان هارفيل؟ إن لم يكن التّغيّر بسبب عوامل خارجيّة، فلا بدّ وأن يكون نابعاً من الدّاخل. لا بدّ وأن تكون هذه هي الطّبيعة، طبيعة الرّجال التي دفعت القبطان بينيك إلى التّغيّر».

«لا، لا، إنها ليست طبيعة الرجال. لن أقرّ بأنّ هذه هي طبيعة الرجال أكثر ممّا هو من طبيعة النساء الاتّصاف بالتّقلب، ونسيان أولئك الذين يحبّونهم، أو الذين سبق وأن أحبّوهم في الماضي. فأنا أعتقد العكس تمامًا. إذ إنّني أوّمن بوجود توافق تامّ بين القوّة الجسديّة والعقليّة، وبأنّ أجسادنا هي الأقوى، وكذلك مشاعرنا. فنحن الأكثر قدرةً على تحمّل المشاقّ والصّمود وسط أقسى أشكال الطّقس».

أجابت آن قائلةً: «ربما كانت مشاعركم أكثر قوّة، ولكنّ التّشبيه نفسه يتيح لي أن أوّكد أنّ مشاعرنا نحن هي الأكثر رقة. الرجال أقوى من النساء، ولكنّهم لا يحيون لفترة أطول. وهذا يوضّح تمامًا رأيي في طبيعة مشاعرهم. لا، بل سيكون الأمر شاقًّا بالنّسبة إليكم لو كان عكس ذلك. فأنتم لديكم ما يكفي من الصّعب وأشكال الحرمان والمخاطر التي تصارعونها. ودومًا ما تعملون وتكدّون، وأنتم عرضةٌ لكافة أنواع المخاطر والصّعب. إذ تكونون بعيدًا عن منازلكم وأوطانكم وأصدقائكم، ولا يمكنكم ضمان الوقت، ولا الصّحّة، ولا الحياة. سيكون ذلك أمرًا بالغ المشقّة بالفعل (تهدّجت نبرة صوتها) إن أضيف فوق كلّ ذلك عبء مشاعر المرأة».

«لن نَتَّفَق أبداً حول هذا الأمر -» بدأ القبطان هارفيل الحديث حين جذب انتباههما صوتٌ خافتٌ صدر من ركن الغرفة الذي يشغله القبطان وينتوورث، والذي كان يسوده الهدوء التَّامُّ من قبل. كان كلُّ ما حدث أنَّه أسقط قلمه، ولكنَّ آن فوجئت حين وجدته قريباً بدرجةٍ أكبر ممَّا كانت تتوقَّعها. وكادت تعتقد أنَّه أسقط القلم لانشغاله بهما وهو يحاول الإنصات لحديثهما، ولكنَّها لم تعتقد أنَّه نجح في الاستماع إليهما.

قال القبطان هارفيل: «هل انتهيت من الرِّسالة؟».

«ليس بعد. بقيت بضعة أسطر. سأنتهي في غضون خمس دقائق».

«لست مستعجلاً على الإطلاق. سأكون مستعداً وقتما تكون أنت كذلك. فأنا برفقة صحبةٍ طيِّبةٍ للغاية هنا»، (وجَّه ابتسامةً نحو آن)، «ولديَّ كلُّ ما يلزمي، ولست في حاجةٍ إلى أيِّ شيء. ولست مستعجلاً على الإطلاق. حسناً يا آنسة آن»، (خَفَّض من نبرة صوته)، «كما قلت، لن نَتَّفَق أبداً حول هذا الأمر. وفي الغالب لن يَتَّفَق أيُّ رجلٍ وامرأة. ولكن دعيني أقول إنَّ معظم كتب التَّاريخ ضدَّك، وكلَّ الحكايات والنَّثر والشَّعر. لو كانت لي ذاكرةٌ مثل ذاكرة بينيك، لتمكَّنت في لحظةٍ واحدةٍ من

الاستشهاد بخمسين اقتباسًا مختلفًا تؤيّد وجهة نظري. فلا أعتقد أنني سبق وأن فتحت كتابًا في حياتي دون أن أجد فيه شيئًا عن طبيعة المرأة المتقلّبة. فالأغاني والأمثال كلّها تتحدّث عن طبيعة مشاعرها المتغيّرة. ولكن ربّما تحتجّين بأنّها كلّها كتبت بيد الرّجال».

«ربّما أقوم بذلك بالفعل. أجل، أجل، لا داعي للإشارة إلى أيّة أمثلةٍ مستمدّةٍ من الكتب، رجاء. إذ إنّ الرّجال تمّتّعوا بمزايا تفوق ما تمّتّعنا به بكثير؛ مزايا أتاح لهم كتابة حكايتهم بأنفسهم. فقد تمّتّعوا بدرجةٍ من التّعليم أعلى بكثير، وانفردوا هم بحقّ الكتابة. لن أعترف بأنّ الكتب تثبت أيّ شيء».

«كيف سنتمكّن إذن من إثبات أيّ شيء؟».

«لن ننجح في ذلك أبدًا. لا يمكننا أن نتوقّع النّجاح في إثبات أيّ شيءٍ بخصوص هذا الأمر. فهو خلافٌ في الرّأي لا يمكن إثباته بالدليل. فكلّانا في الغالب يبدأ وهو متحيّزٌ بعض الشيء إلى بني جنسه، ومن خلال هذا التّحيّز، نذكر كلّ المواقف التي تؤيّد، والتي وقعت في نطاق خبراتنا. والكثير من تلك المواقف (بل ربّما تلك الحالات بالتحديد التي أثّرت فينا

أكثر من غيرها) لا يمكن الاستشهاد بها دون أن نخون ثقة أحدهم، أو أن نذكر شيئاً لم يكن علينا التّفوّه به».

قال القبطان هارفيل بنبرة تفيض بمشاعر قويّة: «آه! لو كان بوسعي فحسب أن أجعلك تعرفين ما الذي يعانيه الرّجل حين يلقي نظرةً أخيرةً على زوجته وأبنائه وهو يراقب السّفينة التي أرسلهم بعيداً على متنها، ما دامت في مجال نظره. وبعدئذٍ يستدير وهو يقول «الرّبُّ وحده يعلم إن كنّا سنلتقي مرّةً أخرى أم لا!». ولو كان بوسعي بعدئذٍ أن أنقل لك توهّج روحه بالفرحة حين يصبح بمقدوره رؤيتهم ثانيةً بعد عودته من غيابٍ ربّما يكون قد طال اثني عشر شهراً، ثمّ يجد نفسه مضطّراً إلى الرّسو في ميناءٍ مختلفٍ، وينشغل بحساب الفترة التي يمكنهم الوصول خلالها، ويتظاهر بخداع نفسه وهو يقول: «لا يمكنهم الوصول قبل يوم كذا»، مع أنّه يظلّ طوال الوقت يأمل أن يصلوا مبكرين عن موعدهم بمقدار اثني عشرة ساعة، ثمّ يراهم وهم يصلون أخيراً، وكأنّ السّماء منحتهم أجنحةً مكّنتهم من الوصول مبكرين بعدّة ساعات! لو كان بوسعي فحسب أن أوضح كلّ هذا لك، وكلّ ما يمكن للرّجل أن يكابده ويفعله، والأعمال العظيمة التي يفعلها من أجل هذا الذي يعدّه أثمن ما في حياته! وكما تعلمين، فأنا أقصد

بحديثي هذا الرّجال أصحاب القلوب المفعمة بالمشاعر فحسب!»، قالها وهو يضغط بيده على صدره بقوة.

صاحت آن بحماس: «أوه! أتمنّى أن أكون منصفةً تمامًا حيال كلّ مشاعرك ومشاعر أولئك الذين هم على مثالك. فأنا لا أريد أبدًا أن أقلّل من قيمة المشاعر الحارّة والصّادقة لأيّ من البشر. فلن أستحقّ سوى كلّ ازدراءٍ إن حدث وافترضتُ أنّ النّساء وحدهنّ القادرات على الحبّ الحقيقيّ والوفاء. لا، فأنا أوّمن بأنّكم قادرون على منح كلّ ما هو رائع وطيبّ في حياتكم الزّوجيّة. كما أنّي مؤمنةٌ بأنّكم قادرون على تحمّل كلّ المشاقّ وكلّ الأعباء الأسريّة طالما توفّر لديكم الهدف، إن أذنت لي باستخدام هذا التّعبير. أعني طالما كانت المرأة التي تحبونها على قيد الحياة، وتحيا من أجلكم. وكلّ ما أدّعيه لبنات جنسي (وهي ليست مزيّة تستحقّ الحسد، ولا يوجد داعٍ لأن تتمنّوها لأنفسكم) هو أنّنا نحافظ على الحبّ لفترةٍ أطول بعد زوال الحياة أو الأمل».

لم تتمكّن من التّفوّه بجملَةٍ أخرى بعد ذلك مباشرةً، فقد أصبح قلبها مثقلًا، وضاق صدرها أيما ضيقٍ.

صاح القبطان هارفيل قائلاً وهو يضع يده على ذراعها بودّ: «إِنَّكَ تَمْتَعِينَ بروح طيّبة. ولا يمكن أن يتجادل معك المرء. وحين أفكر في بينيك، ينعقد لساني».

لفت الآخرون انتباههما، إذ كانت السيّدة كروفت تستأذن للرحيل.

قالت: «أعتقد أنني سأفترق عنك الآن يا فريدريك، فسوف أتوجّه إلى المنزل، بينما أنت منشغلٌ مع صديقك. سنستمتع بهذه الصُحبة مرّةً ثانيةً في حفلكم هذا المساء» (استدارت لتواجه آن)، «فقد حصلنا على بطاقةٍ من شقيقتك بالأمس، وحسبما فهمت، حصل فريدريك هو الآخر على بطاقةٍ منها، مع أنني لم أرها. وأنت غير منشغلٍ يا فريدريك، مثلنا تمامًا، أليس كذلك؟».

كان القبطان وينتورث يطوي الرّسالة بتعجّلٍ كبيرٍ، ولم يتمكّن من تقديم جوابٍ كاملٍ، أو ربّما لم يرغب في ذلك. قال: «أجل، هذا صحيحٌ بالفعل. سنفترق الآن، ولكنني لن ألبث أنا وهارفيل أن نلحق بك، هذا في حال كنتَ مستعدّاً يا هارفيل. سأكون مستعدّاً خلال نصف دقيقة. أعرف أنك تريد الانطلاق. سأكون تحت أمرك خلال نصف دقيقة».

تركهم السيِّدة كروفت. وبعد أن أغلق القبطان وينتورث رسالته بتعجُّلٍ كبير، بات مستعدًّا بالفعل. بدا عليه التَّعَجُّل والارتباك اللذان ينمَّان عن رغبته في الرِّحيل سريعًا. لم تعرف آن كيف تفسِّر سلوكه هذا. قال لها القبطان هارفيل بكلِّ ودٍّ: «عمتِ صباحًا، ليباركك الرَّب»، أمَّا هو فلم يبادلها ولو كلمةً أو نظرةً واحدة. خرج من الغرفة دون أن يوجِّه إليها نظرة!

ما إن اقتربت من الطاولة التي كان يكتب رسالته عليها حتى سمعت صوت خطواتٍ عائدةٍ، وانفتح الباب ليدخل هو. قدَّم لهما الاعتذار لأنَّه نسي قفَّازاته. ثمَّ عبر الغرفة على الفور متَّجِّهًا نحو طاولة الكتابة، ووقف موليا ظهره للسيِّدة ماسجروف. سحب رسالةً من أسفل الأوراق المتناثرة، ووضعتها أمام آن، وهو ينظر إليها للحظةٍ بعينين تلتمعان بالرَّجاء، وبعد ذلك التقط قفَّازاته بسرعةٍ، وغادر الغرفة ثانيةً، قبل أن تكاد السيِّدة ماسجروف تلاحظ وجوده. تمَّ الأمر كُلُّه في طرفة عين!

لم يكن هناك ما يكفي من الكلمات للتَّعبير عن التَّحوُّل الذي حدث في أعماق آن في لحظةٍ واحدة. بدا من الواضح أنَّ الرِّسالة التي كتب عليها بخطُّ يكاد يكون غير مقروءٍ «إلى الآنسة آ. إ. -» كانت هي الرِّسالة نفسها التي طواها على عجل. ففي حين كان من المفترض أن ينشغل

بالكتابة إلى القبطان بينيك، انشغل بالكتابة إليها هي الأخرى! كانت سعادتها كلها متوقفةً على مضمون تلك الرسالة! بدا أيُّ شيءٍ ممكنًا، ومن الممكن المجازفة بأيِّ شيءٍ عوضًا عن الانتظار. انشغلت السيِّدة ماسجروف بشؤونها الخاصَّة عند طاولتها، وكان على آن أن تعتمد على ذلك لتطمئن نفسها. غاصت في المقعد الذي كان جالساً عليه، بجوار المكان نفسه الذي مال إليه وهو يكتب. التهمت كلماته بعينها:

لم يعد بوسعي الاستماع في صمت، وعليَّ أن أحادثك بالطريقة المتاحة لي. لقد اخترقتِ روحي بكلماتك، بحيث صار نصفي يكابد العذاب، والنصف الآخر مفعماً بالأمل. لا تخبريني أنني تأخّرت كثيراً، وأنَّ مثل هذه المشاعر الغالية انتهت إلى الأبد. أقدم لك قلبي مرَّةً أخرى، وهو ملكٌ لك الآن، أكثر حتى ممَّا كان من قبل، حين كدت تحطِّمينه قبل ثماني سنواتٍ ونصف. إيَّاكِ أن تقولي إنَّ الرَّجل ينسى أسرع من المرأة، وإنَّ حبَّه يموت أوَّلًا. فأنا لم أعشق أحدًا سواكِ. ربَّما كنت غير عادِلٍ وضعيفًا ومليئًا بالمرارة، ولكنني لم أكن متقلِّب المشاعر أبدًا. فأنت وحدك من دفعني إلى الحضور إلى باث. ولأجلك وحدكِ، أفكر وأخطُّط.

ألم تلاحظي هذا؟ وهل من الممكن ألا تكوني نجحتِ في فهم مقاصدي؟
ما كنتُ حتى لأنتظر طوال هذه الأيام العشرة لو كنتُ تمكّنتُ من قراءة
مشاعرك بالقدر نفسه الذي أعتقد أنّك لا بدّ أن تكوني قد سبرت به أغوار
مشاعري. بشقّ الأنفس أستطيع كتابة هذه الرّسالة. ففي كلّ لحظةٍ يتناهى
إلى سمعي شيءٌ ما يجعل مشاعري تفيض. تحاولين خفض صوتك، ولكنني
أستطيع تمييز نبرة ذلك الصّوت حتى حين لا يسمعه الآخرون. أيتها
المخلوقة الطّيبة الرّائعة! إنّك منصفَةٌ حقًا حيالنا. فأنت تؤمنين بالفعل بوجود
الحبّ الحقيقيّ والوفاء بين الرّجال. فلتؤمنني أنّه متقدّم، ولا يتزعزع أبدًا
لديّ.

ف. و.

عليّ أن أذهب الآن، وأنا غير واثقٍ من مصيري. ولكنني لن ألبث أن أعود
أو ألتحق بكم في أقرب وقتٍ ممكن. ستكفي كلمةٌ أو نظرةٌ واحدةٌ
لتحديد إن كنت سأدخل بيت والدك هذا المساء، أو إن كنت لن أدخله
أبدًا.

لم يكن من الممكن أن تتمالك نفسها بسرعةٍ بعد قراءة تلك الرسالة. كان من الممكن أن تهدأ بعد نصف ساعةٍ من الوحدة والتفكير. ولكنَّ الدقائق العشر التي مرَّت قبل أن تُقاطع، إلى جانب كلِّ الضُّغوط التي تعاني منها بسبب موقفها هذا، لم تمكِّنها من تمالك أعصابها. بل إنَّ كلَّ لحظةٍ تمرُّ كانت تسبِّب لها المزيد من التوتُّر. كانت سعادتها غامرة. وقبل أن تتجاوز المرحلة الأولى من مشاعرها تلك، دخل تشارلز وماري وهينرييتا جميعهم.

كابدت على الفور بسبب حاجتها إلى الظُّهور على طبيعتها قدرَ المستطاع، ولكن بعد فترةٍ، لم تعد قادرةً على القيام بذلك. لم يعد بوسعها فهم كلمةٍ واحدةٍ من حديثهم، واضطَّرت إلى الاعتذار بحجَّة شعورها بالتعب، واستأذنت في الرحيل. ولاحظوا حينئذٍ أنَّها تبدو مريضةً للغاية، فاعترتهم الدَّهشة والقلق، ورفضوا تمامًا التَّحرُّك بدونها. كان الأمر مزعجًا للغاية! لو أنَّهم رحلوا فحسب وتركوها وحدها في سلامٍ في تلك الغرفة، لكان في ذلك علاجٌ لها. ولكنَّ وقوفهم جميعًا حولها تسبَّب في شعورها بالتوتُّر، حتى أصابها اليأس، وأعلنت أنَّها ستعود إلى المنزل.

صاحت السيّدة ماسجروف قائلةً: «بالتأكيد يا عزيزتي، عليك العودة فوراً والاعتناء بنفسك حتى تصيري بحالةٍ أفضل هذا المساء. أتمنى لو كانت سارة هنا لتقوم برعايتك، ولكنني لا أعرف شيئاً عن التّمرّض. تشارلز، عليك أن ترسل في طلب عربية، فلا يجب عليها السّير».

ولكنّ العربيّة لم تكن ملائمة. كانت أسوأ خيارٍ على الإطلاق! لم تستطع أن تتحمّل ضياع فرصة الحديث مع القبطان وينتورث في أثناء سيرها وحدها في هدوءٍ عبر البلدة (إذ كانت على يقينٍ من أنّها ستلتقيه). احتجّت بشدّة على العربيّة. أمّا السيّدة ماسجروف التي لم تكن تفكّر سوى في نوعٍ واحدٍ فقط من المرض، فبعد أن تأكّدت بقلقٍ بالغٍ من أنّ آن لم تسقط، ولم تنزلق، ولم يصطدم رأسها بشيء، وبعد أن اقتنعت تماماً بأنّها لم تسقط، تمكّنت حينئذٍ فحسب من أن تودّعها بمرحٍ وهي تتمنى أن تجدها في حالٍ أفضل ذلك المساء.

أحسّت آن بالقلق، ولم ترغب في إغفال أيّ احتياطٍ يمكن اتّخاذهِ، فصارعت مشاعرَها وهي تقول:

«أخشى ألا يكون الأمر واضحًا تمامًا يا سيّدي. لذا أرجو منك التّكرّم بإبلاغ باقي الرّجال أنّنا نتمنّى رؤيتكم جميعًا هذا المساء. فأنا أخشى أن يكون قد حدث لبسٌ ما، وأرجو منك أن تبلغني القبطان هارفيل، والقبطان وينتورث بالتّحديد، أنّنا نتمنّى رؤيتهما».

«أوه! يا عزيزتي، الأمر مفهومٌ تمامًا، أعدك بذلك. والقبطان هارفيل لا يشغل تفكيره شيءٌ آخر سوى الحضور».

«هل تعتقدين ذلك؟ ولكنني أشعر بالقلق. وسأكون في غاية الأسف! هلّا تعديني بأن تذكرني الأمر حين ترينهما مرّةً أخرى؟ فعلى ما أعتقد ستريهما ثانيةً هذا الصّباح. أرجو أن تعديني بذلك».

«بالتّأكيد سأفعل إذا كان هذا ما تريدينه. تشارلز، إن شاهدت القبطان هارفيل في أيّ مكان، فلتذكّر أن تبلغه رسالة الآنسة آن. ولكن حقًا يا عزيزتي، لا داعي لأن تشعرني بالقلق هكذا؛ فالقبطان هارفيل يعدُّ نفسه مدعوًا بوضوح، ويمكنني أن أشهد بذلك. وأعتقد أنّ القبطان وينتورث أيضًا مثله».

لم يكن بوسع آن أن تفعل المزيد، ولكن قلبها خشي وقوع أمرٍ قد ينتقص من سعادتها الغامرة. ولكن الأمر لن يطول على أيّ حال، فحتى لو لم يحضر إلى كامدن بليس بنفسه، بوسعها أن ترسل إليه رسالةً عن طريق القبطان هارفيل.

ثمَّ حدث أمرٌ آخر أثار ضيقها للحظة، فقد أصرَّ تشارلز بدافعٍ من اهتمامه وطيبته على اصطحابها إلى المنزل، ولم تكن هناك طريقةً لمنعه من ذلك. بدا الأمر قاسيًا! ولكن لم يكن بوسعها أن تشعر بالجهود طويلاً، فالرجل ضحى بموعدٍ مع صانع أسلحةٍ كي يعاونها. لذا، مضت في طريقها معه دون أن يبدو عليها أيُّ شعورٍ سوى الامتنان.

كانا في شارع يونيون حين أتاها صوت وقع أقدامٍ مألوفٍ أسرع خطواً من خلفها، ممَّا منحها دقيقتين لتستعدَّ لمراى القبطان وينتورث. انضمَّ إليهما، ولكن بدا عليه التردُّد وكأنَّه لا يعرف إن كان عليه البقاء معهما أم المضيَّ قدماً في طريقه، فلم يقل شيئاً، بل اكتفى بالنَّظر إليهما. تمكَّنت آن من التَّحكُّم في نفسها بحيث استطاعت أن تتلقَّى تلك النَّظرة على نحوٍ طيِّب. أشرقت الملامح التي بدت من قبلُ شاحبةً، وباتت الحركات المتردِّدة أكثر حزمًا. سار إلى جانبها حتى طرأ لتشارلز خاطرٌ مفاجئٌ، وقال:

«قبطان وينتورث، أيّ طريق ستسلك؟ هل أنت ذاهبٌ حتى شارع جاي فحسب، أم ستمضي أبعد من ذلك؟».

أجاب القبطان وينتورث، وهو يشعر بالدهشة: «لا أكاد أعرف».

«هل ستذهب حتى بيلمونت؟ هل ستمرُّ بالقرب من كامدن بليس؟ لأنّه في تلك الحالة، لن أشعر بوخز الضمير إن طلبت منك أن تحلّ محلّي وتوصل آن إلى منزل والدها. لقد أصابها التعب هذا الصّباح، ولا يجب أن تسير لمسافةٍ طويلةٍ إلى هذا الحدّ دون عونٍ. ويتعيّن عليّ الذهاب إلى ذلك الرّجل في السّوق، حيث وعدني أن يريني بندقيةً رائعةً سيقوم بإرسالها، وقال إنّهُ سيبقي الصّندوق مفتوحًا حتى آخر لحظةٍ ممكنةٍ لكي أتمكّن من رؤيتها. وإذا لم أذهب الآن، ستفوتني الفرصة. من خلال وصفه لها، يبدو أنّها تشبه إلى حدّ كبيرٍ بندقيتي المزدوجة الماسورة والأصغر حجمًا، تلك التي استخدمتها أنت ذات مرّةٍ في المنطقة المحيطة بوينشروب».

لم يكن هناك أيّ اعتراض. بل بدا عليهما الحماس على نحوٍ لائقٍ وهما يُظهران له موافقتهما بلطفٍ بالغٍ، في حين كبحا ابتسامتهما وروحاهما

ترقصان طربًا. بعد نصف دقيقة، بلغ تشارلز نهاية شارع يونيون مرّةً أخرى، بينما مضى الاثنان الآخران معًا. ما لبثا أن قرّرا التوجّه نحو الممشى الممهّد بالحصى، والذي كان منعزلًا وهادئًا نسبيًا، حيث يمكنهما قضاء الوقت الحاضر وهما مستمتعان بتبادل الحديث، وبحيث يتذكّران ذلك الوقت في حياتهما مستقبلاً، ويصير مصدرًا دائمًا للذكريات السعيدة. تبادلًا هناك من جديد تلك المشاعر والوعود التي بدت من قبل وكأنّها تنعم عليهما بكلّ شيء، ولكن ما لبثت أن تلتها سنواتٌ عدّة من الفاقة والاعتراب. عادا هناك إلى الماضي وقد بدت عليهما السعادة البالغة لاجتماعهما ثانية، ربّما أكثر ممّا كانا عليه حين التقيا لأوّل مرّة، وقد صارا أكثر رقةً، وأكثر خبرةً، وكلّ طرفٍ أكثر درايةً بشخصيّة الآخر وعلى ثقةٍ من إخلاصه وقوّة حبه. كما صارا يستطيعان التصرّف بصورةٍ أفضل ولديهما أسبابٌ أقوى لتصرّفاتهما تلك. وبينما هما يسيران الهوينى عبر ذلك المرتفع التدريجيّ دون أن يعيرا أيّ انتباهٍ للجموع المحيطة بهما، لم يلحظا المتبخرين في سيرهم، ولا ربّات المنازل اللّاتي هنّ في عجلةٍ من أمرهنّ، ولا الفتيات المنشغلات بحركات الغزل، ولا المربّيات والأطفال. بل انشغلا بذكريات الماضي وتبادل الاعترافات، وخاصّةً تفسير الأحداث التي سبقت اللّحظة الحاليّة مباشرةً، والتي كانت مثيرةً للمشاعر وللاهتمام. تحدّثا عن كلّ

تفاصيل الأسبوع الماضي، ولا سيَّما تفاصيل الأمس واليوم الحاليّ التي بدت وكأنَّها بلا نهاية.

لم تكن مخطئةً بشأنه، فقد كانت غيرته من السيّد إليوت هي ما يثقله ويشير شكّه ويسبّب عذابه. شعر بذلك منذ السّاعة الأولى للقائهما في باث، ثمَّ عاوده هذا الشّعور بعد فترة انقطاعٍ قصيرةٍ لفسد عليه الحفل الموسيقي. وقد أثر ذلك في كلّ ما قاله وفعله، وكلّ ما لم يقله وما لم يفعله، خلال الأربع والعشرين ساعةً الماضية. ولكنّ الأمل ما لبث أن راوده تدريجيًّا بفضل تشجيعها له، بين وقتٍ وآخر، من خلال نظراتها وكلماتها وأفعالها. وقد انهزم شعوره ذاك في نهاية المطاف بفضل عواطفها ونبرة صوتها التي وصلته بينما هي تتبادل الحديث مع القبطان هارفيل. فلم يستطع أن يقاوم، وأمسك بورقةٍ ليصبّ عليها كلّ مشاعره.

ولم يعدل شيئاً ممّا كتبه، أو يتراجع عنه. أصرَّ على أنّه لم يحبّ سواها، وأنَّ أحدًا لم يحلّ محلّها أبدًا، وأنّه لم ير لها مثيلًا أبدًا. واضطرَّ إلى الاعتراف بأنّ مشاعره حيالها ظلّت ثابتةً لاشعوريًّا، ودون أن يتعمّد ذلك. فقد كان يرغب في نسيانها، وظنَّ أنّه نجح في ذلك بالفعل. تخيّل أنّه لم يعد يبالي بها، في حين كان يشعر بالغضب فحسب، كما أنّه لم يكن

عادلاً فيما يتعلّق بفضائلها لأنّه عانى بسببها. ولكنّه بات يعتقد الآن أنّ شخصيّتها تجسّدُ للكمال، فهي تحافظ على التّوازن المناسب بين القوّة والرّقّة. ولكنّه اضطرّ إلى الاعتراف بأنّه لم يتعلّم كيف يقدرها كما يجب إلّا في أبركروس، وأنّه لم يفهم نفسه سوى في لايم.

في لايم، تلقّى عدّة دروس. فإعجاب السيّد إليوت العابر بها أثار انتباهه، كما أنّ ما حدث عند حاجز الأمواج، وفي منزل القبطان هارفيل، أثبت مدى تميّزها.

أمّا بخصوص محاولاته السّابقة للارتباط بلويزا ماسجروف، (والتي كانت نتيجةً لكبريائه الغاضب)، فقد احتجّ بأنّه لطالما استشعر استحالة حدوث ذلك، وبأنّه لم يحمل أيّ مشاعر حيال لويزا، ولا يستطيع أن يفعل ذلك. ولكن حتى ذلك اليوم، وحتى سنحت له الفرصة للتّفكير بعد ذلك، لم يكن يقدر شخصيّتها الرّائعة تلك كما يجب، والتي لم يكن هناك أيّ وجه للمقارنة بينها وبين شخصيّة لويزا. كما لم يكن يدرك سطوتها الكاملة عليه، والتي لا مثيل لها. وهناك تعلّم أن يفرّق بين الثّبات على المبدأ والتّعنت الناتج عن العناد، وبين التّهوّر الطّائش والثّبات ورباطة الجأش. هناك رأى كلّ ما دفعه إلى تقدير المرأة التي فقدوها، وهناك بدأ يندم على الكبر،

والحماقة، والشُّعور بالمرارة الذي منعه من محاولة استعادتها حين تقاطع طريقاهما ثانية.

ومنذ تلك اللَّحظة، صار شعوره بالنَّدَم حادًّا للغاية. ما إن تحرَّر من القلق والنَّدَم المصاحب للأَيَّام الأولى التَّالية لحادث لويزا، وما إن شعر أنَّه أخذ يستردُّ حيويَّته مرَّةً أخرى، حتى أحسَّ أنَّه يحيا دون أن يتمتَّع بكامل حرِّيَّته.

قال: «اكتشفت أنَّ هارفيل يعدُّني رجلًا مرتبطًا! وأنَّ هارفيل وزوجته لم يكن لديهما أدنى شكٍّ في أنَّ هناك علاقةً متبادلةً بيننا. شعرت بالدهشة والصَّدمة. كان بوسعي دحض ذلك على الفور، ولكن عندئذٍ شرعت أفكِّر أنَّ الآخرين ربَّما يشاركونهما التَّفكير نفسه - أسرتها، بل وربَّما هي ذاتها. ولم أعد حرًّا حينئذٍ. بات عليَّ الارتباط بها بدافعٍ من الشَّرَف إن رغبت هي في ذلك. لم ألزم الحرص في سلوكي، ولم أفكِّر في الأمر بجديَّةٍ من قبل. لم أفكِّر أنَّ حميميَّتي الرَّائدة لا بدَّ وأن يترتَّب عليها العديد من النَّتائج السيِّئة، وأنَّه لم يكن لديَّ الحقُّ في محاولة الارتباط بأيٍّ من الفتاتين مجازفًا بذلك بإثارة الشَّائعات، حتى لو لم تكن هناك أيُّ نتائج سيِّئةٍ أخرى. كنت مخطئًا تمامًا، وكان عليَّ تحمُّل النَّتائج.

باختصار، اكتشف بعد فوات الأوان أنه ورط نفسه، وأنه في الوقت نفسه الذي أدرك فيه أنه لا يَكُنُّ للويزا أيَّ مشاعر، بات عليه أن يعدَّ نفسه مرتبطاً بها إن كانت طبيعة مشاعرها حياله تطابق ما افترضه آل هارفيل. لذا، عزم على مغادرة لايم وقضاء الوقت في مكانٍ آخر في انتظار أن تتعافى. وأراد بأيِّ طريقةٍ ممكنةٍ أن يضعف من أيِّ مشاعر أو افتراضاتٍ قد تكون لديها حياله، فذهب لزيارة شقيقه وهو ينتوي العودة إلى كيلينتش بعد فترةٍ ليتصرَّف حسبما تمليه عليه الظروف.

قال: «قضيت ستَّة أسابيع بصحبة إدوارد، ووجدته سعيداً. لم يكن هناك شيءٌ آخر يسعدني، ولم أكن أستحقُّ السَّعادة. سأل عنك بالتفصيل، حتى إنَّه سأل إن كان مظهرك قد تغيَّر. لم يكن يدري أنَّه من المستحيل أن تتغيَّر في عينيَّ».

ابتسمت آن، وتركت قوله هذا يمر. كان خطأً لطيفاً، بحيث لم يكن بوسعها أن تعاتبه. فالمرأة تسعد حين يؤكِّد لها أحدهم، وهي في الثَّامنة والعشرين من العمر، أنَّها لم تفقد شيئاً من جاذبيَّة شبابها الأوَّل، ولكنَّ قيمة تلك المجاملة تضاعفت إلى حدٍّ كبيرٍ لدى آن، عند مقارنتها بكلماته

السَّابِقَة، وشعرت أنَّها ناتجةٌ عن استعادته لمشاعره الحارَّة تجاهها، وليست هي السَّبب في تجدُّد تلك المشاعر.

بقي في شرويشير وهو يشعر بالنَّدَم بسبب كبريائه الذي أعمى بصيرته، وبسبب خطأ حساباته، حتى تحرَّر فجأةً من لويزا حين بلغته الأخبار المدهشة والسَّعيدة المتعلِّقة بخطبتها لبينيك.

قال: «وهنا انتهت أسوأ مشاكلي؛ إذ صار بوسعي الآن، على الأقلِّ، أن أسعى خلف سعادتي، وأن أبذل جهداً وأفعل شيئاً في سبيل تحقيق ذلك. ولكنَّ الانتظار طوال تلك المدة دون أن أفعل شيئاً، وأنا أتوقَّع حدوث مكروه، كان بشعاً للغاية. بعد خمس دقائق فحسب قلت: «سأذهب إلى باث يومَ الأربعاء»، وقد كان بالفعل. هل كان شيئاً لا يغتفر لأنني ظننت أنَّ الأمر يستحقُّ المجيء؟ ولأنَّني وصلت هنا وأنا أتمتَّع بالأمل إلى حدِّ ما؟ لم تكوني مرتبطة، وكان من المحتمل أن تكوني ما زلتِ تحمِلين بعضاً من مشاعر الماضي، مثلما كنت أنا. وقد شجَّعني أمرٌ واحدٌ، إذ لم يكن لديَّ أدنى شكٍّ أنَّ هناك آخرين سيتعلَّقون بك، ويسعون خلفك، ولكنني كنت أعرف على وجه اليقين أنَّك رفضت رجلاً واحداً، على الأقلِّ، له ظروفٌ

أفضل من ظروفي، ولم يكن بوسعي ألا أتساءل: هل كان هذا من أجلي أنا؟».

أتاح لهما لقاءهما الأول في شارع ميلسوم تبادل الحديث إلى حد كبير، ولكنَّ الحفل الموسيقيَّ أتاح ذلك بدرجةٍ أكبر. بدت تلك الأمسية مؤلَّفةً من سلسلةٍ من اللَّحظات الاستثنائية. تحدَّثنا بحرارةٍ عن اللَّحظة التي تقدَّمت فيها منه في الغرفة المثمَّنة الأضلاع لتبادلِ الحديث، وعن اللَّحظة التي ظهر فيها السيِّد إليوت لينتزعاها بعيدًا عنه، وعن لحظةٍ أو اثنتين تاليتين لذلك عاد فيهما الأمل أو ملأهما اليأس المتزايد.

صاح قائلاً: «رأيتك هناك وسط كلِّ أولئك الذين لا يَكُونون لي أيَّ ودٍّ، ورأيت ابن عمِّك بجانبك وأنتما تتبادلان الحديث والابتسامات، وشعرت بكلِّ السَّمت المروَّعة لذلك الارتباط! وفكَّرت أنَّه من المحتمَّ أن تكون هذه هي أمنية كلِّ من يأمل في التَّأثير فيك! فكَّرت في كمِّ التَّأييد الذي سيلقاه هو من الآخرين حتى لو لم تكوني أنت تكثرين للأمر، أو كانت مشاعرك محايدةً! ألم يكن كلُّ هذا كافيًا ليدفعني إلى التَّصرُّف بحماسةٍ كما فعلت؟ كيف كان بوسعي أن أراقبك دون أن أشعر بالألم؟ ألم يكن مرأى تلك الصَّديقة الجالسة بجوارك، وألم يكن تذكُّر كلِّ ما حدث،

ومعرفة مدى تأثيرها فيك، والأثر الباقي الذي لا يمكن أن ينمحي لما تسبب فيه إقناعها لك من قبل - ألم يكن كل ذلك ضدي؟».

أجابت آن قائلة: «كان عليك أن تميز. لم يكن عليك أن تشك في الآن، فالوضع مختلف تمامًا، كما أن سني اختلفت. لو كنت أخطأت حين استسلمت لإقناعها من قبل، فلتذكر أنه كان إقناعًا يحثني على التزام الأمان، لا المجازفة. وحين استسلمت، كنت أعتقد أن ذلك بدافع من الإحساس بالواجب، ولكن لا يوجد أي واجب يمكن أن يفرض عليّ ذلك الآن. فزواجي من رجل لا أكثرث له سيكون هو المجازفة، وفيه انتهاك لكل اللوائح».

أجاب قائلاً: «ربما كان عليّ التفكير في ذلك. ولكنني لم أستطع، ولم يكن بوسعي الاستفادة من المعلومات التي عرفتتها عنك أخيرًا، ولم أتمكن من استغلالها. بدا كل ذلك دفينًا، وقد فقدته وسط تلك المشاعر الأخرى التي قاسيتها طوال سنوات. لم أفكر سوى في أنك استسلمت، وتخلّيت عني، وخضعت لتأثير شخص آخر بدلًا من أن تختاري البقاء معي. ثم شاهدتك بصحبة الشخص نفسه الذي أثر فيك، في ذلك العام المليء

بالبؤس. ولم يكن لديّ سببٌ لأعتقد أنّ تأثيرها بات أضعف الآن. فعلاوةً على كلّ ذلك، كان هناك حكم العادة أيضاً».

قالت آن: «كنت أعتقد أنّ سلوكي نحوك كان يساعد في التّخفيف عنك كي لا تعاني إلى هذا الحدّ».

«لا، لا! فربّما كان سلوكك هذا ناتجاً عن الحرّية التي صرت تتمتعين بها بعد ارتباطك برجلٍ آخر. غادرتك وأنا واقعٌ تحت هذا الانطباع، ولكن مع ذلك كنت مصمّماً على أن ألتقيك مرّةً أخرى. ارتفعت روعي المعنويّة في الصّباح، وشعرت أنّه ما يزال لديّ دافعٌ يجعلني أبقى هنا».

أخيراً، وصلت آن إلى المنزل، وكانت سعادتها أكبر ممّا كان يمكن لأيّ شخصٍ في ذلك المنزل أن يتخيّله. زال كلّ الشّعور بالدّهشة والترقّب، وكلّ الأشياء الأخرى المؤلمة المتعلّقة بذلك الصّباح، بعد حديثهما هذا. ولجت المنزل والسّعادة تغمرها، حتى اضطرّها ذلك إلى الشّعور بالقلق للحظةٍ من استحالة دوام تلك السّعادة. قضت بعض الوقت وهي مستغرقةٌ في التّفكير بجديّة وامتنان، وكانت هذه أفضل وسيلةٍ للتّغلب على كلّ

مخاطر تلك المبالغة في الإحساس بالسَّعادة. توجَّهت إلى غرفتها، وباتت تشعر بالثَّقة وقد انحسرت مخاوفها وهي تشعر بالامتنان لسعادتها تلك.

حلَّ المساء، وأضيئت أنوار غرف الاستقبال، وتجمَّع المدعوون. لم يكن سوى مجرَّد حفلٍ للعب الورق، ولكنَّه جمع بين أولئك الذين لم يسبق لهم أن التقوا من قبل وأولئك الذين التقوا مرَّاتٍ عديدة. كان حفلًا عاديًّا يزيد أفرادَه عن الحدِّ الذي يسمح بالحميميَّة، ويقلُّ عن الحدِّ الذي يسمح بالتَّنوع. ولكنَّ آن لم تشعر أنَّ أمسيَّة مرَّت بمثل هذه السُّرعة من قبل. بدت متألِّقةً وجميلةً وهي تنعم بالمشاعر الرِّقيقة والسَّعادة، ونالت إعجاب الجميع بدرجةٍ كبيرةٍ لم تشغل بها ولم تكثرث لها. أحسَّت بالبهجة والتَّسامح حيال جميع المحيطين بها. كان السيِّد إليوت حاضرًا. تفادته، ولكنَّها لم تشعر بالشَّفقة حياله. وأحسَّت أنَّ الأمر مسلٌّ بعد أن باتت تفهم آل واليس. أمَّا الليدي دالريمبل والآنسة كارتريت، فلن تلبثا أن تصبحا مجرَّد بنتي عمومةٍ غير مؤذيتين بالنِّسبة إليها. لم تكثرث لأمر السيِّدة كلاي، ولم تشعر بالخجل من سلوك والدها وشقيقتها. تبادلَت الحديث ببساطةٍ وسعادةٍ مع آل ماسجروف، واتَّخذ الحديث مع القبطان هارفيل طابع الحديث الودِّيِّ بين أخٍ وأخته. أمَّا محاولات حديثها مع الليدي راسيل، فقد داخلها ذلك الشُّعور الخفيُّ الغامرُ بالسَّعادة. كما اتَّصف

حديثها مع السيّد والسيّدة كروفت بالموّدة والاهتمام البالغ وهي تحاول إخفاء شعورها ذاك. وسنحت لها الفرصة بين وقتٍ وآخر لتبادل الحديث مع القبطان وينتورث، وظلّت ترغب في المزيد وهي على درايةٍ طوال الوقت بوجوده هناك!

في واحدٍ من لقاءاتهما القصيرة تلك، وبينما بدا كلُّ منهما مستغرقاً في تأمل بعض النّباتات المنزليّة بإعجاب، قالت:

«كنت أفكر في الماضي وأحاول أن أحكم بموضوعيّةٍ على ما اقترفته من خطأٍ وصواب، وعليّ القول إنني أوّمن بأنني كنت محقّة، مع أنّي عانيت كثيراً من الأمر. كنت محقّة تماماً في الأخذ بمشورة صديقتي التي لن تلبث أن تحبّها أكثر ممّا تحبّها الآن. فبالنسبة إليّ، كانت بمثابة الأم. ولكن عليك ألاّ تسيء فهمي، فأنا لا أدّعي أنّها لم تكن مخطئةً في نصيحتها تلك. ربّما كانت واحدةً من تلك الحالات التي تتحدّد فيها صحّة أو خطأ النّصيحة تبعاً لما تسفر عنه الأحداث بعدها. وفيما يتعلّق بي، فأنا قطعاً لن أسدي لأحدٍ مثل تلك النّصيحة تحت أيّ ظروفٍ مشابهة. ولكنّ ما أعنيه هو أنّني كنت محقّةً في الرّضوخ لرأيها، ولو كنت فعلت بخلاف ذلك، لعانيتُ خلال الاستمرار في الخطبة أكثر ممّا عانيت بعد أن تخلّيت

عنها، لأنني كنت سأعاني آنذاك وخز الضمير. ولا يوجد لدي الآن شيء لألوم ذاتي عليه، بالقدر الذي يمكن للمرء أن يمتنع به عن لوم ذاته. وإن لم أكن مخطئة، فالالتزام بالواجب ليس من الصفات السيئة التي تتصف بها المرأة».

نظر إليها، وإلى الليدي راسيل، ثم وجّه نظره نحوها مرّة أخرى. أجاب بهدوء وكأنّه مستغرق في التفكير:

«ليس بعد. ولكن، هناك أمل بأن أسامحها مع مرور الوقت. أنا على يقين من أنني سأتمكّن من أن أسامحها قريبًا. ولكن أنا أيضًا كنت منشغلًا بالتفكير في الماضي، وتساءلت إن كان من المحتمل وجود شخص آخر أشدّ عداوةً لي من تلك المرأة؟ هذا الشخص هو ذاتي أنا. أخبريني، بعد عودتي إلى إنجلترا في العام الثامن، وبحوزتي بضعة آلاف من الجنيهات، بعد أن صرت قائداً للسفينة لاكونيا، هل كنت ستجيبيني لو أرسلت لك رسالة آنذاك؟ باختصار، هل كنت ستقبلين بإعادة الخطبة آنذاك؟».

كان كل ما قالته هو: «هل كنت سأقبل!»، ولكن نبرة صوتها بدت حاسمة بما فيه الكفاية.

صاح قائلاً: «يا إلهي! كنت ستقبلين! كنت أفكر في الأمر وأتمنّاه بصفته الشيء الوحيد الذي سيتّوج كلّ نجاحاتي الأخرى. ولكنني بالغت في الشعور بالكبر. منعتني كبريائي من أن أطلب منك ذلك مرّةً أخرى. لم أفهمك آنذاك. أغمضت عينيّ ورفضت أن أحاول فهمك، أو أن أعاملك بإنصاف. هذه الذكري كفيّلةٌ بجعلي أسامح كلّ الآخرين قبل أن أسامح نفسي. كان من الممكن أن نعفي أنفسنا من ستّ سنواتٍ من الفراق والألم. وهذا شعورٌ جديدٌ بالألم يضاف إلى مشاعري. فلطالما اعتدت الشعور بأنني استحققت كلّ ما نلتّه، وأحسست بالفخر لأنّ عملي الجادّ حقّق لي النّجاح، مثل الرّجال العظماء الآخرين الذين عانوا من الهزائم في بادئ الأمر». ثمّ أضاف قائلاً بابتسامة: «ولكن عليّ أن أتعلّم ألا أفكر كثيرًا في حسن طالعي، كما عليّ أن أتعلّم الاعتراف بأنني أكثر سعادة ممّا أستحق».

من يمكنه الشكُّ فيما حدث بعد ذلك؟ فحين يصمّم أيُّ شابٍّ وشابّةٍ على الزَّواج، من المؤكَّد أنَّ قوَّةَ عزمتهما ستوصلهما إلى هدفهما مهما بلغت درجة فقرهما أو طيشهما، وحتى إن لم يكن أحدهما سيجد راحته مع الآخر في نهاية المطاف. ربّما كان هذا درسًا أخلاقيًا سيئًا لنختم به، ولكنني أعتقد أنَّها الحقيقة. وإن كان مثل هؤلاء ينجحون في تحقيق هدفهم، فكيف إذن لا ينجح شخصان مثل القبطان وينتورث وآن إليوت، مع كلِّ ما يتمتَّعان به من نصيحٍ في التَّفكير، ووعيٍ بحقَّهما، إلى جانب الاستقلال المادِّي، في الصُّمود أمام كلِّ ما لقياه من معارضة؟ بل ربّما كان بوسعهما في الواقع الصُّمود أمام قدرٍ من المعارضة أكبر بكثيرٍ مما لقياه. فلم يكن هناك ما أثار ضيقهما أكثر من الافتقار إلى الكرم ودفء المشاعر. لم يُبد السَّير والتر اعتراضه، ولم تفعل إليزابيث ما هو أسوأ من إبداء البرود وعدم الاكتراث. فالقبطان وينتورث لم يعد مجرّد نكرة بعد أن صار يمتلك خمسةً وعشرين ألفًا من الجنيهات وترقَّى في مهنته بأعلى قدرٍ يتيح له تميُّزه وعمله. لقد بات مؤهَّلًا بما فيه الكفاية ليتقدَّم للزَّواج من ابنة بارونيتٍ أحمق ومبذِّرٍ لم يتحلَّ بما يكفي من المبادئ والحكمة التي تتيح له الحفاظ على المنزل التي أنعمت عليه بها الأقدار، ولم يستطع حتى أن

يمنح ابنته في الوقت الحاليّ سوى جزءٍ يسيرٍ من نصيبها من الثروة البالغ قدرها عشرة آلاف جنيه، والتي كان لا بدّ أن تحصل على بقيّتها بعد وفاته.

ومع أنّ السّير والتر لم يكن يحمل أيّ مشاعر نحو آن، ولم يكن هناك ما يرضي كبرياءه ليجعله يشعر بالسّعادة في تلك المناسبة، إلّا أنّه لم يعتقد أنّ ذلك الارتباط غير مناسبٍ لها. بل على العكس، فبعد أن التقى القبطان وينتورث مرّاتٍ عديدةً، وراه مرارًا في ضوء النّهار وتأمله جيّدًا، أعجب بمظهره أيما إعجاب، وشعر أنّ مظهره المميّز ذاك قد يكون منسجمًا بصورةٍ ملائمةٍ مع مكانتها المميّزة. وقد ساعد كلّ هذا، إضافةً إلى لقب أسرته المميّز، على أن يمسك السّير والتر بقلمه ويقوم بمنتهى الكرم بتسجيل الزّواج في مجلّده الثّمين.

كانت الليدي راسيل الوحيدة من بينهم التي يمكن أن تثير معارضتها قلقًا حقيقيًا. وكانت آن تدرك أنّ الليدي راسيل لا بدّ وأن تعاني بعض الألم بعد أن عرفت حقيقة السيّد إليوت وتخلّت عنه، وأن تعاني أيضًا وهي تحاول التّعرّف بالقبطان وينتورث كما يجب والتّحلّي بالإنصاف حياله. ولكنّ هذا هو ما كان يتعيّن على الليدي راسيل القيام به الآن. كان عليها أن تتعلّم أنّها أخطأت في حكمها على كليهما، وأنّها لم تكن منصفةً في حكمها،

بسبب انخداعها بالمظهر في كلتا الحالتين. فقد تسرّعت في حكمها على القبطان وينتورث، واتّهمته بالتّهوّر بدرجةٍ خطيرةٍ لأنّ سلوكه لم يكن مطابقاً لتفكيرها. بينما حاز سلوك السيّد إليوت رضاها بفضل التزامه باللياقة والانضباط، وبفضل دماثة خلقه وتهذيبه بصفةٍ عامّةٍ، فتسرّعت بالحكم على تلك السلوكيّات بصفتها نتيجةً طبيعيّةً للحكمة والتّعقل. لم يكن هناك شيءٌ أمام الليدي راسيل لتفعله سوى الاعتراف بأنّها كانت مخطئةً تماماً، واعتناق آراءٍ مختلفةٍ وآمالٍ جديدة.

يتّصف البعض بنفاذ البصيرة، وبالدفّة في الحكم على الشخصيّات، وبذكاءٍ فطريٍّ لا يمكن باختصارٍ أن تعادله أيُّ خبرة، وكان نصيب الليدي راسيل من كلّ هذا أقلّ من نصيب صديقتها الشّابّة. ولكنّها كانت امرأةً ذات شخصيّةٍ طيّبةٍ للغاية، وإن كان هدفها الثّاني أن تتمتّع بالحكمة وحسن التّقدير، فإنّ هدفها الأوّل كان أن ترى أنّ سعيدة. فقد كان حبّها لآن يفوق اهتمامها بقدراتها الشخصيّة. وبعد تجاوز الشّعور بالحرّج في بادئ الأمر، لم تجد صعوبةً تُذكر في القيام بدور الأمّ للرجل الذي كان سيضمن سعادة ابنتها الأخرى.

ومن بين كل أفراد الأسرة، كانت ماري حتمًا أكثر من سعد بذلك الزَّواج. فقد كان زواج شقيقتها أمرًا جديرًا بالثناء، كما أنَّها ادَّعت لنفسها الفضل في لعب دورٍ هامٍّ في تعارفهما، بعد أن أبقت آن بصحبتهما في الخريف. ولمَّا كان من الواجب أن يصير زوج شقيقتها أفضل من أزواج شقيقات زوجها، سعدت للغاية لكون القبطان وينتورث أكثر ثراءً من كلٍّ من القبطان بينيك وتشارلز هايتز. ربَّما عانت بعض الشَّيء عند لقائهما مرَّةً أخرى، وقد صارت آن هي صاحبة المكانة الأعلى، وتمتلك عربةً صغيرةً جميلةً للغاية، ولكن كان بوسعها التَّطلُّع إلى المستقبل لتجد في هذا سلواها. فلم تكن آن ستمتلك المنزل الكبير في أبركروس، ولا أيَّ أرضٍ، ولن تصير كبيرة الأسرة. وطالما لم يحصل القبطان وينتورث على لقب بارونيت، لم يكن هناك ما يجعلها تتمنَّى لو أبدلت مكانها بمكان آن.

وسيكون من الأفضل أن ترضى الشَّقِيقة الكبرى هي الأخرى بوضعها، إذ لم يكن من المحتمل حدوث أيِّ تغييرٍ فيه. فهي ما لبثت أن شعرت بالإهانة بعد انسحاب السيِّد إليوت، ومنذ ذلك الحين لم يتقدَّم شخصٌ ملائمٌ ليجدِّد آمالها التي خابت من بعده.

فوجئ السيّد إليوت بأخبار خطبة ابنة عمّه آن، وأفسد ذلك خططه المتعلقة بالسّعادة الأسريّة وآماله في إبقاء السيّر والتر دون زواج عن طريق مراقبته جيّدًا بصفته زوج ابنته. ولكن بالرّغم من ارتبائه وخيبة أمله، كان ما يزال بوسعه فعل شيءٍ ما لأجل مصلحته ومتعته الشخصيّة. ما لبث أن غادر باث، وبعد رحيل السيّدة كلاي بعده بفترة قصيرة، ما لبثت الأخبار أن انتشرت عن كونها تحيا كخليفة له في لندن. اتّضحت طبيعة الخداع المزدوج الذي كان يمارسه، ومدى تصميمه على ألا يكون وحيدًا من خلال حفاظه على علاقته بامرأة واحدة مخادعة على الأقل.

تغلّبت مشاعر السيّدة كلاي على مصلحتها، ولذلك ضحّت في سبيل ذلك الشابّ بفرصتها في التّخطيط للإيقاع بالسيّر والتر لمُدّة أطول. ولكنّها كانت تمتلك المكر إلى جانب العواطف، ولم يكن من الواضح هل سينتصر مكره هو، أم سيتغلّب دهاؤها هي في نهاية المطاف، بحيث أنّها بعد أن أضاعت فرصتها في الزّواج من السيّر والتر، ربّما تنجح في تملّقه وملاطفته حتى يجعلها زوجة السيّر ويليام.

ولم يكن هناك أدنى شكّ في أنّ السيّر والتر وإليزابيث شعرا بالصّدمة والإهانة عند خسارة رفيقتهما واكتشافهما خديعتها. مثّلت ابنتا عمومتهم

مصدرًا للراحة بالنسبة إليهما، ولكن لم يمرَّ الكثير من الوقت حتى شعرا أنَّ
اتباع الآخرين والإطراء عليهما دون أن يتبعهما أحدٌ ويرد لهما الإطراء ما هو
إلاَّ متعةٌ منقوصة.

بعد أن تأكدت آن منذ البداية أنَّ الليدي راسيل تنتمي منح القبطان
وينتورث ودَّها كما يجب، لم يعد هناك ما يكدر صفو سعادتها سوى
إدراكها أنَّها تفتقد لأقرباء يمكن لامرئٍ يتمتع بالحكمة أن يشعر حيالهم
بالتقدير. شعرت بذلك النَّقص بشدَّة. لم يكن التَّباين بين ثروتيهما يعني لها
أيَّ شيء، ولم تندم على ذلك ولو للحظة. ولكنَّ افتقارها للأسرة التي
يمكنها استقباله وتقديره كما يليق، وافتقارها للاحترام والتَّوافق والودِّ الذي
يمكنها أن تقدِّمه له في مقابل كلِّ التَّقدير والتَّرحيب الذي لاقتَه من أشقائه
وشقيقاته، كان مصدرًا دائمًا للألم يشغل تفكيرها وسط ظروفها الأخرى
التي تغمرها السَّعادة. لم يكن لديها سوى صديقتين في هذا العالم تضيفهما
إلى قائمة أصدقائه: السيِّدة راسيل، والسيِّدة سميث. وبدا سعيدًا بعلاقته
بهما. فبالرَّغم من كلِّ أخطائها السَّابقة، بات يقدر الليدي راسيل من كلِّ
قلبه. ومع أنَّه لم يتمكَّن من البوح بأنَّه يعتقد أنَّها كانت على صوابٍ حين
فرَّقت بينهما في السَّابق، إلاَّ أنَّه كان على استعدادٍ لأن يشهد بأيِّ شيءٍ

آخر في صالحها. أمّا بالنسبة إلى السيّدة سميث، فكانت تتمتع بالعديد من الفضائل التي تزكّيها سريعاً على الدّوام.

كانت مساعدتها الأخيرة التي قدّمتها لآن كافيةً في حدّ ذاتها. وبدلاً من أن يحرمها زواجهما من صديقتها، ضمنت لنفسها اثنين من الأصدقاء. كانت أوّل من زارهما بعد زواجهما. وقد ساعدها القبطان وينتوورث في استرداد أملاك زوجها الواقعة في جزر الهند الغربيّة؛ فقد كتب الرّسائل، وتصرّف بالنيابة عنها، وساعدها في التّعامل مع كلّ المصاعب الصّغيرة المتعلّقة بالقضيّة بنشاط وجدّ رجلٍ لا يهاب شيئاً، وبدافعٍ من عزمه كصديق، وبذلك ردّها لها كلّ الخدمات التي قدّمتها لزوجته، أو التي كانت تنتوي تقديمها لها، في وقتٍ من الأوقات.

ازدادت سعادة السيّدة سميث بعد هذه الزّيادة في دخلها، ومع بعض التّحسّن في صحّتها. وساعدها وجود مثل أولئك الأصدقاء بصحبتهما في الحفاظ على طبيعتها المرحّة والمبتهجة. وربّما صار بوسعها حتى أن تخوض المزيد من التّحدّيات كي تحقّق المزيد من الثّروة المادّيّة، ما دامت تتمتع بكلّ هذه النّعم الكبيرة الأخرى. فقد كان من الممكن أن تتمتع بالثّروة والصّحّة، وأن تظلّ سعيدةً رغم ذلك (16). كانت سعادتها نابعةً من روحها

المتوهّجة، كما كانت سعادة صديقتها آن نابعةً من دفء قلبها. بدت آن وكأنّها تجسّدُ للمحبّة، وكانت تتمتع بكامل مشاعر القبطان وينتورث. ولكنّ مهنته كانت الشّيء الوحيد الذي جعل أصدقاءها يتمنّون لو كانت تلك المحبّة أقلّ بعض الشّيء، فالخوف من نشوب حربٍ في المستقبل كان هو الأمر الذي يمكنه الانتقاص من سعادتها. كانت تفتخر بكونها زوجةً لأحد العاملين بالبحريّة، ولكن تعيّن عليها أن تكابد عبء القلق النّابع من العمل في ذلك المجال الذي كان من المحتمل أنّ مزاياه الأسريّة تفوق أهمّيّته الوطنيّة.

(16) في هذا نوع من السّخرية من الفكرة الرّومانيّة السّائدة في بعض أدب ذلك العصر والقائلة إنّ الثّروة تجلب التّعاسة.

تمت

مكتبة 729

telegram @t_pdf

